الأدب الأندلسي

من الفتح إلى سقوط الخلافة

تأليف

الدكتور أحمد هيكل

أستاذ الأدب بكلية دار العلوم — جامعة القاهرة

١٩٨٥

دار المعارف

الناشر : دار المعارف — ١١١٩ كورنيش النيل — القاهرة ج . م . ع .

محتويات الكتاب

تمهيد

الموضوع | الصفحة

الفصل الأول

الفصل الثانى

الفصل الثالث

الفصل الرابع

الموضوع — الصفحة

الفصل الخامس

الموضوع	الصفحة

الموضوع الصفحة

الفصل السادس

رقم الإيداع		١٩٨٥ / ٥٩٧٥
الترقيم الدولى	977-02-1440-X	ISBN

٣ / ٨٥ / ٣٥

طبع بمطابع دار المعارف (ج.م.ع.)

إهداء

إلى

الدكتور طه حسين و الأستاذ إبراهيم مصطفى

أستاذيّ الجليلين . ليس أحد أجدر منكما بأن يهدى إليه هذا الكتاب ؛ فأولكما قد أسس المدرسة الأندلسية في بلادى ، حين ألف أول بعثة مصرية تطلب العلم فى إسبانيا ، وثانيكما قد رشحنى عن دار العلوم عضواً فى هذه البعثة . . فتلك الدراسة وصاحبها مدينان لكما ديناً لا يقضيه كتاب يهدى ، ولا ثناء يقدم .

فاقبلا هذا العمل المتواضع ، لعل رضاكما عنه ، يخفف بعض دين صاحبه .

أحمد هيكل

مقدمة

عاش الأدب العربى فى الأندلس نحو ثمانية قرون، وتأثر بتلك البيئة التى عاش فيها ، وأثر فى بيئته وفيما جاورها من بيئات. وليست تلك القرون الطويلة بالزمن الهين فى تاريخ أدب ، وليست الأندلس ببيئتها الطبيعية وظروفها الاجتماعية والسياسية ، بالشئ الذى يمكن إغفاله فى درس هذا الأدب ، وأخيراً ليس التأثير الذى كان للأدب الأندلسى فيما جاوره من آداب ، بأقل خطراً من كل ما تقدم .

ومن هنا ، وجبت العناية بدرس هذا الأدب ، وفاء بحق ما يقرب من ثمانية قرون من تاريخ الأدب العربى . ووجبت العناية بدرسه كذلك ، تقديراً لآثار إقليمية لها فاعليتها فى حياة هذا الأدب ، ثم وجبت العناية بدرسه أيضاً توضيحاً لنفحات عربية إسلامية حملت إلى بعض الآداب الأوربية أريجها العطر .

وعلى الرغم من هذا كله ، قد لقى الأدب الأندلسى كثيراً من إهمال الدارسين فى عالمنا العربى ، مع وفرة وجودة ما كتبوا عن أدب المشرق، منذ جاهليته إلى عصره الحديث، ومن مهده فى جزيرة العرب إلى أقاليمه المختلفة، فى العراق والشام ومصر . وقد يكون إعراض بعض هؤلاء عن درس الأدب الأندلسى ، بحجة أنه لم يأت بجديد ، وأنه ليس إلا صورة للأدب المشرق أو محاكاة له . ولكننا إذا سلمنا جدلا بهذا الحكم– مع أنه غير صحيح – فمن حقنا أن نسأل : هل يشترط لدراسة أدب إقليم أو عصر ، أن يكون مغايراً تماماً لأدب أى إقليم أو عصر آخر ؟ أو ليس على أى حال أدباً يستحق الدرس بصرف النظر عن مغايرته أو مماثلته لغيره ؟ ثم أليس الدرس وحده هو الذى سيوضح لنا لماذا

جاء هذا الأدب دون جديد ، أو لماذا جاء على صورة غيره أو محاكياً له ، إن صح أن ذلك له حظ من الصحة ؟

وليس معنى ذلك أن أقلام الباحثين فى عالمنا العربى قد ولت ظهورها تماماً لهذا الميدان ؛ فالحق أن أقلاماً قد خاضته فى جرأة ، فأبلى بعضها وأخفق بعضها .وعلى أية حال فأغلب الدراسات التى أرخت لأدب الأندلس . قد جاءت دراسات إما موجزة وإما ناقصة وإما أقرب إلى موضوعات الإنشاء .

والسبب فى الإيجاز رغبة بعض الباحثين ، فى التأريخ للأدب الأندلسى كله فى كتاب واحد . ومن هنا تغفل حقائق كثيرة . وتتوارى أمور كانت بحاجة إلى الظهور .

أما السبب فى النقص ، فاعتقاد بعض الدارسين خطأ أن الأدب الأندلسى ليس إلا أدباً عباسيًّا يجب أن يدرس فى عصر بنى العباس ، ومن ثم يكتفى بالأمور العائمة على السطح . حيث يتحدث عن الطبيعة ومجالس اللهو أو شئ يقرب من ذلك ، ثم يترجم لنفر من الشعراء ، وربما يضاف إليهم نفر من الناثرين ، وهكذا يظن أن ذلك تأريخ للأدب الأندلسى .

أما أسوأ ما يكتب عن هذا الأدب فهو الصنف الأخير من هذه الأصناف ، وهو صنف موضوعات الإنشاء . وقد لجأ إليه بعض من تصدوا للتأريخ الأدب الأندلسى ، متوهمين أنه متى ذكر النسيم والورد والجدول والنبع ، ومتى حشرت ألفاظ الرقة والعذوبة والترقرق والسلاسة ، كان هذا حديثاً عن أدب الأندلس !!

وربما كان المستشرقون — إلى اليوم — أقرب إلى المنهج وأكثر اعتماداً على الحقائق ، فيما كتبوه عن الأدب الأندلسى . ومع ذلك فتأريخهم له — برغم منهجيته وحقائقه — لايزال يتسم بالإجمال والاقتضاب والسرعة . ولهذا أمكن القول بأنه إلى اليوم ، لم يظهر

تاريخ منهجي مفصل للأدب الأندلسي .

ولقد شاء الله أن أتخصص فى هذا الفرع من فروع الأدب العربى ، وأن تكون دراساتى العليا وقفاً عليه ، وأن يكون مقر هذه الدراسات هو «إسبانيا» موطن هذا الأدب حيث نشأ وتطور ، وحيث تنال دراسته عناية كبيرة . كذلك شاء الله أن يرتبط عملى الجامعى بهذا الفرع من فروع المعرفة ؛ إذ أسند إلى تدريس الأدب الأندلسى فى كلية دار العلوم ، منذ سنة ١٩٥٥ .

ولهذا كله رأيت أن أضطلع بدراسة منهجية مفصلة للأدب الأندلسى ، أتناوله فيها منذ دخول المسلمين إلى إسبانيا ، وأتتبعه خلال عصورهم المختلفة فيها ، وأحدد ما قد يكون له من اتجاهات فنية ، وأبحث عما قد يغذيه من روافد مشرقية ، وأكشف عما قد يخالطه من منابع مغربية . كل ذلك مع الترجمة لمشاهيره والتعريف بروائعه ، ثم رسم خصائصه وتحديد معالمه ، وبيان صلته بالآداب الأوربية التى جاورته أو اتصلت به .

وقد عزمت على أن تتم هذه الدراسة مسترشدة — ما أمكن — بالعصور المميزة فى تاريخ الأندلس . حيث أخرج كتاباً عن «الأدب الأندلسى من الفتح إلى سقوط الخلافة» ثم آخر عن «الأدب الأندلسى فى عصر الطوائف» ثم ثالثاً عن «الأدب الأندلسى فى عهدى المرابطين والموحدين» ثم رابعاً عن «الأدب الأندلسى فى العهد الغرناطى» ثم خامساً عن «خصائص الأدب الأندلسى وتأثيره فى الآداب الأخرى» .

ويلاحظ أنى سأقرب فى تقسيمى للعصور الأدبية الأندلسية من التقسيم السياسى التاريخى لهذا الإقليم . ولست أجهل أن ذلك التقسيم غير دقيق ، ولست أجهل أيضاً أن الأدب لا يتغير بمجرد قيام دولة وسقوط أخرى ، ولكنى قربت من هذا التقسيم لتحديد معالم الطريق أولا ، ولارتباط الأدب العربى بالدول والسياسات ثانياً . على أنى — كما سيرى — لن ألتزم بالتقسيم الذى سار عليه المؤرخون ، وسوف أختار أنسب التقسيمات

وأقربها إلى التأثير فى الأدب . لهذا سأتناول فى هذا الكتاب الأول تاريخ الأندلس الأدبى من الفتح إلى سقوط الخلافة ، مع كون هذه الحقبة من تاريخ الأندلس تمثل عصرين مختلفين : العصر الأول هو ما يسمى بعصر الولاة ، وهو الذى يبدأ بالفتح الإسلامى ، وينتهى بإقامة عبد الرحمن الداخل لدولة بنى أمية فى الأندلس . أما العصر الثانى فهو ما يسمى بعصر بنى أمية ، وهو الذى يبدأ بقيام عبد الرحمن الداخل بالأمر ، وينتهى بسقوط الخلافة الأموية فى الأندلس ، وقيام الحكم الجمهورى فى قرطبة على يد ابن جهور .

وإنما جمعت هذين العصرين فى دراسة ، لأن الأول منهما ليس إلا كمقدمة للثانى . وإنما وقفت عند سقوط الخلافة ، لأن سقوطها يقيم دولة جديدة لها خصائصها السياسية والاجتماعية والثقافية ، التى من شأنها أن تنتج أدباً ربما غاير الأدب السابق بعض المغايرة .

ولعدم التزامى للتقسيم السياسى المعروف ، ولكونى أنظر إلى الدول وسياساتها كمؤثر فقط من المؤثرات الكثيرة التى تصيب الأدب ، رأيت أن العصر الأموى طويل ، وقد اختلفت أحوال الأندلس فيه اختلافاً ليس باليسير . وكان هذا الاختلاف يحدث بين فترة وأخرى من فترات هذا العصر الأموى ، فيمس النواحى السياسية والثقافية والاجتماعية جميعاً . من أجل هذا رأيت أن أقسم هذا العصر الأموى إلى فتراته المميزة المختلفة ، حسب الأدوار التى مر بها إبان هذا التاريخ الطويل . وعلى هذا قسمته إلى تلك الفترات : فترة تأسيس الإمارة ، وفترة صراع الإمارة ، وفترة الخلافة ، وفترة الحجابة ، وأخيراً فترة الفتنة . وقد جعلت لكل فترة من تلك الفترات فصلا . فإذا تذكرنا أنه سيسبقها فصل عن فترة الولاة ، تبين أن فصول هذا الكتاب الأول ستكون ستة ، كل فصل منها سيتناول تاريخ أدب فترة مميزة .

ولما كان الأدب — كنشاط إنسانى فنى — متأثراً لا محالة بما يحيط به من ظروف

سياسية واجتماعية وثقافية ؛ رأيت أن أصور كل فترة أولا من النواحى السياسية والاجتماعية والثقافية ما أمكن ، ثم أتبع ذلك بالحديث عن الأدب كنتيجة أو كظاهرة متأثرة بكل ما سبق .

وقبل أن أشرع فى تلك الفصول الستة التى تتحدث عن تاريخ أدب الأندلس إلى سقوط الخلافة ، سأمهد بتحليل «اسم الأندلس» ثم بإيراد «لمحة جغرافية» تصور طبيعة هذه البلاد ، ثم أتبع ذلك بعرض تاريخى سريع «لإسبانيا قبل المسلمين» ثم «للمسلمين فى إسبانيا» ، ثم أختتم هذا التمهيد بتصوير «المجتمع الأندلسى» من حيث عناصره البشرية ودياناته ولغاته وشخصيته ؛ ليكون ذلك بمثابة المدخل لهذا التاريخ المبسط للأدب الأندلسى ، الذى أرجو أن أضطلع به ، ثم ليقبل القارئ على هذا البحث الأدبى وبين يديه ما يلقى ولو بعض الضوء ، على ما قد يكون بين السطور من غموض .

وقبل أن أختم هذه المقدمة أنبه إلى أن بعض المشتغلين بالدراسات الأندلسية ، يرى عدم جدوى التاريخ العام للأدب الأندلسى فى الوقت الحاضر ؛ وذلك لقلة النصوص ، وخاصة ما يتصل منها بالفترات الأولى لتاريخ المسلمين فى الأندلس . وهم يرون الاكتفاء بالأبحاث الجزئية التى تتناول موضوعاً خاصاً ، أو ظاهرة معينة ، أو أديباً بارزاً أو كاتباً كبيراً ، ونحو ذلك . والحق أن النصوص التى يعتمد عليها دارس تاريخ أدب الأندلس قليلة نسبياً ، وعلى الأخص تلك التى تتصل بالفترات الأولى من تاريخ الأندلس ؛ وذلك لكثرة ما ضاع من تراث المسلمين فى تلك البلاد ، بل لكثرة ما أتت عليه أيدى الإتلاف والإبادة من المسيحيين والمسلمين على السواء . لكن كل ذلك — فى رأيى — لا يصح أن يكون حائلا دون عمل تاريخ منهجى للأدب الأندلسى ؛ فقلة النصوص وعدم وفرة المواد ، لا يصح أن توقف العلماء عن البحث فى أدبهم بحثاً تاريخياً عاماً ، يعتمد فيه على الموجود من النصوص ، ولا يعطى الحكم الأخير فى مسألة من المسائل

التى تقل أسانيدها أو لا تتوافر أدلتها . إننا لو تركنا التأريخ للأدب الأندلسى حتى تكتشف كل النصوص المخطوطة والمدفونة ، وحتى يعثر على الضائع منها ويجمع المتفرق ؛ فلن نؤرخ لهذا الأدب أبداً ؛ لأن شيئاً من تلك النصوص سيظل دفيناً أو ضائعاً أو مفوقاً حتماً .

ولو انتظر من قد أرخوا لأدب المشرق حتى تظهر كل نصوصه لما كتبوا شيئاً عن تاريخ الأدب العربى فى الجاهلية أو الإسلام . إن الواجب أن ندرس ما بين أيدينا ونؤرخ على أساسه ، على أن نعتبر ذلك خطوة يجب أن تليها خطوات ، ويجب أن نستفيد فى كل خطوة من كل مخطوط ينشر ، ومن كل نص يعرف ، ومن كل بحث خاص يقدم ، وسبيلنا إلى ذلك أن نبحث عن النصوص دائماً ، نحققها وننشرها ثم نعتمد عليها فيما نكتب من تاريخ أدب . وهكذا يأتى كل بحث فى هذا التاريخ الأدبى أوفى وأكمل وأشمل من سابقه ، بل تأتى كل طبعة من طبعات التاريخ الواحد أكثر حقائق ، وأصح أدلة ، وأصدق أحكاماً .

وعلى هذا مضيت فى هذا العمل برغم ما يتطلبه من جهد مضن ، وتنقيب متصل وبحث صابر .

وقد سألت الله : أن يجعل هذا العمل خالصاً له ، وأن يعين عليه ، وأن ينفع به .

المؤلف

القاهرة ١ ربيع الأول سنة ١٣٧٨
١٥ سبتمبر سنة ١٩٥٨

تمهيد

الأندلس والأندلسيون

١ — اسم الأندلس :

لم تُعرف شبه الجزيرة التى تشمل حاليًّا دولتى إسبانيا والبرتغال باسم الأندلس ، قبل أن تعرف المسلمين ، وإنما عرفت فى أقدم عصورها باسم إيبريا Iberia نسبة إلى الإيبريين Los Iberos الذين كانوا من أقدم من سكن هذه البلاد من البشر .

ثم عرفت شبه الجزيرة بعد ذلك باسم إسبانيا ، وهذا الاسم Hespania قد أطلقه الرومان على شبه الجزيرة حين حكموها ، وقد استنبطوه من تعبير فينيقى ، كان الفينيقيون قد أطلقوه من قبل على الشاطئ الذى نزلوا به من تلك البلاد ، حين اتصلوا ببعض جهاتها قبل الرومان ؛ وهذا التعبير الفينيقى i-schephan-im يعنى « شاطئ الأرانب » . ويقال فى تعليل ذلك : إن الفينيقيين قد صادفوا كثيراً من الأرانب على الشاطئ الإيبرى الذى نزلوا به[1] .

كذلك كان الجزء الجنوبى من إسبانيا يسمى باسم « بتيكا » Betica وكان ذلك فى العهد الرومانى ، ثم سمى باسم « ڤندليسيا » Vandalisia حين سكنه الوندال بعد الرومان على ما سنوضح فيما بعد .

فلما جاء المسلمون بعد ذلك أطلقوا على شبه الجزيرة جميعاً اسم الأندلس ، وظل مؤرخوهم وجغرافيوهم وسائر علمائهم وأدبائهم يستعملون هذه التسمية ويفضلونها حين يريدون شبه الجزيرة الإيبرية .

وأرجح الآراء أن هذا الاسم قد أخذه المسلمون من « وندلس » Vandalos[2] ، وهو اسم لبعض القبائل الأوربية الشمالية ، التى أغارت فى أوائل القرن الخامس الميلادى

---

(١) Aguado Bleye : Historia de Espana, p. 53.

(٢) Levi Provençal : Espaná musulmana, p. 44.

على ممتلكات الرومان ، وكان هؤلاء الـ « وندلس » — أو كما تعود كثير من الباحثين تسميتهم بالوندال — قد وصلوا إلى جنوب إسبانيا وسموه باسم « ڤندليسيا »[1] نسبة إليهم . فلما جاء المسلمون فيما بعد وعرفوا ما كان من أمر الـ « وندلس » بتلك البلاد سموها « بلاد الأندلس » ، وكأنهم أضافوا تلك البلاد إلى هؤلاء الذين حكموها من قبل واشتهر أمرهم بها . وكل الذى فعله المسلمون من تغيير فى اسم « وندلس » هو همز الصوت الأول ، ومن هنا أصبحت الكلمة أندلس ، بدلا من وندلس .

ويمكن أن يقال : إن الكلمة مرت بمراحل صوتية ثلاث . الأولى « ڤندلس » كما تدل صورة الكلمة فى حروفها اللاتينية ، وكما يدل كذلك النطق الإسبانى للكلمة Vandalos. والمرحلة الثانية « وندلس » كما يدل عليها نطق الكثيرين للكلمة بالواو بدلا من « الڤاء» المجهورة التى يرمز إليها عادة بالحرف « V » . وهذا ليس بغريب فى التطور الصوتى ؛ فكثير من الكلمات قد حدث له هذا التطور ، وبناء عليه أصبح ينطق الحرف المجهور «V» واواً لا فاء مجهورة كما يدل رسمه .

والتطور الأخير ، هو الذى أحدثه المسلمون حين قالوا: « أندلس » لا « ڤندلس » ولا « وندلس » وهو تطور مألوف أيضاً . فالهمزة تأتى أحياناً بدلا من الواو فى العربية ، مثل : وُجُوه وأُجُوه ، جمع وجه .

وقد بقى اسم « الأندلس » الذى أطلقه المسلمون على شبه الجزيرة ، ولم يخرج بخروجهم ، ولكنه قد أصاب شيئاً من التطور فى لفظه ، وشيئاً من التطور كذلك فى معناه. أما اللفظ فقد أصبح فى اللغة الإسبانية « أَنْدَلُثيا Andalucia » بدلا من أندلس . وأما المعنى فقد صار جنوب شبه الجزيرة فقط ، بعد أن كان شبه الجزيرة جميعاً .

والأقاليم التى يشملها اسم « أندلثيا » الآن فى إسبانيا هى المرِيَّة ، وغَرْنَاطة ،

---

(١) أو « وندليسيا » .

ومالـقَة ، وجَيّان ، وقُرْطبَة ، وإشبِيلِيّة ، وقادس ، وأونُبة .[١] .

ولعل من المكمل لهذا الحديث أن نذكر أن بعض المؤرخين القدامى قد أوردوا تعليلات أخرى لتسمية شبه الجزيرة الإيبرية باسم الأندلس . فمن ذلك ما نقله المقرى عن ابن سعيد من أن تلك البلاد « سميت بالأندلس ابن طوبال بن يافث ابن نوح لأنه نزلها »[٢].

وليس يخفى ما فى رأى ابن سعيد من تعليل أسطورى أبعد ما يكون عن الحقيقة . ومن المؤرخين العرب القدامى الذين اهتدوا إلى التعليل العلمى الصحيح ، أحمد بن محمد الرازى الذى نقل عنه المقرى قوله « وأول من سكن بالأندلس على قديم الأيام . . . قوم يعرفون بالأندلش معجمة الشين ، بهم سمى المكان ، فعرب فيما بعد بالسين غير المعجمة »[٣]. فهذا تعليل يطابق أحدث التعليلات العلمية المبينة على أسس تاريخية ، وإن كان الرجل قد حسب أن هؤلاء الناس كانوا أول من سكن البلاد .

أما قوله : إن أصلها بالشين فسببه — فى رأيى — أن السين أو الحرف S ينطق كثيراً فى اللسان الإسبانى بين السين والشين ، لكن العرب ينطقونها سيناً خالصة . فكأن الإسبان كانوا ينطقون الكلمة ذات سين مشربة بالشين ، فلما جاء المسلمون نطقوا سينها واضحة لا أثر للشين فيها .

---

(١) هذه الأقاليم تسمى بالإسبانية على هذا النحو :

Almeria, Granada, Malaga, Jaen, Cordoba, Sevilla, Cadiz, Huelva.

ويلاحظ أن الحرف J الذى فى أول الكلمة Jaen ينطق خاء ، وهو كذلك دائماً فى اللغة الإسبانية . ويلاحظ أن الحرف Z الذى فى آخر الكلمة Cadiz ينطق ثاء وهو كذلك دائماً فى الإسبانية . كذلك يلاحظ أن الحرفين LL فى آخر الكلمة Sevilla ينطق أولهما لا ما ، والثانى ياء .

(٢) المقرى: نفح الطيب جـ ١ ص ٦٣ .

(٣) المقرى : نفح الطيب جـ ١ ص ٦٦ .

وشبيه بالتعليل الأسطورى الذى ذكره ابن سعيد لإطلاق كلمة الأندلس على شبه الجزيرة ، ما ذكره بعض المؤرخين القدامى فى سبب إطلاق كلمة إسبانيا على تلك البلاد ؛ فقد ذكر أنها سميت بهذا الاسم لأن عجم رومة قد ملكوها ، وكان « ملكهم إشبان بن طيطش ، وباسمه سميت الأندلس إشبانية»[1] . فالصحيح أن الكلمة قد أطلقها الرومان على تلك البلاد ، ولكن لا أخذاً من اسم ملكهم إشبان الذى لا يعرف التاريخ عنه شيئاً ، بل أخذاً من عبارة فينيقية معروفة كان الفينيقيون قد أطلقوها على الشاطئ لإيبرى حين نزلوا به .

٢ — لمحة جغرافية :

بلاد الأندلس شبه جزيرة تقع فى الجنوب الغربى من أوربا . والمياه تطوف بها من كل جوانبها ، عدا جانباً واحداً هو الشمالى الشرقى ؛ حيث تحدها جبال البرانس[2] الفاصلة بينها وبين فرنسا . أما تلك الأمواه التى توشك أن تطوق الأندلس ، فهى مياه البحر الأبيض من الشرق ، ومياه المحيط الأطلسى من الغرب والشمال الغربى ، ثم مزيج من مياه البحر والمحيط فى الجنوب حيث مضيق جبل طارق[3] ملتقى البحر بالمحيط ، والفاصل الضيق بين شمال إفريقيا وجنوب إسبانيا ، فهذا المضيق يبلغ عرضه فى أضيق مواضعه خمسة عشر كيلو متراً تقريباً ، ولولاها للاصقت إفريقيا من الشمال أوربا من الجنوب .

---

(١) المقرى : نفح الطيب جـ ١ ص ٦٧ .

(٢) يسميها العرب أيضاً : البرتات . وهو من غير شك جمع عربى للكلمة الإسبانية Puerte بمعنى منفذ أو مدخل ، وذلك لأن تلك الجبال ذات ممرات تصل بين فرنسا وشبه الجزيرة .

(٣) هذا الاسم أطلق على المضيق بعد أن عبره طارق بن زياد من المغرب إلى الأندلس ، واسمه العربى قبل ذلك بحر الزقاق وكثيراً ما يستعمل حتى بعد الفتح ، ولكن الأوربيين لا يزالون يستعملون اسم جبل طارق لهذا المضيق ، فيقول الإسبان مثلا Gibraltar .



ويؤلف سطح شبه الجزيرة عناصر أهمها : الهضبة الكبرى التي تسمى « مسيتا » Meseta وهى تشغل جزءاً هائلا من مساحة شبه الجزيرة . وتأتى بعد تلك الهضبة سلاسل جبال توشك أن تطوقها ؛ فمن الجنوب تمتد جبال « سيرا مورينا Sierra morena » أى سلسلة الجبال السمراء[1] . وتفصل تلك الجبال بين الهضبة وسهل جنوبى كبير ينبسط حتى أقصى الجنوب[2] . وفى شرق الهضبة تمتد كذلك سلسلة جبال أخرى . وهى الجبال الإيبرية Sistema ibereco ، وهى التى تفصل بين الهضبة وسهل آخر هو السهل الشرقى ، الذى ينبسط حتى ساحل البحر الأبيض . . وفى شمال الهضبة تعلو جبال أخرى ،

---

(١) والعرب يسمونها : الشارات ، وهو جمع عربى محرف لكلمة Sierra الإسبانية بمعنى سلسلة جبال .

(٢) ترتفع من السهل الجنوبى جبال أخرى تسمى Sierra nevada أى سلسلة الجبال الثلجية ويسميها العرب « شلير الثلج » ولعل كلمة « شلير » تحريف عربى للكلمة الإسبانية Salir بمعنى الخروج ، فكأنهم يرون (بشلير الثلج) مخرج الثلج .

الجبال « القنطبرية Cantabrica » ، وهذه الجبال تليها شمالا بعض الأقاليم السهلية الضيقة . وفى الغرب تنحدر الهضبة حتى تنتهى إلى سهل ممرع كبير هو السهل الغربى .

ويجرى فى الأندلس أنهار عديدة ، أهمها نهر الوادى الكبير ، الذى يسميه الإسبان حتى اليوم بهذا الاسم الذى أطلقه العرب ، ولكن مع تحريف يسير فيقولون : « جواد الكبير Guadalquivir »[1] وهذا النهر يروى أكثر أراضى السهل الجنوبى ، ويمر بالمدينتين الأندلسيتين العظيمتين قرطبة وإشبيلية ثم يصب غرباً فى المحيط الأطلسى . ثم يلى الوادى الكبير شمالا نهر وادى يانه ، ويسميه الإسبان كذلك باسمه العربى ، فيقولون « جواديانا Guadaiana » . وبعد هذا النهر يأتى شمالا نهر التَّاجُه ، ويسميه الإسبان « التاخه El Tajo[2] » وهو يمر بوسط الهضبة ، وتقع عليه مدينة طُلَيطِلَة العظيمة[3] .. وبعد كل هذه الأنهار يأتى شمالا نهر دوُيْرُه ، الذى يسمى عند العرب أحياناً بالوادى الجوفى ، والذى يطلق عليه الأسبان اسم « دورُ Duero »وهو كسابقيه ينحدر إلى الغرب ويصب فى المحيط الأطلسى .

على أن هناك أنهاراً أخرى تسير عكس تلك الأنهار ، حيث تصب شرقاً فى البحر الأبيض ، وهى تلك الأنهار التى تروى الشرق والشمال الشرقى تقريباً . وأهم تلك الأنهار : نهر إبْرُه Ebro ، الذى يروى إقليماً عظيماً من أقاليم الأندلس ، تبرز بين مدنه ، مدينة سَرَقُسْطَة[4] .

---

(١) من خصائص النطق الإسبانى صعوبة نطق الواو المحركة فى أول الكلمة ، ومن هنا أضافوا حرف G قبلها لتيسير النطق .

(٢) من التطورات الصوتية فى اللغة الإسبانية اختفاء صوت الجيم المعطشة التى يدل عليها فى كثير من اللغات الأوروبية الحرف J ، فهم ينطقون كل ما أصله جيما معطشة أو J أوربية خاء . هذا وبعض المصادر العربية تكتب الاسم بفتح الجيم ولكن صورة الاسم فى اللغة الإسبانية ترجح أن الجيم مضمومة .

(٣) يسميها الإسبان Toledo

(٤) ويقول لها الإسبان Zaragoza . مع ملاحظة أن حرف z ينطق كالثاء العربية لا كالزاى ، وهذا من الظواهر الصوتية التى تختلف فيها الإسبانية عن غيرها من اللغات الأوربية .

ومن الأنهار الشرقية كذلك الوادى الأبيض ، الذى تطور اسمه على ألسنة الإسبان إلى« جوادا لابيار » Guadalaviar . وهذا النهر يروى جزءاً كبيراً من شرق الأندلس ويمر بشمالى مدينة بلنسية ، المدينة الأندلسية العظيمة[١] .

ومن الأنهار الشرقية التى تلى الوادى الأبيض جنوباً ، نهر شُقْر ، ويسميه الإسبان بما يشبه هذا فيقولون : « خوكر » Jucar[٢] . وعلى هذا النهر تقع جزيرة شقر التى تتصل اتصالا كبيراً بالأدب الأندلسى لجمال طبيعتها ، وكونها مصدر إلهام لعدد من الشعراء .

وهناك بعد ذلك جنوبى هـذه الأنهر يجرى نهر شَقُّورة ، الذى يقال له فى الإسبانية « سجورا » Sigura[٣] . وهو يخترق مدينة مُرْسِيَة[٤] ويروى قسماً كبيراً من إقليم شرق الأندلس .

وهناك بطبيعة الحال أنهر أصغر من تلك التى ذكرت فى هذا الحديث ، كما أن هناك عيوناً وآباراً كثيرة . وعلى تلك الأنهار والنهيرات والعيون والآبار والأمطار تعتمد الحياة الزراعية فى الأندلس . غير أن الاعتماد أساساً على الأمطار فى منطقة الهضبة الوسطى .

وهكذا نرى أن شبه جزيرة الأندلس ، ليست كما يتصور كثيرون جنة ليس فيها

---

(١) يقال لها بالإسبانية : Valencia مع ملاحظة أن الحرف c ينطق ثاء لأن بعده الحرف i وهذا من خصائص الإسبانية .

(٢) نص ياقوت فى معجم البلدان على أن الاسم بفتح فسكون (جـ ٣ ص ٣٠٧) ولكن النطق الإسبانى الذى يضم أول الاسم ربما يرجح أنه كان بالضم فى العربية . ويلاحظ أن الشين العربية قد تطورت أولا إلى جيم معطشة فى النطق الإسبانى القديم ثم صارت خاء مثل كل جيم معطشة أو J فى النطق الإسبانى الحديث .

(٣) إذا لاحظنا أن نطق كثير من الإسبان للسين يأتى مشرباً بالشين ، وأن لا فرق صوتياً بين القاف والجيم غير المعطشة فى اللغة العامية عادة ، كما يقال فى قال : جال — إذا لاحظنا ذلك تبين أن النطق الإسبانى هو النطق العربى لهذه الكلمة تقريباً .

(٤) يسميها الإسبان Murcia . مع ملاحظة نطق الحرف c ثاء .

إلا السهول المنبسطة والحقول الخصبة والحدائق الغناء ؛ فالحق أن هذا تصور شعرى حمل عليه ما جاء فى نتاج شعراء الطبيعة الأندلسيين ، ممن عاشوا فى السهول الأندلسية الممرعة ، ثم صوروا لنا طبيعة تلك الأقاليم فقط ، فظننا أن الأندلس كلها كما وصف هؤلاء الشعراء ، وأخذنا صورة للبلاد كلها مما صور به الشعراء بعض أقاليمها . فالواقع أن بلاد الأندلس سهول وهضاب وجبال وأودية ، فيها الخصب السعيد ، وفيها الجدب الشقى ، فيها بقاع تستحم بمياه الأنهار ، وفيها أخرى تتعطش إلى غيث السماء .

ولكن الشيء الذى لاشك فيه ، هو أن أخصب بقاع شبه الجزيرة وأحسنها مناخاً . تلك الأقاليم التى فضل المسلمون الحياة فيها حتى لم يكن مقامهم بغيرها إلا قليلا أو لضرورة . وتلك الأقاليم هى : السهول الجنوبية والشرقية والغربية ، التى تغنى بالخصوبة الوفيرة وتروى من الأنهار العديدة ، وتسعد بالمناخ المعتدل . أما الأقاليم التى تقع ضمن الهضبة الكبرى ، فهى أقل الأقاليم حظاً من كرم الطبيعة وحسن المناخ . ويكفى أن نعلم أن تلك الأقاليم تتألف أكثر ما تتألف من أرض قليلة الخصوبة ، وكثير منها غير صالح للزراعة ، والصالح فيها يروى غالباً بمياه الأمطار . التى تجود حيناً وتبخل أحايين . ثم إن المناخ فى تلك الأقاليم أقرب إلى القارية منه إلى الاعتدال ، فهو فى الشتاء شديد البرد كثير العواصف متساقط الثلج ، وهو فى الصيف شديد الحرارة متوهج الهاجرة .

ومن هنا نتبين أن شبه الجزيرة الأندلسية مختلفة الطبيعة من إقليم إلى آخر ؛ وذلك لسعة رقعة البلاد وامتدادها ، ولاتصالها من الشمال بأوربا ومن الجنوب بإفريقيا ، هذا بالإضافة إلى التفاوت الشاسع فى تضاريسها ، من جبال إلى سهول ، ومن هضاب تعفرها الرمال إلى شواطئ تغسلها البحار . وقد جعل كل ذلك من شبه الجزيرة الأندلسية ، موطناً لشتى المناخات ومختلف الأجواء ؛ فبينما تغلب طبيعة أوربا فى الشمال ، تغلب طبيعة إفريقيا فى الجنوب ، وبينما يماثل الإنسان غيره من سكان أوربا فى جهة ، يشابه

مجاوريه من سكان شمال إفريقيا فى جهة أخرى . وليس ذلك بغريب بعد أن عرفنا أنه لا فاصل بين الشماليين ومجاوريهم الفرنسيين إلا جبال البرانس ، وأنه لا حاجز بين الجنوبيين ومجاوريهم المغاربة إلا مضيق جبل طارق .

وكما تختلف الأجواء والطبائع فى بلاد الأندلس ، تختلف كذلك الحاصلات حتى يمكن أن يقال : إن أكثر الحاصلات التى تعرف فى مناطق العالم المختلفة تجنى فى الأندلس ، لأن هناك من الأجواء ما يصلح لكل المزروعات تقريباً . على أن أكثر حاصلات البلاد ، هى تلك التى تجود فى حوض البحر الأبيض المتوسط ؛ فهناك يكثر القمح والشعير والأرز والبقول ، وتجود الفاكهة وخاصة الموالح والكروم ؛ وهناك أيضاً يكثر الزيتون ، الذى عليه وعلى الموالح والأرز والكروم يعتمد الدخل القومى أعظم اعتماد .

وبلاد الأندلس بعد هذا غنية بالمناجم والمراعى والمرافىء البحرية ، وهى بهذا كله تمثل — كما يقول كثيرون — قطاعاً كاملا من العالم بطبائعه المختلفة وأجوائه المتعددة وحاصلاته المتباينة .

٣ — إسبانيا قبل المسلمين :

يُعتبر الإيبريون Los Iberos من أقدم من عُرِف من سكان إسبانيا ، وقد اختلط بهم قديماً من يسمون بالسلتيين Los Celtas ، فنشأ من هذا الاختلاط الشعب المسمى بالسلتى الإيبرى Celtiberos ؛ وذاك الشعب هو أصل الشعب الإسبانى [1] الذى

---

(١) يضيف بعض الباحثين إلى هؤلاء عنصراً ثالثاً يسمى Los Tartisios وكانت لهؤلاء حضارة قديمة فى جنوب شبه الجزيرة . وكان مركز تلك الحضارة مدينة Tartissos قرب Jerez .

ويقال إن الإيبريين إفريقيون عبروا البحر إلى شبه الجزيرة . وأن السلتيين أوربيون عبروا جبال البرانس إلى شبه الجزيرة . وأما الترتسيوس فيقال إنهم أفريقيون ويقال إنهم أسيويون .

راجع : Antonio Ballestros : Sinteses de Historia de Espana, pp. 10 ff.

وانظر أيضاً : Aguado Bleye, pp. 153 ff. .

أسهمت في تكوينه عناصر أخرى على مر التاريخ .

فقد اهتدى الفينيقيون إلى شبه الجزيرة الإيبرية، فنزلوا بها وتبادلوا التجارة مع أهلها ، وأغرتهم خيراتها بالإقامة في بعض أقاليمها ، وخاصة في الجنوب حيث أسسوا مدناً لايزال بعضها قائماً إلى اليوم ، مثل مدينة قادس Cadiz ، وكان ذلك في القرن الحادي عشر قبل الميلاد [١].

ثم وفد الإغريق على شبه الجزيرة ، حول القرن السابع قبل الميلاد ، وأقاموا كذلك في بعض جهاتها ، وخاصة الجهات الشرقية ؛ وأنشأوا أيضاً من المدن ما بقي بعضه حتى اليوم ، كمدينة برشلونه Barcelona[٢] .

وفي القرن الخامس قبل الميلاد ، نزل القرطاجنيون شبه جزيرة إيبريا ، وأسسوا بها مدناً جديدة ، مثل مدينة قرطاجنة Cartagena التي سموها باسم دولتهم في شمال إفريقيا .

ثم بسط الرومان نفوذهم على شبه الجزيرة حول منتصف القرن الثاني قبل الميلاد[٣] حين تغلبوا على دولة قرطاجنة وورثوا ملكها . ومنذ ذلك الحين أصبحت شبه الجزيرة الإيبرية ولاية رومانية . وقد صبغ الحكم الروماني تلك البلاد بصبغته التي ظلت أهم خصائصها حتى الفتح الإسلامي برغم أن الرومان لم يكونوا حكام إسبانيا حين دخلها المسلمون . وأهم آثار الحكم الروماني التي ظلت حتى الفتح الإسلامي : اللغة الرومانية والدين المسيحي .

---

(١) Aguado Bleye, p. 154.

(٢) المراد بالإغريق إغريق آسيا الصغرى المسمون Focenses نسبة إلى Focea راجع المصدر السابق ص ١١٥ وما بعدها . وراجع أيضاً :

Antonio Ballestros : Sinteses de Historia de Espana, pp. 15 — 16.

(٣) سنة ١٣٤ ق . م .

وفى أوائل القرن الخامس الميلادى[1] ، استقر « الوندلس » فى جنوب شبه الجزيرة حين أغارت تلك القبائل الجرمانية على ممتلكات الدولة الرومانية ، وقد ظل هؤلاء Los Vandalos حيناً فى جنوب شبه الجزيرة ، ثم أجلاهم عنها القوط [2] . وهؤلاء كسابقيهم ، بعض تلك القبائل الجرمانية الهمجية التى كانت تغير على ممتلكات الرومان فى ذلك الحين. وقد سيطر القوط Los visigodos على شبه الجزيرة تقريباً ، وأسسوا ملكاً كبيراً عاصمته طليطلة Toledo ، وظل ملكهم حتى كان الفتح الإسلامى سنة ٧١١ م .

وكان هؤلاء القوط قد اعتنقوا المسيحية التى سبقتهم إلى إسبانيا منذ العهد الرومانى . كذلك كانت اللغة السائدة فى العهد القوطى هى اللغة الرومانية التى سبقت القوط إلى السيطرة على شبه الجزيرة ودخلتها بدخول الرومان .

وقد سار القوط أول الأمر سيرة حسنة فى إسبانيا ، ثم ما لبثوا أن أساءوا الحكم ، فأساءوا إلى أنفسهم وإلى الإسبان جميعاً ؛ ذلك أنهم أخلدوا إلى الملذات وتركوا الشعب نهباً للآلام ، فاستأثر الأشراف ورجال الدين بالحرية والسعادة ، وآثروا العاملين بالعبودية والشقاء . وقد أدى كل ذلك إلى كراهية الشعب للحكام ورجال الدين ، وتربصهم بهؤلاء وهؤلاء .

وقد ضاعف الحالة سوءاً ، كثرة المنازعات التى كانت تحدث بين زعماء القوط على العرش ، فقد كانت تلك المنازعات بمثابة الوقود يلقى على نار الثورة ، فتنشب حيناً بعد حين ، وكانت هذه الخلافات بين الشعب وحكامه من جهة ، وبين الحكام أنفسهم من جهة أخرى ، تهز العرش القوطى هزاً عنيفاً ، بل كانت ترقصه على حافة بركان .

---

(١) سنة ٤٠٦ م .

(٢) يقال إن الوندلس رحلوا إلى أفريقيا سنة ٤٢٩ م .

راجع : Aguado Bleye, p. 339 .

فهناك الفشل السياسى والضعف الحربى والتفكك الاجتماعى والظلم الطبقى ، وقد تجمعت تلك العوامل فى أواخر العهد القوطى كأنها قطع الليل المظلم ، الذى تتطلع فيه العيون متلهفة إلى فجر جديد[١] .

٤ — المسلمون فى إسبانيا :

كانت جيوش المسلمين قد بسطت سلطانها على شمال إفريقيا ، واستقرت بتلك العدوة التى لا يفصلها عن الأندلس إلا مضيق جبل طارق . وكان ذلك بعد ضحايا عديدين من الجنود والقواد المسلمين ، وبعد جهاد طويل قد استمر منذ عهد عمر رضى الله عنه ، إلى عهد الوليد بن عبد الملك . وكان قائده على المغرب موسى بن نصير ، صاحب فضل كبير فى تثبيت قدم الإسلام فى شمال إفريقيا ، ونشر رايته حتى المحيط الأطلسى .

ولاشك أن ذلك القائد الظافر كان يتطلع فى شوق إلى تلك البلاد الواقعة على الضفة الأخرى من المضيق . ولكنه فيما يبدو كان يخشى أن يغامر بجيش المسلمين فى تلك البلاد ؛ لأن مصيره فيها كان محفوفاً بأخطار ، أقلها ذلك المجهول الذى لا يلتمع فى أفقه نجم .

ولكن خشية موسى سرعان ما عادت أكثر من الأمن ، وأصبح تردده فى فتح تلك البلاد ، تصميماً على اقتحامها بجيوش المسلمين . كان ذلك حينما تقدم إليه يوليان Julian حاكم سبتة ، وعرض عليه تسليم سبتة أولا ثم المساعدة فى فتح إسبانيا ثانياً . وكانت سبتة — على الأرجح — ولاية إفريقية تابعة للقوط يحكمها من قبلهم حاكم[٢] ، وكانت إلى ذلك

---

(١) انظر : Dozy : Historia de los musulmanes de Espana, pp. 318 ff.

(٢) يرى بعض الباحثين أن سبتة كانت مستقلة ، ويرى البعض أن حاكمها كان إفريقياً من قبيلة غمارة . انظر : A. Gonzalez Palencia : Historia de la Espana musulmana, p. 9.

حصناً منيعاً من الحصون الإفريقية التي لم يخضعها المسلمون بعد ، كما كانت ثغراً له قيمته على مضيق جبل طارق ، يمكن أن يستخدم في العبور إلى جنوب إسبانيا . أما لماذا عرض يوليان هذا العرض السخي على موسى ؛ فسؤال للمؤرخين في الإجابة عنه أقوال عديدة [١] ترجع في جملتها إلى وجود ضغائن بين يوليان هذا وبين ملك القوط حينئذ ، المسمى رُذريق Rodrigo . ومهما يكن من أمر فقد رحب موسى بهذا العرض وأرسل أحد محاربيه واسمه طريف على رأس قوة صغيرة [٢] عبرت المضيق على سفن قدمها حاكم سبتة ، ونزلت في جنوب شبه الجزيرة ، بمكان لايزال يحمل اسم القائد المسلم إلى اليوم ، حيث يسمى جزيرة طريف Terifa . ثم عادت تلك السرية إلى شمال إفريقيا بما طمأن موسى وزاد رغبته في فتح تلك البلاد . وكان عبور هذه السرية إلى جنوب إسبانيا سنة ٩١ هـ — ٧١٠ م .

وفي السنة التالية (٩٢ هـ — ٧١١ م) أرسل موسى جيشاً كبيراً [٣] بقيادة طارق ابن زياد لفتح هذه البلاد . وقد عبر جيش طارق هذا المضيق الذي سمي باسمه فيما بعد، ونزل من جنوب شبه الجزيرة في هذا المكان الذي سمي كذلك بجبل طارق . وكان عبور هذا الجيش على سفن لحاكم سبتة ، كما كان يرافقه أدلاء من قبل هذا الحاكم .

وقد هزم طارق كل الحاميات التي تعرضت له بعد نزوله بالشاطئ الإسباني . ووصل نبأ طارق وجيشه إلى ملك القوط الذي كان في شمال شبه الجزيرة يخضع بعض

---

(١) من تلك الأقوال : أن ابنة يوليان كانت تربى كسائر بنات الأمراء في قصر الملك فاستحسنها واعتدى عليها . ومن الأقوال أيضاً : أن يوليان كان موالياً للأسرة المالكة السابقة التي انتزع لوذريق الملك منها وهي أسرة غيطشة Vitiza

(٢) كانت هذه القوة تتألف من ٥٠٠ مقاتل منهم ١٠٠ فارس . وقد عبرت على أربع سفن . انظر أخبار مجموعة ص ٥ ، ٦ .

(٣) كان عدد هذا الجيش ٧٠٠٠ وأكثره من القبائل الأفريقية . ثم زيد الجيش إلى ١٢,٠٠٠ قبل أن يخوض طارق المعركة الفاصلة مع جيش القوط انظر : أخبار مجموعة ص ٦ ، ٧ .

الثائرين ، فأسرع بالعودة إلى طليطلة العاصمة ، واستعد بجيش كبير للقاء الفاتح المسلم . ولم ينتظر حتى تدخل عليه جيوش المسلمين عاصمته طليطلة ، بل اتجه بجيشه جنوباً للقاء طارق وجيشه .

وفى سهول شَريش قرب مدينة قادس ، وعند وادى لكّة[1] Guadalete التقى الجيشان فى معركة كبيرة انتهت بانتصار المسلمين وتشتت جيش القوط ، برغم تفوقه فى العُدد والعَدد على جيش المسلمين [2] . وبعد هذه المعركة الرئيسية الحاسمة أرسل طارق بعض محاربيه لفتح قرطبة وغرناطة ومالقة وغيرها من المدن والأقاليم ، ثم اتجه بأكثر الجيش إلى العاصمة القوطية طليطلة ، فدخلها وأسس دولة المسلمين فى الأندلس على أنقاض دولة القوط .

وفى العام التالى (٩٣ هـ — ٧١٢ م) عبر موسى بن نصير إلى الأندلس بجيش جديد ، ونزل فى مكان آخر هو الذى يسمى الآن بالجزيرة الخضراء Al geciras . ثم سار فى طريق آخر غير الذى سلكه طارق ، وأخضع فى طريقه عدداً من المدن والأقاليم التى لم تكن

---

(١) يسميه المؤرخ الأندلسى ابن القوطية . بوادى بكة ، وعلى أية حال فهو نهر يصب فى خليج قادس . ويقول دوزى : إنه النهر الذى يسمى الآن Rio salado . على أن ليفى بروفنسال يرى أن المعركة دارت على ضفة البحيرة المسماة Janda التى تتصل بنهر Barbate انظر :

Levi Provençal : La Espana musulmana, p. 13.

وانظر أيضاً : Sanchez Albornoz : La Espana musulmana, p. 36, vol. I.

وانظر كذلك : Dozi : Historia, p. 24, vol. I.

وانظر : من المصادر العربية : ابن القوطية ، تاريخ افتتاح الأندلس ص ٧ . وأخبار مجموعة ص ٨ . وابن عذارى ، البيان المغرب جـ ٢ ص ١١ .

(٢) قيل إن عدد جيش لذريق كان ١٠٠,٠٠٠ أما لذريق فقيل إنه قتل فى المعركة ، وقيل فر ببعض قواته فقتل فى معركة أخرى . انظر أخبار مجموعة ص ٩ .

وانظر كذلك Palencia : Historia de la Espana musulmana, p. 10.

قد خضعت بعد ، مثل شذونة (١) وإشبيلية وماردة (٢) ، وبعد ذلك وصل إلى طليطلة (٣)

ويقال : إن موسى عنف مولاه طارق بن زياد ولامه كثيراً على توغله فى البلاد توغلا كان من الممكن أن يجلب الشر على جيوش المسلمين ، ويقال أيضاً : إنه لم يعنفه فحسب ، وإنما قيده وضربه وكاد يقتله . وللمؤرخين فى تصرف موسى إزاء طارق تفسيرات ، بعضها يتهم موسى بالغيرة من طارق أو الحقد عليه . على أية حال فبعد هدوء تلك العاصفة بين القائدين العظيمين سارا بالجيوش الإسلامية مخضعين كثيراً من أقاليم حوض نهر إبْرُه مثل إقليم سَرَقُسْطَة . ثم تقاسما إخضاع بعض الأقاليم الشمالية ، مثل سوريا (٤) وليون وبعض حصون أستورياس وجلّيقيّة (٥) .

وفى غمرة الانتصار (٦) استُدعى موسى بن نصير إلى دمشق للقاء الخليفة على أن يكون فى صحبته طارق . فأوقف موسى الزحف ، وعاد إلى الجنوب ، وأصلح من شئون الأندلس ما استطاع ، وولى ابنه عبد العزيز على البلاد ، وترك شبه الجزيرة واتجه مع طارق إلى دمشق سنة ٩٥ هـ — ٧١٤ م .

وهكذا دخل المسلمون شبه الجزيرة الإيبرية ، وكانت لهم فيها دولة بل دول .

---

(١) Sidonia

(٢) Merida

(٣) كان الجيش الذى عبر به موسى يتألف فى أغلبيته من العرب . وكان عدده ١٨,٠٠٠ [illegible] .
انظر : Levi : Espana musulmana, pp. 15 ff.
وانظر أيضاً : Palencia : Historia, p. 19.
وانظر كذلك أخبار مجموعة ص ١٥ .

(٤) اسم إقليم فى إسبانيا ، وهم يسمون سوريا التى هى من الأمة العربية (سيريا) Siria

(٥) Galicia

(٦) لم يتأكد ليفى بروفنسال من أن موسى عبر جبال البرانس إلى فرنسا . ولكن الأستاذ محمد عبد الله عنان يذكر أن موسى عبرها ووصل إلى بربونة أو إلى ليون فى فرنسا .

انظر : Levi, p. 18 ومحمد عبد الله عنان : دولة الإسلام فى الأندلس ص ٥٠ .

ومرت عليهم أحداث تاريخ طويل . وتتابعت على البلاد أشكال من الحكم وصنوف من الحاكمين . وليس هنا محل سرد شئ من ذلك أو تفصيل القول فيه . وحسبنا فى هذا المقام أن نشير إلى أن هذا التاريخ الطويل الذى قارب ثمانية قرون ، يقسم عادة إلى عصور هى :

أولا : عصر الولاة ، وهو ذلك العصر الذى يبدأ بالفتح الإسلامى سنة ٩٣ هـ — ٧١٢ م وينتهى بقيام دولة بنى أمية فى الأندلس على يد عبد الرحمن الداخل سنة ١٣٨ هـ — ٧٥٥ م .

ويسمى هذا العصر عصر الولاة ؛ لكون الأندلس كانت تحكم فيه بوساطة وال يعينه خليفة دمشق وأحياناً يعينه حاكم شمال إفريقيا .

ثانياً : العصر الأموى ، ويبدأ بتأسيس عبد الرحمن الداخل لدولة بنى أمية فى الأندلس ، تلك الدولة التى تبلغ ذروة مجدها فى عهد عبد الرحمن الناصر الذى يجعل منها خلافة عظيمة . وينتهى هذا العصر بانتهاء ملك بنى أمية هناك ، بعد سلسلة من الخلفاء العاجزين ، واختيار زعماء قرطبة لنوع من الحكم الجمهورى سنة ٤٢٢ هـ — ١٠٣١ م .

ثالثاً : عصر ملوك الطوائف ، ويبدأ بسقوط الدولة الأموية وقيام عدة ممالك مستقلة ، تقسمت الأندلس معها إلى طوائف ، وعلى كل طائفة مُليك . وينتهى هذا العصر باستيلاء المرابطين على الأندلس بقيادة يوسف بن تاشفين سنة ٤٩٣ هـ — ١٠٩١ م .

رابعاً : عصر المرابطين ، ويبدأ باستيلاء ابن تاشفين وجيوشه الإفريقية على الأندلس ، وينتهى بحلول الموحدين محل هؤلاء المرابطين فى حكم إسبانيا الإسلامية سنة ٥٤١ هـ — ١١٤٦ م .

خامساً : عصر الموحدين : ويبدأ بحكم هؤلاء الإفريقيين للأندلس ، وينتهى

بسقوط دولتهم ، وانتزاع المسيحيين الإسبان للكثرة الغالبة من الأقاليم التى كانت فى أيدى المسلمين ، وحصر الدولة الإسلامية الأندلسية فى جزء جنوبى صغير هو مملكة غرناطة وذلك نحو سنة ٦٦٨ هـ — ١٢٦٩ م .

سادساً : العصر الغرناطى . ويبدأ بتأسيس مملكة غرناطة على يد ابن الأحمر ، وينتهى بتسليم هذه المدينة الإسلامية إلى الإسبان ، سنة ٨٩٨ هـ — ١٤٩٢ م .

على أن بعض الباحثين يولد من تلك العصور عصرين آخرين ، فيجعل فترة الانتقال من المرابطين إلى الموحدين عصراً ؛ ويجعل كذلك فترة ما بين عصر الموحدين والعصر الغرناطى عصراً آخر ، ويسمى الأول عصر الطوائف الثانى ، ويسمى الآخر عصر الطوائف الثالث [١] . كما أن البعض يضم الفترات الأولى من الدولة الأموية ؛ وهى الفترات التى سبقت خلافة عبد الرحمن الناصر ، إلى فترة مابعد الفتح الإسلامى ، وهى فترة الولاة ، ويسمى كل ذلك ، عصر الإمارة ويعنى بذلك كل ما قبل الخلافة ، أو عصر الإمارتين ، ويعنى بذلك إمارة غير الأمويين ثم إمارة الأمويين .

ومهما يكن من أمر فليس يعنينا من تلك العصور واختلاف أسمائها شئ ، وإنما الذى يعنينا هو تلك المؤثرات السياسية والاجتماعية والثقافية التى تتصل بالأدب . لهذا لن نرتبط بهذا التقسيم تمام الارتباط ، لأن اختلاف المؤثرات الأدبية قد يكون أكثر خلال عصر سياسى واحد ، على حين لا يوجد كبير اختلاف بين عصرين سياسيين آخرين . ومن هنا سنهتدى فقط بهذه التقسيمات السياسية فى درسنا للعصور الأدبية ، على أن نقسم العصر الواحد إلى فترات إن كان ذلك فى صالح الدرس الأدبى ، وعلى أن نضم عصرين إن كان ذلك فى صالح الدرس الأدبى أيضاً . وقد سبقت الإشارة إلى ذلك فى غير هذا المكان .

---

(١) وذلك لوجود عصر أول يسمى عصر ملوك الطوائف هو الذى جاء على أعقاب سقوط الحكم الأموى فى الأندلس . وممن ساروا على هذا التقسيم : Al Bornoz : La Espana musulmana, vol. 2, p. 327.

٥ – المجتمع الأندلسى :

(أ) العناصر البشرية فى الأندلس :

كان المجتمع الأندلسى مكوناً من عناصر شتى ، فقد كان فيه أهل البلاد الأصليون ، وفيه الوافدون من عرب وبربر ، ثم فيه الموالى المنسوبون إلى أقطار شرقية مختلفة ، والمماليك المجلوبون من بلاد غربية عديدة .

أما أهل البلاد الأصليون ، فهم المسمون بعجم الأندلس ، وكانوا فى أكثريتهم الغالبة من الإسبان .

وأما الوافدون ، فكان منهم العرب الآتون من المشرق ، وقد سمى أوائلهم – وهم من أتوا مع موسى بن نصير – باسم البلديين ، كما سمى من جاءوا بعدهم باسم الشاميين[١] .

كذلك كان من الوافدين ، البربر الآتون من شمال إفريقيا ، والذين كان أوائلهم يؤلفون معظم جيش طارق بن زياد[٢] .

وأما الموالى ، فقد أتوا فى ركاب العرب منذ عبروا إلى الأندلس ، إذ كانوا مرتبطين بهم تابعين لهم ، حتى لقد نسيت بمرور الزمن أصول كثير منهم ، وعدوا فعلا من القبائل التى تربطهم بها روابط الولاء .

وأما المماليك ، فكانوا يجلبون من عدة بقاع أوربية ، وخاصة من المناطق السلافية ، وكان تجار الرقيق من الجرمان وأشباههم يسبون هؤلاء السلافيين صغاراً ثم يبيعونهم

(١) انظر فى هذه التسميات المصادر التاريخية الأندلسية المتقدمة ، مثل تاريخ افتتاح الأندلس لابن القوطية ، ومثل أخبار مجموعة

(٢) انظر أخبار مجموعة ص ٦ .

فى أسواق إسبانيا . وقد عرف هذا النوع من الرقيق فى الأندلس باسم الصقالبة ، ثم غلب الاسم على كل الرقيق حتى ولو لم يكن سلافياً [١].

وقد بدأ هؤلاء الصقالبة يظهرون فى المجتمع الأندلسى كعنصر منذ أيام عبد الرحمن الداخل .

وليس معنى ما تقدم أن المجتمع الأندلسى كان مجتمعاً مهلهلا بسبب اختلاف عناصره البشرية ، فالحق أنه برغم تعدد العناصر بين سكان الأندلس ، كانت الروابط القوية تشد بعضهم إلى بعض فى أغلب الأحيان ، وتطبعهم بالطابع الأندلسى المميز . فقد كانت هناك دائماً البيئة المشتركة والثقافة المشتركة ، وقد كانت هناك غالباً الحكومة الموحدة والسياسة الموحدة ، ثم كانت هناك بعد ذلك الحضارة الأندلسية الرائعة ، التى تصبغ جميع العناصر بصبغتها الواضحة ، تلك الصبغة التى لا يكاد يفرق فيها بربرىَ الأصل عن عربى الدم ، بل لا يكاد يميز معها إسبانى الجدود من عربى الآباء .

على أن أهم ما جعل الوحدة البشرية فى المجتمع الأندلسى ذات قوة تفوق ما كان من تعدد الأصول ، كون العنصر البشرى الذى يمثل أكثر سكان الأندلس ، والذى يعتبر أبرز عناصر المجتمع ، هو العنصر العربى الممتزج على مر السنين بالعنصر الإسبانى ، والمؤلف من هذا الامتزاج مَن هم أجدر سكان إسبانيا الإسلامية باسم الأندلسيين.

فلقد وفد العرب على إسبانيا فى موجات هائلة . وانتشروا فى أقاليمها المختلفة انتشاراً متغلغلا ، وكانوا يمثلون أكثر القبائل العربية ، العدنانية منها والقحطانية [٢] .

وكان هؤلاء العرب قد وفد أكثرهم على إسبانيا فى شكل جنود لا فى شكل أسر

---

(١) انظر : الصقالبة فى إسبانيا للدكتور مختار العبادى .

(٢) انظر تاريخ افتتاح الأندلس لابن القوطية ص ٢٠ ونفح الطيب للمقرى ج ١ ص ١٣٦ وما بعدها، وجمهرة أنساب العرب لابن حزم فى كثير من فصوله .

أى أنهم لم يأتوا فى أغلب الأحيان بنسائهم وزروجاتهم ، حتى يمكنهم الانعزال بشرياً عن سكان البلاد الأصليين ، وإنما كانوا بحالتهم التى جاءوا عليها مضطرين إلى الاتصال الأسرى بسكان شبه الجزيرة ، حتى يكونوا بالزواج من نساء البلاد أسرهم الجديدة التى ستربطهم بالوطن الجديد وتبقى نوعهم به .

وقد كان هؤلاء العرب الوافدون فى موجات ، من الكثرة بحيث يعتبر امتزاجهم بالإسبان عن طريق المصاهرة ، أمراً كافياً لجعل سلائل هؤلاء وهؤلاء أبرز عناصر المجتمع الأندلسى وأهم مكوناته البشرية .

فمثلا كان جيش موسى بن نصير مؤلفاً – فيما تقول بعض الروايات – من ثمانية عشر ألفاً من العرب [١] وكان جنود الشام الوافدون مع بَلْج بن بشر فى عهد الولاة ، عشرة آلاف ، منهم ثمانية آلاف من بيوت العرب ، وألفان من الموالى [٢] . وكان جنود أبى الخطار الكلبى الوافدون فى عهد الولاة أيضاً من العرب ، ولابد أن يكون عددهم كبيراً حتى يصلحوا للمهمة التى قدموا من أجلها ، وهى فض النزاع بين البلديين والشاميين ، وإقرار الأمن والنظام فى الأندلس[٣] . كذلك كانت موجة الأمويين وأنصارهم ممن أتوا خلال فترة تأسيس الإمارة الأموية بالأندلس عربية ، كما كانت ذات عدد لا يتصور إلا كبيراً [٤] ، نظراً لما هو معروف من اضطهاد العباسيين للأمويين وأنصارهم بالمشرق ، ولما هو معروف كذلك من ترحيب عبد الرحمن الداخل وأبنائه ببنى أمية الوافدين عليهم ، وبكل اللائذين بهم من عرب المشرق عموماً .

---

(١) انظر Levi : Espana musulmana, pp. 15 ff. وأخبار مجموعة ١٥ .

(٢) يسمى جنود بلج الطالعة الأولى .

(٣) يسمى جنود أبى الخطار بالطالعة الثانية ، وتسميتهم طالعة كما سمى جنود بلج تؤكد ما نتصوره من كثرتهم ، انظر تاريخ افتتاح الأندلس ص ١٥ ، ١٩ .

(٤) انظر نفح الطيب جـ ٢ ص ٧٣ .

وهكذا نرى أن المجتمع الأندلسى كان متعدد العناصر والأصول ، ولكنه كان مع ذلك متحد الطابع فى جملته ، وخاصة حين برز أهم عناصره البشرية ، وهو العنصر الذى تمتزج فيه الدماء العربية بالدماء الإسبانية والذى يؤلف الأندلسيين الجديرين بهذه التسمية .

(ب) أصل الأندلسيين :

على أن الباحثين يختلفون فى أصل الأندلسيين ، ويتعارضون أشد التعارض فى اختيار الجنس البشرى الذى يندرجون تحته . فبعضهم – والشرقيون منهم بصفة خاصة – يرون أن هؤلاء الأندلسيين عرب ، قد رحلوا من مواطن العرب فى المشرق ، وعاشوا فى الأندلس محافظين على عروبتهم ، متمسكين بأنسابهم وسلاسل قبائلهم (١) . والبعض الآخر – والمستشرقون الإسبان بصفة خاصة – يرون أن الأندلسيين ليسوا إلا إسباناً مسلمين ، فهم ليسوا عرباً وليسوا شرقيين ، وإنما هم إسبان وغربيون ، دينهم الإسلام ولغتهم العربية (٢).

والسبب فى تمسك الباحثين الشرقيين بعروبة الأندلسيين كالسبب فى تمسك الباحثين الغربيين بإسبانية هؤلاء الأندلسيين ، فكلا الفريقين يعتز بهم ويحاول أن يكسب حضارتهم إلى حضارته ، ويضيف علمهم إلى علمه ، ويعد أدبهم من تراث أدبه . وربما كانت وجهة نظر الباحثين الشرقيين أقدم وجهتى النظر (٣) ، فالمسلمون منذ أقدم عصور الأندلس يعتبرون الأندلسيين عرباً منهم ، تراثهم تراثهم وأدبهم أدبهم وحضارتهم حضارتهم ، وكل الذى كانوا يخصون به الأندلسيين أن يعدوهم أحياناً أهل المغرب ،

---

(١) انظر مصطفى صادق الرافعى ، تاريخ آداب العرب جـ ٣ ص ٢٦٧ وما بعدها .

(٢) Julian Ribera : Disertaciones y opusculos, vol. I, pp. 12 ff.

(٣) انظر المقرى : نفح الطيب جـ ١ ص ٣٦ وابن الخطيب : الإحاطة جـ ١ ص ٣٥ .

على اعتبار أن المغرب الإسلامى يشمل شمال إفريقيا والأندلس ويقابل المشرق الذى يشمل الحجاز والشام والعراق ومصر.

وفكرة الشرقيين قديماً وحديثاً فى اعتبار الأندلسيين عرباً ، تقوم على هذا التقليد العربى الذى ينسب الولد إلى أبيه ، فادام آباء الأندلسيين كانوا عرباً فى الأصل ، فالأبناء والأحفاد وكل الأجيال عرب كذلك ، ينتمون كآبائهم إلى عدنان وقحطان .

أما فكرة الغربيين وخاصة الإسبان ، فى اعتبار الأندلسيين إسباناً مسلمين ، فقد نشأت أخيراً وبدأ الاتجاه إليها فى القرن الماضى تقريباً حينما انحسرت موجة الكراهية التى كانت تغمر قلوب الأوربيين – وخاصة الإسبان – ضد مسلمى الأندلس ؛ فقد كانوا قديماً يعتبرونهم غزاة وفاتحين ومحتلين ، ومن هنا جاءت محاربتهم ومطاردتهم وإخراجهم .

ثم ظهر بعض الباحثين المنصفين ، الذين أشادوا بفضل المسلمين على أوربا كلها لا على إسبانيا وحدها ، وبينوا ما كان لهؤلاء المسلمين من فضل على العلم والأدب والحضارة الأوربية جميعاً ؛ وانتقدوا لذلك تلك المعاملة القاسية التى لقيها هؤلاء المسلمون على أيدى المسيحيين ، وأخذت الأبحاث تتابع فى بيان ما لمسلمى إسبانيا من التأثير فى الفلسفات والآداب والفنون الأوربية على وجه العموم[١] .

---

(١) من أقدم الأبحاث التى نبهت إلى فضل الأندلسيين على الحضارة الأوربية بحث القس خوان أندريس Juan Andres ، كتبه فى القرن الثامن عشر عن أثر الثقافة الأندلسية فى الثقافة الأوربية . وكان هذا القس يسوعياً ، طرد من إسبانيا وفصل من الجماعة .

ومن أعظم الأبحاث فى هذا الشأن ، أبحاث المستشرق الإسبانى Asin Palacios عن الفلسفة الإسلامية وعلاقتها بالفلسفة الأوربية . ثم بحثه الجليل عن تأثر دانتى بالإسلام فى الكوميديا الإلهية . وكذلك من أمتع الأبحاث فى تأثير الأندلسيين ، أبحاث المستشرق الإسبانى Julian Ribera عن تأثير الشعر الأندلسى فى الشعر الأوربى ، والموسيقى الأندلسية فى موسيقى الإسبان إلخ .

وأخيراً تبنى مستشرقو الإسبان وعلى رأسهم العلامة « خوليان ريبرا » Julian Ribera فكرة الأصل الإسبانى لمسلمى الأندلس . ويعتبر « خوليان ريبرا» أول من حاول إثبات هذه النظرية والتدليل عليها من الوجهة العلمية ؛ فهو يرى أن العرب الذين دخلوا شبه الجزيرة أيام الفتح إنما دخلوا ــ كما هو معروف ــ على هيئة جنود ، ولم ينتقلوا إليها كأسر ، وكان لابد لهؤلاء المحاربين من أن يكونوا البيوت وينجبوا النسل ، وكانت الإسبانيات الجانب الآخر فى تكوين هذه الأسر وإنجاب ذلك النسل . وقد أقبل على هذا الزواج المختلط أول أمير عربى ولى أمر الأندلس بعد الفتح ، وهو عبد العزيز بن موسى بن نصير كما أقبل عليه غيره من العرب ، حيث شرع لهم أمراؤهم سنة الزواج بالإسبانيات حتى لقد ثبت أن جميع أمراء وخلفاء الأسرة الأموية فى الأندلس كانوا أبناء لغير عربيات . وإذا كان الولد ــ فى الحقيقة ــ ابناً لأبيه كما هو ابن لأمه ، وإذا كانت خصائص الوراثة يأخذها الوليد عن أسرة أمه كما يأخذها عن أسرة أبيه ، إذا كان ذلك أمكن القول بأن العرب الداخلين قد ذابوا فى الجنس الإسبانى حتى لم يعد للواحد منهم سوى قطرات قليلة من الدم العربى تمتزج بدمه الإسبانى الذى يكاد يكون خالصاً .

ويُجرى الأستاذ« ريبرا » تجربة على الأسرة الأموية التى حكمت فى الأندلس فيقول ما خلاصته : إن عبد الرحمن الداخل كان يحمل فقط نصف دم عربى ، لأنه كان من أم غير عربية ، وكذلك ابنه هشام لا يحمل إلا ربع دم عربى لأن أمه كانت أيضاً غير عربية . وهكذا تتناقص نسبة الدم العربى كلما مضينا من أمير إلى آخر ، بينما تتضاعف نسبة الدم الأجنبى ؛ فالحكم ابن هشام ليس له من الدم العربى إلا الثمن ، وعبد الرحمن الأوسط ، ليس له إلا جزءاً من ستة عشر جزءاً ، والأمير محمد ليس له إلا جزء من اثنين وثلاثين جزءاً ، والمنذر بن محمد ليس له إلا جزء من أربعة وستين جزءاً ، وكذلك أخوه عبد الله . ثم يأتى بعدهما محمد بن عبد الله (وهو لم يحكم) وفى دمائه جزء من مائة وثمانية وعشرين جزءاً . ثم يأتى بعد ذلك عبد الرحمن الثالث الملقب

بالناصر ، وليس له من الدم العربى إلا جزء من مائتين وستة وخمسين جزءاً . أما ابنه الحكم الثانى ، فليس له تبعاً لذلك إلا جزء من خمسمائة واثنى عشر جزءاً . وأخيراً يأتى هشام الثانى فلا يكون له من الدم العربى إلا جزء من ألف وأربعة وعشرين جزءاً (١).

ولسنا ننكر الدافع الكريم الذى حمل الأستاذ « ريبرا » على محاولة إثبات أن الأندلسيين إسبان مسلمون ؛ فهو يعتز بالأندلسيين ويحاول كسب الحضارة الأندلسية وضمها إلى التراث الإسبانى ، ولكنا مع ذلك لا نستطيع أن نذهب مع الأستاذ ريبرا فيما ذهب إليه من تجريد الأندلسيين من عروبتهم ، ولا نستطيع كذلك أن نسلم بتلك التجربة التى أجراها على الأسرة الأموية الأندلسية كدليل على ذوبان الدم العربى فى الدم الإسبانى ؛ لأننا لا نتصور أولا أن كل الذين جاءوا إلى الأندلس من الرجال قد تركوا نساءهم فى المشرق ، ولأننا لا نتصور ثانياً أن الوفود على الأندلس كان دائماً من نصيب الرجال دون النساء ، ولأننا لا نتصور ثالثاً أن كل عربى فى الأندلس كان ينجب دائماً من إسبانية جديدة ، وإن كان قد تصادف ذلك فى الأسرة الأموية . فالمعقول أن توجد مولدات من أب عربى وأم إسبانية ، وأن الزيجات الغالبة كانت تتم بعد الجيل الأول من هؤلاء المولدات ، وبهذا احتفظ الأندلسيون من غير قصد بنصف الدم العربى على الأقل . وإلا فكيف يتصور بناء على المثال الذى ضربه الأستاذ « ريبرا » أن كل زيجة من عربى وإسبانية تنتج رجالا فقط يضطرون إلى الزواج من جديد بإسبانيات خالصات ؟ أو أن الزيجات المختلطة كانت تنتج بنات وبنين . لكن البنات لا يتزوجن بل يكون الزواج دائماً من إسبانيات جديدات ؟ !

لهذا كله نفضل الأخذ بأصل نظرية الأستاذ « ريبرا » دون المضى معها إلى آخر الشوط ، ودون التسليم بما يريد لها من نتائج . بمعنى أننا نسلم أن العرب الداخلين قد قد كانوا يتزوجون من إسبانيات . وأن هذه الزيجات ، أنتجت فعلا جيلا من الأندلسيين

---

(١) Ribera : Disertaciones, vol. I, pp. 14, ff.

تمتزج فيه الدماء العربية بالدماء الإسبانية امتزاجاً تتساوى فيه العناصر العربية والإسبانية تقريباً ، ثم إن الأمر ظل على هذا غالباً ، نظراً لكون هذا الجيل الأول من المولدين ستحدث بين بنيه وبناته زيجات يحافظ فيها على نسبة الدم العربي ، ويظل الأمر على ذلك ما تتابعت الأجيال .

وإذن فالأندلسيون من حيث الأصل شعب فيه دماء عربية وفيه كذلك دماء إسبانية ، وفيه تبعاً لذلك كله موروثات من العرب والإسبان جميعاً .

بقي أن نقرر أن هؤلاء الأندلسيين وإن كانوا مولدين جنساً ومختلطين دماء ، فهم عرب في قوميتهم ، لأنهم عرب في عقيدتهم وثقافتهم ولغتهم وكل جوانب حضارتهم . فإذا كانت لهم بعض خصائص الإسبان في الشكل أو في الطبع ، فإن لهم جل خصائص العرب فيما وراء الشكل والطبع . ومن هنا كان تراثهم تراثاً عربيًّا يأخذ مكانه بين تراث العرب على مر العصور . أما ما قد يكون لهم من خصائص نفسية أو عقلية تبعاً لما ورثوه من أمهاتهم الإسبانيات ، فشيء نحترمه في الدرس الأدبي ونعنى به وبإبرازه ما أمكن . وليس معنى ذلك أننا نقول بإسبانيتهم كما يقول الأستاذ « ريبرا » ومن جاراه من المستشرقين ، وإن كنا نشكر لهم إعجابهم بأبناء عمنا الأندلسيين ، ومحاولة إلصاقهم بهم وضم تراثهم إلى ما للإسبان من تراث .

(ج) الديانات في الأندلس :

انتشر الإسلام بسرعة فائقة بين سكان شبه الجزيرة . ولعل من أهم أسباب ذلك ، أن الأرقاء الذين كانوا يرزحون تحت نير الأشراف في العهد القوطي ، قد وجدوا الإسلام طريقهم إلى الحرية ، فأقبلوا عليه ليفك أغلالهم ويعيد كرامتهم . على أن الأرقاء لم يكونوا وحدهم الذين اعتنقوا الإسلام في سرعة من بين أبناء شبه الجزيرة ، فقد شاركهم

فى هذا الإقبال على الإسلام كثير من الأحرار . أعجب بعضهم بالإسلام والمسلمين ، وأحب بعضهم الآخر أن يحافظ على الأرض التى تحت يده ، أو أن يخلص نفسه من عبء الجزية ، أو أن يرفع مكانته الاجتماعية بالانضمام إلى الممتازين أصحاب الدين الجديد وأولى الأمر أيضاً (١) .

ولذا لم يلبث الإسلام أن نحى النصرانية عن عرشها فى شبه الجزيرة ، وصارت الغالبية العظمى من أهل البلاد مسلمين ، وصاروا يسمون بالمسالمة ، كما صار أبناؤهم يسمون بالمولدين . وإنما قلنا : الغالبية العظمى ؛ لأن المسلمين لم يكونوا يعيشون وحدهم فى هذا المجتمع الكبير ، بل كانت تشاركهم أقلية من المسيحيين ، وكانت تلك أقلية كبيرة إن صح هذا التعبير . وقد ترك المسلمون لهؤلاء المسيحيين حريتهم فى البقاء على دينهم ، وفى مزاولة شعائرهم ، فتجاورت المساجد والكنائس فى سماحة ، واختلطت نداءات المآذن بدقات الأجراس فى محبة ، وتعايش المسلمون والمسيحيون فى الأندلس على أخوة .

وقد بهرت الحضارة الإسلامية هؤلاء المسيحيين الذى كانوا يعايشون المسلمين فى الأندلس ، فأخذوا من هذه الحضارة ومن أصحابها الشىء الكثير ، فقلدوا المسلمين فى لغتهم وتعلموا ثقافتهم ، بل لبسوا ملابسهم وعاشوا إلى حد كبير على نمط حضارتهم ، ولذلك سموا بالمستعربين Mozarabes

ولم يكن هؤلاء المستعربون هم وحدهم الذين يعايشون المسلمين من أصحاب الديانات الأخرى . فقد كانت إلى جانبهم جاليات يهودية ، وجدت من المسلمين كثيراً من التسامح وحسن المعاملة ، بعد أن وجدت فى فتحهم لأسبانيا منقذاً من الجور ، الذى كان اليهود يرزحون تحت نيره أيام القوط (٢) .

---

(١) Levi : Espana musulmana, pp. 46 ff.

(٢) انظر المصدر السابق ص ٤٨ وما بعدها .
وانظر Palencia : Historia, pp. 124 ff.

وقد بلغ تسامح المسلمين مع المسيحيين واليهود الذين يعيشون فى ظلال الحكومة الأندلسية ، درجة تحمل على الإعجاب ؛ فقد كان الأكفاء منهم موضع إجلال الحكام ومحل ثقة الأمراء والخلفاء ، كما كانت لهم فى أغلب الأحيان مناصبهم الكبيرة ، التى ترشحهم لها كفاءتهم دون عائق من دينهم المخالف لدين الدولة . ومن أمثلة من تمتعوا بالجاه والمنصب من المسيحيين ، « أرطباس » الذى كان محل ثقة بعض ولاة الأندلس ، حتى كانوا يستشيرونه فى أمور البلاد ، والذى كان أيضاً موضع تكريم الأمير عبدالرحمن الداخل ، حتى رد عليه عشرين ضيعة وولاه القماسة ، فكان أول قومس بالأندلس [١] . ومن أمثلة هؤلاء المسيحيين كذلك « حيزون » الذى كان قاضياً للنصارى بقرطبة فى أيام الحكم المستنصر ، والذى كانت تسند إليه مهمة الترجمة بين الخليفة وكبار الإسبان فى بعض الأحيان [٢] .

ومن أمثلة من تمتعوا بالجاه والمنصب من اليهود ، « حسداى بن شبروط » الطبيب ، الذى كان من كبار رجال الخليفة الناصر ، كما كان من ذوى النفوذ الواضح لدى المستنصر [٣] . ومنهم كذلك « صمويل بن النَّغرِلّة » الأديب ، الذى كان وزيراً لباديس ملك غرناطة فى عهد الطوائف .

وإذا استثنينا بعض الحوادث القليلة ، يمكن أن يقال : إن تلك الأقليات غير المسلمة لم تضطهد من المسلمين إلا حين سيطر الإفريقيون من مرابطين وموحدين على الأندلس .

(د) اللغات فى الأندلس :

وكما انتشر الإسلام بسرعة فائقة فى شبه الجزيرة ، انتشرت اللغة العربية كذلك على نطاق أوسع بين سكان هذه البلاد .

(١) انظر : تاريخ افتتاح الأندلس لابن القوطية ص ٣٨ وما بعدها .
(٢) انظر : نفح الطيب للمقرى ج ١ ص ١٨٢ .
(٣) انظر : طبقات الأطباء لابن أبى أصيبعة ج ٢ ص ٥٠ .

وقد كان لهؤلاء العرب الوافدين على الأندلس فى شكل موجات كبيرة ، أثر كبير فى نشر اللغة العربية فى شبه الجزيرة . ولاشك أنه يضاف إلى ذلك إقبال أهل شبه الجزيرة أنفسهم على اللغة العربية ، لا فرق فى ذلك بين مسلم وغير مسلم ، نظراً لكونها لغة الحضارة الغالبة والعلم المتفوق ، ولسان الممتازين ذوى السلطان . ولا أدل على مدى انتشار اللغة العربية فى عصر مبكر بين المسيحيين أنفسهم ، من تلك الشكوى التى أطلقها أحد قساوستهم ، واسمه « ألفرو » القرطبى (١) Alvaro cordobes حيث يقول : « إن إخوانى فى الدين يجدون لذة كبرى فى قراءة شعر العرب وحكاياتهم ، ويقبلون على دراسة مذاهب أهل الدين والفلسفة المسلمين ، لا ليردوا عليها وينقضوها . وإنما لكى يكتسبوا من ذلك أسلوباً عربيًّا جميلا صحيحاً . وأين تجد الآن واحداً من غير رجال الدين يقرأ الشروح اللاتينية التى كتبت على الأناجيل المقدسة ؟ ومن سوى رجال الدين يعكف على دراسة كتابات الحواريين ، وآثار الأنبياء والرسل ؟ يا للحسرة !! إن الموهوبين من شبان النصارى لا يعرفون اليوم إلا لغة العرب وآدابها ، ويؤمنون بها ويقبلون عليها فى نهم ، وهم ينفقون أموالا طائلة فى جميع كتبها ، ويفخرون فى كل مكان بأن هذه الآداب حقيقة جديرة بالإعجاب . فإذا حدثتهم عن الكتب النصرانية أجابوك فى ازدراء بأنها غير جديرة بأن يصرفوا إليها انتباههم . ياللألم !! لقد أنسى النصارى حتى لغتهم فلاتكاد تجد فى الألف منهم واحداً يستطيع أن يكتب إلى صاحبه كتاباً سليماً من الخطأ . فأما عن الكتابة فى لغة العرب ، فإنك واجد منهم عدداً عظيماً يجيدونها فى أسلوب منمق . بل هم ينظمون من الشعر العربى ما يفوق شعر العرب أنفسهم فنًّا وجمالا » (٢)

---

(١) كان فى أيام عبد الرحمن الأوسط ، وكان من الذين أسهموا فى إثارة النصارى وإشعال الفتنة المسماة ، بحركة الاستشهاد فى منتصف القرن التاسع الميلادى .

(٢) انظر : Palencia : Historia de la Literatura arabego-espana, p. 295.

وانظر : تاريخ الفكر الأندلسى (وهو ترجمة المصدر السابق إلى العربية ، قام بها الدكتور حسين مؤنس) ص ٤٨٥ — ٤٨٦ .

وهكذا زحزحت العربية اللاتينية عن عرشها فى شبه الجزيرة كما زحزح الإسلام المسيحية أيضاً . وبهذا صارت العربية اللغة الرسمية للبلاد ، كما صار الإسلام دينها الرسمى كذلك .

وقد صارت فصحى الأندلس بمرور الزمن وبحكم البيئة الجديدة ، وبسبب احتكاك عناصرها المختلفة ، ذات خصائص محلية تميزها بعض التميز عن فصحى الأقاليم العربية الأخرى .

وقد كان من هذه الخصائص ما يتصل بالناحية الصوتية ، كما كان منها ما يتصل باستعمال الألفاظ ، فما يتصل بالناحية الصوتية ، نطق الأندلسيين للقاف قريبة من الكاف [١] ، وغلبة الإمالة عليهم [٢] . ومما يتعلق باستعمال الألفاظ ، اشتقاقهم لكثير من الكلمات ، واقتراضهم لأخرى ، ثم تخصيصهم لأسماء هى فى الأصل لمسميات عامة ، وتعميمهم لأخرى هى فى حقيقتها لمدلولات خاصة . وربما كان هذا الجانب المتصل باستعمال الألفاظ هو أبرز الجوانب التى تميز عربية الأندلس بعض التمييز . فقد كانت لهم ألفاظ خاصة كثيرة ، منها ما يختص بالإدارة وشئون الحكم ، ومنها ما يتعلق بالزراعة ورى الأرض ، ومنها ما يرتبط بالبناء ووسائل العمران ، ومنها ما يتصل بالرى وأدوات الزينة ؛ وكلها ألفاظ خاصة بالأندلسيين تقريباً ، لا يكاد يستعملها غيرهم على النحو الذى عرفت عليه عندهم .

فما يختص بالإدارة وشئون الحكم ، إطلاقهم كلمة « الوزير » على كل من يجالس الخليفة أو الملك ويعتبر من خاصته ، وإن لم يشغل هذا المنصب الرسمى المعروف . وإطلاقهم كلمة « الحاجب » أو « ذى الوزارتين » على من يكون فى هذا المنصب الوزارى

---

(١) انظر : نفح الطيب للمقرى ج ١ ص ٥٩٢ ، ٥٩٣ .

(٢) انظر : الإحاطة لابن الخطيب ج ١ ص ٣٥ .

الرسمى خاصة [١] . ومما يتصل بالإدارة وشئون الحكم كذلك إطلاقهم كلمة « خطة » على ما يعرف بالإدارة ؛ فهم يقولون : « خطة الشرطة » و« خطة القضاء » و« خطة السوق » و« خطة الاحتساب » بمعنى الإدارات المسئولة عن تلك الشئون [٢] . ومما يتصل بذلك أيضاً إطلاقهم كلمة « المسدد » على حاكم البلدة الصغيرة [٣] ، وكلمة « الدراب » على حارس الدرب [٤] .

ومما يتعلق بالزراعة والرى ، إطلاقهم كلمة «المجشر» على الضيعة . وقد أخذوا الكلمة من « الجشر » وهو القوم الذين يخرجون إلى المرعى بدوابهم ويبيتون مكانهم [٥] . ومما يتعلق بهذا أيضاً ، إطلاقهم كلمة « الوادى » على النهر خاصة ، والكلمة فى الأصل لكل منخفض من الأرض بين جبال أو تلال [٦]. ومن هذا القبيل كذلك تخصيصهم كلمة « باكور » بما بكر من التين ، وإنما الكلمة لكل ما بكر من الثمار [٧] .

ومما يرتبط بالبناء ووسائل العمران ، إطلاقهم كلمة « البلاط » على البيت المحسن [٨] وكلمة « الأسطوان » على الدهليز [٩] ، وكلمة « الثُّرية » على مجموعة المصابيح [١٠].

ومما يتصل بالزى وأدوات الزينة ، إطلاقهم كلمة « الغفارة » على البرنس أو نوع

---

(١) انظر النفح جـ ١ ص ١٠١ .
(٢) انظر النفح جـ ١ ص ١٠١ .
(٣) انظر النفح جـ ١ ص ١٠١ .
(٤) انظر النفح جـ ١ ص ١٠١ .
(٥) انظر : ألفاظ مغربية ، للدكتور عبد العزيز الأهوانى ص ٢٧ ، ونفح الطيب جـ ١ ص ١٢٥.
(٦) انظر ألفاظ مغربية ص ٦٦ .
(٧) انظر ألفاظ مغربية ص ١٩ .
(٨) انظر : ألفاظ مغربية ص ٢٦ .
(٩) انظر : ألفاظ مغربية ص ١٦ .
(١٠) انظر : ألفاظ مغربية ص ٢٥ .

من الطيلسانات [١] ، وتخصيصهم كلمة« الأرجوان » بالصوف الأحمر [٢] ، وكلمة « الخمار » بشقاق الحرير التي تغطي بها المرأة رأسها [٣] . ومعروف أن الأرجوان في حقيقته للأحمر من الصوف وغيره ، وأن الخمار لكل ما خمرت به المرأة رأسها من الثياب ،

وهناك كثير جداً غير هذه الألفاظ مما استعمله الأندلسيون لمسميات حضارية ، كإطلاقهم « الجَفَّافة » على ما يجفف به من قطع قماش قطني أو صوفي [٤] ، وكإطلاقهم « البَبَّطير » على ما يوضع حول عنق الصبي من قطعة قماش تصون ثيابه من اللعاب [٥] وكإطلاقهم « الدادة » على المربية [٦] .

وليس المراد حصر تلك الألفاظ الأندلسية ولا بيان أصولها ، وإنما المراد فقط إيضاح كيف تميزت عربية الأندلسيين عن عربية الأقاليم الأخرى بعض التمييز [٧] .

وكما كان الإسلام لا يعيش وحده في قلب شبه الجزيرة الأندلسية ، كانت اللغة العربية كذلك لا تحيا وحدها على لسان تلك البلاد . فلقد ثبت أن الفصحى وإن كانت اللغة العلمية والأدبية والرسمية ، قد عاشت إلى جانبها اللغة العامية ، كوسيلة للحديث العادي. وهذا أمر طبيعي تؤيده الظواهر اللغوية في كل لغة وفي كل قطر تقريباً [٨] ، حتى لا نحتاج معه إلى أدلة خاصة تؤيد حياة هذه العامية الأندلسية

---

(١) انظر : ألفاظ مغربية ص ٤٦ .

(٢) انظر : ألفاظ مغربية ص ١٥ .

(٣) انظر : ألفاظ مغربية ص ٣٠ .

(٤) انظر : ألفاظ مغربية ص ٢٨ .

(٥) انظر : ألفاظ مغربية ص ٣٠ . والكلمة لها ما يقابلها بالإسبانية مثل : Babadero مما يدل على أصلها اللاتيني المحلي .

(٦) انظر : ألفاظ مغربية ص ٣١ .

(٧) في الملحق الذي وضعه « دوزي » للمعاجم العربية كثير من هذه الألفاظ ، وكذلك البحث الذي نشره الدكتور عبد العزيز الأهواني باسم . « ألفاظ مغربية من كتاب ابن هشام اللخمي في لحن العامة » .

(٨) انظر : الدكتور إبراهيم أنيس : اللهجات العربية ص ٢٤ وما بعدها .

إلى جانب الفصحى .ومع هذا هنالك أدلة عديدة تؤكد أن الأندلسيين كانت لهم عامية عربية يستخدمونها فى حياتهم اليومية . ويتكلمون بها فى حديثهم البعيد عن العلم والأدب والرسميات . ومن تلك الأدلة ما يتصل بالقرون الأولى لحياة المسلمين فى الأندلس ، ومنها ما يتصل بالقرون الأخيرة لحياتهم هناك .

فقد ذكر ابن بسام فى حديثه عن أول أندلسى اخترع الموشحات ، أن ذلك المخترع كان « يأخذ اللفظ العامى والعجمى ويسميه المركز ، ويضع عليه الموشحة »[1] وليس يعنينا الآن تفصيل القول فى هذا المخترع ولا فى طريقة عمله للموشحات ، لأن ذلك سيفصل فى مكانه من هذا البحث [2] ، وإنما الذى يعنينا أن نشير إلى أن ذلك المخترع مُقَدَّم بن معافى القَبْرى كان — كما يقول ابن بسام — يعتمد على الالفاظ العامية كمركز لموشحاته ، ومقدم هذا قد عاش فى أواخر القرن الثالث الهجرى (التاسع الميلادى) فكأن الأندلسيين كانت لهم فى تلك السنين المتقدمة من حياتهم فى الأندلس عامية يعتمد عليها مثل هذا الفنان فيما يصوغ من موشحات .

كذلك يذكر ابن سعيد المغربى ، وهو من أدباء القرن السابع الهجرى (الثالث عشر الميلادى) « أن كلام أهل الأندلس الشائع فى الخواص والعوام كثير الانحراف عما تقتضيه أوضاع العربية ، حتى لو أن شخصاً من العرب سمع كلام الشَّلَوْبِينى أبى على المشار إليه بعلم النحو . . .وهو يقرئ تلاميذه لضحك بملء فيه من شدة التحريف الذى فى لسانه . والخاص منهم إذا تكلم بالإعراب وأخذ يجرى على قواعد النحو استثقلوه واستبردوه »[3] .

وحديث ابن سعيد يفيد — كما هو واضح — أن الأندلسيين ، بل المثقفين

---

(١) ابن بسام : الذخيرة فى محاسن أهل الجزيرة ق ١ م ٢ ص ١ .
(٢) انظر الفقرة الخاصة باختراع الموشحات فى الفصل الثالث من هذا الكتاب .
(٣) المقرى : نفح الطيب جـ ١ ص ١٠٣ .

والعلماء منهم . كانوا يتكلمون عامية كثيرة الانحراف عما تقتضيه أوضاع العربية ، وأن تلك الظاهرة كانت موجودة بين الأندلسيين ، وليست فقط فى عهودهم الأولى بشبه الجزيرة ، حيث يمكن أن يقال إن العربية لم تكن قد استقرت بعد ، وإنما كانت موجودة أيضاً فى عهودهم المتأخرة ، حيث مضت قرون على دخول العربية إلى الأندلس ، وحيث انتشر تعليمها وتعددت معاهدها وكثر أساتذتها وشاعت مؤلفاتها .

وقد كانت هذه العامية الأندلسية ذات سمات محلية ما زالت تزداد بمرور الزمن ، حتى جعلت من تلك اللهجة شيئاً غريباً عسير الفهم على غير الأندلسيين وقد كان من تلك السمات[1] مايلى :

إدماج الفعل المساعد (كان) فى الفعل المضارع الذى يتلوه ، بحيث تحذف نون (كان) وتبقى الكاف فقط ، فيقال فى كان يقول « كيقول » .

إدماج (فى) الجارة ، فى الاسم الداخلة عليه ، والاكتفاء أحياناً بالفاء متصلة بهذا الاسم ، ونطقها بين الكسر والفتح .

استعمال ظروف خاصة هى ليست فى الأصل ظروفاً ، مثل استعمال كلمة (عاد) بمعنى (بعد) التى تأتى عادة مع الفعل المنفى ، فيقال « لم أفعل هذا عاد » بدلا من « لم أفعل هذا بعد » . ومثل استعمال الحرف (يا) ظرفاً للحال ، فيقال « يا أكلت » بدلا من « قد أكلت الآن » .

استعمال المثنى بالياء والنون دائماً وإبقاء الفتحة قبل الياء . واستعمال فعل الأمر للمذكر والمؤنث بلفظ واحد . واستعمال المضارع المسند للمتكلم وحده أو المتكلم ومعه

---

(١) استخرج هذه السمات وكثيراً غيرها الأستاذ الدكتور عبد العزيز الأهوانى فى بحثه عن « الزجل فى الأندلس » . انظر مقدمة هذا المرجع ، صفحات : ز ، ح ، ط ، وانظر شرحه لما يرد فى النصوص من ألفاظ أندلسية عامية .

غيره بالنون فى الحالتين ، فيقال فى « أقوم » « نقوم » . ومن هذا التوسع فى الاستعمال أيضاً . عدم تخصيص (قد) بالفعل ، وإدخالها على الاسم .

تسكين أواخر الكلمات ، وتحريك هذه الأواخر بالفتح حين يراد التخلص من الساكنين .

قطع بعض الكلمات ، وكتابتها على حالها بعد القطع ، فيقال مثلا : (هُ) أى « هو » ويقال (لُ) أى « له » .

استعمال كثير من الألفاظ غير العربية . وأبرز ما كان من ذلك ، تلك الألفاظ المقترضة من اللاتينية المحلية ، مثل (أَلْمَا) أى نفس . و(أَلْبَا) أى فجر ، و(إِشْت) أى هذا ، و (مَطْر) أى أم[1]

كذلك ثبت أن الأندلسيين لم يكونوا يعرفون العربية فصحى وعامية فقط ، وإنما كانوا يعرفون إلى جانبها لغة أجنبية أخرى ، هى إحدى اللهجات العامية المتفرعة من اللاتينية . وكانت هذه اللاتينية العامية لغة الإسبان عند الفتح العربى . لأننا نعرف أن اللاتينية كانت قد دخلت إسبانيا مع الرومان ، وطبيعى أن تتطور هذه اللاتينية على ألسنة الإسبان بعد انتقالها من موطنها الأصلى إلى شبه الجزيرة الإيبرية . ومن هنا كانت تلك اللهجة اللاتينية العامية التى يسميها العلماء « رومانثى » Romance ، ثم كانت معرفة مسلمى الأندلس لها عن طريق هذا الامتزاج التام الذى حدث بين العرب الوافدين وكثير من الإسبان الأصليين بسبب كثرة الزيجات العربية الإسبانية ، وإنتاج أجيال جديدة يتكلم آباؤها العربية وأمهاتها الرومانثى » ؛ فطبيعى أن يعرف الأبناء لغة الأمهات كما يعرفون لغة الآباء[2] .

---

(١) هذه الألفاظ يقابلها فى الإسبانية : Alma Alba. Este. Madre .

(٢) صاحب نظرية معرفة الأندلسيين لهذه اللاتينية العامية هو المستشرق الإسبانى (خوليان ريبرا) Julian Ribera .

انظر كتابه : Disertaciones y opusculos, vol. I, pp. 28 ff

كذلك كانت معرفة الأندلسيين بتلك اللغة غير العربية ، عن طريق دخول أسر إسبانية كثيرة فى الإسلام ، وهى تعرف لغتها الأصلية بطبيعة الحال ، إلى جانب اللغة العربية المتعلمة .

ثم لا يمكن أن يغفل هذا التعايش المتصل بين من ينتمون إلى أصول عربية وهم المسلمون ، ومن ينتمون إلى عناصر إسبانية وهم المسيحيون ، فهؤلاء لغتهم الأصلية « الرومانثى » ، ومن شأن المعايشة أن تتيح لكل من المتعايشين التعرف على لغة صاحبه .

وليس يُعتمد فقط على تلك الأدلة النظرية ، لإثبات معرفة الأندلسيين باللغة « الرومانثى Romance » بل هناك كثير من الأدلة التى تؤيد معرفة مسلمى الأندلس بتلك اللغة .

من تلك الأدلة ما ذكره المقدسى فى كتابه أحسن التقاسيم ، من أنه التقى فى موسم الحج ببعض الأندلسيين ، وأنه وجدهم يتكلمون لغة عربية عسيرة الفهم ، ولغة أخرى أعجمية . فتلك العربية عسيرة الفهم ، هى العامية الأندلسية ذات الخصائص المعينة التى ربما سببت عسر فهمها على المقدسى . وتلك الأعجمية التى يشير إليها هذا الجغرافى ، ليست إلا تلك اللغة التى يسميها الباحثون « رومانثى »[١] .

ومن أدلة معرفة الأندلسيين لتلك اللغة الأجنبية أيضاً ، ما حكاه الخُشَنِىّ فى كتابه تاريخ قضاة قرطبة ، من أن قاضياً شكته العامة إلى الأمير عبد الرحمن الثانى ، فأمر الوزراء بسماع الشهادة فيه ، وكان بالمدينة شيخ أعجمى اللسان يسمى « ينير » Yenair وكان مقدماً عند القضاة ، مقبول الشهادة مشهوراً عند العامة بالخير وحسن المذهب ، فأرسل إليه الوزراء وسألوه عن القاضى فقال بالعجمية : « ما أعرفه ، إلا أنى سمعت الناس يقولون : إنه إنسان سوء (وصغر باللفظ العجمى) . فلما رفع قوله إلى الأمير —

---

(١) انظر المرجع السابق .

رحمه الله — عجب من لفظه ، وقال : ما أخرج مثل هذه الكلمة من هذا الرجل الصالح إلا الصدق »[١].

وواضح أن ما حكاه الخشني يدل على أن من أهل الأندلس من كان كهذا الشيخ يتحدث بتلك اللغة العجمية أو « الرومانثي » كما تسمى . وواضح كذلك أن من كبار رجال الدولة من كان يفهم تلك اللغة أيضاً . كما فهم هؤلاء الوزراء حين سمعوا شهادة الشيخ ، بل كما فهم الأمير عبد الرحمن الأوسط ، حين رفعت إليه عبارة الرجل ، فأعجب من دقتها ، واعتبر أن مصدر هذه الدقة هو الصدق .

ومن تلك الأدلة التي تساق لتأكيد معرفة الأندلسيين « بالرومانثي » ما روا ابن حزم في كتابه جمهرة أنساب العرب ، وفي حديثه عن بعض فروعهم المسمين بني بَلِيّ ، إذ يقول مميزاً لهم : « لا يحسنون الكلام باللطينية ، لكن بالعربية فقط ، نساؤهم ورجالهم »[٢].

فتخصيص ابن حزم لبني بلي بهذه الميزة اللغوية — ميزة عدم إحسان الكلام باللطينية — يفيد أن غير هؤلاء من الأندلسيين كان يحسن الكلام بها ، أو أن كثيرين غير هؤلاء كانوا يتحدثون بتلك اللغة التي سماها باللطينية ، فأصبح عدم إحسان بني بلي لها ميزة تستحق التنويه .

ثم لماذا نتصيد الأدلة على وجود عامية عربية وعامية لاتينية إلى جانب الفصحى في الأندلس ؟ إن في تراث الأندلسيين لوناً من الشعر ، في كثير من نماذجه قد استخدمت ألفاظ عامية وأخرى رومانثية ، ذلك اللون هو ما يسمى بالشعر الشعبي الذي يتفرع إلى فرعين هما الموشحات والأزجال ، وسوف نفرد لهذا الشعر الشعبي حديثاً في هذا الكتاب ،

---

(١) الخشني : تاريخ قضاة قرطبة ص ٩٦ .
(٢) ابن حزم : جمهرة أنساب العرب (تحقيق ليڤي بروفنسال) ص ١٤٥ .

وسوف تتضح فى جلاء معرفة الأندلسيين للعامية والرومانثى ، من خلال تلك النماذج التى سترد لهذا الشعر الشعبى (١).

على أنه يجب أن نقرر أن العربية الفصحى كانت دائماً فى المحل الأول ؛ فكانت لغة العلم والأدب العالى ، كما كانت لغة الرسميات وكل ما هو جاد من أمور الدولة . أما العامية العربية فكانت تلى تلك الفصحى فى المنزلة ؛ وذلك لاستنادها إلى الفصحى وتفرعها عنها وقربها منها . وأما تلك العامية اللاتينية Romance ، فكانت فى المحل الأخير بطبيعة الحال . وكانت تحيا أساساً بين المستعربين ، باعتبارها لغتهم الأصلية ، أما غيرهم فكانوا يعرفونها من معايشتهم لهؤلاء أو من كون بعض أصولهم أو أقربائهم من الإسبان المتحدثين بتلك اللغة . ومن هنا كان حديث غير المستعربين بتلك اللغة، إنما يكون مثلا بين الرجل وامرأته التى هى إسبانية الأصل . أو بين المرأة الإسبانية وبنيها من رجل عربى ، أو بين مسلم ومستعرب لا يجيد العربية .

(هـ) الشخصية الأندلسية :

عُرف الأندلسيون بشخصية متميزة ، أسهم فى تكوينها إقليمهم وأصلهم وموضع بلادهم واقتصاد بيئتهم (٢).

أما الإقليم ، فقد عرفناه مختلف الطبيعة مقسم الجهات متباين الأصقاع ، وقد سبب هذا اختلافاً فى طبيعة السكان وتقسيما فى نزعاتهم وتبايناً فى ميولهم منذ أقدم العصور ؛

---

(١) انظر البحث الخاص بالموشحات فى الفصل الثالث من هذا الكتاب .

(٢) نقرر أن كثيراً من مظاهر الشخصية المذكورة فى هذا الحديث يغلب فى عصر دون عصر ولكنا نحاول رسم صورة تقريبية ، لأن لكل عصر فى الحقيقة طابعه المنعكس على الأفراد والمكون لشخصياتهم أو المغير لها بعض التغيير ، هذا بالإضافة إلى تغير الشخصية من واحد إلى آخر على ما هو معروف . فهذه خطوط تقريبية وعامة إلى حد كبير .

فهم بين جلالقة(١) فى الشمال الغربى ، وقطلانيين(٢) فى الشمال الشرقى ، وبشكنس(٣) فى الشمال ، وقشتاليين (٤) فى الوسط ، وجنوبيين (٥) فيما وراء الجبال السمراء .

ولما دخل المسلمون هذه البلاد كان لذلك الانقسام الجغرافى أثر فى انقسام الأندلسيين فى كثير من الأحايين ، وقد ساعد على هذا اختلاف العناصر التى ينتمى إليها هؤلاء الأندلسيون من عرب إلى بربر إلى إسبان .

وقد اتضح هذا الانقسام الذى سببته الطبيعة وغذاه الدم ، حتى ليلاحظ فى أغلب العصور الأندلسية المعروفة . فلم يخل عصر تقريباً من ثورة يقوم بها هذا الإقليم أو ذاك ، أو من حركة انفصال تحاولها هذه المنطقة أو تلك ، أو من روح تمرد يبديها هؤلاء أو أولئك . وكان من نتائج ذلك أن كثر إرسال الجيوش وقيادة الجند ، إن لم يكن لإخضاع ثورة إقليم مسلم ، فلرد هجمة جيش مسيحى ، وإن لم يكن لسد بعض الثغور ، فلتأمين بعض الحدود ، وشواهد ذلك كثيرة فى كتب تاريخ الأندلس .

وقد سبب ذلك نوعاً من القلق فى المجتمع الأندلسى فكان فى كثير من عهوده مجتمعاً قليل الاستقرار كثير الهزات .

ومن هنا يمكن أن نتصور الشخصية الأندلسية التى عاشت فى ظلال هذه الظروف ، شخصية قد عانت نوعاً من القلق ، جعلها تسعى إلى ما يشعر بالأمن أو إلى ما يسكن على الأقل بعض هذا القلق . وربما كان ذلك من أسباب ما نعرف من ميل الأندلسيين إلى ألوان من المتعة وصنوف من اللهو ، كالشراب والغناء والرقص والموسيقى ، وما أشبه ذلك مما كان يكلف به الأندلسيون .

---

(١) Gallegos
(٢) Catalanes
(٣) Vascos
(٤) Castillanos
(٥) Andaluces

على أن طبيعة بلاد الأندلس المقسمة المتباينة ، إن سببت هذه الظاهرة السيئة فى حياة المجتمع وفى نفوس أفراده — وأعنى ظاهرة القلق — فقد عوضت تلك الطبيعة نفسها هذا النقص بظاهرة حسنة ، كان لها أثر حميد فى نفوس الناس وطباعهم ، ثم فى فنونهم وآدابهم . ذلك أن الأندلسيين — كما ذكرنا — عاشوا أكثر ما عاشوا فى تلك السهول الخصبة ذات الجمال الطبيعى الفاتن ، وقد انعكس هذا على الناس خصوبة فى خيالهم ، وجمالا فى طباعهم ، ورقة فى أحاسيسهم ، وأخرج منهم أناساً يغلب عليهم طابع المحبين للجمال مشاهدة وتمثلا ، ثم محاكاة وتصويراً .

هذا ما كان من تأثير طبيعة الإقليم على الشخصية الأندلسية ، أما ما كان من تأثير لأصل الأندلسيين ودمائهم وموروثاتهم ، فقد عرفنا الأندلسيين مولدين من عرب وإسبان ومن شرقيين وغربيين ، وعرفنا الإسبان من قبل العرب مولدين بدورهم ، فقد اختلطت فيهم دماء الإيبريين بدماء السلتيين ، ثم بدماء الفينقيين والإغريق والقرطاجنيين والرومان والوندلس والقوط . فلما جاء العرب أخيراً كان الأندلسيون آخر الأمر ، خلاصة كل هذا التوليد ونتيجة كل ذلك الاتصال . وكان من نتائج ذلك أن أتى العنصر الأندلسى المولد ذاخصائص خِلقية وخُلقية وعقلية ونفسية مميزة جاءت كلهانتيجة لهذا التولد من تلك العناصر التى اختلطت منذ أقدم العصور .

وكان أهم هذه الخصائص الخِلقية : البياض المشرب بحمرة ، وقد يمتزجان فيصيران سمرة فى الجنوب . ثم القوام المعتدل الطول ، والشعر الذى يغلب عليه السواد . كل ذلك مع الوسامة فى الملامح والجمال فى التكوين(١).

---

(١) راجع ما وصف به لسان الدين بن الخطيب أهل غرناطة فى كتاب ، الإحاطة (ج ١ ص ٣٤ — ٣٥) ، وتلك الأوصاف تنطبق إلى حد ما على الأندلسيين لأن كثيراً من سكان غرناطة قد جاءوها من باقى الأقاليم الأندلسية بعد أن أصبحت هذه المملكة كل ما بقى للمسلمين فى الأندلس . على أن صور الأندلسيين قد تدل عليها صورة الإسبان اليوم . وهى قريبة من الأوصاف التى ذكرناها .

أما خصائص الأندلسيين من الناحية الخُلقية ، فقد كانت المحافظة على الأصول الأخلاقية العامة ، لكن مع ميل إلى التحرر والانطلاق ، وحب للترخص وبغض للتزمت . ومن هنا كانوا يكلفون بالشراب الذى ساعدت عليه وفرة الكروم فى بلادهم [١] . كما كانوا يهيمون بالموسيقى والغناء والرقص ، وهى فنون ربما كانت أنسب شىء إلى ظروفهم النفسية، المطالبة بنوع من التنفيس .

وربما كان من خصائص الأندلسيين فيما يتعلق بالأخلاق – أو إن شئت فقل فيما يتصل بالعادات – كلفهم الشديد بالنظافة [٢] وحبهم العظيم للتأنق ، وميلهم الواضح إلى الزينة [٣] ، ثم انفرادهم بتقاليد فى الزى تخالف ما كان عليه أهل الأقاليم الإسلامية الأخرى[٤].

فهم مثلا كانوا – فى بعض عهودهم – يميلون إلى كشف الرأس وعدم لبس العمائم ونحوها مما كان يستعمل فى الأقاليم الإسلامية حينئذ . كما كان المعممون بحكم مناصبهم كالفقهاء والقضاة يتخذون عمائم مغايرة تماماً لما كان عليه المشارقة . كذلك كانت ملابس الأندلسيين تتخذ تفاصيل وهيئات خاصة بهم، لا يكاد يعرفها إخوانهم فى المشرق ، وكان من أهم ظواهر مغايرة الأندلسيين للمشارقة فى تقاليد الزى ، اتخاذهم البياض لوناً للحداد[٥] .

---

(١) بلغ إقبالهم على الشراب إلى حد أن الحكم المستنصر هم بقطع الكروم وإراقة الأشربة فى أقاليم الأندلس . انظر جذوة المقتبس للحميدى ص ١٤ .

(٢) انظر : نفح الطيب للمقرى ، جـ ١ ص ١٠٤ .

(٣) انظر : المصدر السابق جـ ١ ص ١٠٣ – ١٠٤ ثم جـ ٢ ص ١١١ – ١١٢ .

(٤) انظر : نفح الطيب للمقرى جـ ١ ص ١٠٣ .

(٥) ومما ورد مشيراً إلى تلك العادة قول الشاعر أبى الحسن الحصرى :

إذا كان البياض لباس حزن ... بأندلس فذاك من الصواب
ألم ترنى لبست بياض شيبى ... لأنى قد حزنت على شبابى

أما خصائص الأندلسيين العقلية فأهمها : الذكاء الذى يميل إلى البساطة أكثر مما يميل إلى التعقيد ، والتفكير الآخذ باليسر النافر من التفلسف . ومن هنا كانوا يبعدون كثيراً عن التفريع والتعمق والتفلسف فى أحوالهم العقدية والثقافية والفنية أيضاً .

على أن من أهم خصائص الأندلسيين من الناحية النفسية ، ذلك الإحساس الذى يكاد يكون مركب نقص عاناه الأندلسيون بسبب وضعهم من المشارقة . فالمشارقة كانوا فى مهد الثقافة الإسلامية ، وبلادهم منبع اللغة العربية ، وأقاليمها مصدر الاتجاهات الأدبية ، فكل شيء عقدى أو عقلى أو فنى يظهر أولا فى المشرق ويأخذ منه المشارقة ما يشاءون ، ثم يفد بعد ذلك على الأندلس . وذلك كان بسبب قرب المشارقة من المصدر وبعد الأندلسيين عن هذا المصدر . ولهذا كان الأندلسيون يحسون بنوع من التخلف عن المشارقة ، ويحاولون دائماً أن يعوضوا ذلك بتأكيد تفوقهم برغم بعدهم ، وسبقهم برغم غربتهم . ومن هنا نراهم يتعصبون للدين تعصباً شكلياً ، حيث يتعلقون بمذهب مالك مثلا تعلقاً يوشك أن يكون جموداً ، هذا على حين يترخصون فى كثير من الأمور ترخصاً ربما كان مخالفة صريحة للدين من أساسه .

كذلك نراهم يتعصبون للغة تعصباً ظاهرياً أيضاً ، حيث يفتتنون بعلم النحو مثلا ويقتلونه درساً وتأليفاً ، ثم هم فى الوقت نفسه يتخذون لحياتهم لغة أبعد ما تكون عن النحو بل ربما كانت أبعد ما تكون عن العربية نفسها .

كما نراهم يتعصبون للأدب التقليدى تعصباً صورياً . فيتلقفون مذاهبه ويهضمون اتجاهاته ويحفظون مؤلفاته ، ويتسابقون إلى عمل مثلها أو أحسن منها . كل هذا مع اختراعهم أشكالا جديدة من الأدب ، تبعد كل البعد عن تلك الأشكال التقليدية التى يأخذون بها أنفسهم حين ينظرون إلى الأدب الوارد إليهم من المشرق .

وهكذا نرى ذلك الإحساس بالنقص أمام المشارقة كان يدفع إلى كل ما يلاحظ

فى حياتهم من تقليدية فى الدين والثقافة والأدب ، على حين يجذبهم شىء آخر إلى التحرر والانطلاق والتجديد . هذا الشىء هو بُعد بلادهم عن المشرق ، واختلاط عناصرهم بعناصر أجنبية عن العرب ، واتصالهم بمؤثرات تفتح أعينهم على كثير مما ليس فى تقاليد الحياة الإسلامية العربية . ومن هنا يمكن أن نفسر هذين الجانبين من حياة الأندلسيين : الجانب التقليدى الصارم الذى جاء بدافع حب التفوق على المشارقة فيما سبق إليه المشارقة ، ثم الجانب التحررى المنطلق الذى جاء من البيئة النائية والأصل المولد والمجتمع المختلط .

بقى أن نقول : إن اقتصاد بيئة الأندلس قد أسهم كذلك فى تكوين شخصية الأندلسيين ؛ فقد كانت الأندلس فى أغلب عهودها بيئة غنية بالزراعة النامية التى أدخل المسلمون كثيراً من طرقها وأدواتها ونباتاتها ، والتى لاتزال آثارها باقية إلى اليوم ، فى المزارع الإسبانية المحافظة على كثير من الأسماء العربية فى المكان والنبات والآلة على السواء[١] .

ولم تكن الزراعة هى مصدر الرخاء الوحيد ، بل كانت هناك الصناعة أيضاً ، وكانت تعتبر من أهم دعائم الاقتصاد الأندلسى حينئذ ، فقد وفد على الأندلس بعد الفتح كثير من الصناع المهرة الذين جاءوا من مختلف الأقاليم الإسلامية ، وساعدتهم موارد الأندلس الأصلية على تأسيس صناعات وتنمية أخرى ، حتى اشتهرت مدن كثيرة بصناعات لايزال أثرها حتى اليوم ، مثل قرطبة وشهرتها بالمنسوجات ، وألمرية وشهرتها بمنتجات الفخار ؛ ومثل قونقة التى عرفت بمصنوعات العاج ، وشاطبة التى نبغت فى صناعة الورق ، وطليطلة ذات التفوق فى إنتاج السيوف وعدد الحرب .

---

(١) من أمثلة أدوات الزراعة الباقية إلى اليوم Acequia, Aljibe, Alcaduz ومعناها : الساقية ، الجب ، القادوس .

ومن أمثلة المزروعات التى لا تزال تحمل الاسم العربى Arroz, Azucar, Aceituna ومعناها : الرز ، السكر ، الزيتون .

هذا وقد كان للتجارة شأن كبير فى المجتمع الأندلسى . ولاشك أن ثغور الأندلس العديدة ومنتجاتها الكثيرة مما شجع على رواج التجارة الأندلسية ؛ فقد كانت إشبيلية تصدر القطن والزيت ، كما كانت تستورد المنسوجات المصرية الشهيرة . وتستقبل كذلك قوافل الرقيق من آسيا وأوربا ، وكانت هذه التجارة غير الإنسانية رائجة فى تلك العهود . كذلك كانت جيان ومالقة تصدران التين والسكر والمرمر ، على حين تصدر بلاد أندلسية أخرى النحاس وأنواعاً مختلفة من المعادن .

وكانت أهم أسواق بضائع الأندلس فى إفريقيا وآسيا وخاصة مصر والقسطنطينية وكان البيزنطيون يتلقون منتجات الأندلس، ويصدرونها بدورهم إلى آسيا الوسطى والهند . وبالإضافة إلى كل هذا كانت هناك علاقات تجارية للأندلس مع باقى بلاد العالم الإسلامى وعواصمه كمكة وبغداد ودمشق(١) .

وليس من شك فى أن الرخاء الاقتصادى يسهم فى تكوين الشخصية ، لهذا كان الأندلسيون بهذاالرخاء الذى غلب على حياتهم ، قادرين على مواجهة الحياة فى ابتسام وتفاؤل وتفتح إلى حد كبير . كذلك كان هذا الرخاء من عوامل إقبالهم على الثقافة وتعلقهم بالأدب واقتنائهم للكتب . ومن هنا كان المجتمع الأندلسى مجتمعاً مثقفاً متأدباً ، بل كان أكثر مجتمعات أوربا ثقافة وأدباً فى تلك العصور ، بل إن شئت فقل : كان هو المجتمع الأوربى الذى يمكن أن يتصف بالثقافة والأدب حينذاك .

---

(١) انظر : Palencia : Historia de la Espana musulmana, pp. 136 ff.

الفصل الأول

فترة الولاة

١ – فترة منازعات وحروب :

أهم ما تتسم به فترة الولاة من الناحية السياسية أنها فترة منارعات وحروب[١]، فهى فترة الفتح وما يتبعه من تأكيد سلطان الفاتحين بتتبع الفارين والمناوئين ؛ ثم هى فترة المنافسة على الولاية والمنازعة فى السلطة ، بين العرب والبربر أولا ، ثم بين العرب أنفسهم قحطانيين وعدنانيين ثانياً . وهكذا شهدت تلك الفترة من تاريخ الأندلس كثيراً من الحملات الحربية . التى كانت تسير إلى لقاء الفرنجة عبر البرانس حيناً ، وإلى لقاء الإسبان فى الأقاليم الشمالية من شبه الجزيرة حيناً آخر . كذلك شهدت تلك الفترة كثيراً من الثورات ، يقوم بها البربر ضد العرب تارة ، ويشنها بعض العرب ضد واليهم تارة أخرى ، وكتب التاريخ تورد لنا أسماء أربعة وعشرين والياً [٢] قاموا بالأمر تباعاً فى الأندلس خلال تلك الفترة ، التى لا تبلغ نصف القرن . وهذا وحده كاف فى

---

(١) انظر : أخبار مجموعة ص ١٩ – ٥٨ . وابن القوطية : تاريخ افتتاح الأندلس ص ١٠ – ١١ . وابن عذارى : البيان المغرب ج ٢ ص ٣٠ – ٥٦ .

وانظر أيضاً : Levi : Espana musulmana, pp. 22 ff. .

(٢) هؤلاء الولاة هم : طارق بن زياد (٧١٠ – ٧١١) م وموسى بن نصير (٧١١ – ٧١٣) وعبد العزيز بن موسى (٧١٣ – ٧١٥) وأيوب بن حبيب (٧١٥ – ٧١٥) والحر بن عبد الرحمن (٧١٥ – ٧١٨) والسمح بن مالك (٧١٨ – ٧٢٠) وعبد الرحمن بن عبد الله الغافقى (٧٢١ – ٧٢١) وعنبسة بن سحيم (٧٢١ – ٧٢٥) وعذرة بن عبد الله الفهرى (٧٢٥ – ٧٢٥) ويحيى بن سلمة الكلبى (٧٢٥ – ٧٢٨) وحذيفة بن الأحوص (٧٢٨ – ٧٢٨) وعثمان بن أبى نسعة (٧٢٨ – ٧٢٩) والهيثم بن عبيد (٧٢٩ – ٧٢٩) ومحمد بن عبد الله الأشجعى (٧٢٩ – ٧٣٠) وعبد الرحمن الغافقى للمرة الثانية (٧٣٠ – ٧٣٢) وعبد الله بن قطن (٧٣٢ – ٧٣٤) وعقبة بن حجاج (٧٣٤ – ٧٤٠) وعبد الملك بن قطن للمرة الثانية (٧٤٠ – ٧٤٠) وبلج بن بشر (٧٤٠ – ٧٤١) وثعلبة بن سلمة العاملى (٧٤١ – ٧٤٢) وأبو الخطار حسام بن ضرار (٧٤٢ – ٧٤٤) وثوابة بن سلمة (٧٤٤ – ٧٤٦) وعبد الرحمن بن كثير (٧٤٦ – ٧٤٦) ويوسف الفهرى (٧٤٦ – ٧٥٥) .

نصور ما كانت عليه سياسة الأندلس فى هذه الفترة من اضطراب وعدم استقرار . فالحكم الإسلامى كان لايزال فى طور البدء بتلك البلاد، ولم يكن قد أصاب حظاً من الاستقرار المطمئن بعد، ولم تكن الحكومة الإسلامية هناك قد وطدت سلطانها على الأقاليم الشمالية، التى تلوذ بها جماعات فارة متربصة . كذلك لم تكن الحكومة الإسلامية قد أمنت حدودها ضد الفرنجة فيما وراء البرانس . وبعد ذلك كله لم يكن المسلمون أنفسهم على وفاق دائماً فى تلك الفترة من حياتهم بالأندلس ؛ فالعرب قد تفردوا بالسهول الخصيبة ، وجعلوا منهم الوالى وغيره من حكام الأقاليم ، أما البربر فقد أفردوا بالمناطق الجبلية والأقاليم النائية، وحرموا من الولاية ومما يشبه الولاية من رياسات . والعرب أنفسهم قد جاءوا إلى الأندلس بعصبياتهم ولم ينسوا العداوات القديمة بين عدنان وقحطان .

ومن هنا كانت الحروب الدينية بين المسلمين والإسبان والفرنجة أولا ، وكان النزاع العنصرى الدموى بين العرب والبربر ثانياً . ثم كان الصراع القبلى بين العرب أنفسهم آخر الأمر . لهذا كله كانت السمات السياسية لتلك الفترة هى النزاع والصراع ، والاضطراب والقلق .

٢ — مجتمع مفكك قلق :

وقد كان أكثر الداخلين إلى الأندلس فى تلك الفترة من أهل الحرب والحكم ، وكانوا فى أول لقائهم بسكان هذه البلاد ، وفى أولى مراحل التعرف إليهم والاتصال بهم . وبالرغم من أن هؤلاء السكان الأصليين كانوا يقبلون على الإسلام ويحاولون تعلم العربية ، وبالرغم من أن الوافدين كانوا يتزوجون منهم ويعيشون فى البلاد معهم ؛ قد كان قرب العهد بالفتح لايزال يطبع المسلمين بطابع الغرباء ، ويطبع الإسبان بطابع المواطنين ، نكان المجتمع لم يتم توحده بل لم يتم ترابطه . فإذا أضفنا إلى ذلك ما تعكسه المنازعات

والحروب التى كانت أهم سمات السياسة فى تلك الفترة ؛ تصورنا المجتمع فى تلك السنوات من تاريخ الأندلس ، مجتمعاً مقسماً مفككاً ؛ فيه عرب وفيه بربر ، وفيه إسبان مسلمون وغير مسلمين ، ثم تصورناه قبل ذلك مجتمعاً لا استقرار فيه ولا هدوء ؛ فهو بين جيوش تسير ، وثورات تشب ، ووال يعزل ، وآخر يقتل . وكل هذا من شأنه أن يصيب المجتمع بأنواع من الاضطراب الحسى والنفسى ؛ تعوقه عن كل ما هو فى صالح تقدمه ونهوضه .

٣ ـ الأشعة الأولى للثقافة الإسلامية :

لسنا ـ بعد ما تقدم ـ ننتظر ثقافة لتلك الفترة من تاريخ الأندلس ، فالفترة فترة منازعات وحروب ؛ والمجتمع مفكك قلق ، مضطرب الحس والنفس جميعاً . وأغلب الداخلين إلى الأندلس جنود وحكام ، شأنهم المعارك والسياسات لا العلوم والثقافات.

ومع ذلك قد عرفت الأندلس فى فترة الولاة نوعاً من الثقافة ، كان بمثابة خيوط الفجر الأولى ، التى تؤذن بصبح مشرق . فقد دخل الأندلس فى فترة الولاة نفر من الصحابة والتابعين [١] ، الذين كانوا على حظ من المعرفة الدينية ، وكانوا يصحبون الجند أو يفدون بعد الفتح ، للإفتاء فيما يعن للمسلمين من أمور الدين ، كتقسيم المغانم وتحديد الضرائب وتخطيط المساجد ، وتفقيه الناس [٢] . وأغلب الظن أن هؤلاء قد أسسوا أوائل المدارس الأندلسية ، حين أنشئت أوائل المساجد فى إشبيلية وقرطبة وغيرهما

---

(١) من الصحابة: المنيذر . ومن التابعين: موسى بن نصير ، وعلى بن رباح ، وحنش الصنعانى ، وابن يزيد المعافرى ، ونشيط بن كنانة العذرى ، وحيوة بن رجاء التميمى ، وعياض بن عقبة الفهرى ، وعبد الجبار بن أبى سلمة.
انظر : المقرى : نفح جـ ٢ ص ٥١ وما بعدها ، والمراكشى : المعجب ص ـ ٩ ـ ١٠ .

(٢) من المعروف أن عمر بن عبد العزيز بعث عشرة من التابعين إلى إفريقية لتثقيف الناس . والعلاقة كانت وثيقة بين إفريقية والأندلس . انظر : رياض النفوس لأبى بكر المالكى جـ ١ ص ٦٤ وما بعدها .

من البلاد ، وأن عنايتهم كانت قبل كل شيء بتدريس كتاب الله وسنة رسوله ، وبلغة القرآن والحديث[١] .

وليس من شك فى أن الحياة الثقافية كانت متواضعة أشد التواضع ، وأنها لم تكن تتجاوز حلقات فى بعض المساجد التى كانت قليلة حينذاك ، كما كان الأساتذة قليلين أيضاً بطبيعة الحال .

٤ ـ البذور الأولى للأدب العربى :

وكما عرفت تلك الفترة نوعا متواضعاً من الثقافة ، عرفت كذلك قدراً ضئيلا من الأدب ، وكما وفدت الثقافة المتواضعة مع نفر من العلماء كانوا ممن خدموا الولاية الإسلامية حينذاك ؛ وفد الأدب الضئيل أيضاً مع نفر من الأدباء كانوا ممن عملوا فى الولاية الأندلسية فى تلك السنين . وكما كان هذا القدر المتواضع من الثقافة بمثابة الخيوط الأولى لفجر الثقافة الأندلسية ، كان هذا الحظ الضئيل من الأدب بمثابة بذور الأدب الأندلسى الذى سيزدهر بعد حين . وفيما يلى كلمة عن كل من جنسى الأدب :

(ا) الشعر :

كان من بين العرب الوافدين على الأندلس فى فترة الولاة نفر ممن يقرضون الشعر وقد حفظت لنا المراجع بعض أسماء هؤلاء ، فمنهم :

أبو الأجرب جَعْوَنَة بن الصِّمَّة . وهو من العرب الطارئين على الأندلس ، وقد اشتهر بهجاء الصُّمَيْل بن حاتم رئيس القيسية هناك . واشتهر أيضاً بمدح الصميل بعد

---

(١) يستفاد ذلك مما ذكر صاعد فى : طبقات الأمم ، حيث قرر أن عناية الأندلسيين كانت فقط بعلوم الدين واللغة حتى توطد الملك لبنى أمية (ص ٦٢) .
وانظر : ابن القوطية : تاريخ افتتاح الأندلس ص ٤٠ ــ ٤١ .

أن تمكن منه فعفا عنه . وقد قيل إن هذا الشاعر كان فى مرتبة جرير والفرزدق ، وأنه لو أنصف لاستشهد بشعره . كذلك روى أن أبا نواس سأل عنه عباس بن ناصح الأندلسى ، وطلب أن يسمع شيئاً من شعر جعونة ، وذلك حين التقى أبو نواس بابن ناصح فى العراق [١] .

ومع كل ذلك ليس بين أيدى الباحثين اليوم إلا قليل جداً من شعر هذا الشاعر ، الذى اهتم به أبو نواس ، والذى قيل إنه فى مرتبة جرير والفرزدق ، والذى قيل إنه كان يجب أن يستشهد بشعره . ومن هذا القليل الذى حفظ من شعر جعونة قوله :

ولقد أرانى من هواى بمنزل　　　عال ورأسى ذو غدائر أفرعُ
والعيشُ أغيد ساقطٌ أفنانه　　　والماء أطيبه لنا والمرتع [٢]

ومن شعراء تلك الفترة كذلك :

أبو الخطّار حُسام بن ضِرار . . وقد كان من أشراف القحطانيين فى الأندلس ، وممن شهدوا فتوح المسلمين بإفريقيا وأبلوا فيها . وقد وفد على الأندلس والياً سنة ١٢٥ هـ — ٧٤٢ م أيام هشام بن الملك . وكان شاعراً فارساً ؛ ولذا لقب بعنترة الأندلس[٣] . وهو كسابقه . لم يعثر إلى اليوم إلا على قليل من شعره . فمن ذلك قوله فى ثأر أخذه لعزيز من قومه :

فليت ابن جَوّاسٍ يخبَّر أننى　　　سعيتُ به سعى امرئٍ غير غافلِ

---

(١) راجع فى أخبار الشاعر : ابن سعيد : المغرب ج ١ ص ١٣١ — ١٣٢ . والمقرى : نفح ج ٢ ص ١٥٦ . والضبى : بغية الملتمس . ترجمة رقم ٦٢٢ والحميدى : جذوة المقتبس ١٨٧—١٨٨ .

(٢) ورد هذان البيتان بهذا التحقيق فى المغرب ج ١ ص ١٣٢ .

(٣) انظر فى أخبار أبى الخطار : بغية الملتمس للضبى ت ٦٨٦ ، وجذوة المقتبس للحميدى ص ١٨٨— ١٨٩ ، وتاريخ افتتاح الأندلس لابن القوطية ص ١٨ — ١٩ ، وأخبار مجموعة ص ٥٦ — ٦٠

قَتلتُ به تسعين تحسب أنهم جذوع نخيل صُرِّعت فى المسايل
ولو كانت الموتى تباع اشتريته بكفى وما استثنيت منها أناملى[١]

ومن شعره أيضاً قوله فى معاتبة للحكام المروانيين على نصرتهم للقيسيين على اليمنيين :

أفأتم بنى مروان قيسا دماءنا وفى الله إن لم تنصفوا حكم عدل
كأنكمُ لم تشهدوا « مرج راهط »[٢] ولم تعلموا من كان ثَم له الفضل
وقيناكمُ حر الوغى بصدورنا وليست لكم خيل تُعَدُّ ولا رَجْل
فلما رأيتم واقد الحرب قد خبا وطاب لكم منها المشارب والأكل
تغافلتمُ عنا كأن لم يكن لنا بلاء وأنتم — ما علمتُ — لها فُعل
فلا تجزعوا إن عضت الحرب مرة وزلت على المرقاة بالقدم النعل[٣]

هذان شاعران تردد شعرهما فى الأندلس خلال فترة الولاة ، ومن المحقق أنهما لم يكونا وحدهما اللذين عُرفا بقول الشعر فى تلك الفترة ، وإنما كان هناك آخرون[٤] نسيت أسماؤهم وضاعت أشعارهم ، مع الكثير مما نسى وضاع من تراث الأندلس ، وخاصة فى هذه الحقبة المتقدمة المضطربة من تاريخها .

---

(١) الحميدى : جذوة ص ١٨٨ — ١٨٩ .

(٢) معركة دارت بالشام سنة ٦٥ هـ فى عهد مروان بن الحكم ومعه اليمنيون بقيادة حسان بن مالك الكلبى ضد القيسيين المشايعين لابن الزبير بقيادة الضحاك بن قيس الفهرى ، وانتهت بهزيمة الضحاك وانتصار اليمنيين ، وكانت معركة حاسمة دعمت قيام الدولة المروانية فى الشرق .

(٣) هذا نص الأبيات فى تاريخ افتتاح الأندلس لابن القوطية ، مع إغفال بيت أخير ورد ناقصاً هكذا : . . . . حبل الوصل وانقطع القوى ألا ربما يلوى فينقطع الحبل

وقد جاءت الأبيات فى الجذوة بصور مغايرة قليلا للصورة التى جاءت عليها فى كتاب ابن القوطية . وقد آثرت الأولى لأنها أسبق .

انظر جذوة المقتبس ص ١٨٩ وتاريخ افتتاح الأندلس ص ١٨ — ١٩ .

(٤) من شعراء تلك الفترة : بكر الكنانى الذى سأل عنه أبو نواس عباس بن ناصح كما سأل عن جعونة بن الصمة السابق الذكر : انظر المقرى جـ ٢ ص ١٥٦ .

وإذا جاز لنا أن نتصور خصائص الشعر فى هذه الفترة ، فنحن ملزمون بالحذر الشديد لقلة ما بين أيدينا من نصوص ، ونحن مضطرون إلى الاسترشاد بما لدينا من أخبار بعض الشعراء الذين عاشوا فى تلك الفترة ، لنعوض بتلك الأخبار قلة الشعر ، ثم نحن مضطرون آخر الأمر إلى الاعتراف بأن هذا التصور تقريبى ظنى لا حقيقى قطعى . وعلى هذا الأساس يمكن أن يقال : إن شعر هذه الفترة ليس له من الأندلسية إلا أنه قيل فى الأندلس ؛ فقائلوه فى الحقيقة مشارقة وفدوا على الأندلس فيمن وفد مع الفتح وبعده . ثم هو بعد ذلك شعر مماثل لذلك الشعر المحافظ الذى كان شائعاً فى المشرق فى ذلك الحين ، والذى كان من أعلامه جرير والفرزدق . فهو شعر يتناول فى موضوعاته المدح والهجاء والفخر والحماسة ، كما رأينا فى بعض النماذج القليلة التى حفظت لنا ، وكما تدل أخبار بعض الشعراء ، ثم هو شعر يجرى على تقاليد المدرسة المحافظة Clasica ولا ينعكس عليه من الأندلس أى أثر ؛ فهو يُعنى بجزالة اللفظ وفخامة العبارة ، ولا يُرى فى معانيه كثير من تعمق الفكر . ولا يلمح فى صوره نصيب من تحليق الأخيلة ، وإنما هو أميل إلى البداوة . وأقرب إلى الخشونة .

وربما كان هذا الشعر أنسب شىء إلى طبيعة الناس وظروفهم فى ذلك الحين ؛ فقد كانوا لا يزالون على كثير من بداوتهم ، متمسكين بقبليتهم ، ولم يصيبوا بعد من الثقافة والتحضر والتأثر بالحياة الجديدة ، ما من شأنه أن يوجه شعراءهم إلى تجارب شعرية محدثة وأساليب فنية مميزة .

(ب) النثر :

ربما لم يكن بين أيدى الباحثين اليوم نماذج ذات شأن من نثر تلك الفترة من تاريخ الأندلس . ولكن الذى لا شك فيه . أن هذه الفترة عرفت بعض الناثرين وكان لها حظ ولو ضئيل من النثر ؛ بل ربما كان هذا الحظ على ضآلته أوفر من حظ الشعر . ذلك أنه

كانت هناك دواع للنثر أكثر من دواعى الشعر ، فالخطابة كانت ضرورة تقتضيها ظروف الحرب والنزاع القبلى[١] . وتتطلبها مناسبات سياسية ودينية مختلفة . ولا يمكن أن نتصور المسلمين فى الأندلس قد عاشوا فترة الولاة دون أن يصغوا إلى خطباء ، فهم على الأقل كانوا يستمعون إلى هؤلاء الوعاظ والدعاة الذين كانوا عادة يصحبون الجنود ويفدون على الأقاليم الجديدة ليثبتوا المقاتلين ، ويدعوا للنظام الجديد[٢] .

والكتابة كانت كذلك ضرورة تقتضيها ظروف الفتح والحكم وتسيير الشئون، وتتطلبها أيضاً مناسبات رسمية وشخصية عديدة ، كعهد يُعطى وصلح يُبرم ورسالة توجه .

وقد حفظت لنا بعض المراجع قليلا جداً من كتابات فترة الولاة ، كما حفظت أيضاً بعض أسماء الكتاب القليلين . فمما حفظ من الكتابة عهد عبد العزيز بن موسى بن نصير « لتُودمير » أحد حكام القوط . وقد جاء فيه : « بسم الله الرحمن الرحيم ، من عبد العزيز إلى تدمير ، أنه نزل على الصلح وأنه له عهد الله وذمته ، ألا ينزع عن ملكه ، ولا أحد من النصارى عن أملاكه ، وأنهم لا يُقتلون ولا يُسبون ، أولادهم ونساءهم ؛ ولا يكرهون على دينهم ، ولا تحترق كنائسهم ، ما تَعَبَّد ونَصَح . وأنه لا يأوى لنا عدواً ولا يخون لنا أمنا ، ولا يكتم خبراً علمه . . . »[٣]

ومما حفظ كذلك من كتابة تلك الفترة ، جزء من رسالة يوسف الفهرى آخر الولاة ، إلى عبد الرحمن بن معاوية حين علم بنزوله بالأندلس . والمرجح أن محرر تلك الرسالة هو خالد بن يزيد ، كاتب يوسف الفهرى ورسوله إلى عبد الرحمن ، حين أراد أن يتألفه ويتفادى خطره[٤] . وذلك هو الجزء الذى بقى من الرسالة :

---

(١) انظر ما كان من قول الصميل بن حاتم لأصحابه ، فى البيان المغرب ج ٢ ص ٥٠ . وما كان بين الصميل ورجل عارضه ، فى أخبار مجموعة ص ٦١ .

(٢) انظر : ابن القوطية : تاريخ افتتاح الأندلس ص ١٧٤ — ١٨٥ .

(٣) Casiri : Biblioteca Arabico Hespana Escurialensis II, p. 105.

(٤) انظر : البيان المغرب لابن عذارى ج ٢ ص ٦٧ .

« أما بعد ، فقد انتهى إلينا نزولك بساحل المنكَّب ، وتأبُّش[١] من تأبش إليك ونزع نحوك من السراق وأهل الختر والغدر ونقض الأيمان المؤكدة التى كذبوا الله فيها وكذبونا ، وبه جل وعلا نستعين عليهم . ولقد كانوا معنا فى ذرى كنف ورفاهية عيش ، حتى غمصوا[٢] ذلك ، واستبدلوا بالأمن خوفاً ، وجنحوا إلى النقض ، والله من ورائهم محيط . فإن كنت تريد المال فأنا أولى بك ممن لجأت إليه ، أكنفك وأصل رحمك وأنزلك معى إن أردت ، أو بحيث تريد . ثم لك عهد الله وذمته بى ، ألا أغدرك ، ولا أمكن منك ابن عمى صاحب إفريقية ، ولا غيره . . . »[٣]

ومن الكتاب القليلين الذين عملوا فى تلك الفترة : خالد بن يزيد . الذى كان كاتباً ليوسف الفهرى أحد ولاة الأندلس .

ومنهم كذلك أمية بن زيد ، الذى دخل الأندلس مع جنود بَلْج بن بشر ، واتصل بخالد بن زيد فجعله كاتباً معه . وقد اشتغلا بالكتابة حتى أيام عبد الرحمن الداخل . . وعملا له بعض الوقت[٤] .

وإذا جاز لنا أن نتصور نثر تلك الفترة . فإننا بعد الحذر الشديد والاستعانة بتصور حال تلك الفترة من النواحى السياسية والاجتماعية والثقافية ؛ نتصوره نثراً يتناول مسائل الدين وشئون السياسة وأمور القبائل فى خطبه ، ويعالج العهود والرسائل والتوقيعات فى كتابته . وذلك لأن كل ذلك مما تقتضيه طبيعة تلك الفترة وتتطلبه ظروفها . أما الخصائص الفنية لهذا النثر ، فهى خصائص النثر المشرقى الذى كان معروفاً فى عصر بنى أمية . فهو نثر يميل إلى الإيجاز ويعنى بقوة العبارة أكثر من عنايته بتجميلها ، ثم هو لا يعرف

(١) تأبش : تجمع وتجيش .
(٢) غمصوا : أنكروا واستقلوا .
(٣) انظر : البيان المغرب ج ٢ ص ٦٧ — ٦٨ .
(٤) انظر : إعتاب الكتاب لابن الأبار (مخطوط بالإسكوريال رقم ١٧٣٦ ورقة ١٠ ، ١١)

تلك المقدمات الطويلة والرسوم المرعية والألقاب العديدة ، وما أشبه ذلك مما جاء مع العصر العباسي ، ومما كان من أسبابه اختلاط العرب بالفرس . وربما أيد هذا التصور ما يعرف من أن الناثرين ــ كالشاعرين فى تلك الفترة ــ كانوا جميعاً مشارقة الأصل والثقافة . ومن شأنهم أن يسيروا على ما عرفوا فى المشرق من أساليب . وربما ساعد على هذا التصور أيضاً ، ذلك العهد الذى كتبه عبد العزيز بن موسى . ثم هذه الرسالة التى وجهها يوسف الفهرى إلى عبد الرحمن بن معاوية ؛ فهما على قصرهما ظاهرتا الدلالة على بعض ما ذكرنا من خصائص النثر فى فترة الولاة .

٥ ــ الأدب المنسوب إلى طارق :

وربما كان من المكمل للحديث عن الأدب فى فترة الولاة ، أن نعرض لنصين نسبا إلى طارق بن زياد ، أحدهما أبيات من الشعر يقول فيها :

ركبنا سفيناً بالمجاز مقيَّرا ... عسى أن يكون الله منا قد اشترى
نفوساً وأموالا وأهلا بجنة ... إذا ما اشتهينا الشئ فيها تيسرا
ولسنا نبالى كيف سالت نفوسنا ... إذا نحن أدركنا الذى كان أجدرا[١]

وثانى النصين خطبة قيل إنه ألقاها فى جنوده يحمسهم على القتال بعد أن نزل بهم بلاد الأندلس ، وبعد أن أحرق السفن التى حملته وجنوده من شمال إفريقيا إلى جنوب إسبانيا .

ونص تلك الخطبة هو : « أيها الناس ، أين المفر ؟ البحر وراءكم والعدو أمامكم ، وليس لكم والله إلا الصدق والصبر . واعلموا أنكم فى هذه الجزيرة أضيع من الأيتام فى مأدبة اللئام ، ولا أقوات لكم إلا ما تستخلصون من أيدى عدوكم ، وإن امتدت

(١) المقرى : نفح جـ ١ ص ١٢٤ .

بكم الأيام على افتقاركم ولم تنجزوا لكم أمراً ، ذهب ريحكم ، وتعوضت القلوب من رعبها منكم الجرأة عليكم . فادفعوا عن أنفسكم خذلان هذه العاقبة من أمركم بمناجزة هذا الطاغية ؛ فقد ألقت به إليكم مدينته الحصينة ، وإن انتهاز الفرصة فيه لممكن إن سمحتم لأنفسكم بالموت . وإنى لم أحذركم أمراً أنا عنه بنجوة ، ولا حملتكم على خطة — أرخص متاع فيها النفوس — أبرأ منها بنفسى . واعلموا أنكم إن صبرتم على الأشق قليلا . استمتعتم بالألذ الأرفه طويلا . فلا ترغبوا بأنفسكم عن نفسى فما حظكم فيه بأوفر من حظى . وقد بلغكم ما أنشأت هذه الجزيرة من الحور الحسان ، من بنات اليونان ، الرافلات فى الدر والمرجان ، والحلل المنسوجة بالعقيان ، المقصورات فى قصور الملوك ذوى التيجان . وقد انتخبكم الوليد بن عبد الملك أمير المؤمنين من الأبطال عرباناً ، ورضيكم لملوك هذه الجزيرة أصهاراً وأختاناً ، ثقة منه بارتياحكم للطعان ، واستماحكم بمجالدة الأبطال الفرسان ، ليكون حظه منكم ثواب الله على إعلاء كلمته وإظهار دينه بهذه الجزيرة ؛ وليكون فتحها خالصاً لكم من دونه ومن دون المؤمنين سواكم . والله تعالى ولىّ إنجادكم على ما يكون لكم ذخراً فى الدارين . واعلموا أنى أول مجيب لما دعوتكم إليه ، وأنى عند ملتقى الجمعين حامل بنفسى على طاغية القوم لذريق فقاتله إن شاء الله تعالى . فاحملوا معى ، فإن هلكت بعده ، فقد كفيتكم أمره ولم يعوزكم بطل عاقل تسندون أموركم إليه ، وإن هلكت قبل وصولى إليه فاخلفونى فى عزيمتى هذه ، واحملوا بأنفسكم عليه ، واكتفوا إليهم من فتح هذه الجزيرة بقتله ، فإنهم بعده يخذلون » (١) .

ولو صحت نسبة هذين النصين إلى طارق بن زياد . لكانا أول أدب عربى تردد فى الأندلس ، ولكانا فى طليعة النصوص التى تعتز بها فترة الولاة . ولكن نسبة هذين النصين إلى طارق يحف بها كثير من الشك ؛ وذلك لعدة أسباب . منها أن طارق بن

(١) المقرى : نفح ج ١ ص ١١٢ .

زياد كان بربرياً مولى لموسى بن نصير[١] ، ومن شأنه أن يكون حديث عهد بالعربية ، وألا يستطيع الخطابة والشعر بلغة هو حديث عهد بها . فقد ولى موسى بن نصير قيادة المغرب على الأرجح سنة ٨٩ هـ أيام الوليد بن عبد الملك ، ومن المعقول أن تكون هذه السنة هى مبدأ ارتباط طارق بموسى ، وربما بالإسلام والعربية أيضاً ، فإذا كان فتح الأندلس سنة ٩٢ هـ ، فإن عمر طارق فى الإسلام واتصاله بالعربية يكون فترة وجيزة يستبعد معها أن يجيد طارق لغة العرب إجادة تسمح له بنظم الشعر وإلقاء الخطب[٢]

ومن أسباب الشك فى هذا الأدب المنسوب إلى طارق ، أن المصادر الأولى التى سجلت حوادث تفاصيل الفتح ، قد خلت تماماً من أى حديث عن هذا الأدب مع أنها تناولت تفاصيل يدخل بعضها فى باب الأساطير . وقد استوت فى ذلك الصمت عن هذا الأدب ، المصادر الأندلسية[٣] والمشرقية[٤] جميعاً . ولم يرد هذا الأدب المنسوب إلى طارق إلا فى بعض المصادر المتأخرة كثيراً عن فترة الفتح ، مثل نفح الطيب للمقرى[٥] الذى أورد الخطبة دون أن يخبرنا عن المصدر الذى نقلها عنه ، وأورد الشعر معتمداً — كما قال — على كتابى المسهب والمغرب ، وهما بدورهما متأخران كثيراً عن فترة الفتح[٦] .

ومن أسباب الشك فى نسبة الخطبة بخاصة إلى طارق ، ذلك الأسلوب الذى جاءت به ، فهو أسلوب لم يكن معروفاً فى النثر العربى خلال الفترة التى تعزى إليها تلك الخطبة .

---

(١) وقيل أصله فارسى . والراجح كونه من البربر . انظر البيان المغرب ج ١ ص ٧ .

(٢) وحتى لو فرضنا أن طارقاً كان على صلة بالإسلام والعربية قبل ولاية موسى ، لأن له أبوين فى الإسلام كما يذكر ابن عذارى فى البيان المغرب — فإن ذلك لا يتيح له معرفة العربية إلى درجة قول الشعر وإلقاء الخطب بها ، لأن أحوال المغرب فى تلك الآونة لم تكن تسمح بتأدب .

(٣) مثل : أخبار مجموعة لمؤلف مجهول ، وتاريخ افتتاح الأندلس لابن القوطية .

(٤) مثل فتوح مصر لا بن عبد الحكم ، وفتوح البلدان للبلاذرى .

(٥) وهو مغربى من علماء القرن الحادى عشر هـ .

(٦) المسهب للحجارى . والمغرب لابن سعيد . وهما أندلسيان عاش أولهما فى القرن السادس الهجرى وعاش الثانى فى القرن السابع .

فالسجع الكثير والمحسنات المتكلفة قد عاشت فى عصر متأخر كثيراً عن القرن الأول الذى قالوا إن ابن زياد قال خطبته فيه ، والمعروف أن الخطابة فى تلك الفترة كانت كنماذج الحجاج وزياد وقطرى وغيرهم ممن عرفهم العصر الأموى . والخطبة التى بين أيدينا — منسوبة إلى طارق — بعيدة كل البعد عن خصائص الخطابة المعروفة حينذاك ، وإنما هى أقرب إلى خصائص أواخر العصر العباسى . وربما إلى ما بعد ذلك حيث شاع السجع وكثرت المحسنات .

وشىء آخر قد جاء فى نص الخطبة يبعد أن يقوله طارق . وهو قوله لجنده — وكانوا كما نعرف من البربر — « وقد اختاركم أمير المؤمنين من الأبطال عرباناً » ؛ فطارق كان يعرف أن جنوده من البربر ، وجنوده كانوا يعرفون أنهم ليسوا عرباناً ، ومن هذا يبعد أن يكون قد خطبهم بهذا الكلام الذى لا يقوله إلا غير عالم بحقيقة جيش طارق .

لهذا كله يرجح أن يكون هذا الأدب المنسوب إلى طارق من وضع بعض الرواة المتأخرين كثيراً عن فترة الفتح ، والمتأثرين كثيراً بأسلوب أواخر العصر العباسى وربما بالعصر المملوكى . وقد كان الرواة والقصاص يضعون كثيراً ، مازجين التاريخ بالقصص والأساطير ، وقد أحاطوا الفتح الأندلسى خاصة بكثير من أقاصيصهم وأساطيرهم . فأغلب الظن أن هذا الأدب المنسوب إلى طارق بعض ما وضع هؤلاء الوضاعون[1] .

حقيقة قد يكون طارق خطب جنوده محمساً مشجعاً ، وقد يكون تغنى انتصاراته مفاخراً مباهياً . ولكن المعقول أن يكون ذلك بلغته البربرية التى كان يجيدها والتى كان يفهمها جنوده .

---

(١) أما مسألة إحراق السفن فلم ترد إلا فى : نزهة المشتاق للإدريسى (ص ١٧٨) وهو من مؤلفى القرن الخامس الهجرى . وكل المراجع السابقة قد سكتت عن تلك الحادثة تماماً . ولكن من الطريف أن فاتحاً حديثاً عمل نفس العمل الذى ينسب إلى طارق ، وأكثر من ذلك أنه إسبانى . فعند ما أشرف هرناندو كورتيس على شاطىء المكسيك فاتحاً سنة ١٥١٩ أمر بإحراق سفنه التى قدم عليها جيشه من إسبانيا . والمعقول أن يكون هذا القائد قد تأثر بما نسب إلى طارق قبل ذلك بنحو ثمانية قرون .

على أن الشك فى نسبة هذا الأدب إلى طارق لن يغض من عظمة القائد ولا من جمال الأدب ودلالته ؛ فلن يعيب القائد البربرى العظيم ألا يخطب أو يشعر بالعربية ، تلك الفترة المبكرة من تاريخ البربر فى الإسلام . ولن يعيب هذا الأدب ألا يقوله طارق ، وأن يقوله متأخر صور به — على قدر خياله — ما كان من القائد البربرى وجيشه حينذاك .

وربما أفاد نفى نسبة الخطبة إلى طارق ، فى رد زعم من اتهموا جيوش الإسلام الفاتحة بالطمع والرغبة فى السلب والنهب ، لا فى نشر العقيدة والتمكين للدين الذى به يدينون . فالمسئول عن الأطماع التى فى هذه الخطبة ، هو خيال مؤلفها ؛ فمضمونها لا يعدو أن يكون خيالا لمؤلف أديب لا فكرة لقائد مسلم .

الفصل الثانى

فترة تأسيس الإمارة

١ — فى سبيل استقرار سياسى :

تتمثل هذه الفترة فى عهد عبد الرحمن الداخل وابنه هشام وحفيده الحكم[١] وأهم ما تمتاز به من الناحية السياسية ، أنها كانت فترة علاج لكثير من الأمراض التى عاناها الحكم الأندلسى فى فترة الولاة ، فقد وفد عبد الرحمن الداخل على الأندلس ، وبها القبائل العربية المتنازعة على السلطان . وبها أيضاً جماعات البربر الناقمة على العرب الاستئثار بالأمر ، وبالإضافة إلى العرب ومنازعاتهم والبربر ونقمتهم ، كان يوجد المسيحيون اللائذون بالمناطق الشمالية من شبه الجزيرة ، ثم الفرنج المتربصون فيما وراء البرانس . وكان هؤلاء وأولئك يتحفزون لمطاردة المسلمين لأنهم — فى زعمهم — يمثلون خطراً لا على إسبانيا وحدها بل على أوربا كلها .

من أجل هذا قضى عبد الرحمن الداخل كل سنى حكمه تقريباً فى كفاح داخلى وجهاد خارجى ؛ فقلل من شأن الاستقراطية العربية باستخدام غير العرب واصطناع الموالى[٢] ، وقضى على الزعامة القبلية بالتخلص من كل من تحدثه نفسه بالثورة أو التمرد ، وحاول ما استطاع أن يؤمن حدود الدولة الإسلامية فى الأندلس ضد مسيحيى الإسبان والفرنج ، بقيادة الجيوش وتسيير الحملات إلى هؤلاء وأولئك .

وفعل هشام بن عبد الرحمن مثل ما فعل أبوه ، وسار الحَكَم الرَّبَضِيّ سيرة الأب

---

(١) حكم الداخل من سنة ١٣٨ إلى ١٧٢ هـ (٧٥٥ إلى ٧٨٨ م) .
وحكم هشام من سنة ١٧٢ إلى ١٨٠ هـ (٧٨٨ إلى ٧٩٦ م) .
وحكم الحكم من سنة ١٨٠ إلى ٢٠٦ هـ (٧٩٦ إلى ٨٢٢ م) .
فتكون هذه الفترة من سنة ١٣٨ إلى ٢٠٦ هـ (٧٥٥ إلى ٨٢٢ م)

(٢) انظر : نفح الطيب للمقرى جـ ١ ص ١٥٦ .

والجد[١] ، وكان أشبه بالداخل فى الحزم والصرامة والقسوة من أجل تثبيت النظام وتدعيم الحكم . وقصة إخماده لثورة الرَّبَض من أوضح الأدلة على طريقته فى السياسة ومعالجة الأمور . ومن أوضح الأدلة على طابع سياسة العصر .

وثورة الربض ثورة قام بها سكان الضاحية القرطبية المسماة بهذا الاسم ، وكان أكثرهم من المولدين — أى الإسبان المسلمين — وقد كانت ثورتهم ذات أسباب بعيدة ترجع إلى سخط العامة — وخاصة المولدين — على الأمير الحكم لما اشتهر به من تحرر وعدم مبالاة ، وكان لدعايات الفقهاء أثر كبير فى إقناع العامة بالسخط على الأمير .

أما السبب المباشر للثورة فهو مشادة وقعت بين أحد مماليك الحكم وصيقل سيوف من العامة ، وقد كان من نتائج تلك المشادة أن قتل الصيقل بيد المملوك فثار العامة ، وكان أشدهم هياجاً أهل الربض الجنوبى ، الواقع على الضفة الأخرى لنهر الوادى الكبير . وزحفت جموع الثوار على القصر الأميرى وأحاطوا به من كل ناحية ، وكادوا يقضون على الأمير والإمارة جميعاً ، لولا أن تنبه الحكم إلى حيلة فيها ذكاء وفيها قسوة أيضاً ؛ فقد أرسل بعض أعوانه إلى الربض فأشعل فيه النار ، وهنا اضطر الثوار إلى الإسراع إلى ربضهم لإنقاذ أولادهم ونسائهم وذويهم . وانتهز الحكم الفرصة فأمر جنوده بالانقضاض على الثوار وهم فى انسحابهم واضطرابهم ، فأمعنوا فيهم قتلا وأسراً ، ثم أمر الحكم بالربض فهدم ، وبالباقين من أهله فطردوا[٢] .

---

(١) انظر لتصوير كفاح عبد الرحمن وابنه وحفيده : البيان المغرب لابن عذارى ج ٢ ص ٧٢ ما بعدها . وأخبار مجموعة لمؤلف مجهول ص ٦٧ وما بعدها .

وانظر أيضاً : Al Bornoz : La Espana musulmana, vol. I, pp. 88 ff.

Levi : Espana musulmana, pp. 67 ff.

(٢) انظر فى واقعة الربض : البيان المغرب لابن عذارى ج ١ ص ١١٣ وما بعدها ، ونفح الطيب للمقرى ج ١ ص ١٥٩ ، والمعجب لعبد الرحمن المراكشى ص ١٢ وما بعدها .

وانظر كذلك : Palencia, Historia de la Espana musulmana, pp. 26 ff.

ومن هنا نرى أن تلك الفترة من الناحية السياسية كانت فترة علاج لكثير من أدواء الحكم التى عانتها الأندلس من قبل. وقد كان لهذا العلاج مقتضياته من البتر حيناً ومن إسالة الدم حيناً آخر .

وهكذا شهدت تلك الفترة بعض الحروب وأعمال العنف ، ولكنها كانت فى سبيل الاستقرار السياسى الذى خلف تقدماً وأمناً ، ولم تكن المسألة مسألة منازعات وحروب تخلف ضياعاً وتعويقاً فقط كالفترة السالفة .

٢ – فى سبيل مجتمع أندلسى :

كان من أهم ظواهر المجتمع الأندلسى فى تلك الفترة ، ضعف العصبية القبلية والمنازعات العنصرية ، ثم اتجاه سكان الأندلس إلى وحدة اجتماعية يصلون إلى ذروتها فى عهد الخليفة الناصر. وكان ذلك بفضل جهود عبد الرحمن الداخل ومن حكم من بعده من أبنائه . وقد ذكرنا أنه كسر شوكة الارستقراطية العربية وحد من عصبية القبائل ، بمطاردة الزعماء المناوئين أولا ، وباستخدام كثير من الموالى وغير العرب ثانياً . وقد عُرف أن أبناءه ساروا على سنته بل بالغوا فيها حتى كان عدد الموالى والصقالبة فى عهد الحكم خمسة آلاف[١] .

وكان من أهم ظواهر المجتمع كذلك فى تلك الفترة ، ظهور طبقة اجتماعية جديدة أصبح لها كيانها ومكانتها بين طبقات المجتمع الأندلسى ؛ تلك الطبقة هى طبقة المولدين ، التى تتألف من أبناء الإسبان الذين اعتنقوا الإسلام ، وكثروا بمضى الزمن واستمرار الدخول فى الدين الجديد . ولا شك أن وجود مثل هذه الطبقة قد زاد من الأكثرية المسلمة حينئذ. وصبغ الحياة الإسبانية بصبغة أكثر إسلامية وعروبة .

---

(١) انظر : المغرب لابن سعيد جـ ١ ص ٣٥ .

كذلك كان من أهم المظاهر الاجتماعية فى فترة تأسيس الإمارة الأموية ، هذا التقدم الحضارى النسبي الذى خطت نحوه الأندلس ، ممثلا فى أعمال الإنشاء والتعمير والتجميل التى قام بها الداخل وأبناؤه من بعده ؛ فقد أسس عبد الرحمن مسجد قرطبة الجامع[١] ، كما أنشىء فى عهده وفى عهد بنيه كثير من المساجد فى أقاليم مختلفة من الأندلس . كذلك أنشأ عبد الرحمن الرصافة التى كانت مقر الإمارة بالشمال الغربى من قرطبة ، وأقام سوراً للعاصمة الأندلسية . وغرس بها بعض الحدائق الجميلة ، وجلب أنواعاً من المزروعات المشرقية[٢] .

وأخيراً كان من أهم مظاهر المجتمع الأندلسى فى تلك الفترة ظهور شخصية المرأة فى مجال الفن ؛ فقد استقدم عبد الرحمن الداخل بعض الفنانات المشرقيات وأسس لهن بالقصر داراً عرفت بدار المدنيات ؛ لأن أغلبهن كن من المدينة التى اشتهرت بفنون الموسيقى والغناء فى تلك السنوات . وكان من هؤلاء الفنانات المدنيات اللائى وضعن بذور الموسيقى العربية فى الأندلس : فضل وعلم والعجفاء . كما كان من الفنانات اللاتى عرفن فى تلك الفتر : قلم ، وأصلها إسبانية من سبى البشكنس . ولكنها أدبت فى المدينة ، وعملت بعد ذلك فى دار المغنيات مع صواحبها[٣] .

وهكذا كان المجتمع الأندلسى فى تلك الفترة ، مجتمعاً مستقرًّا نسبيًّا ، فهو يحيا أكثر أمناً فى ظل حكومة مدعمة . وهو يعيش أكثر وحدة فى حمى نظام حارب القبلية والعصبية ، وفتح الطريق للأندلسية الحقة . ثم كان المجتمع فى تلك الفترة يفتح عينيه على بواكير حضارة ، أراد الأمويون أن يعيدوا بها فى الأندلس حضارة فقدوها بالمشرق .

---

(١) انظر فى تاريخ هذا المسجد : البيان المغرب لابن عذارى ج ٢ ص ٣٤١ وما بعدها .

(٢) انظر : نفح الطيب للمقرى ج ١ ص ٢٧ . وكتاب العبر لابن خلدون ج ٤ ص ١٣٢

(٣) انظر أخبار هؤلاء الفنانات فى : نفح الطيب ج ٢ ص ١١٨ ، ١١٩ .

٣ ـ أولية الثقافة الأندلسية :

خطت الأندلس فى تلك الفترة أولى الخطوات نحو الثقافة الأندلسية الحقة . وقد دفعت الأندلس عوامل مختلفة ، وساعدتها على الخطوة الأولى فى سبيل ثقافتها . وكان من تلك العوامل :

وفود كثير من الأمويين وأنصارهم واللائذين بهم على الأندلس(١). وقد كان قدوم هؤلاء ، إما فراراً من العباسيين ، وإما رغبة فى الحياة بالإقليم الإسلامى الجديد المعروف بكثرة الخيرات . ولا شك أن كثيراً من هؤلاء الوافدين على الأندلس كانوا على حظ كبير من الثقافة وقدر عظيم من المعرفة ، ولا شك أن حياتهم فى الأندلس ستذيع ثقافتهم وتشيع معارفهم وتساعد البلاد على أن تخطو فى طريق الثقافة .

كذلك كان من أهم العوامل التى دفعت الأندلس إلى الخطو نحو حياتها الثقافية ، رجوع أول فوج من الأندلسيين الدارسين فى المشرق ؛ فقد كان هؤلاء بمثابة أعضاء البعثات الذين يتعلمون خارج بلادهم ثم يعودون ليشيعوا ما تعلموا بين أهليهم وفى أرجاء وطنهم. ومن أمثلة هؤلاء العائدين بعلم المشرق فى فترة تأسيس الإمارة : الغازى بن قيس ، الذى سمع من مالك موطأه ، ثم عاد فى عهد الداخل فكان مكرماً له وسخياً عليه(٢). كذلك كان من هؤلاء العائدين : أبو موسى الهوارى ، وعبد الملك بن حبيب ، ويحيى ابن يحيى الليثى ، وزياد بن عبد الرحمن ؛ وكلهم من العلماء الكبار الذين يمثلون الجيل الأول من أهل الثقافة الأندلسية(٣) .

---

(١) من هؤلاء : أبو الأشعث الكلبى الذى كان محدثاً يروى عن أمه عن عائشة . ومنهم جزى بن عبد العزيز أخو عمر بن عبد العزيز . ومنهم عبد الملك بن عمر بن مروان بن الحكم الأموى .
انظر : نفح الطيب ، ج ٢ ص ٧٧ وما بعدها .

(٢) ابن القوطية : تاريخ افتتاح الأندلس ص ٣٥ .

(٣) انظر فى الراحلين من الأندلسيين إلى المشرق : نفح الطيب للمقرى جـ ١ ص ٢٣٦ وما بعدها .

ولن ننسى أن من أهم عوامل دفع الثقافة الأندلسية فى تلك الفترة ، ما كان من إنشاء مسجد قرطبة وغيره ؛ فقد كانت المساجد فى تلك الآونة بمثابة المدارس والجامعات. وقد كان مسجد قرطبة بالذات هو النواة الحقيقية للجامعة الأندلسية التى أسست فى تلك الفترة ، والتى ستتسع فى العصور التالية حتى تكون فى القرن العاشر أعظم جامعات إسبانيا بل أعظم جامعات أوربا .

وقد ظل الحال فى تلك الفترة كما كان فى الفترة السابقة تقريباً من حيث الاقتصار فى الثقافة الأندلسية على العلوم الدينية والعربية ، وإن كان الأمر قد تطور إلى خطو نحو حياة ثقافية حقيقية ، بفضل تلك العوامل السالفة الذكر . فالدراسة فى تلك الآونة كانت تدور غالباً حول كتاب الله حفظاً وتفسيراً وقراءات ، وحول سنة الرسول رواية وشرحاً واستنباط أحكام ، ثم حول لغة القرآن والسنة . وما يتصل بها من شعر وأخبار وأدب على وجه العموم .

ولعل من المناسب هنا أن نشير إلى ظاهرة لها شأنها فى حياة الأندلسيين الثقافية . تلك الظاهرة هى تحولهم من مذهب الأوزاعى إلى مذهب مالك ، ثم بقاؤهم دائماً على هذا المذهب مع تعصب له يلفت النظر . فقد كان الأندلسيون أول الأمر أوزاعيين[١] ، لأن أغلب العرب الداخلين إلى الأندلس كانوا من أهل الشام ، وكان أهل الشام على مذهب الأوزاعى ؛ فكان طبيعياً أن ينتقل الشاميون إلى الأندلس بمذهبهم . فلما جاءت الفترة التى نسوق عنها الحديث — وهى فترة تأسيس الإمارة الأموية — دخل المذهب المالكى إلى الأندلس وكان ذلك فى عهد عبد الرحمن الداخل[٢] ، ثم انتشر فى عهد ابنه هشام ، حتى أصبح المذهب الرسمى للدولة أولا ، والمذهب الغالب الشائع العام بين الناس ثانياً .

---

(١) انظر : تاريخ علماء الأندلس لابن الفرضى ج ١ ص ١٨١ .

(٢) انظر : حديث ابن القوطية عن الغازى بن قيس فى : تاريخ افتتاح الأندلس ص ٢٥ .

والفضل الأكبر فى شيوع المذهب المالكى فى الأندلس ، يرجع إلى طائفة من العلماء الأندلسيين المالكيين الذين درسوا المذهب فى المشرق ، ثم عادوا إلى بلادهم وتمتعوا بنفوذ كبير . مكن لهم من نشر المذهب وإعطائه الطابع الرسمى . وفى مقدمة هؤلاء الفقهاء الذين مكنوا للمذهب المالكى : يحيى بن يحيى الليثى الذى درس على مالك نفسه، وكان بعد ذلك من خاصة هشام بن عبد الرحمن الداخل .

على أن من أهم العوامل التى حملت الأندلسيين على الإعجاب بالمذهب المالكى والتمسك به والتعصب له ، موافقته لطبيعتهم العقلية ؛ فهو مذهب يعتمد على النص ، ولا يفسح المجال كثيراً للعقل ، وهو مذهب يكره التفريع والتفلسف والمنطق ، وما أشبه ذلك مما شاع فى المذهب الحنفى مثلا . ومن هنا وافق المذهب المالكى طبيعة الأندلسيين النافرين من التفريع ، المبغضين للتفلسف ، الكارهين للمنطقة .

وربما كان لتعصبهم الشديد للمذهب المالكى ، وكراهيتهم للتفريع وتعدد المذاهب؛ علاقة بما سبق أن قررناه من كونهم كانوا يعانون شبه مركب نقص أمام المشارقة ، وكان هذا يأخذ مظهر التعصب للمذهب الواحد والتمسك بكل ما هو نصى ، كأنهم يريدون بذلك أن يؤكدوا تمسكهم بالدين وبعدهم عن الزيغ وتجنبهم للشبهات ، وكأن هذا معناه فى زعمهم اللاشعورى أنهم متفوقون على المشارقة فى الدين برغم بعدهم عن مهده ، وأنهم أكثر محافظة على الإسلام برغم نأيهم عن مشرقه .

٤ ــ أولية الأدب الأندلسى :

أول ما يلاحظ على الحياة الأدبية لتلك الفترة من تاريخ الأندلس ، ظهور أول جيل من الأدباء الأندلسيين الحقيقيين ، ثم يلاحظ أيضاً ظهور بعض أديبات الأندلس ، كذلك يلاحظ عدم اقتصار الاشتغال بالأدب على الشعب ، بل مشاركة الحكام فيه .

أيضاً . وقبل كل هذا يلاحظ ظهور السمات الأولى للأدب الأندلسى ؛ تلك السمات التى سوف تتزايد على مر العصور ، حتى تتم ملامح الأدب الأندلسى بصورة واضحة .

وهكذا تشاهد هذه الفترة أولى خطوات الأندلس نحو أدب أندلسى متميز ؛ ففيها ينشأ أول جيل من أدباء وأديبات الأندلس ، ولا يصبح الأدب وقفاً على الوافدين من المشرق كما كان الحال من قبل ، وفيها تصاغ النماذج الأدبية الأولى ، التى تعد من تراث الأندلس بحق ، وفيها زيادة على ذلك تبدو تلك السمات الأولى ، التى تشكل أول خطوط الملامح الأدبية لهذا الإقليم الخاص . وسوف يتضح ذلك حين نتناول كلا من الجنسين الأدبيين تناولا مستقلاً .

أولا – الشعر :

كان الشعر الأندلسى فى تلك الفترة يسير فى اتجاه المدرسة المحافظة المشرقية Clasica ولكن مع تميزه بسمات خاصة تشكل أوائل ملامحه منذ نشأته كشعر أندلسى .

(ا) الاتجاه المحافظ :

أما مظاهر هذا الاتجاه المحافظ ، فتتمثل فى أن الشعر الأندلسى كان يهتم أكثر ما يهتم بالموضوعات التقليدية ، من فخر ومدح وحماسة ، وما إلى ذلك ، ثم فى أنه كان يسير على منهج الأقدمين فى بناء القصيدة ، وفى تجميع صورها غالباً من عالم البادية ، وتأليف أسلوبها فى الأعم من لغة تستوحى الذاكرة والتراث ، أكثر مما تستوحى العصر والواقع .

ولنتأمل مثلا تلك النماذج :

يقول أبو المخشى من قصيدة يمدح بها عبد الرحمن الداخل ويصف الرحلة إليه :

امتطيناها سماناً بُدنا ... فتركناها نضاء بالعنا
وذريني قد تجاوزت بها ... مهمها قفراً إلى أهل الندى
قاصداً خير مناف كلها ... ومناف خير من فوق الثرى (١)

ويقول أبو المخشى أيضاً من قصيدة فى مدح الداخل ، وتمجيد بعض انتصاراته والثناء على بطولة الأمير سليمان ابنه :

وإذا تساءلَ عن مواقع معشر ... وذويهم طلب الذى لم يُقدرِ
رشد الخليفة إذ غووا فرماهم ... بالمُويـذِىّ الجهم والمتأزر (٢)
وغدا سليمان السماح عليهم ... كالليث لا يلوى على متعذر
غاداهمُ متقنعاً فى مأزق ... بالموت مرتجس العوارضَ ممطر (٣)
أما سليمان السماح فإنه ... جَلّى الدجى وأقام ميل الأصعر
وهو الذى ورث الندى أهل الندى ... ومحا مغبة يوم وادى الأحمر
بعداً لقتلى بالمجانص (٤) أصبحت ... جيفاً تلوح عظامها لم تقبر
فالليل فيها للذئاب فرائس ... ونهارها وقع لنبش الأنسر
أفناهم سيف مبيد طرفه ... فى قسطلونة بل بوادى الأحمر
فلتركبنك ما هربت مخافة ... منه ، فقع يا ابن اللقيطة أوطر (٥)

---

(١) وردت هذه الأبيات فى الإحاطة لابن الخطيب (مخطوط بالإسكوريال رقم ١٦٧٣ورقة ٣٥٢).
(٢) المويذى : فقية الفرس ، وحاكم المجوس ، والجهم : الغليظ . والمتأزر : المتقوى .
(٣) مرتجس : من ارتجست السماء أى أرعدت ، والعوارض : السحب العظيمة .
(٤) المجانص : جمع مجنص ، وهو اسم مكان من جنص أى مات فزعاً .
(٥) وردت هذه الأبيات فى مخطوطة الإحاطة التى سبقت الاشارة إليها .

ويقول الحكم بن هشام مفتخراً ببطولته وقوته وانتصاره فى موقعه الربض :

رأيتُ صدوع الأرض بالسيف راقعا — وقدماً لأمت الشعب مذ كنت يافعا
فسائل ثغورى هل بها اليوم ثغرة — أبادرها مستنضى السيف دارعا
وشافه على الأرض الفضاء جماجماً — كأقحاف شريان الهبيد[1] لوامعا
تنبّيك أنى لم أكن فى قراعهم — بوان ، وأنى كنت بالسيف قارعا
وأنىَ إذ حادوا جزاعاً من الردى — فلم أكُ ذا حيد من الموت جازعا
حميت ذمارى فانتهبت ذمارهم — ومن لا يحامى ظل خزيان ضارعا
ولما تساقينا سجالا حروبنا — سقيتهمُ سمًّا من الموت ناقعا
وهل زدت إن وفيّتهم صاع قرضهم — فوافوا منايا قدرت ومصارعا
فهاك بلادى إننى قد تركتها — مهاداً ولم أترك عليها منازعا[2]

ويقول الحكم أيضاً فى تمجيد السيوف وأسلحة القتال :

غِناءُ صليل البيض أشهى إلى الأذن — من اللحن فى الأوتار واللهو والرّدن[3]
إذا اختلفت زرق الأسنة والقنا — أرتك نجوماً يطّلِعن من الطعن
بها يهتدى السارى وينكشف الدجى — وتستشعر الدنيا لباساً من الأمن[4]

فتأمُّل أمثال هذه النماذج يؤكد أن هذا الشعر يسير على خطى المدرسة المشرقية المحافظة ؛ من حيث بناء القصيدة الذى يميل فى المدح مثلا إلى البدء بوصف الرحلة

---

(١) الأقحاف : جمع قحفة ، وهى الفلقة التى تشبه قحف الرأس ، وشريان الهبيد : شجر الحنظل.
(٢) وردت هذه الأبيات فى أخبار مجموعة ص ١٣٢ ، ١٣٣ .
(٣) الردن : صوت وقع السلاح بعضه على بعض .
(٤) وردت هذه الأبيات فى : أخبار مجموعة ص ١٣٢ ، ١٣٣ .

إلى الممدوح ، وتحمل المشاق فى سبيل الوصول إليه ، وإرهاق الإبل وإتلاف المطايا خلال السفر إلى مكانه ؛ ومن حيث انتزاع الصور والمعانى من البيئة البدوية القديمة ؛ ثم من حيث التعبير بالأسلوب البدوى القديم كذلك ، ذلك الأسلوب الذى يعتمد على الألفاظ الجزلة وإن كانت غريبة ، ويتألف من العبارات الفخمة وإن جاءت خشنة ، وأخيراً من حيث الميل إلى الأبحر الطويلة ذات التفاعيل الكثيرة والقوافى الرنانة . والنماذج المتقدمة واضحة الدلالة على كل تلك الملامح المحافظة .

(ب) عوامل المحافظة :

وقبل أن نأخذ فى الحديث عن السمات الخاصة للشعر الأندلسى المحافظ نوضح مسألة يغيب فيها الحق عن كثير من الباحثين ؛ حيث يظنون أن سير الأندلسيين على النهج المحافظ فى الشعر كان دائماً بدافع التقليد ، ولم يكن له ما يقتضيه من حياة الأندلسيين . فالحق أن سيرهم على نهج المدرسة المحافظة التى وفدت من المشرق ، كان له ما يبرره من واقع الأندلسيين وظروفهم ، ثم من مثُلهم وقيمهم ، وتستوى فى ذلك تلك الفترة التى نتحدث عن شعرها مع غيرها من الفترات التاليات . أما واقعهم وظروفهم فقد كانت تتطلب إلى حد كبير هذه الموضوعات التقليدية التى عرف بها الشعر المحافظ ؛ فالفخر والحماسة من لوازم الصراع والغلبة ، وقد عرفت الأندلس كثيراً من ذلك فى تلك الفترة وفى غيرها من الفترات . والمدح كذلك من لوازم البيئة العربية القديمة ، وقد كانت البيئة الأندلسية تنطبع — إلى حد كبير — بالطابع العربى . وخاصة حين كان حكامها يدعمون حكمهم ويقوون سلطانهم ؛ فهم يتخذون من الشعر أداة ترويج ووسيلة دعاية ، وهم قبل ذلك عرب الأمزجة ، يهشون للمدح وينبسطون للثناء . والغزل كذلك كان من لوازم البيئة العربية القديمة ، ومظهراً من مظاهرها الرئيسية وخاصة فى أوساط الفرسان . وقد عرفت الأندلس الفروسة منذ سنيها الأولى . ومن هنا رأينا شاعراً

كالحكم بن هشام يميل إلى الغزل ، وإلى المهالك منه بنوع خاص . وليس ذلك بغريب عليه كفارس ؛ فشأن الفرسان أن يظهروا أقوياء أشداء فى ميادين الحرب ، وضعفاء مستكينين فى ميادين الحب .

وهكذا يمكن أن يقال فى باقى الأغراض التقليدية التى عالجها الشعر الأندلسى المحافظ ؛ فكلها يمكن اعتباره من مقتضيات واقع الأندلسيين وظروفهم

أما الأسلوب المحافظ الذى تناول به الشعراء الأندلسيون تلك الموضوعات التقليدية . فله تبريره من مثل الأندلسيين وقيمهم ؛ ذلك أن العرب كانوا ينتقلون إلى أى إقليم جديد ، وفى مخيلاتهم عالم مثالى ؛ هو ذلك العالم الذى عاش فيه آباؤهم الأقدمون ، حيث الصحراء والنوق ، والبان والكثبان ، والجآذر والآرام ، إلى آخر هذه الخطوط والألوان التى تؤلف لوحة البادية ، عالم العرب المثالى الأسطورى . وكان أبناء العرب يعتقدون أن خير أدب هو ما كتب آباؤهم فى عالمهم ذاك المثالى الأسطورى ، وأن قصارى الأديب بعد ذلك أن يأتى بما يشبه نتاج هؤلاء الرواد الأول . ومن هنا كانوا فى الأندلس يستلهمون هذا العالم المثالى الذى يتخيلونه عالم آبائهم وأجدادهم ، كما كانوا يحاكون هذه النماذج التى جادت بها قرائح الآباء والأجداد .

وشبيه بهذا ما فعله الأوربيون فى العصر « الكلاسى » حين راحوا يستلهمون العالم المثالى اليونانى والرومانى ، ويسيرون على النماذج التى رسمها أسلافهم اليونانيون والرومانيون ، وذلك برغم اختلاف العصور والبيئات والناس جميعاً . وربما كان أكثر شبهاً بما فعل المسلمون فى الأندلس ، ذلك الذى كان من أدباء أمريكا اللاتينية ، حين استوحوا الأدب الإسبانى التقليدى ، باعتباره أدب عالمهم الأسطورى المثالى ، حتى لو جرد هذا الأدب الأمريكى اللاتينى من كل مافيه من رواسب إسبانية لم يبق منه شىء ذو قيمة[1] .

(١) انظر : Emilio Garcia Gomez, Poemas arabigo-andaluces, pp. 19 ff.
وانظر : الشعر الأندلسى (وهو ترجمة المصدر السابق قام بها الدكتور حسين مؤنس) ص ٧ — ٨ — .

هذا هو تعليل ما كان للإندلسيين فى فترة تأسيس الإمارة وفى غيرها من اتجاه محافظ فى الشعر . وسوف تكون لهم اتجاهات أخرى ، إن لم تظهر فى تلك الفترة المبكرة من تاريخ الأندلس ، فسوف تظهر فى فترات تاليات ، نتيجة لظروف لم تتحقق بعد

(ج) السمات الخاصة :

أما السمات الخاصة التى تميز ملامح الشعر الأندلسى وتجعله ذا شخصية مستقلة ، بحيث لا نعد الأندلسيين مقلدين للمشارقة تقليداً تخفى وراءه شخصيتهم ، ولا تبدو معه خصائص مميزة لشعرهم ؛ فقد ظهر بعضها منذ فترة تأسيس الإمارة . وسيظهر البعض الآخر فى فترات أخرى . والذى يعنينا الآن هو تلك السمات الأولى التى ظهرت فى الفترة التى نسوق عنها الحديث ، وتلك السمات هى :

التجديد الموضوعى

ونعنى بذلك ، طرق بعض الموضوعات الجديدة أو تناول بعض التجارب التى لم تتناول من قبل . وأوضح مثل على هذه الخاصة ، تلك القطعة الشعرية التى عالج الشاعر أبو المَخْشِيّ فيها تجربة فقدان البصر . وفيها يقول :

خضعتْ أم بناتى للعدا　　إذ قضى الله بأمر فمضى
ورأت أعمى ضريراً إنما　　مشيه فى الأرض لمس بالعصا
فبكت وجداً وقالت قولة　　وهى حرّى بلغت منى المدى
ففؤادى قَرِح من قولها　　ما من الأدواء داء كالعمى
وإذا نال العمى ذا بصر　　كان حيًّا مثل ميْت قد ثوى
وكأن الناعم المسرور لم　　يك مسروراً إذا لاقى الردى

أبصرتْ مستبدلا من طرفه قائداً يسعى به حيث سعى
بالعصا إن لم يقده .قائد وسؤالَ الناس يمشي إن مشى
وإذا ركبٌ دنوا كان لهم هَوْجَلاً فى المهمة الخرق الصُّوَى[(١)]
لم يزل فى كل مخشى السُّرى يصطلى الحرب ويجتاب الدجى[(٢)]

فهذا الموضوع جديد ، لم يطرقه شاعر قبل أبى المخشى فيما نعلم[(٣)] . . وتأمُّل الطريقة التى عالج بها أبو المخشى هذه التجربة ، يعطينا السمة الثانية من سمات الشعر الأندلسى ، وهى :

التجويد الفنى

ونعنى بذلك محاولة الأداء بطريقة أجود مما ألف السابقون . وللأندلسيين وسائل مختلفة إلى هذا التجويد ، بعضها يتعلق بالمضمون ، وبعضها يتصل بالشكل . وهذه السمة الفنية التى بدت فى شعرهم منذ نشأته ، كانت دائماً من أوضح خصائص الشعر الأندلسى فى كل العصور ، وإن أخذت مظاهر مختلفة من عصر إلى عصر ، ومن شاعر إلى آخر .

---

(١) الهوجل : البطىء الثقيل . والمهمه : المفازة . والخرق : القفر . والصوى : جمع صوة وهى ما غلظ وارتفع عن الأرض .

(٢) وردت هذه الأبيات فى كتاب الإحاطة لابن الخطيب (وهو مخطوط بالإسكوريال رقم ١٦٧٣ ورقة ٣٥١ – ٣٥٢) .

(٣) ذكر بعض الشعراء المشارقة الأقدمين عماهم ، ولكن ذلك لا يعتبر تناولا للتجربة ولا طرقا للموضوع قبل أبى المخشى ، لأن ذكر العمى على نحو ما جاء عندهم ، إنما هو ذكر إخبارى عرضى مقتضب ، لا شىء فيه من تصوير لمحنة أو وصف لممتحن . ومن هذا قول الشاعر الجاهلى ، الأسود بن يعفر النهشلى فى قصيدته الدالية :

ومن الحوادث لا أبا لك أننى ضربت علىّ الأرض بالأسداد
لا أهتدى فيها لموقع تلعة بين العراق وبين أرض مراد

انظر : المفضليات الضبى ج ٢ ص ١٦ ، ١٨

فإذا تأملنا أبيات أبي المخشى ، وجدناه يستعمل التعبير الموحي بطريقة فنية بارعة ؛ فهو يتحدث عن محنته حين فقد بصره . ولكنه لا يعبر عن ذلك تعبيراً مباشراً أو مبالغاً ، وإنما يعبر تعبيراً إيحائيًّا بسيطاً مؤثراً غاية التأثير . وذلك حيث ذكر زوجته وخضوعها للأعداء بسبب فقدان عائلها لنور عينيه . ولم يكتف الشاعر بذكر الزوجة ، ولم يذكر اسمها كما يفعل الشعراء التقليديون غالباً ، وإنما ذكر أنها أم بناته . وذلك ليشير إلى أنه ذو بنات ، وأن الزوجة والبنات جميعاً قد خضعن للعدا وأصبحن في حال من الذل تستدر الدمع . ثم ذكر في آخر البيت أن ذلك كان منذ قضى الله بأمر فمضى هذا الأمر . فالشاعر أيضاً لجأ إلى الإيحاء بذكر القضاء ومُضيّ هذا القضاء ، وصور في عبارته نفس السرعة التي يقع بها المقضى ، فكان موفقاً في تصوير المحنة كما كان موفقاً في نقل الإحساس بها .

خضعتْ أم بناتى للعدا إذ قضى الله بأمر فمضى

وراح الشاعر بعد ذلك يذكر ما كان لزوجته من بكاء ووجد ؛ وما كان من قول أطلقته وهي حرى فبلغ من الشاعر المدى ؛ حتى قرح فؤاده ، وذلك حين قالت « ما من الأدواء داء كالعمى »

ثم أخذ الشاعر يجسم محنة فقدان البصر ؛ فيجعل من يصاب بها « حيا مثل ميت قد ثوى» ويقرر أنه بمحنته ينسى كل ما كان له قبل من نعيم وسرور سابقين .

وكأن الناعم المسرور لم يك مسروراً إذا لاقى الردى

وبعد ذلك يصور الشاعر الضريرَ في حالاته المختلفة ويبرزه في أوضاعه المتعدد ؛ حين يكون « مستبدلا من طرفه قائداً يسعى به حيث سعى » وحين يسير « بالعصى إن لم يقده قائد » وحين يكون حاله « سؤال الناس إن مشى » بلا قائد .

ولا يكتفي الشاعر بتلك الأوصاف التي تصور الضرير حين يكون وحده، وإنما يأبى

إلا أن يصوره حين يكون فى جماعة ؛ فيجعله معوق الركب الدانى ومبطىء المشرفين على غايتهم ؛ حتى لكأنهم به فى صحراء مقفرة تعلو فيها الحجلرة وتغلظ .

وإذا ركب دنوا كان لهم   هوجلا فى المهمه الخرق الصوى

وأخيراً يختم الشاعر وصف حال الضرير بتصوير عالمه النفسى الملىء بالمخاوف ، المتكاثف بالظلمات ، فيجمع بذلك التصوير النفسى إلى التصوير الحسى ؛ حيث يقول :

لم يزل فى كل مخشى اليسرى   يصطلى الحرب ويجتاب الدجى

وإذا تأملنا هذا النص نفسه من جهة ما يثيره فينا أو ينقله إلينا ؛ أدركنا السمة الثالثة من سمات الشعر الأندلسى الخاصة وهى :

التركيز العاطفى :

ونعنى بذلك أن العاطفة تتضح فى العمل الشعرى ، حتى لتوشك أن تكون أبرز عناصره . ولنترك النص السابق برغم وضوح تلك السمة فيه . ولنأخذ لذلك مثلا ، أبيات عبد الرحمن الداخل فى الحديث عن نخلة رآها بالرصافة ، وفيها يقول :

تبدّتْ لنا وسط الرصافة نخلة   تناءت بأرض الغرب عن وطن النخل
فقلت شبيهى فى التغريب والنوى   وطول التنائى عن بنىّ وعن أهلى
نشأتِ بأرض أنت فيها غريبة   فمثلك فى الإقصاء والمنتأى مثلى
سقتك غوادى المزن فى المنتأى الذى   يسح ويستمرى السماكين بالوبل[1]

فعبد الرحمن فى هذه الأبيات يتناول موضوعاً تقليدياً ، وهو الوصف ، ولكنه يلح على الجانب العاطفى فيبرزه بحيث يكاد يخفى كل ما سواه من جوانب . فهو لم يصف

(١) انظر هذه الأبيات فى : البيان المغرب جـ ٢ ص ٩٠ ، وفى : نفح الطيب جـ ٢ ص ٧٦ .

النخلة فى طولها ولا فى لونها ولا ثمرها ، ولم يتخيلها مارداً ذا شعر طويل ، ولا شيخاً ذا قوام هزيل ؛ وإنما ترك ذلك كله ليصف النخلة بأوصاف عاطفية ويصورها بصورة نفسية . فيرسمها وقد « تناءت بأرض الغرب عن وطن النخل» ويعقد بينها وبينه شبهاً فى التغريب والنوى وطول التنائى عن البنين والأهل ، ويصفها بغربة المنشأ ومشابهة الشاعر فى المنأى البعيد والمهجر القصى . وأخيراً يدعو لها بالسقيا ، فيطلب أن تجودها غوادى المزن « فى المنتأى الذى يسح ويستمرى السماكين بالوبل» .

وهكذا جعل من النخلة إنساناً حيًّا ، يغترب وينأى عن الوطن ويبعد عن الأهل ، وأوجد بينه وبينها مشاركة وجدانية وعلاقة نفسية جعلته يخاطبها فى حنو ويناجيها فى عطف . وكل ذلك يجعل العنصر العاطفى أبرز عناصر المضمون الشعرى لهذه الأبيات .

ومثل هذا النموذج قول عبد الرحمن أيضاً :

أيها الراكب الميمم أرضى ... أقرِ من بعضى السلام لبعضى
إن جسمى كما تراه بأرض ... وفؤادى ومالكيه بأرض
قدر البين بيننا فافترقنا ... وطوى البين عن جفونى غمضى
قد قضى الله بالبعاد علينا ... فعسى باقترابنا سوف يقضى[1]

فأوضح ما فى هذا الشعر هو عنصر العاطفة . ولم يأت ذلك من كون الموضوع موضوعاً عاطفيًّا بطبعه ؛ بل جاء من تغليب الشاعر للجانب العاطفى على كل الجوانب ، بحيث أصبح كل همه أن يوضح هذا الجانب وينقله إلى غيره ما استطاع نقلا قويًّا . ومن هنا جعل سلامه مبعوثاً من بعضه إلى بعضه الآخر ، وفسر ذلك بأنه مقسم بين الأندلس والمشرق ؛ فجسمه هنا ، وفؤاده ومالكوه هناك . ثم ذكر أن البعاد قدر بين هذا القسم

---

(١) انظر هذه الأبيات فى البيان المغرب ج ٢ ص ٨٩ . وفى نفح الطيب ج ٢ ص ٦٨ .

وذاك ، فكان الفراق وكان السهاد وطى الغمض عن الجفون . وقرر أخيراً أن ذلك كان قضاء الله بالبعاد ، ودعاه أن يقضى بعد ذلك باللقاء .

ولا شك أن هذه الطريقة فى تناول التجربة بالإضافة إلى صدقها وطبيعة صاحبها ، جعلت أبرز شىء فى الشعر هو عنصر العاطفة

وهكذا نرى أن الشعر الأندلسى فى فترة تأسيس الإمارة برغم كون ملامحه العامة هى ملامح الشعر المشرقى المحافظ ؛ قد كانت له سمات خاصة ، صنعت الملامح الأولى للشعر الأندلسى المتميز ، ذلك أن تلك السمات التى بدت فى تلك الفترة من طرق بعض الموضوعات الجديدة ، وميل إلى التجويد ، وغلبة للجانب العاطفى ؛ لن تكون فقط خصائص الشعر الأندلسى التى تميزه عن نظيره المشرقى ، فهناك سمات ستظهر فى عصور تالية نتيجة لظروف مختلفة . وسوف نوضح كل ذلك فى حينه إن شاء الله . وحسبنا الآن ، تلك السمات الثلاث التى شكلت ملامح شعر الأندلس بعض التشكيل ، حتى فى تلك الفترة المبكرة من تاريخه .

(د) الشعراء :

شعراء هذه الفترة عديدون . وأكثرهم أندلسيون مولداً ومنشأ وثقافة ، وأقلهم أندلسيون حياة وتأثراً ونتاجاً ، ثم إن بعضهم قد كثرت أخباره لكونه أميراً أو حاكماً ، وقد كان التاريخ يعنى أكثر بالأمراء والحاكمين ، على أن بعضهم الآخر قد قلت أخباره لكونه لم يتمتع بإمارة ولا بحكم ، وإنما كان من أبناء الشعب ، وقد كان التاريخ — مع الأسف الشديد — لا يعنى كثيراً بأخبار أبناء الشعب .

وسوف نعرض لبعض شعراء تلك الفترة ، أو لمن وصلتنا بعض أشعارهم وأخبارهم . وليس علينا إن أوجزنا الحديث عن بعض هؤلاء الشعراء وأطنبناه فى البعض الآخر ؛ فالمسئول عن ذلك هم المؤرخون الأقدمون وعنايتهم بالحاكمين دون المحكومين .

عبد الرحمن الداخل :

هو عبد الرحمن[1] بن معاوية بن هاشم بن عبد الملك . ولد فى إحدى قرى دمشق سنة ١١٣ هـ . مات أبوه ، وتركه صغيراً فكفله جده هشام . ثم لما كان فى نحو العشرين من عمره وحلت النكبة ببنى أمية ، وقام على أنقاضهم بنو العباس ؛ كان عبد الرحمن قد فر بأهله وولده إلى ناحية الفرات ، ونزل بقرية قرب النهر واختفى بها عن أعين العباسيين . وفى ذلك وفيما كان لعبد الرحمن من فرار إلى المغرب يقول : « وإنى لجالس يوماً فى قرية على شط الفرات ، فى ظلمة بيت تواريت فيه لرمد كان بى ، وابنى سليمان يلعب أمامى ؛ إذ دخل الصبى فزعاً باكياً فأهوى إلى حجرى ، فجعلت أدفعه لما كان بى ، ويأبى إلا التعلق بى ، وهو دهش يقول ما يقوله الصبيان عند الفزع . فخرجت لأنظر ، فإذا بالروع قد نزل بالقرية ، ونظرت فإذا بالرايات السود عليها منحطة . وأخ لى حدث السن كان معى يشتد هارباً ويقول لى النجاة يا أخى فهذه رايات المسودة . فضربت بيدى إلى دنانير تناولتها ، ونجوت بنفسى والصبى أخى معى . وأعلمت أخواتى متجهى وأمرتهن أن يُلحقننى مولاى بدراً . وخرجت فكمنت فى موضع ناء عن القرية . فما كان إلا ساعة حتى أقبلت الخيل فأحاطت بالدار فلم تجد أثراً . ومضيت ولحقنى بدر فأتيت رجلا من معارفى بشط الفرات ، وأمرته أن يبتاع لى دواب وما يصلح لسفرى ، فدل علىّ عبدُ سوء له ، فما راعنا إلا جلبة الخيل تحفزنا ، فسبحت حاثًّا لنفسى ، وسبح الغلام أخى ، فنادانا القوم من الشط : ارجعا لا بأس عليكما . فلما قطعت نصف الفرات ، قصر أخى ، فالتفت لأقوى من قلبه ، وإذ هو قد أصغى إليهم وهم يخدعونه عن نفسه ، فناديته : نقتل يا أخى ، إلىّ إلىّ . وإذا هو قد اغتر بأمانهم وخشى

---

(١) انظر ترجمته وبعض أخباره فى : البيان المغرب جـ ٢ ص ٧١ وما بعدها ، ونفح الطيب جـ ١ ص ١٥٤ وما بعدها و جـ ٢ ص ٦٢ وما بعدها ، وأخبار مجموعة ص ٥٠ وما بعدها .

الغرق ، فاستعجل الانقلاب نحوهم . وقطعت أنا الفرات . ثم قدموا الصبى أخى الذى صار إليهم بالأمان فضربوا عنقه ، ومضوا برأسه وأنا أنظر إليه ؛ فاحتملت فيه ثكلا ملأنى مخافة . ومضيت وجهى أحسب أنى طائر ، فلجأت إلى غيضة فتواريت فيها حتى انقطع الطلب عنى ثم خرجت هارباً أروم المغرب ، حتى وصلت إلى إفريقية . وهناك لحق بى مولاى بدر . . . » .

وأخيراً تسلل عبد الرحمن الداخل إلى الأندلس ، وجمع حوله أنصار بنى أمية ، ونازل يوسف الفهرى والى الأندلس حينئذ ، فهزمه ، ودخل قرطبة سنة ١٣٨ هـ (٧٥٥ م)

وقد تغلب الداخل على كل ما صادفه من صعوبات فى تأسيس دولة بنى أمية فى الأندلس ، واستخدم لذلك الذكاء والحيلة والقسوة أيضاً - حتى لقد قتل بعض قرابته وخاصته فى سبيل تحقيق غايته . ولقد لقبه أبو جعفر المنصور بصقر قريش . وكان لقباً يليق بعبد الرحمن الذى ظل نحو ثلاثة وثلاثين عاماً — هى مدة حكمه — فى جهاد متصل وعمل دائب من أجل تحقيق هدفه الكبير . ثم مات سنة ١٧٢ هـ (٧٨٨) بعد أن حقق أكثر ما كان يريد .

وكان عبد الرحمن شاعراً مجيداً وناثراً بليغاً . وكان شعره يصوره بجوانبه المختلفة ، كإنسان وكمحارب وكسياسى . وقد أوردنا فيما سبق تلك الأبيات التى يتحدث فيها عن نخلة الرصافة ، كما أوردنا الأبيات الأخرى التى يرسل فيها سلامه من بعضه فى الأندلس إلى بعضه فى المشرق . وهذه الأبيات وتلك من روائع شعره الإنسانى .

وهناك نماذج أخرى تمثله كمحارب وكسياسى . وكلها يأخذ طابع الفخر ، لكنه الفخر الصادق ، الذى ينطبق ما فيه من المفاخر على حقيقة المفتخر . ومن ذلك قوله ، وقد حضه بعض رفاقه على صيد غرانيق وقعت إلى جانب معسكره فى إحدى غزواته :

دعنى وصيد وُقّع الغرانقِ[1]
فإن همى فى اصطياد المارق
فى نفق إن كان أو فى حالق
إذا التظت هواجر الطرائق
كان لفاعى ظل بند خافق
غنيتُ عن روض وقصر شاهق
بالقفر والإيطان[2] فى السرادق
فقل لمن نام على النمارق
إن العلا شدت بهمٍّ طارق
فاركب إليها ثبج[3] المضائق
أولا ، فأنت أرذل الخلائق[4]

ومن شعره الذى يصوره كذلك كسياسى وكمحارب ، قوله وقد بلغه أن بعض أعوانه يمن عليه ، ويزعم أنه لولاه لما صار عبد الرحمن إلى ما صار إليه من ملك ومجد :

لا يُلفَ مُمتَنٌّ علينا قائلُ ... لولاى ما ملك الأنام الداخل
سعدى وحزمى والمهند والقنا ... ومقادر بلغت وحالٌ حائل
إن الملوك مع الزمان كواكب ... نجم يطالعنا ونجم آفل
والحزم كل الحزم ألا يغفلوا ... أيروم تدبير البرية غافل ؟!
ويقول قوم سعده لا عقله ... خير السعادة ما حماها العاقل

---

(١) جمع غرنوق ، بضم الغين والنون ، وهو طائر مائى ، أو الكركى .

(٢) الإيطان : مصدر أوطن : أى أقام .

(٣) الثبج : وسط الشىء ومعظمه .

(٤) وردت هذه الأبيات فى : أخبار مجموعة ص ١١٧ – ١١٨ .

أبنى أمية قد جبرنا صدعكم بالغرب رغما والسعود قبائل
ما دام من نسلى إمام قائم فالملك فيكم ثابت متأصل[1]

ومما يصور قصته فى كفاحه المرير وجهاده الطويل ، وإحسانه إلى بنى أمية ، قوله وقد وفد عليه بعض أقربائه فنال عطاء لكنه استقله ، واستطال على الداخل بدالة القرابة :

شتان مَن قام ذا امتعاض منذ قال ما قال واضمحلا
ومن غدا مصلتًا لعزم مجرداً للعداة نصلا
فجاب قفراً وشق بحراً ولم يكن فى الأنام كَلّا[2]
فشاد ملكا وشاد عزًّا ومنبراً للخطاب فصلا
وجنَّد الجند حين أودى ومصَّر المصر حين أخلى
ثم دعا أهله جميعًا حيث انتأوا أن هَلُم أهلا
فجاء هذا طريد جوع شديد روع يخاف قتلا
فنال أمنًا ونال شِبْعًا[3] ونال مالا ونال أهلا
ألم يكن حق ذا على ذا أعظم من منعم ومولى[4]

وعبد الرحمن الداخل وإن كان مشرقى المولد والنشأة ، يعتبر أندلسى الحياة والشعر ، وذلك لأنه وفد على الأندلس فى شبابه الباكر ، وتأثر أكثر ما تأثر بما كان فى الأندلس من حياة طويلة عريضة مزدحمة بالأحداث والتجارب ، حتى كان كل ما أثر عنه من شعر قد قيل فى الأندلس ، ومن هنا جاء شعره جميعاً مرتبطاً بالأندلس متأثراً بها .

---

(١) وردت هذه الأبيات فى نفح الطيب ص ٧٠ ج ٢

(٢) الكل : العيل والثقيل ومن لا خير فيه .

(٣) الشبع بسكون الباء كالشبع بفتحها .

(٤) وردت هذه الأبيات بصور مختلفة فى نفح الطيب وأخبار مجموعة . وقد أثبتنا الأبيات الستة الأولى من نفح الطيب ج ٢ ص ٧١ وأثبتنا الثلاثة الباقية من رواية أخرى فى المصدر نفسه ص ٨٦ .

وإذا استعرضنا تلك النماذج التى بقيت من شعر عبد الرحمن الداخل ، وجدناها قسمة بين الحنين والفخر ، أما الحنين فمصدره تعلق قلب الشاعر بوطنه الأول فى المشرق ، حيث ولد ونشأ وكانت لآبائه دولة كبيرة . وأما الفخر فصدره بطولة الشاعر وكفاحه ومغامراته وانتصاراته ، فقد استطاع وهو شاب أن يؤسس دولة لبنى أمية تعوضهم دولتهم التى فقدوا . ومن هنا كان شعر الداخل يتسم بالصدق ؛ لأنه يعبر عن تجارب قد عاشها الشاعر وانفعل بها . حتى الفخر الذى من شأنه أن يكون مثقلاً بالمبالغات والأكاذيب ، قد كان من عبد الرحمن الداخل فخراً محتملاً لا تثقله مبالغات أو أكاذيب ؛ لأنه يصور حقيقة الرجل وسيرته .

وهكذا جاء شعر الداخل من حيث الموضوعات والتجارب مصوراً فى صدق لجوانب شخصية الرجل ، وهى جوانب ثلاثة ، جانب إنسانى يحب ويحن ويرق ويتألم ويبكى ، وجانب سياسى يدبر ويحتال ويحزم ويعزم ، وجانب عسكرى يقسو ويعنف ويضرب ويفتك

ويلاحظ كذلك على شعر الداخل أنه يتسم إلى جانب صدق التجارب بفنية التعبير ، وتتمثل تلك الفنية فى طريقة الشاعر التى يتناول بها الموضوعات ؛ فهو فى حديثه عن بعض الأشياء لا يصفها من الخارج ، وإنما يتعمقها ويعيش معها ، ويخلع عليها حياة ترتبط بحياته ، ويبث فيها عواطف تشارك عواطفه . وقد رأينا مثلا من ذلك فى حديثه عن النخلة . وهو فى طريقة تناوله للموضوعات يعتمد على الوجدان فى الموضوع الذى أساسه الوجدان ، وعلى الإقناع فى الموضوع الذى أساسه الفكر . وقد رأينا كيف اعتمد على الوجدان فى حديثه عن النخلة وفى تحيته إلى أحبائه فى المشرق . ولنتأمل أبياته فى الرد على من كان يمن عليه من أعوانه ، لنرى كيف اعتمد على الإقناع فيما أساسه الفكر ، وكيف وضح مثلا أن سبب مجده ليس هو هذا الذى يمن عليه ، وإنما هو السعد والسيف

والرمح والقدَر وسنة الله فى تحـول الأحوال وتداول الحكام ؛ ثم يمضى الشاعر فى الإقناع بفكرة كفاءته ومقدرته على صيانة الملك ، فيبين أن قول آخرين بأن السعد وحده هو الذى وصله إلى ما وصل إليه ، وليس العقل والتدبير ؛ إنما هو قول باطل يرد عليه ما كان من حمايته للملك ، تلك الحماية التى لا تكون إلا بالعقل والحكمة والكفاءة ، وهكذا يمضى فى الاعتماد على الإقناع فى مثل هذا الموضوع الفكرى ، كما مضى فى الاعتماد على الوجدان فيما سبق من موضوعات عاطفية .

ويلاحظ كذلك على شعر الداخل ، أنه يتسم غالباً بسمة التركيز العاطفى التى أسلفنا عنها الحديث ؛ فهو فيما يتناول من موضوعات يركز على العاطفة محاولا التأثير بها وفيها ما أمكن . وتستوى فى ذلك الموضوعات التى أساسها العاطفة والموضوعات التى أساسها الفكر . وقد اتضح تركيزه العاطفى فى حديثه عن النخلة وتحيته لأحبابه فى المشرق . فإذا ما تأملنا أبياته الأخرى التى أساسها الفكر والاعتماد على الإقناع ، وهى أبياته فى الرد على من يمن عليه ؛ وجدنا العاطفة كذلك تشيع فيها جواً دافئاً يخفف من برودة الفخر ويصقل من خشونته . فالشاعر فى تلك الأبيات يذكر الحظ والقدر وتحول الأحوال ، ويصور الحكام نجوماً تتعاقب ، فيشرق نجم ليغيب آخر . وكل ذلك مما يشيع فى القصيدة هذا الجو العاطفى الدافئ الرقيق ، ويبعدها عن أن تكون مجرد حجج وبراهين ووسائل إقناع .

وأخيراً يلاحظ على شعر الداخل أن لغته تميل غالباً إلى السلاسة والرقة ، وتجانب التعقيد والغموض والغريب .

أبو المخشيّ :

هو عاصم بن زيد العبادى ، ويتصل نسبه بالعباد نصارى الحيرة[١]. وكان والده من جند الشام الذين وفدوا على الأندلس فى فترة الولاة ، وكان قد نزل مع جند دمشق بمنطقة إلبيرة . فنشأ أبو المخشى ببلدة شوش ، واتجه إلى قرض الشعر ، وما زال ينبغ فيه حتى صار من ألمع شعراء عصره .

ولكن أبا المخشى كان ذا بذاء زائد يتسرع به من لا يوافقه من الناس، وكان ذا هجاء يمس الحرم ويتناول الأعراض أحياناً . وكان الشعراء بدورهم يجدون فى أصله النصرانى البعيد مغمزاً يعيرونه به[٢] .

وكان أول الأمر كثير المدح لسليمان بن عبد الرحمن الداخل ، حتى ليوشك أن ينقطع له . وقد ذكر فى إحدى مدائحه بيتاً من الشعر اعتبره هشام بن عبد الرحمن الداخل تعريضاً به . وهو هذا البيت :

وليسوا مثل من إن سيل عرفا   يقلّب مقـلة فيهـا اعورار[٣]

وسبب اعتبار هذا البيت تعريضاً بهشام . أنه كان أحول ، فاغتاظ من أبى المخشى ، وخاصة لما عرف عنه من هجائه الذى يمس الحرم ، ولما اشتهر به من مدح سليمان دون هشام ، فاستدعاه إلى مدينة ماردة ــ وكان هشام حينئذ واليها فى حياة أبيه ــ فخرج إليه أبو المخشى من قرطبة طامعاً فى عطائه . فلما دخل عليه قال له : « يا أبا المخشى ،

---

(١) وردت أخباره فى : المغرب لابن سعيد جـ ٢ ص ١٢٣ ، ١٢٤ ، وجذوة المقتبس للحميدى ص ٣٧٧ ، وتاريخ افتتاح الأندلس لابن القوطية ص ٣٥ ، ٣٦ ، والإحاطة لابن الخطيب (مخطوطة بالإسكوريال رقم ١٦٧٣ ورقة ٣٥١ ، ٣٥٢) .

(٢) انظر حكاية له مع شاعر يسمى ابن هبيرة فى : المغرب جـ ٢ ص ١٢٤ .

(٣) فى المغرب : « وليس كمثل من إن سيم عرفا » جـ ٢ ص ١٢٤ .

إن المرأة الصالحة التي هوت ابنها ، فقذفتها فأفحشت فيها ، قد أخلصت دعاءها لله فى أن ينتقم لها منك ، فاستجاب رجاءها ، وسلطنى لأقتص لها» ثم أمر به فقطع بعض لسانه وسملت عيناه . وقد عولج من جراحه ، ولكنه عاش بعد ذلك ممثلا به . فأما لسانه فانجبر بعد وقت إلا قليلا ، فاقتدر على الكلام إلا تلعثما كان يعترضه ، وأما العمى فقد استمر به . فعظم مصابه وكثرت شكواه فى أشعاره . ولما بلغ عبد الرحمن الداخل صنيع ابنه هشام بأبى المخشى ، ساءه الأمر وكتب إلى ابنه يعنفه . ثم قدم الشاعر على عبد الرحمن وأنشده قصيدته التى صدّرها بتصوير محنة العمى ، فرق له الأمير وأجازه بألفى دينار وضاعف ديته . ولما صار الأمر إلى هشام بعد أبيه استشعر الندم مما أصاب الشاعر على يديه ، فترضاه وضاعف ديته كذلك .

وقد اتخذ الشاعر صبياً كمنشد لشعره بعد أن أعجزته مأساته عن الإنشاد الفصيح .

وعُمِّر أبو المخشى بعد محنته حتى لحق دولة عبد الرحمن الأوسط ، وتوفى قريباً من هذا العهد . وذكر ابن حيان أنه مات فى عهد الحكم الربضى (١) .

وقد ذكر الرازى أن أبا المخشى « كان شاعر الأندلس فى حينه ، وأنه كان صاحب المعانى الحسنة والنوادر الكثيرة والقول الغزير» .

ولكن برغم ما عرف عنه من غزارة القول ، لم يصلنا من شعره إلا القليل ، الذى منه تلك الأبيات التى يتحدث فيها عن محنة العمى ، والتى يجعلها مقدمة لقصيدة له فى مدح عبد الرحمن الداخل . وقد مضت تلك المقدمة وبعض أبيات أخرى من القصيدة فى غير هذا المكان .

ومن القليل الذى بقى من شعره أيضاً ، تلك الأبيات التى يمجد فيها انتصار الداخل

---

(١) المغرب ج ٢ ص ١٢٤ .

فى بعض المعارك ، ويمدحه ويشيد بابنه سليمان بن عبد الرحمن ،وقد مضت تلك الأبيات كذلك فى موضع آخر .

ومن أروع شعره الذى وصلنا هذان البيتان اللذان يصوران الهم تصويراً دقيقاً :

وهمٌ ضافنى فى جوف ليل　　كلا موجيهما عندى كبيرُ
فبتنا والقلوب معلقات　　وأجنحة الرياح بنا تطير [١]

ثم هذا البيت الذى يصور العيش الممهد والحياة فى رفعة وحماية أدق تصوير :

هَمّا مهدا لى العيش حتى كأننى　　خَفيَّةُ زِفٍّ بين قادمتى نسرِ [٢]

وأخيراً هذان البيتان اللذان قالهما فى آخر حياته ، وفيهما يصور عجزه بعد مأساته وشيخوخته وحياته عالة على زوجته ، تلك العاجزة بدورها ، الباكية لما كان من أمر زوجها وأمرها :

أمُّ بنيَّاتى الضعيف حَوِيلها　　تعول امرأ مثلى وكان يعولها [٣]
إذا ذكرتْ ما حال بينى وبينها　　بكت تستقيل الدهر ما لا يقيلها

ومما ورد هنا من شعر لأبى المخشى ، ومما ورد له فى مواضع أخرى ، ثم مما ذكروا عنه من أخبار ، نستطيع أن نقول : إن أبا المخشى كان يمثل الشعر الأندلسى فى فترة تأسيس الإمارة أصدق تمثيل ؛ فهو يمثله فى سيره فى هذا الاتجاه المحافظ ذى الملامح البدوية . وهو يمثله فى ظهور تلك السمات الأندلسية الخاصة من تجديد فى بعض الموضوعات ومن تغليب لعنصر العاطفة ، ومن تجويد لطريقة الأداء ؛ فقد وجدنا أبا المخشى يعالج

---

(١) ورد هذا البيتان فى جذوة المقتبس للحميدى ص ٣٨٧ . وضافه : نزل عليه ضيفاً .

(٢) ورد هذا البيت فى المصدر السابق .

(٣) ورد هذان البيتان فى : تاريخ افتتاح الأندلس لابن القوطية ص ٣٦ . والحويل : الحول والقدرة .

غالباً الموضوعات التقليدية وخاصة المدح والهجاء ، لكنا رأيناه يعالج تجربة جديدة ، وهى تجربة فقدان البصر . وقد وجدناه كذلك يؤثر المنهج التقليدى فى بناء القصيدة حيث يبدأ مدحه مثلا بوصف الرحلة وإجهاد المطايا ، وحيث يلتمس صوره ومعانيه ولغته غالباً فى عالم البادية ، وما عاشت عليه من أفكار وقيم ووسائل تعبير ؛ ولكنا رأيناه مع ذلك مجوداً ما أمكن ؛ فهو يحاول أن يأتى بشيء أحسن مما أتى به الأقدمون ، برغم تحركه غالباً فى فلكهم وسيره فى اتجاههم . فامرؤ القيس يقول مثلا فى ليل الهموم :

وليلٍ كموج البحر أرخى سدوله ... علىّ بأنواع الهموم ليبتلى
فقلت له لما تمطى بصلبه ... وأردف أعجازاً وناء بكلكل

ويقول أبو المخشى :

وهمٌ ضافنى فى جوف ليل ... كلا مَوجيْهما عندى كبيرُ
فبتنا والقلوب معلقات ... وأجنحة الرياح بنا تطير

فهو قد ينظر إلى صورة ليل امرئ القيس من بعيد ، لكنه يؤلف صورة أكثر حياة وتآزر عناصر من صورة ليل امرئ القيس . وذلك أن الليل عند امرئ القيس موج بحر يرخى سدوله بأنواع الهموم ، وهو فى الوقت نفسه جمل يتمطى بصلبه ويردف أعجازاً وينوء بكلكل ، وليس هناك ترابط بين البحر والجمل . أما الليل عند أبى المخشى ، فهو بحر ذو موج عظيم ، يحوى همّاً فى جوفه ، هو بدوره بحر ذو موج عظيم ، وبين هذين الموجين تظل القلوب معلقة من الفزع ، وكأن أجنحة الرياح تطير بالمهموم .

ومن أوضح أمثلة هذا التجويد فى شعر أبى المخشى كذلك قوله :

هُمَا مهدا لى العيش حتى كأننى ... خَفيَّة زِفٌّ بين قادمَى نسرِ

فلا يخفى ما فى هذه الصورة من الدقة والجدة والشمول والإيحاء ، بحيث تفق

كثيراً ماقيل من قبل فى تمهيد العيش والحماية . فاختيار الشاعر لخفية الزف بخاصة — وهى الريشة الصغيرة من ريش الخوافى التى فى مؤخر الجناح — يوحى بالبساطة والخفة والاحتياج الشديد إلى حماية . واختيار القوادم للحماية — وهى الريشات القوية التى تكون فى مقدم الجناح — يوحى بالقوة والمنعة . ثم اختيار النسر بالذات لتكون قوادم جناحه هى التى تحمى تلك الريشة الصغيرة ، يوحى بالرفعة والغلبة . وكل هذا مما يشهد بدقة الشاعر وتجويده الفنى ؛ فقد قدم صورة حية فيها مانال من الحماية وتمهيد العيش ، وفيها ما أحرز من الارتفاع فى بساطة ويسر ، وفيها بعد ذلك تمجيد من قدّم هذا المعروف ، والإيحاء بقوته وعلو منزلته وشدة بأسه .

وهكذا نرى أن أبا المخشى يمثل الشعر الأندلسى فى فترة تأسيس الإمارة أصدق تمثيل ، من حيث اتضاح السمات الأندلسية الخاصة فى شعره ، برغم سيره فى الاتجاه المشرقى المحافظ ، الذى كان مسيطراً على الحياة الشعرية فى الأندلس حينئذ .

الحكم بن هشام :

هو أبو العاصى ، الحكم بن هشام بن عبد الرحمن الداخل ؛ ويلقب بالرَّبَضِى[١] . وقد ولد سنة ١٥٤هـ . ونشأ فى بيت الإمارة الأموية بالأندلس . وولى الأمر بعد موت أبيه هشام سنة ١٨٠هـ وهو فى نحو الخامسة والعشرين من عمره .

وقد عُرف بكثير من التحرر الذى أسخط عليه الفقهاء وأبعده كثيراً عن قلوب الشعب ؛ فقد كان ميالا إلى اللهو ، مولعاً كثيراً بالصيد ، يؤثر الندماء والشعراء على الفقهاء والعلماء ؛ فآنسوا تصدع مركزهم الذى كان مدعماً فى عهد أبيه هشام ، فحنقوا

(١) راجع ترجمته وبعض أخباره فى : البيان المغرب جـ ٤ ص ٩١ وما بعدها ، ونفح الطيب جـ ١ ص ١٥٩ وما بعدها ، والمعجب صفحة ١٢ وما بعدها ، وأخبار مجموعة صفحة ١٢٤ وما بعدها .

عليه وألبوا العامة ضده . وكان أكثر الناس تأثراً بهذه الإثارة هؤلاء المولدون الذين يسكنون الرَّبض ، والذين عرفوا بثورتهم الجامحة التى كادت تقضى على الحكم وربما على الإمارة الأموية كذلك .

وقضى الحكم كجده شطراً كبيراً من حكمه فى قيادة الجيوش ومنازلة المتمردين . وكان أخطر ما عانى ثورة الربض السالفة الذكر .

وقد كان الحكم فارساً شجاعاً ومغامراً باسلا . حكوا أنه لما رأى جموع الثائرين تحيط بقصره يوم الربض ، دعا بغالية فتغلل بها ، وبمسك فذره على شعره ؛ فقال له أحد فتيانه : أهذا يوم طيب يا سيدى ؟ ! فانتهره وقال : هذا يوم وطنت فيه نفسى على الموت أو الظفر بعدوى ، فأردت أن يُعرف رأس الحكم من بين رءوس من يُقتل معه[1] .

وكان الحكم أديباً مجيداً ، شاعراً وناثراً . وقد سجل أدبه بعض ما كان له من أحداث .

وشعره يتردد بين الغزل والحماسة ، ويصوره بهذين الجانبين اللذين يؤلفان شخصيته كفارس ؛ فهو فى غزله رقيق لين خاضع متذلل ، وهو فى حماسته عنيف أبىٌّ متجبر ، شأنه فى ذلك شأن كل الفرسان ، الذين يعتبر الخضوع للأحباب والقسوة على الأعداء ، من أهم معالم شخصيتهم .

ومن غزل الحكم الذى يمثل خضوعه فى الحب ، قوله عن نفسه :

ظلّ من فرط حبه مملوكا ... ولقد كان قبل ذاك مليكا
إن بكى أو شكى الهوى زيد ظلماً ... وبعاداً يدنى حماما وشيكا
تركته جآذر القصر صباً ... مستهاماً على الصعيد تريكا

(١) انظر : أخبار مجموعة صفحة ١٣١ .

يجعل الخد راضيًا فوق تُرب ... للذى يرتضى الحرير أريكا
هكذا يحسن التذلل بالحر ... إذا كان فى الهوى مملوكا(١)

ومن هذا اللون قوله أيضاً :

قضبٌ من البان ماست فوق كثبان ... ولّين عنى وقد أزمعن هجرانى
ملكننى ملِكا ذلت عزائمه ... فى الحب ذل أسير موثق عان
مَنْ لى بمغتصبات الروح من بدنى ... يغصبننى فى الهوى عزى وسلطانى(٢)

أما شعره الحماسى الذى يمثل الجانب العنيف من شخصيته ، فقد مضت بعض نماذجه . فلا حاجة إلى إعادتها هنا .

والذى تدل عليه القطع الباقية من شعر الحكم ، هو أن شعره كان — إلى جانب تردده بين الغزل والحماسة — يميل إلى شىء من المبالغة ، التى مبعثها شخصية الشاعر وطبعه الفروسى ؛ فهو يبالغ فى الضعف حين يتغزل ، ويبالغ فى القوة حين يتحمس ، وقد تُباعد تلك المبالغة بين الشعر والصدق أحياناً .

ويلاحظ بعد ذلك على شعر الحكم — كما تدل تلك النماذج التى بقيت — أنه كان على حظ غير قليل من الجودة ؛ ففيه يتلاءم الأسلوب مع الموضوع وتنسجم التجربة مع التعبير ، بشكل يدعو إلى الإعجاب . فإذا ما رجعنا إلى نماذجه الغزلية ، وجدنا الرقة فى الألفاظ والسلاسة فى الأسلوب والرشاقة فى الموسيقى ، وإذا ما رجعنا إلى نماذجه الحماسية ، وجدنا العنف فى الألفاظ والوعورة فى الأسلوب والصخب فى الموسيقى .

---

(١) وردت هذه الأبيات فى : البيان المغرب جـ ٢ ص ١١٩ ، ١٢٠ .

(٢) وردت هذه الأبيات فى : البيان المغرب جـ ٢ ص ١١٨ ، ١١٩ .

عباس بن ناصح :

هو أبو المعرّى عباس بن ناصح الثقفى ، من أهل الجزيرة الخضراء[١] وكان قد رحل مع أبيه إلى مصر وتردد على الحجاز والعراق ، ولقى أئمة العلم فى تلك البلاد ، فكان على حظ كبير من العلم بالفقه والرواية للشعر . ولما عاد إلى الأندلس ولاه الحكمُ قضاء الجزيرة الخضراء مع شذونة .

وكان عباس بن ناصح يتردد على قرطبة فيأخذ عنه أدباؤها ، وتدور بينه وبينهم أحياناً محاورات أدبية طريفة ، يمكن أن تعتبر المحاولات الأولى للنقد الأدبى فى الأندلس .

وقد اشتهر ابن ناصح بالشعر شهرة غلبت على شهرته كعالم ومؤدب ، وخلف ديوان شعر كان موضع عناية الأندلسيين ودراستهم . ولكن هذا الديوان قد ضاع ولم يبق من شعره إلا القليل . والذى يدل عليه هذا القليل ، بالإضافه إلى ما حكى عن الشاعر من أخبار ، هو أن شعر هذا الشاعر كان يتحرك غالباً فى دوائر المدح والحماسة والفخر ، كما كان أحياناً يتناول الزهد . فمن أمثلة مدحه قوله فى الحكم الربضى ،وكان قد أغاث الناس فى عام مجاعة :

نكِدَ الزمانُ فآمنتْ أيامه أن لن يكون بعصره عسر
ظَلَع[٢] الزمان بأزمة فجلى له تلك الكريمة جودُه الغمر[٣]

ومن أمثلة شعره الحماسى، قوله مستحثًّا للحكم على إغاثة منطقة وادى الحجارة وكان الشاعر قد نزل بها فسمع امرأة تشكو إهمال الحكم وقسوة الأعداء .

---

(١) اقرأ بعض أخباره فى بغية الملتمس للضبى صفحة ٢٧٦ ، وفى نفح الطيب ج١ صفحة ٤٤٥ ، وفى بغية الوعاة للسيوطى صفحة ٢٧٦ ، وفى المغرب لابن سعيد صفحة ٢٥٣ .

(٢) ظلع : ضاق .

(٣) ورد هذان البيتان فى : نفح الطيب ج ١ ص ١٦١ .

تململتُ فى وادى الحجارة مسهداً أراعى نجوماً مـا يردن تغـيرا
إليك أبا العاصى نضيتُ مطيّتى تسـير بهم ساريّا ومهجّرا
تداركْ نساء العالمين بنَصرة فإنك أهل أن تغيث وتنصرا(١)

ومن أمثلة شعره الزهدى قوله :

ما خيرُ مدة عيش المرء لو جُعلت كمدة الدهر والأيام تفنيها
فارغب بنفسك أن ترضى بغير رضى وابتع نجاتك بالدنيا وما فيها(٢)

كذلك يدل القليل الباقى من شعر ابن ناصح ، بالإضافة إلى ما روى عنه من أخبار ، على أن شعره كان غالباً ذا سمات بدوية واضحة ، وأنه كان قليل الصقل كثير الخشونة ؛ ويتمثل ذلك فى سذاجة بعض الأفكار ، واهتزاز بعض الصور ، وقلق بعض الألفاظ . ولعل مما يرجح هذا التصور من بداوة شعر ابن ناصح الواضحة ، ما يُحكى من أنه وفد مرة على قرطبة وأسمع الشعراء قصيدة له مطلعها :

لعمرك ما البلوى بعار ولا العدمْ إذا المرء لم يعدم تقى الله والكرمْ

فلما ورد فى تلك القصيدة بيت يقول فيه :

تجاف عن الدنيا فما لمعجّز ولا عاجز إلا الذى خُطّ بالقلم

قال له يحيى الغزّال — وكان إذ ذاك ناشئاً فى الشعر — : أيها الشيخ وما يصنع مفعّل مع فاعل ؟ (يعنى معجز مع عاجز) فقال له ابن ناصح : كيف تقول أنت ؟ فقال أقول :

تجاف عن الدنيا فليس لعاجز ولا حازم إلا الذى خُط بالقلم

فقال له عباس : والله يا بنى لقد طلبها عمك فما وجدها .

---

(١) وردت هذه الأبيات فى المصدر السابق ١٦٠ .
(٢) ورد هذان البيتان فى بغية الملتمس ص ٢٧٦ .

ثم ما يروى من أنه أنشد مرة قصيدة جاء فيها قوله :

بقَرتُ بطونَ الشعر فاستفرغ الحشا ... بكفِّي حتى آب خاويه من بقْرى

فقال له شاعر يسمى بكر بن عيسى : « أما والله — يا أبا على — لئن كنت بقرتَ الحشا ، لقد وسَّخت يديك ببقره ، وملأتها بدمه . وخبثت نفسك بنتنه ، وخشمت أنفك بعرفه » فاستحيا عباس وأفحم عن الجواب(١) .

حسانة التميمية :

هى حسانة بنت أبى الحسين الشاعر ، كانت من أهل إلبيرة(٢) ، وقد تأدبت على أبيها الذى كان أيضاً من الشعراء ، ولما مات لجأت إلى الحكم أمير الأندلس حينئذ ، وكانت وسيلتها إليه تلك الأبيات :

إنى إليك أبا العاصى موجّعة(٣) ... أبا الحُسين ، سقته الواكفَ الديمُ
قد كنت أرتع فى نعمـــاه عاكفة ... فاليوم آوى إلى نعماك يا حكم
أنت الإمام الذى انقاد الأنام له ... وملكتْه مقاليد النُّهى الأمم
لا شىء أخشى إذا ما كنت لى كنفاً ... آوى إليه ولا يعرو لى العـــدم
لا زلتَ بالعزة القعساء(٤) مرتديًا ... حتى تذل إليك العرب والعجم(٥)

فلما وقف الحكم على شعرها استحسنه ، وأمر لها بإجراء راتب ، وكتب إلى عامله على إلبيرة فجهزها بجهاز حسن . غير أنه لما مات الحكم نالها بعض الضر من عامل

(١) وردت هذه الحكاية والتى قبلها فى النفح ج ١ ص ١٤٥ ، ١٤٦ .
(٢) انظر بعض أخبارها فى : نفح الطيب ج ١ ص ٤٨٨ .
(٣) موجعة : ناعية .
(٤) القعساء : الثابتة .
(٥) وردت هذه الأبيات فى : نفح الطيب ج ٢ ص ٤٢٨ — ٤٢٩ .

بلدها جابر بن لبيد ، الذى لم يحرر لها أملاكها ، ولم ينفذ ما خطه الحكم لها بيده فى هذا الشأن . فجاءت إلى الأمير الجديد عبد الرحمن الأوسط وأنشدته قصيدة منها :

إلى ذى الندى والمجد سارت ركائبى ... على شَحَـطٍ [١] تصلى بنار الهواجرِ
ليجبر صدعى إنه خير جابر ... ويمنعنى من ذى الظلامة جابر
فإنى وأيتـامى بقبضة كفـه ... كذى ريش اضحى فى مخالب كاسر
جدير لمثلى أن يقال [٢] مروءة ... لموت أبى العاصى الذى كان ناصرى
سقاه الحيا لو كان حيًّا لما اعتدى ... علىّ زمان باطش بطش قادر
أيمحو الذى خطته يمناه جابرٌ ... لقد سام بالأملاك إحدى الكبائر [٣]

فلما فرغت من قصيدتها رق لها ، فعزل الوالى وأقرها على أملاكها ، وأمر لها بجائزة ، فانصرفت وبعثت إليه بقصيدة منها :

ابنُ الهشاميْن خير الناس مأثرة ... وخير منتجَع يومًا لـروُّادِ
إن هزَّ يوم الوغى أثناء صَعْدته [٤] ... روّى أنابيبها من صرف فرصاد [٥]
قل للإمام : أيا خير الورى نسبًا ... مقـابلا بين آباء وأجـداد
جوَّدْتَ طبعى ولم ترْض الظلامة لى ... فهـاك فضلَ ثناءٍ رائح غاد
فإنْ أقمتُ ففى نعمـاك عاكفة ... وإن رحلت فقد زودتنى زادى [٦]

وحسانة — فيما نعلم — أولى الشواعر الأندلسيات ، وأسبقهن إلى قرض الشعر .

---

(١) الشحط : البعد .
(٢) يقال : من أقال عثرته .
(٣) وردت هذه الأبيات فى : نفح الطيب جـ ٢ صفحة ٤٢٨ .
(٤) الصعدة : القناة المستوية .
(٥) الفرصاد صبغ أحمر . والمراد الدم .
(٦) راجع هذه الأبيات فى : نفح الطيب جـ ١ صفحة ٤٢٨ — ٤٢٩ .

وشعرها – كما يبدو – مزيج من الرثاء والشكوى والمدح وطلب العون ، وهو على جانب كبير من النضج الفنى ، وفيه بعض تلك السمات الأندلسية المميزة التى سبق أن أشرنا إليها فى غير هذا المكان ؛ فهو شعر يتسم بالتجويد الفنى وبالتركيز العاطفى . ولنتأمل أبياتها الأولى التى تقدمت بها إلى الحكم بعد موت أبيها ، فسوف نحسها تفيض بالعاطفة الحارة الصادقة . ولننظر أبياتها الأخرى التى أنشدتها عبد الرحمن الأوسط ، فسوف نراها على حظ كبير من التجويد الفنى ، الذى لا يأتى مصادفة ولا تندّ به طبيعة شاعر عادى . انظر إلى استخدامها للألفاظ . ولعبها بمادة « جابر » دون تصنع أو افتعال فى قولها :

ليجبر صدعى إنه خير جابر ويمنعنى من ذى الظلامة جابر

وانظر إلى الصورة الرائعة التى كأنها لوحة فنية تمثل العدوان والظلم والقهر . فى قولها :

فإنى وأيتامى بقبضة كفه كذى ريش اضحى[1] فى مخالب كاسر

وشعر حسانة بعد ذلك يتسم بالأصالة والصدق ؛ ففيه كثير من طبيعة المرأة ، فى ضعفها وحاجتها إلى الحماية وبحثها عن الكنف ، وفزعها من القهر ، وفرط إحساسها بالعدوان ، وصراخها فى طلب الغوث وجبر الصدع وإقالة العثرة .

هذه طائفة من شعراء تلك الفترة ، قد أفردناهم بالحديث لما بقى من أخبارهم وأشعارهم . وهنالك آخرون غير هؤلاء ، لا يكفى ما ذكر عنهم من أخبار أو ما بقى لهم من شعر للحديث عنهم والتعريف بهم . ومن هؤلاء بكر بن عيسى ، وأبو حسين التيمى ، وغريب الطليطلى ، وابن هبيرة .

---

(١) يقرأ الفعل أضحى هنا بهمزة وصل ليصح الوزن .

ثانياً — النثر :

إذا صح أن ينقسم النثر إلى نثر تأليفي ونثر خالص ، على أن يراد بالتأليفي ذلك النثر الذى تصاغ به المعارف الإنسانية المؤلفة فى أسلوب أدبى ، وعلى أن يراد بالخالص ، ذلك النثر الذى لا يراد به التعبير عن تلك المعارف الإنسانية المؤلفة ، وإنما يراد ما سوى المعارف ، كنقل عاطفة أو تصوير تجربة أو إيصال فكرة وما إلى ذلك ؛ أقول إذا صح ذلك التقسيم ، أمكن القول بأن النثر الأندلسى كان فى فترة تأسيس الإمارة نثراً خالصاً ، حيث كانت الأندلس حتى ذلك الحين لا تعرف النثر التأليفى ؛ لأنه يحتاج إلى مستوى ثقافى لم تكن الأندلس قد وصلته بعد .

وكان هذا النوع من النثر الخالص ، لا يعرف كذلك تلك الفروع الراقية التى نشأت فيما بعد كالفرع القصصى مثلا ، وإنما كان مقصوراً على تلك الفروع التقليدية ، كالخطب والرسائل والوصايا والمحاورات ، وما أشبه ذلك بما عرف منذ العصر الجاهلى إلى الأموى . وكان اقتصار النثر الأندلسى على تلك الفروع أمراً طبيعيًّا فى تلك الفترة الباكرة من تاريخ الأندلس ؛ فهى الفروع التى كانت تلائم حياة الأندلسيين وتتناسب مع ظروفهم السياسية والاجتماعية والثقافية ، وهى الفروع التى كانت مألوفة فى المشرق فى تلك الآونة ، وقد كان المشرق فى ذلك الحين هو المصدر الأول للاتجاهات الثقافية والأدبية .

هذا ما يتعلق بنثر الأندلس فى تلك الفترة من حيث نوعه وفروعه . أما من حيث أسلوبه فيلاحظ بناء على ما بين أيدينا من نصوص ، أنه كان لا يزال نثراً ذا تقاليد عربية خالصة ؛ فهو يتسم بالجزالة المسببة أحياناً لغرابة بعض الألفاظ . كذلك كان يتسم بالجودة المعتمدة على الطبع أولا والمستخدمة لبعض المحسنات ثانياً . على أن تلك المحسنات وفى مقدمتها السجع ، كانت تأتى بين الحين والحين دون تكلف أو افتعال . كذلك

كان النثر يتسم بالبساطة والتعبير المباشر ، والابتداء بالموضوع دون مقدمة أو تمهيد . وأخيراً كان يتسم بمراعاة المقامات ، فهو موجز فى مواطن الإيجاز ، كخطب الحرب ورسائل الإنذار ، وهو مطنب نوعاً فى الوصايا والمنشورات وما أشبه ذلك مما يتطلب بسط القول .

وهكذا نجد النثر الأندلسى فى تلك الفترة مشابهاً إلى حد كبير للنثر الذى كان معروفاً فى المشرق أيام الدولة الأموية ، حتى ليمكن أن يقال : إنه كان كالشعر يسير على الأسلوب الأدبى المحافظ clasico . وإذا أمكن أن يميز الشعر الأندلسى — برغم محافظته — ببعض الخصائص ، فربما كان من المتعذر تمييز خصائص للنثر ، تفرق بينه وبين النثر المشرقى ولو بعض التفريق . ولعل السبب فى ذلك هو قلة المأثور من نثر تلك الفترة . ولعلنا لو عثرنا على نصوص أكثر ، نستطيع أن نلمح بعض خصائص النثر الأندلسى التى تميزه من النثر المشرقى فى تلك الحقبة من تاريخه .

ومهما يكن من أمر ، فقد كان لتلك الفترة نثر تقليدى كما سبق أن قررنا ، وكان لها ناثرون عديدون مثل : فطيس بن عيسى ، وخطاب بن يزيد ، اللذين كانا كاتبين لهشام بن عبد الرحمن ثم لابنه الحكم ، ومثل حجاج العقيلى ، الذى كان كاتباً للحكم[١] ، ومثل الداخل ، والربضى من أمراء تلك الفترة ؛ فقد كان الأول خطيباً وكاتباً ، وكان الثانى كاتباً وموصياً .

وقد حفظتْ لنا بعض المراجع نماذج نثرية لتلك الفترة . ولعل من الخير أن نعرض طرفاً من تلك النماذج ، حتى يتضح ما سبق أن قررناه عن حال النثر من حيث فروعه ومن حيث أسلوبه .

فمن أمثلة الخطب ، ما قاله عبد الرحمن الداخل لأصحابه يحثهم على القتال يوم

---

(١) انظر : ابن عذارى : البيان المغرب ج ٢ ص ٩١ ، ١٠٣ .

أن خاض المعركة الفاصلة ضد يوسف الفهرى ، آخر ولاة الأندلس . قال عبد الرحمن : « هذا اليوم هو أسُّ ما يبنى عليه ، إما ذل الدهر وإما عز الدهر . فاصبروا ساعة فيما لا تشتهون . تربحوا بها بقية أعماركم فيما تشتهون »[١] .

ومن الرسائل ما كتب به عبد الرحمن الداخل إلى خارج عليه يسمى سليمان الأعرابى ، من قوله : « أما بعد . فدعنى من معاريض المعاذير ، والتعسف عن جادة الطريق ، لتمدن يداً إلى الطاعة ، والاعتصام بحبل الجماعة ، أو لأزوين [٢] بنانها على رضف[٣] المعصية ، نكالا بما قدمت يداك ، وما الله بظلام للعبيد »[٤] .

ومن أمثلة الوصايا ما وجهه الحكم الربضى إلى ابنه عبد الرحمن ، حين شعر بدنو أجله فقال : « إنى قد وطدت لك الدنيا ، وذللت لك الأعداء ، وأقمت أود[٥] الخلافة ، وأمنت عليك الخلاف والمنازعة . فاجر على ما نهجت لك من الطريقة . واعلم أن أولى الأمور بك وأوجبها عليك ، حفظ أهلك ثم عشيرتك ثم الذين يلونهم من مواليك وشيعتك . فهم أنزل ثقتك ، وإياهم واس من نعمتك ، وعصابتهم استشعر دون المتوثبين إلى مراتبهم من عوام رعيتك ، الذين لا يزالون ناقمين على الملوك أفعالهم ، مستثقلين لأعبائهم . فاحسم عللهم ببسط العدل لكافتهم ، واختيار أولى الفضل والسداد لأحكامهم وعمالتهم ، دون أن ترفع عنهم ثقل الهيبة . وإن رأيت فيمن يرتقى من صنائعك[٦] رجلا لم تنهض به سابقة ، ويشف بخصلة[٧] ونصح نفسه وهمته ، فأعنه واختبره . وقدمه واصطنعه .

---

(١) انظر هذه الخطبة فى : نفح الطيب ج ٢ ص ٧٠ .

(٢) زوى الشىء : جمعه وقبضه

(٣) الرضف : الحجارة المحماة .

(٤) هذه الرسالة واردة فى : نفح الطيب ج ١ ص ٦٨ — ٦٩ وفى البيان المغرب ج ٢ ص ٨٦ .

(٥) الأود : الاعوجاج .

(٦) صنائعك : من ربيتهم .

(٧) الخصلة : الفضيلة .

ولا يربك خمول أوله ، فإن أول كل شرف ما ربَّيته . ولا تدعن مجازاة المحسن بإحسانه ، ومعاقبة المسيء بإساءته ، فإن التزامك لهذين ، ووضعك لهما موضعهما ، يرغّب فيك ويرهّب منك »[١] .

ومن أمثلة المحاورات ما دار بين جندى وعبد الرحمن الداخل ، حيث قال الجندى : « يا ابن الخلائف الراشدين ، والسادة الأكرمين . إليك فررت ، وبك عذت . من زمن ظلوم ، ودهر غشوم . قلل المال ، وكثّر العيال ، وشعث الحال ، فصير إلى نداك المآل . وأنت ولىّ الحمد والمجد ، والمرجو للرفد » .

فأجابه عبد الرحمن :

« سمعنا مقالتك ، وقضينا حاجتك ، وأمرنا بعونك على دهرك ، على كرهنا لسوء مقامك . فلا تعودن ولا سواك لمثله ، من إراقة ماء وجهك بتصريح المسألة ، والإلحاف فى الطَّلِبة . وإذا ألم بك خطب أو حزَبك أمر ، فارفعه إلينا فى رقعة لا تعدوك ، كيما نستر عليك خَلّتك[٢] ، ونكف شمات العدو عنك . بعد رفعها إلى مالكك ومالكنا — عز وجهه — بإخلاص الدعاء وصدق النية »[٣] .

---

(١) هذه الوصية واردة فى : المقتبس لابن حيان (جزء عن إمارة عبد الرحمن الأوسط ، كان عند الأستاذ ليفى بروفنسال) .

(٢) الخلة : الحاجة والفقر .

(٣) راجع هذه المحاورة فى : نفح الطيب للمقرى ج ٢ ص ٦٨ .

الفصل الثالث

فترة صراع الإمارة

١ — فى مهب الأحداث :

حكم فى هذه الفترة من تاريخ الأندلس ، أربعة من أمراء بنى أمية الأندلسيين ، عبد الرحمن الأوسط ، ثم ابنه محمد ، ثم حفيداه المنذر وعبد الله ابنا محمد[1]. وأهم ما تمتاز به تلك الفترة من الناحية السياسية ، هو الصراع فى سبيل المحافظة على تلك الإمارة الأموية الناشئة ، التى تعرضت لعدد من الأحداث ، يأتى بعضها من الخارج حيناً ، وينبع بعضها من الداخل حيناً آخر. ولم تؤثر تلك الأحداث على الإمارة فى سنيها الأولى ، تلك السنين التى حكم فيها عبد الرحمن الأوسط ، والتى كانت أوقات ازدهار حقيقى لحكومة قرطبة ، ولكنها أوهنت الإمارة فى سنيها الأخيرة ، وخاصة أيام آخر الأمراء عبد الله بن محمد ، حتى لقد أوشكت فى عهده على السقوط .

فقد قامت فى عهد عبد الرحمن الأوسط[2] بعض الفتن الداخلية ، كالفتنة التى شبت من جديد بين المضرية ، واليمنية فى تدمير Tudmir ، واندلعت كذلك بعض الثورات المحلية ، كالثورة التى أشعلها المولدون فى طليطلة Toledo ، وظهرت بعض الحركات الدينية المفرقة ، مثل حركة الاستشهاد ، التى قام بها متعصبون من مسيحيى الإسبان[3] . ولكن عبد الرحمن استطاع أن يتغلب على تلك الفتن ، وأن يحد من خطر

---

(١) حكم عبد الرحمن الأوسط من سنة ٢٠٦ إلى ٢٣٨ هـ (٨٢٢ — ٨٥٢) م .
وحكم ابنه محمد من ٢٣٨ إلى ٢٧٣ هـ (٨٥٢ — ٨٨٦ م) .
وحكم المنذر من ٢٧٣ إلى ٢٧٥ هـ (٨٨٦ — ٨٨٨ م) .
وحكم عبد الله من ٢٧٥ إلى ٣٠٠ هـ (٨٨٨ — ٩١٢ م) .
فتكون هذه الفترة من سنة ٢٠٦ إلى سنة ٣٠٠ هـ (٨٢٢ — ٩١٢ م) .

(٢) انظر صورة عهده فى : البيان المغرب لابن عذارى ج ٢ ص ١٢١ وما بعدها ،
وانظر كذلك : Levi : Espana musulmana, pp. 129 50 ff.

(٣) راجع فى تلك الحركة : Levi : Espana musulmana, pp. 150 ff.

تلك الثورات والحركات ، بل استطاع أن يؤدب بجيوشه بعض الأقاليم المسيحية المعتدية ، وأن يحرز عليها عدداً من الانتصارات . وهكذا امتازت حكومة قرطبة فى عهده بالهيبة ، وسعدت البلاد على أيامه بالأمن ، واستطاع بتأمين الحدود وسد الثغور والحد من الفتن ، أن يقيم حكومة قوية ، لها وزراؤها وحجابها وحكامها وعمالها وقضاتها ، وغير هؤلاء ممن تقوم عليهم حكومة منظمة .

على أن عهد عبد الرحمن الأوسط ، قد شهد حدثاً خارجياً خطيراً كان من أبرز الأحداث فى تلك السنين ، وهو هجوم « النورمان » على الأندلس [١] ، ذلك الهجوم الذى أشاعوا به القلق فى كثير من المدن الأندلسية الغربية ، حيث سلبوا وقتلوا وارتكبوا كثيراً من أعمال القرصنة .

وقد أسرع عبد الرحمن الأوسط ، فأرسل جيوشه لنجدة تلك الجهات ، واستطاعت قواته أن توقف تقدم « النورمان » وتردهم على أعقابهم ، وتكبدهم كثيراً من الخسائر فى الرجال والسفن .

وفى عهد الأمير محمد[٢] ظهر بعض الخارجين على قرطبة كبنى قَسِىّ فى سَرَقُسطة ، وكابن مروان الجِلِّيقى فى ماردة . وقد سارت جيوش الأمير إلى الثائرين لإخضاعهم ، وذهبت كذلك إلى بعض المعتدين من المسيحيين المتاخمين لرد عدوانهم .

= وراجع أيضاً كتاب العرب فى إسبانيا ص ٧١ وما بعدها ، وهو ترجمة قام بها الأستاذ الجارم لكتاب المؤرخ الإنجليزى Stanley Lane-Poole.

وهذا المؤرخ من أشد الناس إنصافاً للمسلمين فى تلك الحركة، ومن أشد الناس نقداً لتصرف المسيحيين فيها.

(١) انظر فى هجوم النورمان على الأندلس : البيان المغرب ج ٢ ص ١٣٠ وما بعدها ، وتاريخ افتتاح الأندلس ص ٧٣ وبعدها ، وابن خلدون ج ٤ ص ١٢٩ .

وانظر : Levi : Espana musulmana, pp. 144 ff.

(٢) انظر تصوير عهده فى : البيان المغرب ج ٢ ص ١٤١ وما بعدها .

وانظر أيضاً : Levi : PP. 189 ff.

وفى عهد محمد أيضاً أغار «النورمان» على الأندلس للمرة الثانية ، وقد هجموا هذه المرة من الجنوب والشرق بالإضافة إلى هجومهم من الغرب ، ولكن الجنود الأندلسيين استطاعوا أن يردوا هؤلاء «النورمان» إلى غير رجعة .

على أن أيام هذا الأمير قد شاهدت ميلاد خطر جديد كَلَّف الإمارة الأندلسية كثيراً من الجهد والرجال والأموال، وظل شوكة فى جانب الحكومة القرطبية حتى أوائل الفترة التالية . هذ الخطر الجديد، هو عمر بن حفصون الذى اعتصم بجبل بُوبَشْتَر Bobastor(١) هو وكثير من المتمردين الإسبان الثائرين على حكومة قرطبة ، وأخذ يعتدى على بعض الأقاليم القريبة من حصنه فى الجنوب ، ويشيع كثيراً من الفزع . ثم مات الأمير محمد وخطر ابن حفصون من الأخطار التى تصارعها الإمارة ولا تكاد تنتصر عليها .

وكان المنذر(٢) بن محمد من كبار قواد أبيه . فخلف أباه فى إمارة قرطبة ، ووضع نصب عينيه القضاء على ابن حفصون ، إلا أن المنية أسرعت إليه قبل أن يحقق غايته . ويقال إنه مات فى أثناء محاربته لهذا الثائر الخطر .

وخَلَف المنذر أخوه عبد الله(٣) . وكانت الإمارة قد أنهكها الصراع ، وتصالحت عليها كثير من الأحداث ، التى كان فى مقدمتها فى عهد الأمير عبد الله ، اتضاح حركتين مهددتين لوحدة الأندلس وللحكومة القرطبية . أما الحركة الأولى ، فهى الحركة العنصرية ، التى كان مظهرها تكتل العرب فى بعض المناطق تحت قيادة زعيم منهم للوقوف فى وجه المولدين، الذين يتكتلون بدورهم تحت إمرة ثائر منهم للوقوف فى وجه العرب . وقد كانت

---

(١) من الجبال التى تتخلل السهل الجنوبى قرب غرناطة .

(٢) انظر لتصور عهده : البيان المغرب ج ٢ ص ١٨٠ وما بعدها والمصدر السابق اليفى بروفنسال.

(٣) انظر لتصوير عهده : المقتبس لابن حيان (الجزء الخاص بالأمير عبد الله . وقد نشره القس الإسبانى ملشور أنطونيا . باريس سنة ١٩٣٧) .
وانظر كذلك : البيان المغرب ج ٢ ص ١٨٢ وما بعدها .

وانظر من المراجع الأوربية : Levi ProvenÇal, Espana musulmana, PP. 201 ff.

إشبيلية وغرناطة من مراكز هذه الحركة [١] .

أما الحركة الثانية ، فهى الحركة الانفصالية التى كان مظهرها محاولة بعض الأفراد المغامرين أو ذوى النفوذ ، الاستقلال ببعض أقاليم الأندلس ، مستغلاً الضعف الذى كانت تعانيه حكومة قرطبة حينئذ . ومن أمثلة تلك الحركة ، ما قام به بنو المهاجر فى سرقسطة ، وبنوذى النون فى « شنت ياقب »[٢] .

وهكذا خاضت الإمارة الأموية فى تلك الفترة صراعاً كثير المعارك عديد الأعداء ، وقد بدأت قوية مهيبة فى أيام عبد الرحمن الأوسط ، ثم أخذت فى الضعف شيئاً فشيئاً حتى أشرفت فى أيام عبد الله على السقوط .

٢ ــ المجتمع يتحضر ويتحرر :

شاهدت السنوات الأولى من هذه الفترة ، حركات إصلاح وعوامل تقدم ، دفعت الأندلس أشواطاً فى طريق الرقى الاجتماعى والحضارى . وقد ساعد على ذلك ، هذا الهدوء النسبى الذى صاحب إمارة عبد الرحمن الأوسط ، كما ساعد عليه أيضاً تحمس الأمير الأموى للإصلاح ، وميله إلى النهوض بالأندلس ، حتى ينافس بها فى المغرب خلافة العباسيين فى المشرق . كما ساعد عليه كذلك ازدهار اقتصاديات البلاد فى عهده ؛ فقد زاد دخل الأندلس إلى درجة من الرخاء كانت موضع حديث المؤرخين[٣] .

وقد كان من أهم عوامل التقدم الاجتماعى فى عهد عبد الرحمن الأوسط وبعده ،

---

(١) كان إبراهيم بن حجاج متزعم عرب أشبيلية . وقد استقل بها ، كما كان متزعم عرب غرناطة سعيد بن جودى وقد استقل بها أيضاً .

(٢) انظر : المقتبس لابن حيان ص ٩ وما بعدها .

(٣) انظر فى إصلاحاته وما قام به من تعمير وما كان فى عهده من رخاء : نفح الطيب المقرى ج ١ ص ١٦٢ ، ١٦٣ ، والبيان المغرب لابن عذارى ج ٢ ص ١٣٦ ، وتاريخ افتتاح الأندلس لابن القوطية ص ٦٢ ، ٦٣ ، ٦٧ ، والمغرب لابن سعيد ص ٤٦ ، ٤٧ .

قدوم موسيقى مشرقى على الأندلس ، أحدث فى مجتمعها انقلاباً هائلاً ، بما أدخله من عادات جديدة ، وبما أشاعه من تقاليد راقية ، وبما بعثه فى المجتمع الأندلسى من روح التأنق والتجمل . كل ذلك بالإضافة إلى إشاعة الموسيقى والغناء ، وتأسيس أول مدرسة أندلسية لهذين الفنين . هذا الرجل هو :

زرياب [١] :

وقد كانت نشأته بالعراق ، كما كان فى الأصل من موالى المهدى العباسى وقد امتاز هذا الموسيقى منذ حداثته كتلميذ للموسيقى المشرقى إسحق الموصلى ، صاحب المكانة المرموقة فى بلاط بغداد . وقد ظهر نبوغ زرياب وشاع خبر مهارته حتى خشيه أستاذه الموصلى وحمله على الهجرة ، فقصد تلك الأرض النائية ، أرض المغرب . وبعد إقامة يسيرة فى بلاط أمير القيروان ، دعاه الحكم الربضى إلى الأندلس ؛ لما بلغه من مهارته الفائقة فى فنه ، ولعله أراد أن ينافس به فى الأندلس ، إسحق الموصلى فى المشرق .

وأخذ زرياب طريقه إلى الأندلس ، ونزل فى ميناء الجزيرة الخضراء ، ولكنه علم فيها بوفاة الأمير الحكم ، الذى كان قد استدعاه إلى الأندلس . وقبل أن يتسرب اليأس إلى قلبه ، جاءه رسول الأمير الجديد عبد الرحمن الأوسط ، يخبره أن الأمير منفذ لوعد أبيه ، طالب قدوم الموسيقى المشرقى العظيم . فواصل زرياب رحلته إلى قرطبة ،

---

(١) اسمه على بن نافع ، وكنيته أبو الحسن ، وزرياب لقبه ، وقد أطلق عليه لسمرة بشرته ، فزرياب فى الأصل اسم لطائر أسود الريش . انظر ترجمته وما كان له من تأثير بالأندلس فى : المقرى : نفح ج ٢ ص ١٠٩ وما بعدها ، وابن دحية : المطرب ص ١٤٧ . وابن القوطية . تاريخ افتتاح الأندلس ص ٦٨ ، ٦٩ .

وانظر كذلك ما قاله ليفى بروفنسال فى محاضرته عن « الشرق الإسلامى والحضارة العربية الأندلسية » ص ٢٠ — ٢٤ .

واستقبله الأمير عبد الرحمن بالترحاب والإجلال ، ومنحه إقطاعاً ذا غلة وافرة ، وقربه من نفسه وجعله من خاصته[١] .

وكان زرياب قد جاوز الثلاثين حين وصل إلى الأندلس سنة ٨٢٢ م ، وبقى فيها حتى مات سنة ٨٥٧ م . وقد فرض نفسه على المجتمع الأندلسى ، وذلك بفضل فنه وذكائه وجميل عاداته ، وتشيع الأمير ورجال الدولة له ، واستجابة أهل الأندلس لما كان يشيع فيهم من مستحدثات . فقد كان زرياب مثالا للأناقة ، فصار قدوة فى الزى . وكان مثالا فى التجديد لطرق المعيشة ، فوجدت تجديداته رواجاً بين الأندلسيين . وهو الذى علمهم كيف يفرقون شعورهم فى وسط الرأس ويقصونها من الخلف ، حتى يظهر العنق ويبدو الجبين ، بعد أن كانوا يرسلون الشعر فوق الجبهة والأصداغ . وهو الذى استن لهم لبس الثياب البيضاء والملونة الخفيفة فى الصيف ، والفراء والأردية الثقيلة فى الشتاء . وهو الذى نقل إليهم كثيراً من طرق الطهى وتصفيف الموائد ومظاهر التحضر.

أما من ناحية الفن فقد أنشأ أول مدرسة لتعليم الموسيقى والغناء ، وكان من دعائم هذه المدرسة أبناء زرياب وبناته وجواريه ، وكانوا جميعاً يحسنون الغناء ويجيدون الموسيقى . وقد خف إلى مدرسة زرياب كثير من الأندلسيين ، فكان يأخذهم بمنهج دقيق فى تعليم الموسيقى والغناء[٢] . واستطاع بسرعة أن يجعل للموسيقى الأندلسية طابعاً وشخصية وعشاقاً ، وأن يخلصها من التقاليد المدنية التى دخلت إلى الأندلس مع المدنيات ومن جاء بعدهن من فنانى المشرق[٣] قبل زرياب . ولا تزال الموسيقى تدين لزرياب ، بالعود ذى الأوتار الخمسة الذى أحله محل العود ذى الأوتار الثلاثة ، الذى كان معروفاً من قبل .

ولقد كان من نتائج وفود زرياب وانتشار مستحدثاته الاجتماعية والفنية ، أن شاع

---

(١) اقرأ قصة تدل على مبلغ إغداق هذا الأمير على زرياب ، فى : تاريخ افتتاح الأندلس لابن القوطية ص ٦٨ ، ٦٩ .

(٢) انظر : نفح الطيب ج ٣ ص ١٢٣

(٣) انظر : المصدر السابق ص ١١٣ .

فى المجتمع الأندلسى حب الترف والتأنق والأخـــذ بمتع الحياة ، كما شاع كذلك الشغف بالموسيقى والتعلق بالغناء ، والتورط أحياناً فى اللهو والمجون . وقد ساعد على ذلك تحرر بعض الأمراء ممن حكموا فى تلك الفترة ، مثل عبد الرحمن الأوسط ، كما ساعد كذلك تحسن الأحوال الاقتصادية فى أغلب الأحيان ، وانتشار الكروم ، والترخص فى عصر الأنبذة وشربها ، ثم كثرة القيان من مشرقيات وإسبانيات ، ووفرة الغلمان وخاصة من الصقالبة .

وليس من شك فى أن المجتمع الأندلسى ، قد لاقى كثيراً من الضر فى أواخر تلك الفترة . حين تألبت كثرة من الشرور على الإمارة الأموية ، فى صراعها المرير من أجل البقاء . وليس من شك أيضاً فى أن هذا المجتمع أوذى كثيراً من تلك الأحداث الداخلية والخارجية ، التى جرت بخاصة بعد أيام عبد الرحمن الأوسط . ولكن تلك الأحداث كانت فى الوقت نفسه ، سبباً من أسباب الاحتكاك بين عناصر المجتمع ، وعاملا من عوامل صهره ؛ ذلك أن الصراع بين الإمارة وجماعة ابن حفصون ، والصراع بين العرب والمولدين ، وما كان من حركات عنصرية وانفصالية ، قد أتاح لعناصر المجتمع الأندلسى احتكاكاً أكثر واتصالا أشد .

وإذا كانت السنوات الأخيرة من تلك الفترة . قد حرمت الأندلسيين كثيراً من الأمن والاستقرار ، فإنها لم تغير من حقيقة ما وصلوا إليه فى السنوات الأولى ، من التحضر ، والشغف بالموسيقى ، والتعلق بالغناء ؛ فقد أصبح كل ذلك من عاداتهم وطرق معيشتهم ، ولم يعد من المستطاع أن تغيرهم حتى تلك الاضطرابات والقلاقل ، التى صاحبت عهد الأمير عبد الله . بل ربما كانت تلك الاضطرابات وهـــذه القلاقل ، مما يدفع بعض النفوس إلى طلب الطمأنية والبحث عن المسكن ، فى مجلس غناء أو حلقة سماع أو جماعة ندمان[1] .

---

(١) راجع المقتبس لابن حيان (الجزء الخاص بفترة الأمير عبد الله والذى نشره القس ملشور أنطونيا) فإن فيه كثيراً مما يؤيد هذا .

– وثبة الثقافة :

وثبت الثقافة الأندلسية فى تلك الفترة وثبة عظيمة ، واجتمع لها من الدوافع ما حفزها على هذه الوثبة . وقد كان من أهم تلك الدوافع ، تعلق بعض الأمراء بالمعرفة ومشاركتهم فى ميادين الثقافة ؛ فقد كان عبد الرحمن الأوسط ، محبًّا لمطالعة كتب الطب والفلسفة ، كما كان مقرباً للعلماء مؤثراً للباحثين ، باعثاً فى طلب الكتب من يجلبها له من الأمصار . وقد أرسل عباس بن ناصح إلى المشرق ليبحث له عن الكتب النافعة وينقلها إلى قرطبة[١] . كذلك كان الأمير عبد الله – برغم سوء الأحوال السياسية فى عهده – محباً للعلم مشاركاً فى الاشتغال به ، يؤثر العلماء ويقرب المثقفين . وقد قال ابن حيان عنه إنه «كان متصرفاً فى فنون ، متحققاً منها ، عالماً بلسان العرب بصيراً بلغاتها وأيامها ، حافظاً للغريب والأخبار» . وقال كذلك عن مجلسه : «وكان مجلس الأمير عبد الله ، قبل الخلافة وبعدها ، أعمر مجالس الملوك بالفضائل ، وأنزهها من الرذائل ، وأجمعها لطبقات أهل الآداب والتعاليم ، فكانت كل نادرة تدور على الأفواه ، وتتناقل فى الألسنة ، لا يستقر قرارها إلا فى مجلس مذكراته ، ولا يفك عويصها إلا بين يديه»[٢] .

ولم يكن الأمراء الأمويون وحدهم الذين يشتغلون بالعلم ويقربون رجاله ، بل كان مثلهم فى ذلك ، هؤلاء الرؤساء المستقلون ، الذين ظهروا بخاصة فى عهد الأمير عبد الله ؛ مثل إبراهيم بن حجاج المستقل بإشبيلية[٣] .

وكان من دوافع الوثبة الثقافية فى تلك الفترة كذلك ، ما حمله بعض المشارقة إلى

---

(١) انظر : نفح الطيب للمقرى ج ١ ص ١٦٢ . وتاريخ افتتاح الأندلس لابن القوطية ص ٥٨ . وأخبار مجموعة لمؤلف مجهول ص ١٣٥ ، والمغرب لابن سعيد ص ٤٥ .

(٢) انظر : المقتبس (الجزء الذى نشره القس ملشور أنطونيا) ص ٣٤ .

(٣) انظر ما يرويه ابن حيان فى المقتبس عن المناظرة التى جرت فى مجلسه ص ١٣ ، ١٤ .

الأندلس من مؤلفات علمية وأدبية ، زيادة على ما حمله الأندلسيون أنفسهم . ومن أشهر نقلة المؤلفات المشرقية إلى الأندلس فى تلك الفترة ، إبراهيم بن أحمد الشيبانى ، المعروف بأبى اليسر الرياضى وهو من أهل بغداد ، وكان قد لقى الجاحظ والمبرد وثعلباً وابن قتيبة من الأدباء ، وأبا تمام والبحترى ودعبلا وابن الجهم من الشعراء ، وسعيد ابن حميد وسليمان بن وهب وأحمد بن طاهر من الكتاب ؛ ولقى غير هؤلاء وأولئك من أهل العلم والأدب ، ثم رحل إلى المغرب وسكن القيروان ، وكتب للأمير إبراهيم ابن الأغلب ، ثم لابنه عبد الله . ووفد أيضاً على الأندلس فى عهد الأمير محمد[١] .

كذلك كان من الأندلسيين الذين نقلوا الكثير من علم المشرق وأدبه فى تلك الفترة ، محمد بن عبد السلام بن ثعلبة . وكان قد دخل البصرة ولقى بها أبا حاتم السجستانى والعباسى والرياشى وأبا إسحق الزيادى ، فأخذ عنهم رواية الأصمعى وغيره ، ودخل كذلك بغداد وأخذ عن علمائها ، ثم انقلب إلى قرطبة . وعن طريق هذا العالم دخل الأندلس كثير من كتب اللغة ودواوين الجاهليين[٢] .

وكان من نتائج هذه الوثبة الثقافية ظهور كثير من علماء الأندلس فى شتى فروع الثقافة العربية والإسلامية ، وظهور طلائع العلماء الأندلسيين فى العلوم العقلية والفلسفية والطبيعية . فقد ظهر بالإضافة إلى الكثير من علماء الدين واللغة ، أول فيلسوف أندلسى ، وهو محمد بن مسرة[٣] وكان أول أمره قد تلقى تعاليم الدين والحكمة على صديق لأبيه . ونشأ محبا للدراسات العقلية ، فنبغ فيها وهو ابن سبعة عشر عاماً . ومن العجيب أنه كان

---

(١) انظر : نفح الطيب للمقرى ج ٢ ص ١١٥ .

(٢) انظر : تاريخ علماء الأندلس لابن الفرضى ج ٢ ص ١٦ — ١٧ ، وجذوة المقتبس للحميدى ص ٥٨ — ٥٩ .

(٣) انظر بعض ترجماته فى : جذوة المقتبس للحميدى ص ٥٨ ، ٥٩ ، وتاريخ علماء الأندلس لابن الفرضى ج ١ ص ٢١ ، ٤٢ . وانظر البحث القيم الذى كتبه عنه الأستاذ أسين بلاثيوس بعنوان : Ibn Masarra y su escuela
فى كتابه Opras escogidas, vol.I. .

فى هذه السن المبكرة أستاذاً له تلاميذ يعلمهم ويعيش معهم فى منزل يملكه فى جبل قرطبة ، وكان يلقن تلاميذه نوعاً من الفلسفة ، يستره بأستار من الزهد . وقد أشاع الناس عنه أنه يشيع تعاليم إلحادية تتنافى مع تعاليم الإسلام . وكان ذلك فى عهد الأمير عبد الله ، حيث الظروف القاسية ، والسنوات المليئة بالقلاقل ، فخاف ابن مسرة على نفسه ، ورحل إلى المشرق ، وبعد فترة عاد إلى معتزله بقرطبة، يواصل تعليم تلاميذه فلسفته فى جو أكثر هدوءاً . وألف ابن مسرة كتباً ضاع معظمها ، وقد وصلنا اسمان لكتابين له ، هما : التبصرة والحروف. وقد استطاع المستشرق الإسبانى أسين بلاثيوس Asin Palacios أن يجمع بعض أطراف مذهب ابن مسرة مما نقل من كتبه فى طيات كتب الأندلسيين . وبين العالم الإسبانى أن مذهب ابن مسرة كان يقوم على أفكار فيلون الإسكندرى وأفلوطين وغيرهما ، كما أنه كان يعتمد على إبراز نظرية تقول بوجود مادة روحانية . تشترك فيها جميع الكائنات عدا الذات الإلهية . ويبدو أن ابن مسرة كان يروج لمذهبه تحت ستار إسلامى من آراء المعتزلة والباطنية .

وقد ظهر كذلك فى تلك الفترة ، أول مؤرخ أندلسى ، وهو عبد الملك بن حبيب[١] وكان قد درس أول الأمر فى إلبيرة وقرطبة ، ثم رحل إلى المشرق ، وتردد على حلقات الدرس فى مدنه ، وخاصة المدينة المنورة . وعاد بعد ذلك إلى بلاده ، فأدرك شهرة عظيمة ، حتى لقب بعالم الأندلس . وقد قيل فى سعة علمه وتعدد معارفه : إنه كان يقسم طلبته فى مسجد قرطبة إلى مجموعات ، يدرس لكل مجموعة علماً ، ولا يسمعهم به فى ذلك إلا كتبه وموطأ مالك . ومع ذلك لم يبق من كتبه الكثيرة إلا كتابه المسمى : التاريخ ، وهو لا يزال مخطوطاً فى مكتبة أكسفورد . ويبدو أن بعض تلاميذه قد أضاف إلى الكتاب بعض الزيادات ، لأن الرجل قد مات قبل إمارة عبد الله ، ومع ذلك يصل ما كتب

(١) انظر فى ترجمته : جذوة المقتبس للحميدى ص ٢٦٣ — ٢٦٥ . وتاريخ العلماء والرواة للعلم بالأندلس لابن الفرضى ج ١ ص ٣١٢ — ٣١٥ .

فى الكتاب إلى عهد هذا الأمير الأموى . ويشتمل كتاب عبد الملك ، على بعض الأساطير ، التى نسجت حول فتح المسلمين للأندلس . ويذهب المؤرخ الهولندى دوزى Dozy إلى أن ابن حبيب قد أخذ هذه الأساطير عن أساتذته المصريين(١) .

كذلك كان من مظاهر وثبة الأندلس الثقافية فى تلك الفترة ، ظهور أوائل أطباء الأندلس ، مثل أحمد بن إياس ، وحمدين بن أبان(٢) ، وكانا أيام الأمير محمد . ثم ظهور أوائل الفلكيين والرياضيين ، مثل أبى عبيدة مسلم بن أحمد البلنسى ، وكان يعنى بعلم الحساب والنجوم(٣) .

وليس من شك فى أن ظهور رجل كعباس بن فرناس ، مما يعد من مظاهر الوثبة الثقافية فى تلك الفترة ، فقد كان هذا الرجل من مفاخر الأندلس ، وربما لا نكون مبالغين إذا قلنا : إنه كان من مفاخر الفكر الإنسانى عامة ، فهو أول من استنبط صناعة الزجاج من الحجارة بالأندلس ، وهو أول مخترع للآلة المعروفة بالمثقال لمعرفة الأوقات ، وهو من أوائل من حاولوا الطيران فى التاريخ ، حيث صنع جناحين وركبهما على جانبه ، ثم طار بهما حيناً ، لكنه وقع . وكان ابن فرناس إلى ذلك أديباً شاعراً(٤) .

٤ — وثبة الأدب :

وقد وثب الأدب الأندلسى فى تلك الفترة وثبة واضحة ، قربته كثيراً من نهضة شاملة سيحظى بها فى الفترة التالية . وقد ساعدت على تلك الوثبة أمور ، أكثرها يرجع إلى التقدم

---

(١) انظر : Angel Gonzalez Palencia . Historta de la Literatura Arabigo-esbanola. ,pp. 141 ff.
وانظر : تاريخ الفكر الأندلسى ترجمة المصدر السابق ص ١٩٣ وما بعدها .
(٢) انظر : طبقات الأمم لصاعد الأندلسى ص ٧٨ . وانظر : طبقات الأطباء لابن أبى أصيبعة ج ٤ ص ٤٢ .
(٣) انظر : طبقات الأمم لصاعد الأندلسى ص ٦٤ ، ونفح الطيب للمقرى ج ٢ ص ٣٢٢ .
(٤) انظر بعض أخباره فى : نفح الطيب للمقرى ج ٢ ص ٢٣١ ، ٢٣٢ . والبيان المغرب ج ٢ ص ١٦٦ — ١٦٨ .

الثقافى والاجتماعى الذى حظيت به الأندلس . حينذاك ، وأقلها يرجع إلى الوضع السياسى الذى كانت عليه البلاد فى تلك الفترة ، ذلك الوضع الذى كان من مظاهره الحركة العنصرية ، والحركة الانفصالية ، والاحتكاك الشديد بين عناصر الأندلس ، من عرب ومولدين ومستعربين . وفيما يلى تفصيل القول فى جنسى الأدب :

أولا : الشعر :

أول ما يلاحظ على الشعر الأندلسى فى تلك الفترة ، أنه لم يعد مقصوراً على ذلك الاتجاه المحافظ الذى عرفه من قبل ، وإنما قد اتسع لبعض الاتجاهات الجديدة ، التى وفد بعضها من المشرق وانبثق بعضها الآخر من الأندلس . كذلك يلاحظ أن الاتجاه المحافظ المعروف من قبل قد اتسعت ميادينه ، فعالج بعض ما قد جدّ فى حياة الأندلسيين تبعاً لظروفهم السياسية والاجتماعية التى أحاطت بهم فى تلك الفترة . وقد كانت نتيجة ذلك كله نموًّا للشعر وازدهاراً له . وهذا بيان ذلك .

(أ) معرفة الاتجاه المحدث :

ونعنى به هذا الاتجاه الذى سار فيه بالمشرق أبو نواس ومسلم بن الوليد وأبو العتاهية وأمثالهم من المجددين ، والذى تزعمه أبو نواس ، حين ثار على الاتجاه التقليدى وندد بطريقته ، وراح يطرق أغراضاً جديدة ، بمنهج جديد وأسلوب محدث .

وكانت هذه الحركة التى تزعمها أبو نواس معاصرة لتلك الفترة التى نسوق عنها الحديث. ولما كانت الأندلس دائمة الصلة بالمشرق ، دائمة الأخذ عنه ؛ قد أخذت هذا الاتجاه الجديد فى الشعر ، حيث نُقل إليها فى عهد الأمير عبد الرحمن الأوسط ، وما لبث أن شاع بين أدباء الأندلس .

وكان ناقل هذا الاتجاه الشعرى ، عباس بن ناصح[١] ، الشاعر الذى عرف فى أيام الحكم الربضى، والذى امتد به الأجل إلى عهد عبد الرحمن الأوسط . وكان قد سافر إلى المشرق فالتقى فى العراق بأبى نواس وسمع شعره ، وعاد إلى الأندلس فأشاعه بين الأندلسيين . وما لبث بعض هؤلاء أن تمثلوه ، وأنتجوا ما يشبهه بل ما يفوقه فى بعض الأحايين . وبهذا ظهرت تلك الأشعار المحدثة Moderna التى أخذت اتجاهاً جديداً بجانب الاتجاه القديم .

ويتمثل هذا الاتجاه المحدث فى الاهتمام بأغراض شعرية لم تكن شائعة من قبل ؛ ثم فى الأسلوب الذى تعالج به هذه الأغراض وغيرها مما يتناوله الشعراء .

فمن حيث الأغراض ، ظهرت الخمريات ، كقول يحيى الغزال :

ولما رأيتُ الشَّربَ أكْدَتْ[٢] سماؤهم	تأبطتُ زِقّى[٣] واحتسبت عنائى
فلمـا أتيت الحان ناديت ربه	فهب خفيف الروح نحو ندائى
قليلَ هجوع العـين إلا تعلة	على وجل منى ومـن نظرائى
فقلت أذقنيهـا فلمـا أذاقنى	طرحت إليه رَيطتى[٤] وردائى
وقلت أعـرنى بِذلة[٥] أستتر بها	بذلت لـه فيهـا طلاق نسائى
فوالله ما برّت يمينى ولا وفت	له غير أنى ضـامن بوفائى
وأبتُ إلى صحبى ولم أك آيبا	فكلٌ يفـدّينى وحَقٌ فدائى[٦]

---

(١) راجع ما كتبناه عنه فى ص ١١٩ وما بعدها .

(٢) أكدت : توقفت عن المطر .

(٣) الزق : وعاء الخمر .

(٤) الريطة : كل ثوب رقيق .

(٥) البذلة : ما لا يصان من الثياب .

(٦) وردت هذه الأبيات فى : المطرب لابن دحية ص ١٤٨ .

وظهر كذلك الغزل الشاذ ، وهو الغزل بالمذكر . ومنه قول شاعر اسمه مؤمن . يخاطب مغنياً اسمه منصور . ويتغزل فى فتى يلقب بابن القط :

قُولا لمنصور : أبا نصرٍ بحرمة المضراب والنقر
ألا حكمتَ اليوم لابن الذى لُقِّب بالقط على البدر
لا والذى طافت قريش له بالبيت فى أيامه العشر
كأنما هاروت فى طرفه إذا رنا ينفث بالسحر(١)

وظهرت كذلك المجونيات ، كقول المطرّف بن عبد الرحمن الأوسط :

أفنيتُ عمرىَ فى الشر ب والوجوه الملاحِ
ولم أضيع أصيلا ولا اطِّلاع صباح
أحيى الليالى سهداً فى نشوة ومراح
ولست أسمع ماذا يقول داعى الفلاح(٢)

وظهرت كذلك بواكير الطبيعيات ، كقول عبد الرحمن الأوسط ، وقد كتب به إلى صديقه الشاعر عبد الله بن الشّمر :

ما تراه فى اصطباحْ وعقود القطر تنثرْ
ونسيم الروض يختا ل على مسك وعنبر
كلما حاول سبقا فهو فى الريحان يعثرْ
لا تكن مهمالة واسـ ـبق فما فى البطء تعذر(٣)

(١) وردت هذه الأبيات فى : المقتبس لابن حيان ص ١٣٨ (الجزء الذى نشره ملشور أنطونيا).
(٢) وردت هذه الأبيات فى : نفح الطيب ج ١ ص ٣٢٩ .
(٣) وردت هذه الأبيات فى : المغرب لابن سعيد ج ١ ص ٥٠ ، ٥١ .

وظهرت كذلك الزهديات كقول الأمير عبد الله :

يا مــن يراوغــه الأجــلُ ... حتّــامَ يلهيــك الأمــل
حتــام لا تخشى الــردى ... وكأنه بك قــد نــزل
أغفلتَ عن طلب النجـا ... ة ولا نجــاة لمن غفــل
هيهــات تشغلك المُنَى ... ولَـمَـا يدوم لك الشُّغَل
فكأن يومــك لم يكن ... وكأن نعيــك لم يزل(١)

هذا ما يتعلق بالاتجاه المحدث من حيث الأغراض الجديدة التي بدأت تجذب الشعر الأندلسي ؛ أما من حيث الأسلوب الجديد ، الذى بدأ يتضح فى الشعر السائر فى هذا الاتجاه ؛ فيلاحظ - كما تؤكد النماذج السابقة - أنه أسلوب يميل إلى شيء من التفصيل ويتجه أحياناً إلى القص ، وتشيع فيه روح الدعابة والسخرية والتحرر إذا كان الموضوع لاهياً ، كما تشيع فيه روح المرارة والكآبة والتزمت إذا كان الموضوع جاداً . ثم هو غالباً أسلوب ترسم صوره من عناصر حضرية ، وتحلق أخيلته فى آفاق غير آفاق البادية ، وتؤلف لغته من ألفاظ بسيطة واضحة حسنة الإيقاع ، وتميل موسيقاه إلى البحور القصيرة والقوافى الرقيقة .

دواعى التجديد :

وكما كان للاتجاه المحافظ ما يبرر الأخذ به فى الأندلس خلال الفترة السابقة ، كان لهذا الاتجاه المحدث ما يشجع على السير فيه خلال تلك الفترة التى نسوق عنها الحديث . فمعروف أن هذا الاتجاه فى أصل نشأته بالمشرق ، أثر من آثار تلك الحياة الجديدة التى عاشها الناس خلال النصف الأول من العصر العباسى الأول ، أى فى تلك

---

(١) وردت هذه الأبيات فى : البيان المغرب لابن عذارى ج ٢ ص ٢٣٢ ، وفى : أخبار مجموعة ص ١٥٣ .

السنوات التي أخذ الناس فيها يفتحون عيونهم في دهشة على مستحدثات الحضارة ، وراحوا يعبون في نهم من طيبات الحياة ، ثم انطلقوا في كثير من التحرر وراء المتع المختلفة ، من شراب وغناء وموسيقى ، وما يتبع ذلك من مجالس لهو ومغامرات مجون . وقد ارتاع بعضهم من هذا التحرر المورّط في كثير من الآثام ، وكان من هؤلاء المرتاعين بعض المتورطين من قبل ، فأخذوا أنفسهم بالزهد ، وراحوا يبغضون في الدنيا ، وينفرون من المتع ، ويدعون إلى التزود للآخرة ، ويشيعون احتقار الحياة وتذكر الموت .

وهكذا كانت كل الموضوعات الشعرية المفضلة لدى الاتجاه المحدث ، تمثل الحياة الجديدة للمجتمع الجديد ، وتصور هذا المجتمع في نزقه حينا ، وفي رشده حيناً آخر . وكان المجون والزهد — برغم تناقضهما الظاهري — يرجعان إلى مصدر واحد هو تلك الحياة المتحررة اللاهية الصاخبة الجديدة ، التي عرفها المجتمع الإسلامي في النصف الأول من العصر العباسي الأول .

كذلك كان الأسلوب الشعري الجديد الذي آثره شعراء هذا الاتجاه المحدث ، أثراً من آثار تلك الحياة الجديدة ، التي كانت بمثابة رد الفعل للحياة البدوية القديمة .

هذا ما حدث في المشرق حيث نشأ هذا الاتجاه المحدث . أما في الأندلس ، فقد كانت الحياة في فترة صراع الإمارة تقارب تلك الحياة في العراق أيام نشأة هذا الاتجاه . فقد كان الأندلسيون في تلك السنوات ، يفتحون عيونهم على حياة جديدة مترفة ، كما كانوا ينعمون بكثير من التحرر في ظلال بعض الأمراء المتحررين مثل عبد الرحمن الأوسط . وبدأت تكثر بينهم مجالس الموسيقى والغناء بفضل ما جاء به زرياب من ألحان وآلات وقيان ، وما لقيه من تشجيع وما بذله من جهود . كما بدأت تكثر فيهم مجالس الشراب بسبب ما أتيح لهم من إنتاج الكروم وعصر الأنبذة وترخص في شربها . كذلك بدأت تعرف بينهم علاقات الحب الشاذ ، بسبب ما كثر بينهم من

غلمان صقالبة وغير صقالبة ، ثم لما أحاط بالعلاقات والتقاليد من كثير من التحرر وعدم التزمت .

وربما ساعد على هذا النحو من السلوك ما عانت حياة الأندلس فى تلك الفترة من صراع زلزل القيم ودفع الناس إلى التعلق بمتع الحياة ، وقد أشرنا من قبل إلى بعض ألوان هذا الصراع الذى خاضته الأندلس فى تلك السنين .

وكما أحدث هذا الاندفاع والتحرر رد فعل عند بعض المشارقة ؛ أحدث الشىء نفسه عند بعض الأندلسيين ، فأنكر بعضهم ذلك الإقبال على الدنيا ، وندد بالتعلق بمتعها ، وراح يذكر بالموت ويدعو إلى التزود للدار الآخرة . وقد كان من هؤلاء من بدأ حياته فى التحرر واللهو والتعلق بمتع الحياة ، مثل يحيى الغزال الذى سنترجم له فى هذا الفصل .

وهكذا بدأ الطريق فى أرض الأندلس يفتح أمام هذا الاتجاه الشعرى المحدث ، فتلقاه بعض الشعراء بالإعجاب ، لأنه يعبر عن واقع حياتهم ، ويصور فى دقة نزعاتهم : حين يتحررون فيلهون ، وحين يتزمتون فيتزهدون ؛ ثم لأن أسلوبه فى جدته وتحضره ورقته أقرب إلى حياتهم الجديدة المتحضرة الرقيقة ، من هذا الأسلوب المحافظ القديم ، الذى يليق بسكان البادية .

فإذا كان الشعراء فى الأندلس من قبل قد آثروا الاتجاه المحافظ لدواع من حياتهم وواقعهم ، ودوافع من قيمهم ومثلهم ، فقد آثر بعض الشعراء الآن الاتجاه المحدث لدواع أخرى تتصل بالحياة الجديدة والواقع الجديد ، ولدوافع أخرى ترتبط بالقيم التى تغيرت والمثل التى تبدلت . فلم تعد حياة هؤلاء الشعراء فى مجتمعهم هى تلك الحياة البسيطة القريبة من حياة البداوة ، ولم تعد مثلهم مستمدة من عالم الآباء والأجداد فى البادية . وإنما أصبحت حياتهم هى تلك الحياة الأندلسية المتحضرة المترفة ، التى عرفت

اللهو العابث والتزمت الزاهد ، كما صارت مثلهم مستمدة من هذا الواقع الجديد ، الذى يعيشونه هم بكل ما يموج فيه من حسيات ومعنويات .

(ب) نمو الاتجاه القديم

وبرغم دخول الاتجاه المحدث إلى الأندلس وانتشاره بين بعض الأندلسيين فى فترة صراع الإمارة ، قد ظل الاتجاه المحافظ قويًّا نامياً ، وظل كثير من الشعراء متمسكين به سائرين على تقاليده . بل إن بعض الشعراء الذين أجادوا النظم على طريقة المحدثين ، كانوا أحياناً يفضلون النظم على طريقة المحافظين .

ولعل السبب فى ذلك أن الاتجاه المحافظ كان قد استقر فى الأذواق وتمكن من ملكات الشعراء . ولعل السبب أن هذا الاتجاه كان أليق بالموضوعات الجادة ، لما اقترن بالاتجاه المحدث من الاتصال بالموضوعات اللاهية .

على أن نمو الاتجاه المحافظ فى تلك الفترة كان فى الكم . ولم يتجاوزه إلى الكيف ؛ فقد اتسعت موضوعاته وزاد نتاجه وتعدد شعراؤه ، ولكن أسلوبه بقى على ما كان عليه من قبل ، ولم يطرأ عليه تغير ذو شأن ، برغم تغير الحياة والأحياء ، وبرغم ظهور اتجاه جديد فى الفن الشعرى ، جدد الأسلوب فى ألفاظه وتراكيبه وموسيقاه .

وقد كان من مظاهر نمو الاتجاه المحافظ فى تلك الفترة توسيع ميادينه ، واتصاله بكثير من المظاهر الجادة للحياة الأندلسية فى تلك السنين . ومن ذلك ما يلى :.

مناصرة العنصرية

فقد كان لتلك الحركة العنصرية الناشبة بين العرب والمولدين سلاح من الشعر ، إذ وقف بعض الشعراء العرب الآباء إلى جانب المعسكر المنتصر للعروبة ، وراحوا يمجدون العرب ويفاخرون بهم وينافحون عنهم ويدعون إلى التكتل للقضاء على أعدائهم ،

كما وقف بعض الشعراء الإسبان الأصول فى صف المولدين المنافحين عن الإسبانية ، وأخذوا يجرحون العرب ويدعون إلى الخلاص منهم وكانت المعركة الشعرية تأخذ فى الغالب شكل النقائض ، حيث ينقض كل فريق ما يقوله الفريق الآخر بشعر من وزنه وقافيته .

وقد تكون هذه الحركة متأثرة بحركة الشعوبية فى المشرق ، ولكن طبيعة الحياة الأندلسية ، والظروف التى أحاطت بالأندلسيين من عرب ومولدين فى تلك الفترة ، جعلت هذه الظاهرة ذات أصالة بعيدة عن مجرد التقليد لما كان فى المشرق من مظاهر شعوبية .

ومن نماذج الشعر المناصر للعنصرية فى الأندلس حينذاك ، قول شاعر مولد يلقب بالعبلى ، فى الهجوم على عرب إلبيرة :

منازلهم منهم قفار بلاقعُ ... تجارى السَّفَى[1] فيها الرياح الزغازعُ
وفى القلعة الحمراء تدبير زيغهم ... ومنها عليهم تستدير الوقائع
كما حصدت آباءهم فى ضلالهم ... أسنتنا والمرهفات القواطع

وقد رد عليه الشاعر الأسدى شاعر العرب فقال :

منازلنا معمورة لا بلاقع ... وقلعتنا حصن من الضيم مانع
وفيها لنا عز وتدبير نصرة ... ومنها عليكم تستتب الوقائع
ألا فأذنوا منا قريبًا بوقعة ... تشيب لها ولدانكم والمراضع[2]

ومن نماذج هذا الشعر المناصر للعنصرية كذلك قول العبلى فى قصيدة له عن العرب :

قد انقصفت قناتهمُ وذُلوا ... وزُعزع ركنُ عزهم الأذلُّ[3]

(١) السفى : التراب .

(٢) وردت الأبيات السابقة فى المقتبس لابن حيان ص ٦٢ ، (الجزء الذى نشره ملتشور أنطونيا) .

(٣) انظر المصدر السابق ص ٦٤ .

ثم قول بعض(١) الشعراء العرب فى الرد عليه ، وفى تمجيد زعيم العرب بإلبيرة ، المسمى سوّار (٢) :

لِسَوّار على الأعداء سيف	أباد ذوى العداوة فاضمحلّوا
لقد ذلّت رقابهمُ (عبيداً)(٣)	فصادهمُ شديدُ البأس صِلٌّ(٤)
سقاهم كأسَ حتف بعد كأس	بها نهلَ العبيد معاً وعلّوا
وقد رُفعت لسوّار قناةٌ	لها خضعت رقابهمُ وذلوا
قَتلتَ بواحد سوّارُ ألفا	وألفهمُ بوحدانا يَقِلُّ
فأكثر قتلنا لهمُ حلالٌ	بما ارتكبوه ظلماً واستحلوا
فأوردنا رِقابهمُ سيوفاً	تشب النار منها إذ تُسل
وقد سُفكت دماؤهمُ وطلّت	وليس لنا دمٌ يوما يَطل
رواق المجد مضروب علينا	منيع الجانبين فما يزل
سمونا فوق هام المجد قِدما	وعرش المجد فيه لنا محل
ورثنا المجد عن آباء صدق	وإرثكمُ — بنى العبدان — ذُلّ
وأخضعنا رقابكمُ فذلت	فليست ما حييتم تستقل(٥)

ومن نماذج الأشعار المتصلة بالحركة العنصرية كذلك ، قول الشاعر الأسدى ، يدعو العرب جميعاً إلى الوحدة واليقظة ، ولا يفرق بين عدنانى وقحطانى ، ويقرر أن

---

(١) قيل هو سعيد بن جودى ، وقيل هو يحيى بن أخى يحيى بن صقالة أول الثائرين بالدعوة العربية . انظر المقتبس ص ٦٦ .

(٢) هو زعيم عرب إلبيرة قبل سعيد بن جودى .

(٣) مكان هذه الكلمة غير واضح بالأصل ، وقد أثبتنا ما يتفق مع السياق .

(٤) الصل : الحية أو الداهية .

(٥) وردت هذه الأبيات فى المقتبس ص ٦٦ .

من أعظم أمجاد العرب ودواعى سيادتهم كون النبى عليه الصلاة والسلام منهم ، وكون الخلفاء والمهاجرين والأنصار من آبائهم :

يا أيها العرُب فى [أقصى](١) محلتهم — أنتم نيام ومن يشناكمُ سهِرُ
ما عيشُ عدنان دونَ الحى من يمن — [ومن هم](٢) يمنٌ قد خانهم مضر
إن السهام إذا ما فرقت كسرت — وإن تجمعن [يوماً](٣) ليس تنكسر
أنتم قليل ، كثير فى غنائكمُ — وغيركم قُلُلٌ فيكم وإن كثُروا
أليس منكم نبى الله أكرم مَن — برا الإله ومن جاءت به السور
وصاحباه : أبو بكر خليفته — وبعده المرتضى مِن بعـده عمر
ومعشر هاجروا فى الله ربهمُ — والتابعون ومن آووا ومن نصروا
قل للقبائل من هود ومِن أدّد (٤) — تقبلوا النصح إذ قلناه أو فذروا
ما إن تركت لكم نصحاً لمنتصح — والنصح عند ذوى الألباب مدخر (٥)

وصف المعارك الحربية :

فقد سجل الشعر فى تلك الفترة بعض ما كان من معارك بين الأمراء الأمويين والخارجين عليهم، ومجد ما أحرزه هؤلاء وقوادهم من انتصارات ، وصور الجيوش فى زحفها المظفر ، وسخر من الأعداء فى انهزامهم المهين . ومن أمثلة هذا الشعر قول عباس بن فرناس فى حملات الأمير محمد :

---

(١) مكان هذه الكلمة غير واضح فى الأصل ، ولقد أثبتنا ما يوافق السياق .
(٢) لعل الأصل يوافق ما أثبتناه هنا ، فالكلمة غير واضحة فى الأصل .
(٣) قد أثبتنا ما يتفق مع السياق ، لأن الكلمة غير واضحة فى الأصل .
(٤) أدد على وزن عمر : أبو قبيلة من العرب .
(٥) وردت هذه الأبيات فى : المقتبس ص ٤ .

ومؤتلف الأصوات مختلف الزحفِ ... لَهوم الفَلا عَبْلِ القبائل هاتف (١)
إذا أومضت فيه الصوارم خلتها ... بروقًا تراءى فى الحمام وتستخفى
كأن ذرى الأعلام فى مَيَلانها ... قراقير (٢) فى يمّ عجزنَ عن الجدْف
وإن طحنَتْ أركانها كان قطبَها ... حِجا ملك نَدْب شمائله عف
سَمِىّ ختام الأنبياء محمد ... إذا وُصف الأملاك جلّ عن الوصف

إلى أن قال :

فما كان إلا أن رماهم ببعضها ... فولوا على أعقاب مهزولة كشْف (٣)
كأن مساعير الموالى عليهمُ ... شواهين جادت للغرانيق بالنسف (٤)
بنفسى تنانين (٥) الوغى حين جمعت ... إلى الجبل المشحون صفًّا على صف (٦)

التوجه إلى الرؤساء المنفصلين :

فقد خرج الشعر المدحى عن نطاق أمراء قرطبة ، واتجه إلى بعض هؤلاء الرؤساء المستقلين ببعض الجهات ، حيث كان بعض الشعراء يقصدونهم كما يُقصد الأمراء الأمويون فى قرطبة . وهكذا بدأت توضع أسس البلاطات الأدبية الإقليمية ، التى سيعلو شأنها فيما بعد ، وخاصة فى عصر ملوك الطوائف .

ومن أمثلة هذا الشعر المتجه إلى الرؤساء المنفصلين عن حكومة قرطبة ، قول ابن عبد ربه فى إبراهيم بن حجاج المستقل بإشبيلية :

---

(١) لهوم : ملتهم ، والعبل : الضخم .
(٢) القراقير : السفن الكبيرة .
(٣) الأكشف : من يهزم فى الحرب .
(٤) الشواهين : جمع شاهين ، وهو طائر جارح . الغرانيق : جمع غرنوق ، وهو طائر صغير .
(٥) التنانين : جمع تنين ، وهو حية عظيمة .
(٦) انظر هذه الأبيات فى : البيان المغرب جـ ٢ ص ١ وما بعدها .

ألا إنّ إبراهيم لُجَّةُ ساحل من الجود أرست فوق لجة ساحل
فأشبيلْيَةُ الزهراء تَزهى بمجده وقَرْمُونَة الغراء ذات الفضائل
إذا ما تحلتْ تلك من نور وجهه غدت هذه للناس فى زىّ عاطل
وإن حلّ فى هذى توحّش هذه فتهدى برُسْل نحوه ورسائل[١]

هذا وقد كان شعر الاتجاه المحافظ — كما تدل النماذج المتقدمة — مزيجاً من الجودة والرداءة ، ومن الفنيَّة والنظمية ؛ وذلك بسبب كثرة المتعلقين بقرض الشعر ، وتعدد الميادين التى يجول فيها القصيد ، واختلاف المزاولين لهذا الفن ، بين شاعر أصيل وناظم دعى . فنحن نجد بعض النماذج تصل إلى الغاية فى الجودة ، وهى تلك النماذج التى أنتجها فنانون أخلصوا للفن ، على حين نجد نماذج أخرى دون المستوى الفنى المرضى ، وهى تلك النماذج التى أنتجها أناس أعجلتهم المناسبات أو حركهم النفاق وحب الكسب .

(ج) اختراع الاتجاه الشعبى (الموشحات)

أما الاتجاه الشعبى ، فقد نشأ فى الأندلس أواخر تلك الفترة وبدأ يأخذ طريقه فى الحياة الشعرية الأندلسية ، بجانب الاتجاهين الوافدين من المشرق . وقد عُرِف شعر هذا الاتجاه الشعبى باسم الموشحات .

ويصف الباحثون الموشحات بالشعبية ؛ لأنها فى الواقع فن شعرى نشأ فى أوساط الشعب لإرضاء حاجة الشعب ، ولأنه كان يَستخدم فى بعض فقراته اللغة العامية ، ويعتمد فى تعابيره أحياناً على أجزاء من أغنيات شعبية . ولأهمية هذا الاتجاه الشعرى الذى نشأ فى أواخر تلك الفترة ، وكان له أثر كبير فى الغرب والشرق ، سنبسط القول فيه بعض الشىء ، فنقول :

---

(١) وردت هذه الأبيات فى : المقتبس ص ٤ .

بناء الموشحة

الموشحة منظومة غنائية ، لا تسير فى موسيقاها على المنهج التقليدى، الملتزم لوحدة الوزن ورتابة القافية ، وإنما تعتمد على منهج تجديدى متحرر نوعاً، بحيث يتغير الوزن وتتعدد القافية ، ولكن مع التزام التقابل فى الأجزاء المماثلة .

فالموشحة تتألف غالباً من خمس فقرات ، تسمى كل فقرة بيتاً . والبيت فى الموشحة ليس كالبيت فى القصيدة ، لأن بيت الموشحة فقرة أو جزء من الموشحة يتألف من مجموعة أشطار ، لا من شطرين فقط كبيت القصيدة . وكل فقرة من فقرات الموشحة الخمس ينقسم إلى جزأين : الجزء الأول مجموعة أشطار تنتهى بقافية متحدة فيما بينها ومغايرة فى الوقت نفسه للمجموعة التى تقابلها فى فقرة أخرى من فقرات الموشحة . أما الجزء الثانى من جزئى بيت الموشحة ، فهو شطران — أو أكثر — تتحد فيهما القافية فى كل الموشحة . والجزء الأول الذى تختلف فيه القافية من بيت إلى بيت يسمى غصناً ، والجزء الآخر الذى تتحد قافيته فى كل الموشحة ، يسمى قفلا[1] .

هذا ما يتعلق بالقافية ، ويلاحظ أن فيها حرية وتنويعاً من جانب ، والتزاماً وتماثلا من جانب آخر . أما الحرية والتنويع ففى الأغصان ، حيث تغاير قافية كل غصن قافية باقى الأغصان . وأما الالتزام والتماثل ففى الأقفال حيث يجب أن تتحد قوافيها فى الموشحة كلها .

أما أوزان الموشحة ففيها كذلك حرية وتنويع يقابلهما التزام وتماثل . أما الحرية ففى جواز استخدام البحر الذى ستصاغ على وزنه الموشحة فى عدة حالات من حالاته ، أى من حيث التمام والجزء والشطر ، أو بعبارة أوضح ، يجوز فى الموشحة أن تكون بعض أشطارها من بحر على تفاعيله التامة ، وأن تكون بعض الأشطار الأخرى من نفس البحر ،

(١) هذه تسمية ابن سناء الملك فى كتابه دار الطراز ، أما ابن خلدون فى المقدمة فيسمى هذا الجزء سمطاً .

ولكن على تفاعيله المشطورة أو المجزوءة ، فتأتى بعض الأشطار طويلة عديدة التفاعيل ، وتأتى أخرى فى نفس الموشحة قصيرة قليلة التفاعيل . بل إنه يجوز أن تأتى بعض الأشطار من بحر والبعض الآخر من بحر ثان[1] .

وأما الالتزام والتماثل ، ففى وجوب أن يأتى كل جزء من أجزاء الموشحة المتماثلة ؛ على وزن متحد . والأجزاء المتماثلة هى : الأغصان مع الأغصان والأقفال مع الأقفال . فإذا جاء الغصن فى الفقرة الأولى على وزن معين ، يجب أن تأتى كل الأغصان على نفس الوزن . وإذا جاء القفل الأول على طريقة خاصة من حيث طول الأشطار وقصرها من بحر ما ، يجب أن تأتى كل الأقفال على نفس الطريقة . ويلاحظ أن تلك الأقفال يجب أن توافق المطلع الذى يسبق عادة كل الفقرات ، وهذه الموافقة بين الأقفال والمطلع يجب أن تكون فى الوزن والقافية جميعاً .

وقد درج الباحثون على تسمية الأجزاء المختلفة للموشحة بأسماء اصطلاحية . وقد مضى بعض تلك الأسماء ، وهى : البيت للفقرة ، والغصن لمجموعة الأشطار التى تتغير قوافيها من فقرة إلى أخرى ، والقفل للأشطار التى تتحد قوافيها فى الموشحة كلها . وبقى أن نذكر أن القفل الأخير من الموشحة يسمى خرجة . وأن الموشح الذى ليس له مطلع يسمى الأقرع ، والذى يبدأ بمطلع يسمى التام[2] .

ولعلنا بعد ما تقدم ندرك سر تسمية هذا النوع من النظم بالموشح أو الموشحة؛ فالوشاح : حلية ذات خطين يسلك فى أحدهما اللؤلؤ ، وفى الآخر الجوهر ، أو هو جلد عريض مرصع بالجوهر تشده المرأة بين عاتقها وكشحها . والثوب الموشح هو الثوب المزين . فالفكرة إذن هى فكرة التجميل المنوع المعتمد على التقابل . وهكذا الموشح أو الموشحة

---

(١) راجع الموشحات الواردة فى دار الطراز ، وقارن أوزانها . وراجع ديوان ابن سهل الإشبيلى ، ففى موشحات دار الطراز و فى موشحات ابن سهل ما يؤيد هذه الظاهرة .

(٢) انظر تلك الاصطلاحات فى : دار الطراز لابن سناء الملك .

أيضاً ؛ فهى تزدان بالقوافى المنوعة والأوزان المتعددة ، ولكن مع التقابل فى أجزائها المتماثلة .

وهذا نموذج لموشحة ، نسوقه لكى تتضح تلك الأجزاء التى تؤلف هذا البناء الشعرى ، لا لنقدم شاهداً من موشحات تلك الفترة ، التى لا يوجد بين أيدى الدارسين اليوم شىء من موشحاتها . والموشحة لابن سهل الإشبيلى ، وهو من شعراء القرن السابع الهجرى[١] ، وقد أوردنا موشحته بدلا من تصوير بناء هذا النظم الأندلسى بالخطوط والرموز . يقول ابن سهل[٢] :

هل درى ظبى الحمى أن قد حمى   قلب صب حله عن مكنسِ[٣]
فهو فى حر وخفق مثلمــا   لعبتْ ريح الصبــا بالقبس

* * *

يا بدوراً أطلعت يوم النــوى   غُرراً تسلك فى نهج الغَـررْ
ما لعينى وحدها ذنب الهــوى   منكم الحسن ومن عينى النظر
أجتنى بالذات مكروه الجــوى   والتــذاذى من حبيبى بالفكــر
وإذا أشــكوه وجــدى بسمــا   كالربى والعــارض المنبجسِ
إذ يقيم القطر فيهــا مأتما   وهى مــن بهجتهــا فى عرُس

* * *

مَن إذا أملى عليــه حُرَق   طارحتنى مقلتــاه الدَّنَفا[٤]
تركتْ ألحاظــه مِن رمقى   أثر النمــل على صُم الصَّفا[٥]

---

(١) انظر عنه بحثاً للمؤلف ، كتب بالإسبانية ، وعنوانه : El Poeta sevillano Ibrahim Ibn Sahl.

(٢) انظر هذه الموشحة فى ديوان ابن سهل الذى قام المؤلف بتحقيقه وشرحه وضبطه .

(٣) المكنس : ما يستتر فيه الظبى كالكناس .

(٤) الدنف : السقم والمرض .

(٥) الصفا : الحجارة الملساء .

وأنا أشكــره فيمــا بقى   لست ألحــاه على مــا أتلفا
وهو عنــدى عادل إن ظلمــا   ونصيحى نطقــه كالخــرَسِ
ليس لى فى الأمر حكم بعد ما   حلّ من نفسى محل النفَس

* * *

غالبٌ لى غــالب بالتؤَده   بأبى أفــديه من جــاف رقيقْ
ما علمنا قبــلَ ثغر نضَّده   أقحوانًا(١) عُصرت منه رحيق
أخذت عينــاه منــه العربده   وفؤادى سكره ما إن يفيــق
فاحمُ الّلمــةِ معسولُ اللمى   ساحر الغُنْج شهىُّ اللَّعَس(٢)
وجهــه يتلو الضحى مبتســما   وهو مــن إعراضــه فى عبس

* * *

أيهــا السائل عن جُرمى عليهْ   لى جزاء الذنب وهو المذنبُ
أخذت شمس الضحى من وجنتيه   مشرقًا للشمس فيــه مغــرب
ذهَّبتْ دمعىَ أشــواقى إليــه   وله خــد بلحظى مُذْهَب
يُنبت الوردَ بغــرسى كلمــا   لحظتْــه مقلتى فى الخُلَسِ
ليت شعرى أى شىء حرَّما   ذلك الــورد عــلى المغــترس

* * *

أنفــدت دمعىَ نار بى ضــرامْ   تلتظى فى كل حين مــا تشــا
هى فى خديه برَد وســلام   وهى ضُر وحــريق فى الحشــا
أتَّقِى منــه على حكم الغــرام   أسداً ورداً وأهواه رشــا(٣)

---

(١) الأقحوان : زهر .

(٢) الغنج . الدل . واللعس : كون الشفة توشك أن تكون سوداء لشدة احمرارها .

(٣) الأسد الورد : الجرىء . والرشا : الظبى إذا قوى ومشى مع أمه .

قلتُ لمَّا أن تبــدى معلما[١] وهــو من ألحاظه فى حـرس
أيهــا الآخــذ قلبى مغنمــا اجعل الوصل مكان الخُمُس[٢]

نشأة الموشحات :

والموشحات قد نشأت فى الأندلس ، أواخر القرن الثالث الهجرى (التاسع الميلادى) وكانت نشأتها فى تلك الفترة التى حكم فيها الأمير عبد الله ، وفى هذه السنين التى ازدهرت فيها الموسيقى وشاع الغناء من جانب ، وقوى احتكاك العنصر العربى بالعنصر الإسبانى من جانب آخر . فكانت نشأة الموشحات استجابة لحاجة فنية أولا ، ونتيجة لظاهرة اجتماعية ثانياً . أما كونها استجابة لحاجة فنية ، فبيانه أن الأندلسيين كانوا قد أولعوا بالموسيقى وكلفوا بالغناء ، منذ أن قدم عليها زرياب ، وأشاع فيهم فنه . والموسيقى والغناء إذا ازدهرا كان لازدهارهما تأثير فى الشعر أى تأثير . وقد اتخذ هذا التأثير صورة خاصة فى الحجاز والعراق حين ازدهر فيهما الغناء والموسيقى فى العصر الأموى ثم العباسى . وكذلك اتخذ هذا التأثير صورة مغايرة فى الأندلس حين ازدهر فيها الغناء والموسيقى فى الفترة التى نسوق عنها الحديث . فيظهر أن الأندلسيين أحسوا بتخلف القصيدة الموحدة ، إزاء الألحان المنوعة ، وشعروا بجمود الشعر فى ماضيه التقليدى الصارم ، أمام النغم فى حاضره التجديدى المرن . وأصبحت الحاجة ماسة إلى لون من الشعر جديد ، يواكب الموسيقى والغناء فى تنوعهما واختلاف ألحانهما . ومن هنا ظهر هذا الفن الشعرى الغنائى الذى تتنوع فيه الأوزان وتتعدد القوافى ، والذى تعتبر الموسيقى أساساً من أسسه ؛ فهو ينظم ابتداء للتلحين والغناء .

---

(١) الفارس المعلم : من يتخذ علامة مميزة حتى لا يخفى .

(٢) المراد بالخمس هنا : خمس الغنيمة الذى يعطى الفقراء . من قوله تعالى .« واعلموا أنما غنمتم من شىء فإن لله خمسه » الآية .

وأما كون نشأة الموشحات قد جاءت نتيجة لظاهرة اجتماعية . فبيانه أن العرب امتزجوا بالإسبان ، وألفوا شعباً جديداً فيه عروبة وفيه إسبانية ، وكان من مظاهر هذا الامتزاج ، أن عرف الشعب الأندلسى العامية اللاتينية Romance ، كما عرف العامية العربية ؛ أى أنه كان هناك ازدواج لغوى نتيجة للازدواج العنصرى(١)

وكان لابد أن ينشأ أدب يمثل تلك الثنائية اللغوية ، فكانت الموشحات . فمن المقرر أن الموشحات كانت منذ نشأتها إلى ما بعد ذلك بقرون تنظم بالعربية الفصحى ، إلا الفقرة الأخيرة منها وهى الخرجة ، فقد كانت تعتمد على عامية الأندلس . ومعروف أن تلك العامية كانت هى عامية العربية المستخدمة لألفاظ من عامية اللاتينية . وفى ذلك يقول ابن بسام ، فى حديثه عن مخترع الموشحات إنه «كان يأخذ اللفظ العامى والعجمى ويسميه المركز ، ويصنع عليه الموشحة »(٢) .

فكأن الموشحات إذن لها جانبان : جانب موسيقى يتمثل فى تنويع الوزن والقافية ، وهذا قد جاء استجابة لحاجة الأندلس الفنية حين شاعت الموسيقى والغناء. وجانب لغوى ، يتمثل فى أن تكون الموشحة فصيحة فى فقراتها عامية فى خرجتها ، وهذا الجانب قد جاء نتيجة للثنائية اللغوية المسببة عن الثنائية العنصرية .

مخترع الموشحات :

وقد كان مخترع الموشحات فى الأندلس شاعراً من شعراء فترة الأمير عبد الله ، اسمه مقدّم بن معافى القَبْرى . .وقد جاء فى بعض نسخ كتاب الذخيرة لابن بسام أن مخترع الموشحات اسمه محمد بن محمود . والمرجح أن مخترع هذا النوع الشعرى هو

---

(١) راجع الحديث الخاص باللغات فى الأندلس فى تمهيد هذا الكتاب .

(٢) انظر : الذخيرة فى محاسن أهل الجزيرة لابن بسام ق ١ م ٢ ص ١ .

مقدم بن معافى ، وعلى ذلك أكثر الباحثين [١] . على أن ابن بسام لم يجزم حين ذكر هذا الأخير ، وإنما قال : « وأول من صنع هذه الموشحات بأفقنا واخترع طريقتها — فيما بلغنى — محمد بن محمود القبرى الضرير » [٢] . ولعل كون الشاعرين من قَبْرة [٣] جعل ابن بسام يضع اسمًا محل اسم ؛ فكأنه قد بلغه أن الشاعر القبرى فلانًا قد اخترع الموشحات ، فذكر اسم محمد بن محمود ونسى اسم مقدّم .

ولعل من تمام الحديث عن مخترع الموشحات أن نشير إلى أن بعض الباحثين قد فهم أن مخترع الموشحات هو الشاعر العباسى عبد الله بن المعتز ؛ والسبب فى هذا الفهم أن موشحة قد وردت فى الديوان المطبوع لهذا الشاعر العباسى . وقد كان ابن المعتز معاصراً لمقدّم بن معافىً ، وليس بين أيدينا شيء من موشحات هذا الأندلسى ، على حين يحتوى ديوان ابن المعتز على موشحة ، فكل هذا قد أوهم أن ابن المعتز هو صاحب أول موشحة ، وأن المشرق هو مصدر هذا النوع الشعرى . والحق أن ابن المعتز لم يقل تلك الموشحة الواردة فى ديوانه ، وإنما هى لشاعر أندلسى وشاح ، هو ابن زُهر الحفيد [٤] . وقد وردت هذه الموشحة منسوبة إلى هذا الأندلسى فى كثير من المصادر الموثوق بها مثل جيش التوشيح لابن الخطيب ، والمُغرب لابن سعيد ، ومعجم

---

(١) ممن ذكروا اسم مقدم بن معافى كمخترع للموشحات : ابن خلدون فى المقدمة ص ٥٨٤ وقد ورد اسمه خطأً فى بعض طبعات المقدمة ، فجاء مثلا : مقدم بن معافر الفريرى . ولكن مراجع أخرى تصحح اسمه ، كالمقتبس لابن حيان ص ٤٦ ونفح الطيب للمقرى جـ ٤ ص ١٩٥ وجذوة المقتبس للحميدى ، ترجمة رقم ١٣٨٦ .

(٢) الذخيرة ق ١ م ٢ ص ١ .

(٣) قبرة : بلدة قرب قرطبة . وكان منها مقدم بن معافى ومحمد بن محمود ، انظر : جذوة المقتبس ، ترجمة رقم ٢٨٥ ، ١٣٨٦ .

(٤) انظر ترجمته فى ابن أبى ، أصيبعة (عيون الأنباء فى طبقات الأطباء (جـ ٢ ص ٦٧ وما بعدها .

البلدان لياقوت وطبقات الأطباء لابن أبي أصيبعة [١] . وهناك شيء آخر ينفي نسبتها لابن المعتز ، وهو أن نظام تلك الموشحة وأسلوبها وروحها موافقة كلها لموشحات أخرى أثرت عن هذا الشاعر الأندلسي [٢] ، على حين لا يعرف لابن المعتز شيء من الموشحات التي ترجح نسبة هذا النص إليه . ومما يؤيد ماتقدم ، أن أحداً من الذين كتبوا عن ابن المعتز أو ترجموا له لم يذكر أنه كان وشاحاً . وأخيراً لو كان ابن المعتز صاحب هذه الموشحة ، لشاع عنه في المشرق هذا الفن ، ولرأينا له ولغيره من شعراء المشرق نماذج من هذا اللون ، الذي كان يناسب مستحدثاتهم ومايميلون إليه من تجديد . فنحن لم نر للمشارقة موشحات ، ولم يُذكر أحد منهم في الوشاحين ، إلا بعد أن اشتهر هذا الفن في الأندلس وكثر أعلامه ، وذلك بعد نحو ثلاثة قرون من نشأة الموشحات.

وهكذا ينتفي أن يكون المشرق منشأ هذا اللون الشعري ، بعد أن انتفى كون ابن المعتز صاحب الموشحة الواردة خطأ في ديوانه المطبوع ، بفعل بعض الساهين أو المدلسين من النساخ .

وتلك هي الموشحة التي أوقعت بعض الباحثين في الخطأ :

أيها الساقي إليك المشتكى قد دعوناك وإن لم تسمع

ونديم همتُ في غرته
وشربت الراحَ من راحته
كلما استيقظ من سكرته

جذب الزق إليه واتكى وسقاني أربعاً في أربع

غصن بان مال من حيث استوى

---

(١) انظر المغرب لابن سعيد جـ ٢ ص ٢٦٧ — ٢٦٨ ، ومعجم الأدباء لياقوت جـ ١٨ ص ٢١٩ ، وطبقات الأطباء لابن أبي أصيبعة جـ ٢ ص ٧٢ .

(٢) أورد ابن أبي أصيبعة عدة موشحات مماثلة كلها لابن زهر . انظر صفحات ٧١ ، ٧٢ ، ٧٣ ، ٧٤ .

بات مَن يهواه من فرط الجوى
خافقَ الأحشاء موهون القوَى
كلما فكَّرَ فى البين بكى   ما له يبكى بما لم يقع

ليس لى صبر ولا لى جلدُ
يا لقومى عذلوا واجتهدوا
أنكروا شكواى مما أجد
مثل حالى حقه أن يُشتكَى   كمدُ اليأس وذل الطمع

ما لعينى عَشِيَتْ بالنظر
أنكرتْ بعدك ضوءَ القمر
وإذا ما شئتَ فاسمع خبرى
شقيتْ عيناى من طول البكا   وبكى بعضى على بعضى معى

كبدٌ حرّى ودمع يكِفُ
يعرف الذنب ولا يعترف
أيها المعرض عما أصف
قد نما حبك عندى وزكا   لا يظن الحبُّ أنى مدعى(١)

أساس الموشحات :

ولكن هل استوحى مُقدّم بن معافى مخترع الموشحات نموذجًا مشابهًا ، أو بنى على أساس قديم حين اخترع موشحته الأولى ؟ لقد ثبت أن المشارقة قد عرفوا — قبل الموشحات — لونًا من الشعر تتعدد فيه القوافى ، أو تنظم فيه القصيدة على فقرات تختلف

---

(١) انظر هذه الموشحة فى المصادر السابقة ، وانظر أيضاً : دار الطراز لابن سناء الملك ، تحقيق جودت الركابى ص ٧٣ . وقد اختلفت بعض ألفاظها من مصدر إلى آخر . كما اختلف وضع بعض الأغصان.

قوافيها ، كالرباعيات والمسمطات . فهل تأثر مخترع الموشحات بشيء من ذلك ، فطوّره وبنى عليه[١] ؟ يبدو أن هذا الاحتمال بعيد ؛ لأننا لانعرف للأندلسيين رباعيات ولا مسمطات فى تلك الفترة من تاريخها . حتى نقطع ببناء الموشحات على هذا النوع من النظم .

وقد ثبت كذلك أن العناصر الإسبانية كانت تخالط العرب فى المجتمع الأندلسى ، وأن لغة الإسبان « الرومانثى » كانت تصاحب اللغة العربية ، ومن المعقول أن يكون للإسبان فنهم ، وأن تكون للغتهم بعض الأغانى . فهل يمكن أن يقال : إن مؤلف الموشحات قد اعتمد على بعض الأغنيات « الرومانثية » حين نظم موشحته الأولى ؟ يبدو كذلك أن هذا لم يكن ؛ لأنه ليس بين أيدينا شيء من تلك الأغنيات ذات الأصل الرومانى حتى نقارنها بالموشحات ونطمئن إلى أنها كانت الأساس .

وقد ذكر الأستاذ « ربــيرا Ribera » صاحب الفرض السابق ، احتمالا آخر يقول : إن أكثر البيوت الأندلسية كانت تضم نساء من جِلِّيقية ، لأنهن عُرفن أكثر من غيرهن بالجمال وكثير من المزايا الأخر ، وإن هؤلاء الجليقيات كن يغنين بلغتهن فى الحفلات ، ويهدهدن أطفالهن فى المنازل ، ويسرين عن أنفسهن فى ساعات العمل . فمن الممكن أن تكون الموشحات الأولى قد تأثرت ببعض الأغنيات الجليقية القديمة[٢] . ولكنا نستبعد كذلك هذا الافتراض الذى ذكره المستشرق الإسبانى ؛ لأنه ليس بين أيدى الباحثين كذلك شيء من أغنيات جليلقية ، يمكن أن يُثبت قرابة بين تلك الأغانى والموشحات .

---

(١) يقول الأستاذ « هارتمان » Hartman إن فن الموشحات كان إحياء لفن التسميط (عن الزجل فى الأندلس الدكتور عبد العزيز الأهوانى ص ٥) .

(٢) انظر البحث القيم الذى كتبه عن ابن قزمان الأستاذ : Julian Ribera فى كتابه : Disertaciones y opusclos. Vol. 1.

كذلك ثبت أنه كان لليهود المعايشين للمسلمين فى الأندلس بعض الأناشيد الدينية مثل « البزمون Pizmon » وهذه الأناشيد يشبه بعضها الموشحات . فهل كانت تلك الأناشيد مصادر وحى لمخترع الموشحات حين نظم محاولته الأولى ؟

نحن كذلك نستبعد هذا الرأى الذى قال به الأستاذ « ملياس فيليكروسا » Milias Villicrosa المستشرق الإسبانى ، المتخصص فى الدراسات العبرية [١] . نستبعده لأننا نستبعد أن يتأثر المسلمون الأندلسيون بشىء يهودى متصل بالدين ؛ فهم قد عرف عنهم التعصب الشديد ، والنفرة الواضحة مما يشوب العقيدة ، حتى كانوا ينفرون من الفلسفة ، بل من المذاهب الفقهية المخالفة لمذهبهم ، فكيف نعقل أنهم تأثروا ببعض الأناشيد اليهودية الدينية ؟ !

والذى يمكن الاطمئنان إليه : هو أن الموشحات قد بنيت على أغنيات أندلسية محلية[٢] واستوحت بعض أغانى الأندلسيين الشعبية ، التى لم يسجلها المؤرخون ؛ فالمعقول أن يكون للأندلسيين أغان شعبية كأى شعب له أغانيه ، والمعقول أن تكون هذه الأغانى منوعة القافية . وقد نظمت باللغة العامية الأندلسية التى تمتزج فيها العربية « بالرومانثى » ، والمعقول أن مخترع الموشحات إنما أفاد من هذه الأغنيات الشعبية ؛ لأنه سيأخذ غالباً ألفاظا عامية يجعلها مركز موشحته ، كما أخبرنا ابن بسام فى حديثه عن نشأة الموشحات . والأغنيات هى المدد الأول لتلك الألفاظ ، وخاصة حين يكون الاقتباس لعمل مشابه ، وهو الموشحات ذات النشأة الغنائية . ويؤيد هذا أن العادة جرت بين الوشاحين على أن يمهدوا للخرجات بمثل قولهم : « غنّت » . وشبيه بهذا ما

---

(١) انظر كتابه : La poesia sagrada, pp. 27 ff.

(٢) انظر : الزجل فى الأندلس للدكتور عبد العزيز الأهوانى ص ٢ وما بعدها . وانظر مقالا له فى المجلة العدد الثانى فبراير سنة ١٩٥٧ .

يحصل فى أيامنا، حين يعمد مؤلف أغان حديث إلى بعض الأغنيات الشعبية القديمة التى لايُعرف لها مؤلف ، فيأخذ بعض أجزائها ويجعله أساساً لأغنيته .

تطور الموشحات :

وقد كانت فترة نشأة الموشحات ، كفترة نشأة أى فن ، من حيث مشاهدتها لأولى المحاولات التى يعفى عليها الزمن غالباً . ومن هنا ، ولبعد الزمن بتلك الفترة ، لم تبق لنا من هذه الموشحات الأولى التى نظمها مُقدَّم وأمثاله أية نماذج . ولكنا نستطيع أن نتصورها موشحات بسيطة التركيب قليلة التعقيد ، تتخذ مجالها من الموضوعات الغنائية كالخمر والطبيعة والغزل ، وتكتب كلها باللغة العربية ، فيما سوى الخرجة ، التى تكتب باللغة الأندلسية الشعبية . كما كانت تُرضى بقالبها ولغتها وأغراضها حاجة الأندلسيين حينئذ ، وتعكس اختلاط عنصريهم وامتزاج لغتيهم ، وشيوع الغناء والموسيقى بينهم .

وقد تطورت الموشحات بعد فترة نشأتها تطورات عديدة ، وكان من أهمها تطور أصابها فى القرن الخامس الهجرى ، أيام ملوك الطوائف . ثم تطور آخر بعد ذلك بقليل فرَّع عنها مايسمى بالزجل ، حتى أصبح هذا الاتجاه الشعبى ممثلا فى لونين : لون الموشحات ، وقد صارت تكتب جميعاً باللغة الفصحى ، ولون الأزجال ، وقد صارت تكتب جميعاً باللغة العامية .

وانتقل هذان اللونان من الأندلس إلى المشرق ، فكثُر فيه الوشاحون والزجالون . وعرفهما كذلك الأدب الأوربى ، فتأثر بهما شعراء جنوب فرنسا المسمون « التروبادور Trovadores » ، كما تأثر بهما كثيرون من الشعراء الإسبان الغنائيين . وانتقل التأثير إلى الشعر الإيطالى ممثلا فى عدة أنواع ، مثل النوع الدينى المسمى « لاودس Laudes » والنوع الغنائى المسمى « بالاتا Ballata » .

وقبل أن نختم حديث الموشحات ، نعرض نموذجاً يتضح معه ما سبق أن ذكرناه

من اشتمال الخرجات كثيراً على ألفاظ من عامية الأندلس التى تمتزج فيها العربية « بالرومانثية » .

يقول بعض الأندلسيين [١] :

لحظـاتٌ بابليَّــهْ   متَّعت قلبى عشقــا
والـمَى ثغـر مفلَّجْ   لائمى منــه موق

* * *

بأبى لــو رق قلبــهْ   ســاكن مثــواه قلبى
قلمــا يأمن سِرْبُهْ   أو يَرى روعةَ سربى
حَسْبُ عذالى وحَسبه   فأنا قد ضــاع حسبى
هــذه يا عاذليَّــهْ   من سمات الحب حقا
زفــرات تتــوهجْ   وهى فى دمعىَ غرقَى

ثم يمضى الشاعر فى ذكر أغصان موشحته وأقفالها ، حتى يختتمها بهذه الأشطر :

ألبُ ديهْ إشْتِ ديَهْ   دِىَ ذا العَنْصَرَ حقَّا
بِشْتِرِى مُو ألمدبَّجْ   ونشقْ الـرمح شـقا

فهذا الختام الذى ختمت به الموشحة مزيج من ألفاظ عربية وأخرى « رومانثية » والفقرة الأولى معناها : « هذا اليوم يوم فجرى » أى مشرق . فالكلمة الأولى منها وهى كلمة « ألب » من الكلمة الإسبانية alba بمعنى فجر ، والكلمة الثانية وهى « ديه » معناها : يوم ، وهى فى الإسبانية dia ، والكلمة الثالثة وهى « إشت » معناها : هذا . وهى فى الإسبانية este . أما الفقرة الثانية ، فمعناها « يوم العنصرة حقًا » ، والعنصرة عيد من أعياد الأندلسيين . والكلمة الأولى وهى « دى » معناها : يوم ، ويبدو أنها كانت تنطق « دية »

---

(١) هو أبو بكر بن بقى المتوفى سنة ٥٤٥ هـ وكان من أعلام الوشاحين فى عهد المرابطين .

و« دىَ » . . وأما الفقرة الثالثة ، فمعناها « سألبس مدبجى» . والكلمة الأولى وهى « بشترى» هى التى صارت فى الإسبانية Vestiré أى سألبس . والكلمة الثانية وهى « مو» هى ضمير الملك للمتكلم المفرد المذكر ، وقد صارت فى الإسبانية mi أو Mio . وأما الفقرة الأخيرة فهى عربية كلها. وعلى ذلك يكون معنى هذا الختام بجملته : هذا اليوم يوم فجرى، إنه يوم عيد العنصرة . سوف ألبس ثوبى المزين . وأشق الرمح شقا[1] .

(د) الشعراء :

وقد عرفت الأندلس فى تلك الفترة عدداً وفيراً ممن يقولون الشعر ، وقد كان من هؤلاء بقية باقية من شعراء الفترة السابقة ، كعباس بن ناصح ، وحسانة التميمية ؛ كما كان منهم من امتد به الأجل إلى الفترة اللاحقة ، مثل ابن عبد ربه، ومقدم بن معافى.

وممن اشتهر فى عهد عبد الرحمن الأوسط : ابن الشَّمر ، وابن قَزْلمان ، والغزَال . وممن عرف فى عهد الأمير محمد : عباس بن فرناس ، والعتْبِى . وممن ذكر فى عهد المنذر وعبدالله : ابن عبد ربه ، والقلفاظ ، وعبديس بن محمود وابن قُلزم . وكان كثير من العلماء غير المتفرغين للشعر يقرضه أحيانًا ، مثل : عبد الملك بن حبيب ، الذى عرف بالتاريخ ، وسعيد بن عبد ربه ، الذى عرفِ بالطب ، وابن فرناس الذى عرف بالطبيعيات . هذا ، ولم يكن جميع الشعراء من ذوى الأصول العربية ؛ بل كان منهم مولدون ، كالعبْلِى الذى أوردنا له بعض الشعر ، بل لم يكن قول الشعر العربى مقصوراً على المسلمين من سكان الأندلس ، وإنما كان يقوله كذلك المسيحيون المستعربون كما تُقرر ذلك شكوى القس ألفارو القرطبى ، التى سلفت فى غير هذا المكان [2] .

---

(١) نشر الموشحة السابقة ودرس خرجتها وحل غوامضها الأستاذ جارثيا جومث فى مقال له عن الموشحات فى مجلة الأندلس سنة ١٩٥٤ ، وهو ينقل عن مخطوط اسمه عدة الجليس ومؤانسة الوزير والرئيس لابن بشرى الغرناطى ، وهذا المخطوط ملك الأستاذ كولان المستشرق الفرنسى .

(٢) انظر ما كتب عن اللغات فى الأندلس فى تمهيد هذا الكتاب .

وليس من المستطاع الترجمة فى هذا المقام لكل شعراء تلك الفترة ولا لأكثرهم ولا لأجودهم وحسبنا أن نترجم لشاعرين يمثل أحدهما الاتجاه المحدث، ويمثل الآخرالتقليدى:

يحيى الغَزَّال [١] :

اسمه يحيى بن حَكَم، ويلقب بالغَزَّال لوسامته وظرفه. وأصله من جَيَّان، وينسب إلى أسرة تنتمى إلى بكر بن وائل . وقد ولد الغزال سنة ١٥٦ هـ. ونشأ نشأة علمية أدبية غير أن الشعر غلب عليه فاشتهر به .

وقد كان للغزال من المواهب الخلقية والخُلقية ، ما جعله يُختار لبعض الأعمال الكبيرة فى إمارة قرطبة فى عهد عبد الرحمن الأوسط . لكن طبعه المتحرر كان يصل أحيانًا إلى درجة الاستهتار ، فيجر عليه كثيراً من الشر ، ويقف دون بلوغه أسمى المناصب التى كان بها جديراً . حَدَثَ أن ولاه الأمير عبد الرحمن قبض الأعشار [٢] ، واختزانها فتصادف أن قل الطعام فى تلك السنة . وارتفع سعر الحاصلات ، فباع الغزال مااختزنه من حاصلات كان قد جباها كأعشار للدولة ، واستبدل بها نقوداً . فلما علم بذلك الأمير ، غضب وقال : إننا نعد ذلك لنفقات الجند والحاجة عند الجهد . وأمر بأن يؤخذ من الغزال الثمن الذى باع به الحاصلات ، وكانت الحاصلات قد كثرت حينئذ ورخصت أسعارها ، فأبى الغزال أن يدفع ثمن الحاصلات التى باعها ، وقال : إنما أشترى لكم من الطعام عدد مابعت من الأمداد . فلما علم الأمير بذلك أمر بسجنه

---

(١) انظر ترجمته وبعض أخباره فى : المطرب لابن دحية ص ١٣٣ – ١٥٦ ، ونفح الطيب المقرى ج ١ ص ٤٤١ – ٤٤٦ ، وجذوة المقتبس للحميدى ترجمة رقم ٨٨٧ ، وبغية الملتمس للضبى ترجمة رقم ١٤٦٧ ، والمغرب لابن سعيد ج ٢ ص ٥٧ ، ٥٨ ، والمقتبس لابن حيان (الجزء الذى يتناول عصرى الحكم وعبد الرحمن الأوسط ، وهو مخطوط كان عند الأستاذ ليڤى بروفنسال) .

(٢) نوع من الضرائب المفروضة على الأرض .

وقد كتب الشاعر من محبسه فى قرطبة قصيدة جميلة ، ضمنها تبرير تصرفه ، وبدأها بالغزل فقال :

بعضَ تصابيكَ على زينبِ ... لا خيْر فى الصبوة للأشيب
أبعدَ خمسين تقضَّيتها ... وافية تصبو إلى الرَّبرَب (١)

ثم انتقل إلى مدح الأمير قائلاً ،

من مبْلغ عنى إمام الهُدى ... الوارث المجد أبًا عن أب
أنى إذا أطنَبَ مُدَّاحُه ... قَصدت فى القول فلم أطنِب
لا فكَّ عنى الله إن لم تكن ... أذكرتَنا من عُمَرَ الطيب
وأصبح المشرقُ من شوقه ... إليك قد حنَّ إلى المغرب
منبره يهتفُ من وجده ... إليك بالسهل وبالمرحب
أطربه الوقت الذى قد دنا ... وكان من قبلك لم يطرب
هفا به الوجد فلو منبر ... طار لوافى خطفةَ (٢) الكوكب
إلى جميل الوجه ذى هيبة ... ليست لحامى الغابة المغضب
لا يُمكنُ الناظرَ من رؤية ... إلا التماح الخائف المذنب

وانتهى بعد ذلك إلى المشكلة فقال :

إن تُرد المالَ فإنى امرؤٌ ... لم أجمع المالَ ولم أكسب
إذا أخذتَ الحق منى فلا ... تلتمس الربح ولا ترغب
قد أحسن الله إلينا معًا ... إن كان رأس المال لم يذهب(٣)

---

(١) الربرب : بقر الوحش .

(٢) الخطفة : السرعه

(٣) انظر هذه الأبيات وسبب قولها فى : المطرب لابن دحية ص ١٣٣ — ١٣٦ .

وقد عفا الأمير عنه بعد سماعه هذا الشعر ، وأسند إليه بعد ذلك مهام جليلة ، كان من أخطرها إيفاده فى سفارة إلى إمبراطور بيزنطة المسمى « توفلس Theophile » الذى كان قد أرسل سفارة إلى الأمير الأموى ، يعرض معها صداقته ويطلب من عبد الرحمن مودته ، ويبدى رغبة فى عقد معاهدة بين القسطنطينية وقرطبة [١] .

وقد قام الغزال بسفارة قرطبة لدى إمبراطور البيزنطيين [٢] خير قيام، وكان يصحبه فى تلك المهمة السياسية أندلسى عالم ، يسمى يحيى بن حبيب ، ولكن شخصية الغزال القوية جعلته كل شيء فى تلك السفارة التى خلفت شعراً من خير ما جادت به قريحة الشاعر .

فقد هاج البحر ، والغزال وصاحبه يركبان السفينة فى اتجاه القسطنطينية ، وأحدق بهما الخطر ؛ فاشتدت العاصفة وعلا الموج ، فقال الغزال فى ذلك :

قال لى يَحيى وصِرنا بين موج كالجبالِ
وتولتنا رياحٌ من دبور وشمالِ
شقت القلعين وانبتَّت عُرا تلك الحبال
وتمطَّى ملَك الموت إلينا عن حيال
فرأينا الموتَ رأى العين حالا بعد حال
لم يكن للقوم فينا يا رفيقى رأس مال[٣]

---

(١) انظر تحقيق هاتين السفارتين فى كتاب . الإسلام فى المغرب والأندلس ، للأستاذ ليڤى بروفنسال ص ٩٥ — ١١٤ (والكتاب مترجم عن الفرنسية بأقلام الدكتور السيد عبد العزيز سالم والأستاذ محمد صلاح الدين حلمى والدكتور لطفى عبد البديع) .

(٢) ذكر ابن دحية فى المطرب أن سفارة الغزال كانت إلى ملك المجوس ، أى « النورمان » وذكر نفس الأحداث والأشعار التى أوردها ابن حيان فى المقتبس فى حديثه عن رحلة الغزال إلى إمبراطور القسطنطينية . وقد أثبت الأستاذ ليڤى بروفنسال فى كتابه السابق « أن الرحلة لم تكن إلى ملك المجوس ، وأنها كانت إلى إمبراطور القسطنطينية ، وأن ابن دحية قد اعتمد على عناصر قصصية خيالية ولم يعتمد على حقائق تاريخية » . على أنه لا يبعد أن يكون الغزال قد قام برحلة إلى القسطنطينية ، وبأخرى إلى بلاد النورمان ، الذين كانوا قد هاجموا الأندلس فى أيامه ، والذين سماهم بعض المؤرخين بالمجوس .

(٣) انظر هذه الأبيات فى : المطرب ص ١٣٩ ، ونفح الطيب ج ١ ص ٤٤٤ .

ثم نجا الغزال وصاحبه ، ووصلا إلى حيث أرسلا ، وتهيأ الإمبراطور البيزنطى لاستقبال سفير عبد الرحمن الأوسط ، وأخبر الغزال بتقاليد بلاط بيزنطة ، التى تقضى بأن يدخل الزائر على الإمبراطور ساجداً ؛ فرفض الغزال ذلك ، واشترط ألا يخرج هو وصاحبه عن شيء من سنتهما ، فوفق على ذلك ، لكن المسئولين فى بلاط القسطنطينية تحايلوا ، فجعلوا المدخل المؤدى إلى الإمبراطور منخفضاً حتى لايدخله داخل إلا راكعاً ، فلما جاء الغزال للدخول على الإمبراطور ورأى الباب كذلك ؛ جلس على إليتيه ومد قدميه وزحف حتى دخل من الباب ثم استوى قائماً ، ثم حيا الإمبراطور بكلمة ترجمت له ، فأعجب بها ، وقال : هذا حكيم من حكماء القوم ودا هية من دهاتهم ، أردنا أن نذله فقابل وجوهنا بنعليه .

قالوا : ولم يلبث الغزال أن ظفر بإعجاب الإمبراطورة « ثيودورا Theodora » البيزنطية ؛ فقد كان يوماً يجلس مع الإمبراطور ، فدخلت زوجته وعليها زينتها ، وهى تبدو كالشمس بهاء طلعة ؛ فجعل الغزال يتأملها ولايميل طرفه عنها ، وجعل الملك يحدثه ، وهو لايلتفت إلى مايقول ، وإنما هو منصرف بكل كيانه إلى الملكة الجميلة ، فأنكر عليه الملك ذلك ، وطلب من الترجمان أن يسأله عن تصرفه غير اللائق ، فأجاب الغزال قائلا للترجمان : «عرّفه أنى قد بهرنى من حسن هذه الملكة ماقطعنى عن حديثه ؛ فإنى لم أر قط مثلها » وأخذ فى وصفها والتعجب من جمالها . فلما ذكر الترجمان ذلك للملك تزايدت حظوته عنده ، وسرت الملكة بقوله .

وقد أمرت له بهدية فامتنع عن قبولها . ولما طلبت من ترجمانها سؤاله عن سبب الرفض ، أجاب الغزال : إن صلتها لجزيلة ، وإن الأخذ منها لتشريف . . ولكن كفانى من الصلة نظرى إليها وإقبالها علىّ . . . فقالت لترجمانها : متى أحبَّ أن يأتينى زائراً فلا يحجب[1] .

---

(١) انظر : المطرب لابن دحية ص ١٤٢–١٤٣ ، والإسلام فى المغرب والأندلس ص ١٠٧–١٠٨ .

وهكذا كسب الغزال مودة الملكة ، كما اكتسب إعجاب الملك ، وظل على صلة حسنة بها طيلة مقامه بالقسطنطينية .

وقد خلقت تلك الصلة بين الغزال والإمبراطورة « ثيودورا » بعض الشعر الغزلى الممزوج بالدعابة .

سألت الإمبراطورة الغزال مرة عن سنه — وكان قد أصبح فى حدود الخمسين — فأجاب مداعبًا : عشرون سنة ؟ فقالت للترجمان : كيف يكون له هذا الشيب وهو ابن عشرين ، فقال الغزال للترجمان : ألم ترقط مُهراً يولد وهو أشهب ؟ فلما نقلت إجابته إلى الإمبراطورة أعجبت برده . وفى هذا يقول الغزال :

كُلِّفتَ يا قلبى هوى متعبا غالبتَ منه الضيغم الأغلبا
إنى تعلقت مجوسية تأبى لشمس الحسن أن تغربا
أقصى بلاد الله لى حيث لا يلقى إليها ذاهب مذهبا
يا تود[1] يا رُودَ الشباب التى تُطلع من أزرارها الكوكبا
يابأبى الشخص الذى لا أرى أحلى على قلبى ولا أعذبا
إن قلتُ يومًا إن عينى رأت مشبهه لم أعدُ أن أكذبا
قالت : أرى فوْديه[2] قد نوَّرا دعابةً توجب أن أدعبا
قلت لها : يا بأبى إنه قد يُنتَج المُهر كذا أشهبا[3]
فاستضحكتْ عجبًا بقولى لها وإنما قلت لكى تعجبا[4]

(١) جاء هذا الاسم فى المطرب (نود) بينما جاء فى النفح (تود) وهو الأصح ، فاسم الإمبراطورة فى الرواية العربية (تود) الذى يمكن أن يكون [illegible]
انظر : المطرب ص ١٤٤ والنفح جـ ١ ص [illegible] الإسلام فى المغرب والأندلس صفحة [illegible] .

(٢) الفود : معظم شعر الرأس مما يلى الأذن .

(٣) الشهب والشهبة : بياض فيه سواد .

(٤) انظر هذه الأبيات فى : المطرب ص ١٤٤ والنفح جـ١ صفحة ٤٣ .

وحسنت له يوماً خضاب شعره فقال :

بكرتْ تحسن لى ســواد خضابى   فكأن ذاك أعــادنى لشبـــابى
ما الشيب عندى والخضاب لواصف   إلا كشمس جللت بضباب
تخفَى قليـــلا ثم يقشعها الصَّبا   فيصير ما سُـــترت به لذهاب
لا تنكرى وضَحَ المشيب فإنمـــا   هو زهرة الأفهـــام والألبـــاب
فلدىَّ ما تَهوينَ من شأن الصِّبا   وطلاوة[1] الأخلاق والآداب[2]

وذكروا أن الإمبراطورة أتت مرة لزيارة الشاعر فى القصر الذى أعد لضيافته واصطحبت معها ابنها الأمير ميشيل ، وكان شابًّا يحب الشراب فأحضر معه نبيذاً فنظم الشاعر فى ذلك قصيدة يقول فيها :

وأغيـــدَ ليِّنِ الأطراف رخص[3]   كحيل الطرف ذى عنق طويلِ
تـــرى مـــاء الشباب بوجنتيـــه   يلوح كرونق السيف الصقيلِ
مِنَ ابناء الغطارف[4] قيصرىِّ الـــ   ــعمومة حين يُنسبْ والخـــؤول
كأنَّ أديمه نيصفًا بصفٍ   من الذهب الدِّلاص أو الوذيل[5]
وربّتما أكرّرُ فيــــه طـَــرْفى   فأحسب أنه من عظم فيـــل
على قـــد ســـواء لا قصير   فتحقـــره ولا هو بالطويل
ولكنْ بين ذلك فى اعتـــدال   كغصن البان فى قرب المَسيل
يحنُّ إلىَّ مطّرِفًا لشكلى   ويكثر لى الـــزيارة بالأصيـــل

---

(١) الطلاوة : الحسن والبهجة والقبول .
(٢) انظر هذه الأبيات فى : المطرب ص ١٤٦ .
(٣) الأغيد : الناعم المتثنى ، والرخص : اللين .
(٤) الغطارف : جمع غطريف وهو السيد الشريف والسخى السرى .
(٥) الدلاص : البراق . والوذيل : جمع وذيلة وهى القطعة من الفضة المجلوة .

أتى يومـًا إلىَّ بـــزق خمـــر شمولِ الريح كالمسك الفتيل[١]
ليشربها معى ويبيتَ عنــدى فيثبت بيننـــا ود الخليـــل
وجـــاءت أمـــه معـــه فكانا كأم الخشف والرشأ[٢] الكحيل
توصّينى بـــه وتقول أخشى عليـــه البرد فى الليـــل الطويل
فقلتُ حمـــاقةً منى ونَوْكًا[٣] فديتك لستُ من أهل الشّمول
فأيّةُ غـــرّة ســـبحان ربى لو انى كنت من أهل العقول[٤]

ثم عاد الغزال من رحلته ، ورأى زريابًا يتمتع بنفوذ هائل عند الأمير عبد الرحمن الأوسط فى قرطبة والأندلس جميعًا ؛ فهجاه . ووصل ذلك الهجاء إلى مسامع الأمير — وكان كما هو معروف يؤثر زريابًا ويخصه بالعطف — فقرر نفى الغزال . وقد شفع له بعض أهل الخير ، فعفا عنه الأمير ، غير أن الغزال ضاق بالحياة فى الأندلس بعد هذا. ورحل إلى المشرق . وهناك التقى بتلاميذ أبى نواس — وكان ذلك بعد موت الشاعر المشرقى بقليل — فراع الغزال مارأى من تهوين تلاميذ أبى نواس من شأن شعراء الأندلس ؛ فتركهم حتى أخذوا فى الحديث عن أبى نواس ، ثم قال لهم : من يحفظ منكم قوله :

ولما رأيتُ الشَّرْبَ أكدت سماؤهم تأبّطت زِقّى واحتبستُ عنـــانى

وذكر لهم أبيات تلك المقطوعة الخمرية الرائعة . فأعجبوا بالشعر كثيراً وذهبوا فى مدحه كل مذهب ، معتقدين أنه — كما أوهمهم — شعر أبى نواس .

فلما أفرطوا ، قال لهم : خفضوا عليكم فإنه لى . فأنكروا ذلك . فأنشدهم قصيدته التى مطلعها :

---

(١) الفتيل : كالفتيت .
(٢) الخشف : ولد الظبى . والرشأ ، الظبى إذا قوى ومشى مع أمه .
(٣) النوك : الحمق .
(٤) انظر هذه القصيدة فى كتاب ليڤى بروفنسال : الإسلام فى المغرب والأندلس ، ص ١٠٨-١١٠ . وقد أورد ابن سعيد فى المغرب بعض أبياتها ج ٢ ص ٥٨ .

تداركتُ فى شُرب النبيذ خَطائى(١)   وفارقت فيــه شيمــتى وحيــائى

وهى القصيدة التى منها الأبيا ت التى حسبوها لأبى نواس . فلما أتمها خجلوا وافترقوا عنه .

وقد أوردنا هذه النوادر جميعاً لنبرز ملامح شخصية الغزال . وقد تكون بعض هذه النوادر من نسج خيال القصاصين ، ولكنها مع ذلك تدل على ما عرف به الشاعر من صفات ، وما اشتهرت به شخصيته من معالم . وهكذا نفهم أن الرجل كان ذكياً لبقاً . خفيف الظل ، على كثير من السخرية التى تصل أحياناً إلى عدم المبالاة .

وبقى الغزال بالمشرق مدة ، ثم حن إلى الأندلس ، فعاد إلى وطنه ، وقد أقلع عن الشراب ومال إلى الزهد وقول الشعر فيه .

وظل كذلك حتى مات سنة ٢٥٥ هـ تقريباً ، فى عهد الأمير محمد ، بعد أن عُمّر وقارب المائه (٢) .

وشعر الغزال يسير فى الاتجاه المحدث الذى نقله عباس بن ناصح إلى الأندلس . وقد عرفنا أن الغزال كان فى أيام نشأته الأدبية من المترددين على مجالس ابن ناصح ، التى كانت تعقد فى قرطبة ويتناشد فيها الشعراء ويتناقدون ، وعرفنا أيضاً أن الغزال كان فى تلك النشأة الأدبية بصيراً بالشعر حتى لقد انتقد بعض ماكان يقوله ابن ناصح فى مواجهته .

ويمكن تقسيم حياة الغزال الشعرية إلى ثلاث مراحل : الأولى . مرحلة الشباب

---

(١) الخطاء ، كالخطأ : ضد الصواب .

(٢) جاء فى بغية الملتمس وجذوة المقتبس أنه مات سنة ٢٥٠ عن ٩٤ سنة . ولكن الغزال نفسه قد صرح فى بعض شعره أنه عاش ٩٩ سنة ، فإذا أضفنا هذه السنوات إلى تاريخ ميلاده كانت وفاته سنة ٢٥٥ . انظر أبيات الغزال النونية التى أولها : « ألست ترى أن الزمان طوانى » .

والنزق . وتغلب على شعره فى تلك المرحلة موضوعات الخمر والغزل والمجون والفكاهة . وقد مرت نماذج عديدة من شعر هذه المرحلة المعالج لتلك الموضوعات .

والمرحلة الثانية ، مرحلة الكبَر والتعقل ، وتغلب على شعره فى تلك المرحلة موضوعات النقد الاجتماعى والأخلاقى ، الذى ينبىء عن عمق وعى وقوة إدراك لعيوب الناس ونقائص الحياة ، مما وصل بالشاعر إلى التشبع بروح السخرية وقوة الإحساس بالمرارة ، بل إلى التشاؤم الذى حال كثيراً بين عينى الرجل وما فى الناس والحياة من خير .

ولعل مما يمثل هذه المرحلة من حياة الغزال الشعرية ، قوله فى علاقات الناس القائمة — فى نظر الشاعر — على الختل والعداوة وانتهاز الفرص ونيل القوى من الضعيف :

لا ومَن أعملَ المطايا إليـه كلُّ من ترتجى إليـه نصيبًا
ما أرى ها هنا من الناس إلا ثعلبًا يطلب الدجاج وذيبـا
أو شبيهًا بالقط ألقى بعينيـه إلى فأرة يريد الوثوبا[1]

وقوله فى المرأة وكونها — فى رأيه — كالسراج أو الخان أو الثمرة التى تدنو لأول آكل :

يا راجيًا ودّ الغـوانى ضَلةً ففؤاده كلفًا بهـن مـوكلُ
لا تكلفنّ بوصلهن فإنمـا الـكلف المحب لهن من لا يعقل
إن النساء لكالسروج حقيقةً فالسرج سرجك ريثما لا تنزل
فإذا نزلت فإن غـيرك نازل ذاك المكان وفاعل ما تفعـل
أو منزلِ المجتـاز أصبح غاديًا عنـه وينزل بعـده مَن ينزل
أو كالثمار مبـاحة أغصانُها تدنو لأول من يمرُّ فيأكل[2]

وقوله فى الذى يولَّى أمراً يحتاج إلى أمانة لأنه فى ظاهره أمين ، بينما هو ككل الناس — فى رأى الشاعر — معتدٍ خائن مفسد :

---

(١) وردت هذه الأبيات فى : نفح الطيب ج ١ ص ٤٤٣ .

(٢) وردت هذه الأبيات فى : المطرب لابن دحية ص ١٤٦ ، ١٤٧ .

يقول لىَ القاضى معاذٌ مشاوراً ... وولّى امرأ فيما يرى من ذوى الفضل
فديتك ماذا تحسب المرء صانعًا ... فقلتُ وماذا يصنع الدُّبُّ بالنحل
يدق خلاياها ويأكل شهدها ... ويترك للذبان ماكان من فضل[١]

ثم قوله فى الناس،وانطباعهم جميعًا – فى رأيه – على الإثم ، وغرقهم فى الذنوب، لا فرق بين واحد وآخر ، إلاأن هذا مفضوح وذاك مستور :

إذا أُخبرتَ عن رجل برىء ... من الآفات ظاهــره صحيحُ
فسلهم عنه : هل هو آدمى ؟ ... فإن قالوا نعم فالقول ريح
ولكنْ بعضنــا أهــل استتار ... وعنــد الله أجمعنــا جــريح
ومن إنعــام خالقنــا علينــا ... بأنّ ذنوبنــا ليســت تفوح
فلو فاحت لأصبحنــا هروبًا ... فُرادَى بالفــلا ما نستريح
وضاق بكل منتحل صلاحًا ... لِنَتْن ذنوبه البلدُ الفسيح[٢]

وهذه النقدات الاجتماعية والأخلاقية تعتبر من التجديد الموضوعى الذى طرق به الغزال موضوعات جديدة ، لم يتجه إليها الشعراء قبله إلا على سبيل اللمحات العابرة .

أما المرحلة الثالثة ، فهى مرحلة الضعف والزهد . وفى هذه المرحلة تغلب على شعر الغزال موضوعات الشكوى من تقدم السن ، والحديث عن البِلَى الذى أخذ يدب فى كل شىء منه حتى الاسم ، ثم ذكرِ الزهد فى الدنيا ومتاعها الفانى ، والموت والقبر والنهاية المحتومة . ومن شعر هذه المرحلة قول الغزال :

ألستَ ترى أن الزمان طوانى ... وبدّل خَلْقى كلّه وبــرانى
تحيَّفنى عضواً فعضواً فلم يدع ... سوى اسمى صحيحًا وحده ولسانى

---

(١) وردت هذه الأبيات فى : قضاة قرطبة ص ٨٦ .

(٢) وردت هذه الأبيات فى : جذوة المقتبس ص ٤٥٢ . والنَّتن : ضد الفوح .

ولو كانت الأسماء يدخلها البلى لقد بلى اسمى لامتداد زمـانى
ومالىَ لا أبلى لتسعين حجـة وسبع أتت من بعـدها سـتان
إذا عنّ لى شخصُ تخيل دونه شبيهُ ضباب أو شبيه دخان
فيا راغبًا فى العيش إن كنت عاقلا فلا وعظ إلا دون لحظ عيان(١)

وقوله :

أرى أهل اليسار إذا توفوا بنـوا تلك المقـابر بالصـخورِ
أبوا إلا مبـاهـاة وفخـراً على الفقـراء حتى فى القبـور
رضيتُ بمن تأنق فى بنـاء فبـالغ فيـا تصريفَ الدهور
ألمَّا يبصـروا ما خرَّبته الـ ـدُّهورُ مِن المدائن والقصـور
لعمر أبيهمُ لـو أبصـروهم لما عُرِف الغنى مـن الفقـير
ولا عُرِف العبيـد مـن الموالى ولا عُرِف الإناث من الذكور
ولا من كان يلبس ثوب صوف من البدَن المبـاشر للحرير
إذا أكلَ الثرى هـذا وهـذا فما فضـلُ الغنىّ على الفقير(٢)

هذا ، وبرغم سير شعر الغزال فى الاتجاه المحدث ، بما اشتهر به هذا الاتجاه من موضوعات ، وبما عرف له من أسلوب ، قد كانت لشعر هذا الشاعر الأندلسى خصائص فنية واضحة ، تميزه عن شعر غيره ممن ساروا فى هذا الاتجاه من مشارقة وأندلسيين . وأهم تلك الخصائص : الاتجاه إلى القص والحوار ، والميل إلى التحليل والتعليل ، والتشبع بروح السخرية والنقد ، وإيراد الفكرة المبتكرة والصورة الجديدة من حين إلى حين ، واتضاح النظرة الحكيمة واللمحة الفلسفية ؛ مما لا يُعرف كثيراً فى شعر الأندلسيين .

(١) وردت هذه الأبيات فى : المطرب ص ١٥٠ .
(٢) وردت هذه الأبيات فى : نفح الطيب ج ١ ص ١٤٢ ، ١٤٣ .

وقد سبقت نماذج من شعر الغزال تؤكد اتجاهه إلى القص والحوار ، كأبياته فى وصف الرحلة البحرية وما كان فيها من هياج للبحر ، وكبعض قطعه التى صور بها ما كان بينه وبين الإمبراطورة البيزنطية . ولم تكن طبيعة تلك الموضوعات المشتملة على أحداث ، هى التى فرضت على الشاعر هذا الاتجاه القصصى ؛ وإنما كان اتجاه الشاعر وميله إلى طريقة القص حتى فى الموضوعات التى لاتفرض هذه الطريقة . ومن ذلك أبيات له يعالج فيها مشكلة زواج الفتاة من شيخ غنى أو شاب فقير ، وفيها يقول الغزال بأسلوبه القصصى :

وخيّرها أبوهـا بين شـيخ كثير المال أو حدث فقيرِ
فقالت خُطّتا خسف وما إن أرى من خطوة للمستخـير
ولكن إن عزمتُ فكل شىء أحبُّ إلىّ من وجـه الكبير
لأن المرء بعـد الفقر يُثْرى وهـذا لا يعـود إلى صغير (١)

بل إن الغزال يؤثر هذا الأسلوب القصصى حتى فى بعض الهجاء ، ومن ذلك قوله فيمن اسمه أبوحازم :

سألتُ فى النوم أبى آدمًا فقلت والقلب به وامـقُ
ابنك بالله أبو حـازم ؟ صلى عليك الملكُ والخـالق
فقال لى : إن كان منى ومن نسلى ، فحوًا أمكم طالق (٢)

ومن لمحات الغزال الحكمية وصوره الجديدة — غير ماتضمنته النماذج السابقة — قوله :

قالت أحبـكَ قلتُ كاذبةٌ غُـرّى بذا من ليس ينتقـدُ

---

(١) وردت هذه الأبيات فى : جذوة المقتبس ص ٣٥٢ .
(٢) وردت هذه الأبيات فى : نفح الطيب جـ ١ ص ٤٤٢ .

هــذا كلام لســت أقبــله ... الشيخ ليس يحبــه أحــدُ
ســيان قولك ذا وقولك إنَّ ... الريح نعقــدها فتنعقــدُ
أو أن تقــولى النــار باردة ... أو أن تقولى المــاء يتقــد(١)

فقوله : « الشيخ ليس يحبه أحد » لمحة حكمية فيها صدق التجربة و بساطة التعبير . وقوله : « الريح نعقدها فتنعقد » صورة فيها الابتكار والدقة وتحليق الخيال .

ومن هذه الصورة المبتكرة الدقيقة كذلك قوله :

ولو كانت الأسماء يدخلهــا البِلَى ... لقــد بلى اسمى لامتداد زمــانى

فتسرب البلى إلى الاسم ، صورة فريدة لانعرف أحداً سبق بها هذا الشاعر الأندلسى المحلق .

وفى مثل هذه الصورة الجديدة والأفكار المبتكرة – بالإضافة إلى إيثار أسلوب القصص – يُرى بوضوح اتجاه الغزال كأكثر الشعراء الأندلسيين ، إلى التجويد الفنى .

ولسنا بعد فى حاجة إلى إيراد أمثلة جديدة على شيوع روح السخرية فى شعر الغزال ؛ فكل شعره مشبع بتلك الروح ، التى سيطرت على الرجل فى كل مراحل حياته تقريبًا ، وإن أخذت مظاهر مختلفة تبعًا لمراحل عمر الرجل المديد ؛ إذ كانت فى أول مرحلة تأخذ مظهر الاستخفاف والتظرف ، وفى ثانى مرحلة تأخذ مظهر المرارة والنقد ، وفى ثالث مرحلة تأخذ مظهر الاشمئزاز والزهد .

وأخيراً قد خلّف الغزال شعراً كثيراً جمعه ديوانًا ورتبه فى الفترة التالية ، شاعرٌ يسمى حبيب بن أحمد الشطجيرى (٢) . ولكن هذا الديوان قد ضاع فيما ضاع

(١) وردت هذه الأبيات فى المصدر السابق ص ٤٤٣ .

(٢) انظر : جذوة المقتبس ص ١٨٦ ، ١٨٧ ، ٣٥٢ .

من تراث الأندلس ، ولم يبق من شعر هذا الشاعر الأندلسى الكبير إلابعض قصائد ومقطوعات متناثرة فى الكتب التى ترجمت له ، أو عرضت لذكره ، أولشىء من شعره بمناسبة تاريخية أو أدبية [١] .

والذى يدل عليه هذا الباقى من شعر الغزال ، أنه كان من ألمع شعراء فترة صراع الإمارة ، بل كان من أكبر شعراء الأندلس فى كل الفترات ؛ وذلك لأصالته الشعرية، وخصائصه الفنية ، وسبقه إلى موضوعات النقد الاجتماعى والأخلاقى ، واتضاح بعض النظرات الحكمية واللمحات الفلسفية عنده ، وتصوير شعره لعصره وحياته إلى حد كبير .

سعيد بن جودى [٢] :

هو سعيد بن سليمان بن جودى السعدى . يتصل نسبه بأسرة تعرف بالرياسة وتنحدر من قبيلة هوازن . ولسنا نعرف شيئاً عن مولده ونشأته الأولى ، ولكنا نعرف أنه شب على الفروسية والميل إلى الأدب . وكان من زعماء العروبة فى غرناطة ، أثناء الحركة العنصرية التى كانت بين العرب والمولدين فى عهد الأمير عبد الله . وقد كان سعيد أولا من أعوان الزعيم سوّار ، الذى كان على رأس العرب فى غرناطة . وخاض ابن جودى بعض المعارك ضد ابن حفصون حتى وقع مرة فى الأسر وسجن حيناً . ولكنه تمكن من الخلاص ، وواصل الكفاح ضد مناوئيهم . فلما قُتل سوار ، اختار العرب سعيداً زعيماً لهم ، وخاطبوا الأمير عبد الله يسألونه الموافقة على رياسة سعيد لهم فوافق . وكان سعيد شجاعاً متحمساً ، فأعلى كلمة الغرناطيين من ذوى الأصول العربية ، وناصرهم على أعدائهم المولدين ، وحارب ابن حفصون وأحرز عليه انتصارات ، حتى هابه هذا

---

(١) انظر المراجع الواردة فى هامش أول الحديث عن الغزال . وانظر العقد الفريد لابن عبد ربه والبيان المغرب لابن عذارى .

(٢) انظر ترجمته وبعض شعره وأخباره فى : المقتبس لابن حيان ، الجزء الذى نشره ملشور أنطونيا ، ص ٢٩ وما بعدها .

المتمرد الذى لم يهب حكومة قرطبة ، وحتى أصبح سيف العروبة والإسلام المسلول على الأعداء والمناوئين فى هذه المنطقة من جنوب الأندلس .

وقد افتتن أعوان سعيد بزعيمهم ، حتى عدوا له خصالا ، قالوا إنها لم تجتمع لسواه ؛ وتلك الخصال هى : الجود والشجاعة والفروسية والشعر والخطابة والشدة والطعن والرماية . غير أنهم كانوا يأخذون عليه ولعه بالنساء . ولعل ذلك مما يكمل صورته كفارس .

وقد خلف سعيد بن جودى شعراً يصوره محارباً قوياً شديد البأس فى الحرب ، ويمثله محباً لين العريكة فى الحب . أى أن شعره يصوره كفارس بالمعنى التقليدى للفارس .

فمما يصور قوته وشدة بأسه ، قوله :

الدرع قد صارت شعارى فما ... أبسُط حاشاها لتهجاعى
والسيف إن قصَّره صانع ... طوّله يومَ الوغى باعى
وما كُميّى لى بمستقصر ... إذا دعانى للقا داعى
هذا الذى أسعى له جاهداً ... كل امرئ فى شأنه ساعى[1]

ومن ذلك الضرب أيضاً ، قوله وهو فى أسر ابن حفصون :

خليلىّ صبراً راحة الحرّ فى الصبر ... ولا شىء مثل الصبر فى الكرب للحر
فلا تيأسا من فرحة بعد ترحة ... وأن تنعما باليسر من بعد ما عسر
فكم من أسير كان فى القيد موثقاً ... فأطلقه الرحمن من حلق الأسر
لئن كنتُ مأخوذاً أسيراً وكنتما ... فليس على حرب ولكن على غدر
ولوكنت أخشى بعض ما قد أصابنى ... حمتنى أطراف الردينية السمر

(١) انظر هذه الأبيات فى : المقتبس لابن حيان ص ١٢٤ .

فقد علم الفرسانُ أنى كميُّهــا وفارسها المقدام فى ساعة الذعر
فيـا ظاعنًا أبلغ سلامى تحيةً إلى والدىَّ الهائمين لدى ذكرى
وأدّ إلى عُرسى السلام وقل لها عليك تحياتى إلى موقف الحشر
بهمك ألفى خالقى يوم موقفى وكربك أمضى لى من القتل والأسر
وإن لم يكن قبرٌ فأحسنُ موطنًا من القبر للفتيان حوصلة النسر(١)

أما شعره الذى يصور ضعفه فى حبه ولين عريكته فى معارك الغرام ، فمنه قوله فى مطربة اسمها جيحان ، كان قد سمعها فهام بها دون أن يراها :

سَمعى أبَى أن يكون الروحُ فى بدنى فاعتاض قلبىَ منـه لوعةَ الحزَن
أعطيتُ جَيْحان روحى عن تذكُّرها هذا ، ولم أرَها يومًا ولم تَرَنى
فقل لجيحانَ : يا روحى ويا أملى استوصِ خيراً بروح زال عن بَدنى
كأنى واسمها والدمع منكسبٌ من مقلتى ، راهبٌ صلى إلى وثن(٢)

ومن ذلك أيضًا قوله فى جارية أعرضت عنه ورمت بطرفها إلى الأرض خجلا :

أماثلةَ الألحاظ عنًّا إلى الأرضِ أهذا الذى تبدين ويحك من بغضى ؟
فإن كان بغضًا لستُ والله أهله و وجهى بذاك اللحظ أوْلى من الأرض(٣)

ومما يصور شخصيته بجانبيها قوله :

لا شىءَ أملح من ساق على عنَقِ ومن تناقُل كاسات على طبق
ومن مُواصلة من بَعدِ معتبة ومن مُراسلة الأحباب بالحَدَق
جَريتُ جَرْىَ جَموح فى الصّبا طلقا وما خرجتُ لصَرْفِ الدهر فى مَلق

(١) انظر هذه الأبيات فى : المقتبس لابن حيان ص ١٢٩ .
(٢) انظر هذه الأبيات فى المصدر السابق ١٢٤ .
(٣) انظر هذه الأبيات فى : المقتبس ص ١٢٥ .

ولا انثنيتُ لداعي الموت يوم وغًى كما انثنيتُ وحبلُ الحب في عُنُقي[١]

وقد انتهت حياة سعيد بن جودى نهاية محزنة ؛ حيث قتله بعض حاسديه غدراً سنة ٢٨٤هـ . ولكيلا يؤخذوا بجريمة قتله ، ادعوا أنه تحدى أمير قرطبة عبد الله بن محمد ، وادعوا أنه قال فيه هذه الأبيات :

قلْ لعبد الله يجدُّ في الهربْ نَجَمَ الثائرُ من وادى القصب
يا بني مَرْوانَ خلّوا ملكنا إنما الملك لأبناء العرب
قرّبوا الورْدَ[٢] المحلى بالذهب واسرجوه إنّ نجمى قد غلب[٣]

هذا وشعر ابن جودى يسير في الاتجاه المحافظ ؛ فهو في موضوعاته يكاد ينحصر في الفخر والحماسة والغزل ، وهو في أسلوبه يميل إلى الأساوب التقليدى في الشكل والمضمون جميعاً . وميل هذا الشاعر إلى ذلك الاتجاه له ما يفسره من نشأته وطبيعته وسائر ظروفه ؛ فالرجل — كما عرفنا — قد نشأ على التعصب للعروبة . وعاش زعيماً من زعمائها ، وفارساً من فرسانها ، وكان في أيامها من أبرز المنافحين عن أمجادها ؛ وكل هذا كان يربطه بالمحافظة على القديم ، ويشده إلى ماضي العرب في كل شيء ، ومن هنا جاء ميله إلى الاتجاه الشعرى المحافظ .

ومع تلك المحافظة في شعر سعيد بن جودى تتضح لفنه سماته ، وتظهر في شعره شخصيته . فهو يميل إلى الغنائية المرهفة ؛ فيؤثر المقطوعات ، ويختار الألفاظ ، ويصقل التراكيب . ويملأ حنايا شعره بالعاطفة ، حتى لنرى كل مابين أيدينا من شعره يصلح للتلحين والغناء ، ويكاد يترنم به قارئه ويغنيه منشده .

---

(١) انظر هذه الأبيات في المصدر السابق ص ١٢٥ .

(٢) الورد من الخيل ، ما بين الكميت والأشقر .

(٣) انظر هذه الأبيات في المقتبس ص ٣٠ .

ثانياً : النثر :

يمكن القول بأن النثر فى فترة صراع الإمارة قد نال تقدمًا وأصاب تطوراً . أما تقدمه فيتضح فى تلك الكثرة من الأدباء الناثرين الذين ازدحمت بهم تلك الفترة ، والذين حفظت أسماء كثير منهم كتب التاريخ والتراجم ، حتى لقد عُد لكل أمير من أمراء تلك الفترة عدد من الكتاب أقله اثنان[١] . فكان من كتاب الأمير عبد الرحمن الأوسط : عبد الكريم بن عبد الواحد ، وسفيان بن عبد ربه ، وعيسى بن شهيد . وكان من كتاب الأمير عبد الله بن محمد : عبد الله بن محمد الزجالى ، وعبد الله بن محمد بن أبى عبده وموسى بن زياد[٢] .

بل إن الاشتغال بالكتابة لم يعد وقفًا على هؤلاء المسلمين ذوى الأبوة العربية ، ولكنه تعداهم إلى بعض المسيحيين ذوى الأصول الإسبانية ، مثل « قومس بن أنتنيا » الذى عمل حينا فى الكتابة للأمير محمد بن عبد الرحمن الأوسط ، واضطر أخيراً إلى الإسلام حتى ينسجم وضعه ككاتب للأمير الأندلسى المسلم[٣] .

أما تطور النثر فى تلك الفترة ، فأهم مظاهره تأثره أولا بأسلوب عبد الحميد بن يحيى الكاتب المشرق ، الذى لمع فى أواخر العصر الأموى والذى كان أول من أطال الرسائل وأكثر من التحميدات . ثم تأثره ثانيًا بأسلوب الجاحظ الذى تألق فى العصر العباسى وكان صاحب مدرسة أسلوبية متميزة ، كان من أهم سماتها : الميل إلى الجمل القصار ، وإجادة استخدام حروف الجر متتابعة متغايرة فى دقة وحسن استعمال ، ثم أداء المعنى

---

(١) راجع : البيان المغرب لابن عذارى جـ ٢ ص ١٢١ ، ١٤١ ، ١٧٠ ، ١٧٢ .

(٢) انظر : المصدر السابق .

(٣) انظر : تاريخ افتتاح الأندلس لابن القوطية ص ٨٢ ، ٨٣ .

الواحد بعدة جمل ، تبدو فى الظاهر تكراراً ، ولكنها فى الواقع تجسيم للمعنى وتفنن فى إبرازه [١] .

وليس هذا التطور فى النثر الأندلسى خلال فترة صراع الإمارة بصعب التفسير ؛ بعد أن عرفنا ماكان لتلك الفترة من وثبة ثقافية ، من شأنها أن تثب بالأدب ، وبعد أن عرفنا ما كان فى تلك الفترة أيضاً من نقل الكثير من آثار الأدباء المشارقة إلى الأندلس ، على يد أبى اليسر الرياضى وغيره [٢] .

وقد كان الجاحظ بخاصة ذا شهرة لدى الأندلسيين فى تلك الفترة ، وقد وصلت بعض كتبه إليهم فى حياته ، ككتاب التربيع والتدوير ، وكتاب البيان والتبيين . كما كان يقصده بعض الأندلسيين للتلمذة عليه ؛ حتى لقد امتدت تلمذة بعضهم عليه عشرين سنة[٣] .

وبعد فهذه نماذج من نثر فترة صراع الإمارة ، نوردها لنتبين عليها ماتقدم من أحكام . فمن الخطب خطبة ألقاها الأمير عبد الرحمن الأوسط ، بعد أن تم دفن والده الحكم الربضى ، وبعد أن خلفه الأوسط فى الإمارة . وفى تلك الخطبة لاتخفى تأثيرات عبد الحميد ؛ فهى ذات مقدمة مسهبة وتحميد مطنب . قال عبد الرحمن : « الحمد لله الذى جعل الموت حتماً من قضائه، وعزماً من أمره ، وأجرى الأمور على مشيئته ؛ فاستأثر بالملكوت والبقاء ، وأذل خلقه فما [لهم نجاة من] الفناء [٤] تبارك اسمه ، وتعالى جده . وصلى الله على نبيه ورسوله وسلم تسليماً . وكان مصابنا

---

(١) اقرأ الرسالتين الواردتين فى آخر هذا الحديث وأولاهما قد وجهها الأمير محمد إلى عبد الملك بن أمية ، وثانيتهما قد كتبها وليد بن عبد الرحمن بن غانم إلى الأمير المذكور .

(٢) انظر الفقرة الخاصة بوثبة الثقافة فى أول هذا الفصل .

(٣) انظر : معجم الأدباء ج ١٦ ص ١٠٤ .

(٤) فى الأصل : فما الفناء . وقد أضفت ما يتضح به المعنى ، ويتفق مع السياق .

بالإمام رحمه الله ، مما جلت به المصيبة ، وعظمت به الرزية ، فعند الله نحتسبه ، وإياه نسأل إلهام الصبر ، وإليه نرغب فى كمال الأجر والذخر. و [قد] عهد إلينا فيكم بما فيه صلاح أحوالكم ، ولسناممن يخالف عهده ، بل لكم لدينا المزيد إن شاء الله»[١] .

ومن الرسائل رسالة بعث بها الأمير محمد بن عبد الرحمن الأوسط ، إلى عبد الملك ابن أمية ، وكان قد اختاره الأمير كاتبًا له . وفى تلك الرسالة يظهر تأثير الجاحظ ؛ ففيها تفنن فى استخدام حروف الجر ، وإيرادها فى تقابل بارع . وفيها كذلك تلك الجمل القصار المتتابعة فى غير تكرار أو إملال . يقول الأمير محمد فى رسالته : «قد فهمنا عنك ، ولم نأت ما أتيناه عن جهل بك ، لكن إصطناعا لك ، وعائدة عليك . وقد أبحنا لك الاستعانة بأهل اليقظة من الكتاب ، فتخير منهم من تثق به وتعتمد عليه . ونحن نعينك على أمرك بتفقد كتبنا والإصلاح عليك ، إلى أن تركب الطريقة ، وتبصر الخدمة ، إن شاء الله تعالى » [٢] .

ومن الرسائل كذلك ، رسالة لوليد بن عبد الرحمن بن غانم ، بعث بها إلى الأمير محمد يطلب منه — فى صورة مستورة — أن يقربه ويسند إليه بعض المناصب الكبيرة . وفى تلك الرسالة يقول وليد : « عظمت نعمة الأمير — أبقاه الله — عن الشكر ، وجلت أياديه عن النشر ، فمتى رمتُ شكر أدنى ما غمرنى ، وحمد أيسر مااشتمل علىّ ، تكاءدنى[٣] الشكر ، وعجز بى الجهد .ولست بمؤمل مع ذلك عن الاستفراغ فى القول ، والاجتهاد فى العمل ، إذ لم أرهما يدوران إلا على نعمة أزلفت ، ويقتصران إلا على زيادة انتظرت . وأنا بهما مخيم ، وعليهما معول . والله الناقل لعباده ، بطاعتهم له ،

---

(١) اقرأ هذه الخطبة فى : البيان المغرب لابن عذارى ج ٢ ص ١٣٥ .

(٢) انظر هذه الرسالة فى : البيان المغرب لابن عذارى ج ٢ ص ١٦٠ — ١٦١ .

(٣) تكاءدنى : شق على .

وشكرهم أياديه ، من دار الشقوة إلى دار السعادة ، ومن نَصَب العاجلة إلى راحة الآجلة »[١]

ومن التوقيعات ، وما رد به الأمير على الرسالة السابقة ، حيث كتب : « إن الله شاكر يحب الشاكرين . وقد ناديت فأسمعت . ولكل أجل كتاب »[٢] .

ومن المحاورات ، ماكان بين الأمير عبد الله ومولى من مواليه ، حيث اعتذر المولى عن خطأ كان منه ، فقال له الأمير : « إن مخائل الأمور لتدل على خلاف قولك ، وتنبىء عن باطل تنصلك ، ولو أقررت بذنبك ، واستغفرت لجرمك ، لكان أجمل بك ، وأسدل لستر العفو عليك » . فقال المولى : « قد اشتمل الذنب عليّ ، وحاق الخطاء بيّ ، وإنما أنا بشر ، وما يقوم لى عذر » . فقال الأمير : « مهلا عليك رويداً بك . تقدمت لك خدمة ، وتأخرت لك توبة ، وما للذنب بينهما مدخل . وقد وسعك الغفران »[٣] .

وليس يخفى ما فى هذه النماذج جميعاً من السمات المحدثة ، التى لم تكن تبدو فى نماذج الفترتين السابقتين ؛ فهنا نرى مراعاة لقيم جمالية ، وقصداً إلى محسنات أسلوبية ؛ تبدو حيناً فى التقابل بين الكلمات والجمل ، وحيناً فى الازدواج بين الألفاظ والتراكيب ، كما تبدو أحياناً فى هذا السجع المقبول غير المتكلف ، والتعبير المصقول غير المرتجل . هذا بالإضافة إلى كثرة التحميدات والجمل الدعائية والعناية بالمقدمات ، وما إلى ذلك مما أدخله على النثر العربى أدباء متأثرون بآداب غير عربية

وهكذا لم يعد النثر الأندلسى فى تلك الفترة كما كان قبل ذلك نثراً بسيطاً ذا سمات عربية خالصة ، وإنما أصبح نثراً فنياً تتضح فيه تلك المؤثرات التى أصابت مصدره الأصلى فى المشرق ، حين اتصل النثر هناك بتقاليد فنية أجنبية ، أهمها التقاليد الفارسية .

على أن النثر الأندلسى برغم تقدمه وتطوره فى تلك الفترة ، قد ظل مقصوراً على هذا النوع الخالص ، ولم يتعد ذلك إلى النوع التأليفى الذى سيظهر فى الفترة التالية .

---

(١) اقرأ هذه الرسالة فى : أخبار مجموعة ص ١٤٨ .

(٢) انظر : المصدر السابق .

(٣) اقرأ هذه المحاورة وسببها فى : البيان المغرب لابن عذارى ج ٢ ص ٢٣٠ .

الفصل الرابع

فترة الخلافة

١ ـ العهد الذهبي للحكم الأندلسي :

تعود المؤرخون أن يجعلوا فترة الخلافة الأموية بالأندلس تبدأ باتخاذ عبد الرحمن الثالث لقب الخليفة الناصر لدين الله ، سنة ٣١٦ هـ (٩٢٩ م) وتنتهي بسقوط آخر أموي في قرطبة ، وقيام ابن جهور بالأمر سنة ٤٢٢ هـ (١٠٣١ م) . وقد يكون المؤرخون على حق من الناحية الشكلية ؛ فهم يعنون بما هو رسمي ، والرسميات توجب ذلك فعلا ؛ لأن حاكم الأندلس قد لقب بالخليفة منذ تلك السنة التي حددوا ، ولأن الخلافة انتهت تماماً في التاريخ الذي ذكروا. غير أننا لانؤمن بالشكليات في الدرس الأدبي ، ولا نأخذ بالرسميات أيضاً في هذا الدرس ، وإنما نعنى فقط بما هو حقيقي ؛ لأنه هو الذي ينتظر منه تأثير في الأدب . ومن هنا نعتبر فترة الخلافة الحقيقية ، هي فترة عبد الرحمن الثالث [١] وابنه الحكم الثاني [٢] . أما ما تلا ذلك من زمن حتى قيام ابن جهور بالأمر في قرطبة فلم يكن للخلافة الأموية فيه إلا الاسم . على أن بعض هذا الزمن ، قد خلا تماماً من أي خليفة ، وكان الأمر فيه لآخرين كما سنبين ذلك في موضعه .

وإذن فالخلافة الحقيقية تتمثل في ذلك العهد الذي كان حاكم الأندلس حقيقة خليفة . وهذا العهد لايعدو أيام عبد الرحمن الثالث والحكم الثاني . والحق أن الأندلس شهدت في تلك الأيام عهد حكمها الذهبي ؛ فهي لم تعرف قوة نفوذ ، ولاهيبة حكومة ، ولا عظمة حاكم ، كما عرفت في تلك الفترة . وكان ذلك أولا بفضل عبد الرحمن الثالث الذي فعل الكثير من أجل خلافة أندلسية عظيمة ، ثم ابنه الحكم الثاني ، الذي سار على سنة أبيه في تدعيم هذه الخلافة .

---

(١) حكم من سنة ٣٠٠ إلى ٣٥٠ هـ (٩١٢ إلى ٩٦١ م) .
(٢) حكم من سنة ٣٥٠ إلى ٣٦٦ هـ (٩٦١ إلى ٩٧٦ م) .

وقد تولى عبد الرحمن الثالث [1] أمر الأندلس بعد موت جده الأمير عبد الله سنة ٣٠٠ هـ (٩١٢ م) ، فى ظروف كلها قسوة وكلها أخطار ، إذ كانت البلاد فى عهد الأمير عبد الله ، نهباً للطامحين والطامعين من عرب وبربر وإسبان ؛ حتى أصبح كثير من أقاليمها مستقلا عن إمارة قرطبة أو كالمستقبل عنها . هذا بالإضافة إلى الثورات الداخلية والتهديدات الخارجية ، مما أوشك أن يذهب بالإمارة الأموية وربما بالحكم الإسلامى أيضاً .

تولى عبد الرحمن الثالث فى تلك الظروف العصيبة ؛ وكان ابن اثنين وعشرين ربيعاً تقريباً ، فاستن سياسة الحزم والقوة والتضحية . وراح يتغلب على الأخطار العديدة فى جرأة وذكاء .

وقد بدأ عبد الرحمن بالخارجين والثائرين داخل الأندلس فأخضعهم واحداً بعد الآخر ، وساعده الحظ بموت بعض هؤلاء الخارجين ، كابن حجاج المستقل بإشبيلية ، وابن جودى المستقل بغرناطة ؛ فقد ماتا قبيل تولى عبد الرحمن أمر الأندلس .

وهكذا لم تمض إلا سنوات ، حتى عادت أكثر أقاليم الأندلس موحدة تحت إمرة هذا الفتى الأموى القوى . غير أن إقليمين قد تأخرا بعض الوقت فى الخضوع لعبد الرحمن. وهما : إقليم بُبَشْتَر الذى كان يسيطر عليه ابن حفصون ، وإقليم طليطلة الذى عرف بالثورات وكثرة الخروج . أما الإقليم الأول فقد تم إخضاعه تدريجياً ، إلى أن كانت السيطرة عليه آخر الأمر . فبعد موت ابن حفصون سنة ٩١٧ م دخل ابنه

---

(١) انظر فى ترجمته وأعماله وعصره :

البيان المغرب لابن عذارى ج ٢ ص ٣٣٤ وما بعدها .

وكتاب العبر لابن خلدون ج ٤ ص ١٣٧ وما بعدها .

وأخبار مجموعة ص ١٥٣ وما بعدها .

وانظر أيضاً : Lévi Provençal : Espana Musulmana, pp. 261 ff.

حفص فى طاعة عبد الرحمن . وظل آخرون من أبنائه على العصيان حينا ؛ ثم مالبثوا أن هزموا وسقط حصنهم سنة ٩٢٨ م . وأما الإقليم الثانى — طليطلة — فقد شدد عبد الرحمن الحصار عليه ، وظل على هذا الحصار سنتين ؛ حتى لقد أقام على الجبل القريب من طليطلة حصنا سماه مدينة الفتح ، ليكون الحصار دائما حتى تستسلم . وفعلا استسلمت المدينة العنيدة الثائرة ، بعد أن أعيت ثورتها كثيراً من الأمراء قبل عبد الرحمن .

هذا فى داخل الأندلس ؛ أما فى خارجها ، فقد كان فى مواجهة الناصر خطران عظيمان ، أحدهما فى الشمال والآخر فى الجنوب . أما فى الشمال فقد كان المسيحيون قد تقووا ، وصارت لهم بعض ممالك تهاجم الدول الإسلامية وتحرز عليها انتصارات ، وتجر على المسلمين كثيراً من الشر . وكانت مملكة ليون **Leon** ومملكة نافارا **Navarra** تمثلان هذا الخطر الشمالى .

أما فى الجنوب فقد كانت الدولة الفاطمية الناشئة قد مكنت لنفسها فى شمال أفريقيا ، وأقامت دولة قوية عاصمتها القيروان . وقد سارت جيوش الدولة الفاطمية غربا ، واستولت على الشاطىء الإفريقى المقابل للأندلس ، وطردت الحكام الموالين لعبد الرحمن الناصر ، وأصبحت الأندلس مهددة بالخطر الفاطمى .

لكن هذا البطل الأندلسى لم يكن فى سياسته الخارجية بأقل منه فى سياسته الداخلية ، ولم تكن حملاته خارج الأندلس بأضعف من حملاته فى داخلها ؛ فقد جرد الجيوش لتأديب المسيحيين الشماليين ومن انضم إليهم من الأندلسيين الخارجين . وهذه الحملات وإن أخفق أقلها ، فقد نجح أكثرها ، وأحرز عبد الرحمن بها انتصارات عظيمة . وقد كان يقود تلك الحملات بنفسه ، فملأ قلوب أعدائه رهبة ، وأفعم جنده ورعاياه إجلالاً ومحبة .

وقد بلغ من انتصار عبد الرحمن على نصارى الشمال ، أن تعهد له بعضهم بدفع

الجزية [١] ، واستعان به بعض آخر على تولى عرش مملكته [٢] ، كما سعوا إليه يقدمون بين يديه فى قرطبة الولاء والخضوع .

وأما الخطر الفاطمى ، فقد عمل الناصر على رده بكل ما أوتى من ذكاء وأيد . فنمى الأسطول الأندلسى ، وجعله يراقب الشواطىء التى أخضعها الفاطميون ، ويحمى من عدوانهم شواطىء الأندلس . كما أرسل جيشاً كبيراً لاسترداد ما استولى عليه الفاطميون فى العدوة الإفريقية . واستطاع قواده أن يستردوا المغرب من فاس إلى المحيط ، وأن يعيدوا إلى الشاطئ الإفريقى النفوذ السياسى الأندلسى .

وبهذا استطاع عبد الرحمن أن يؤمن الأندلس من الخارج كما وحدها فى الداخل ، وأن يوسع رقعة الدولة الأندلسية ، ويبسط نفوذها ، ويقيم فى قرطبة أعظم حكومة عرفتها الأندلس فى عهدها المديد .

وقد عرفت الدول الأخرى قوة الخلافة القرطبية ، فسعت السفارات من ملوكها إلى الخليفة الأندلسى . وكان من أشهر تلك السفارات ، سفارة ملك الروم التى استقبلها الخليفة فى قصر الزهراء ، كما استقبل به ملوك ليون ونافارا فى عظمة وجلال .

وهكذا استحق عبد الرحمن الثالث لقب الخليفة ، الذى أمر أن يخاطب به بعد انتصاراته الباهرة ، وبعد أن أصبح فعلا أقوى حكام الإسلام فى ذلك الحين .

ثم مات الخليفة العظيم سنة ٣٥٠ هـ (٩٦١ م) وخلفه ابنه الحكم الثانى [٣] ،

---

(١) مثل (توتا Tota) الوصية على عرش نافارا ، ويسميها العرب طوطة .

(٢) مثل (سانشو) Sancho ملك ليون . ويسميه العرب : سانجة بالسين وشانجة بالشين .

(٣) انظر فى ترجمته وأعماله وعصره :

البيان المغرب لابن عذارى جـ ٢ ص ٣٤٨ وما بعدها .

وكتاب العبر لابن خلدون جـ ٤ ص ١٤٤ وما بعدها .

وانظر أيضاً : Levi Provençal : Espana Musulmana, pp.369 ff.

الذى على الرغم من عنايته البالغة بالكتب وجمعها ودرسها والتعليق عليها ، وعلى الرغم من كلفه بالفنون والآداب ، وميله إلى العلوم والفلسفات ، كان لايقصر فى المحافظة على هيبة الدولة السياسية وعظمتها الحربية .

وقد ظن به بعض ملوك المسيحيين ضعفاً أول الأمر . فحاول ملكا ليون ونافارّا أن ينكثا بالعهود التى أعطياها للناصر ، ورفضا تسليم حصون كانا قد تعهدا بتسليمها للخليفة الراحل ، وانضم إليهما أمير قشتالة Castilla ، بل أغارو على حدود الدولة الإسلامية . فأمر الحكم قواده بتعبئة الجيوش ، ثم قاد الجند بنفسه ، وضرب « فرلند » Fernand أمير قشتالة المعتدى ضربة ساحقة ، اضطرته إلى الفرار ، ثم عاد الحكم إلى قرطبة بعد أن لقن أعداءه درساً قاسياً .

وفى قرطبة وفد عليه الأمير « أردون » Ordono الذى كان قد خلعه « سانجة » Sancho وخلفه فى ملك ليون ، بفضل مؤازرة عبد الرحمن الناصر . وعرض « أردون » على الحكم الخضوع والولاء ، ورجاه المساعدة فى إعادته إلى عرشه بعد أن نكث « سانجة » بالعهد الذى كان قطعه للخليفة الأندلسى . وقد جهز الحكم جيشاً لإعادة « أردون » إلى عرشه انتقاماً من ملك ليون الناكث بالعهد ، ولكن هذا الملك أسرع بإرسال وفد من نبلاء بلاده وكبار أساقفتها إلى الخليفة ، ليؤكد له العزم على الوفاء بالعهد ، والتمسك بكل ما كان بينه وبين الناصر من التزامات . فأعرض الحكم عن تأييد « أردون » الذى مالبث أن مات بعد قليل .

ولكن موته شجع ملك ليون على النكث مرة أخرى ، فتجددت الحرب بين الحكم وبين هذا الملك ، ولم يقصر الحكم حربه على ملك ليون ، بل حارب كذلك ملك نافارّا وملك قشتالة ، وأخذهم الواحد بعد الآخر ، حتى اضطرهم جميعاً إلى الخضوع وقبول ما أراد من شروط للسلم . وبهذا هدمت الحصون القريبة من حصون

المسلمين ، وتعهد الملوك المسيحيون ألا يساعدوا ثواراً وألا يتحالفوا مع خارجين ، وألا يعودوا لمحاربة الخليفة .

وهكذا أمن الحكم مسيحيي الشمال ، وفرض هيبته وهيبة الدولة الإسلامية على تلك الأقاليم ، تماماً كما فعل أبوه الناصر من قبل .

أما الفاطميون ، فلم يعودوا فى أيام الحكم مصدر خطر على الأندلس ؛ فقد فتحوا مصر ، وأسسوا القاهرة سنة ٩٦٩ م ، وانتقل إليها المعز لدين الله سنة ٩٧٢ م ، فشغلوا بذلك عن الأندلس .

غير أن المعز كان قد ترك نائباً عنه على إفريقية والمغرب ، وكان الأدارسة قد دخلوا فى طاعة الفاطميين ؛ فأخذ أعوان الفاطميين يناوشون الأمراء المغاربة الموالين لحكومة الأندلس . فأرسل الحكم جيشاً إلى المغرب سنة ٩٧٢ م ، استطاع أن يحرز نصراً كبيراً على الأدارسة . وعاد إلى قرطبة سنة ٩٧٤م ومعه أمراء الأدراسة أسرى .

وظلت الأندلس حتى وفاة الحكم المستنصر سنة ٣٦٦ هـ (٩٧٦ م) دولة قوية مهيبة ، شاسعة الرقعة موحدة الأقاليم ، مؤمنة الحدود ، كما كانت فى عهد عبد الرحمن الناصر ، واستحقت تلك الفترة التى سعدت بحكم الناصر والمستنصر أن تسمى بالعهد الذهبى للحكم الأندلسى .

٢ — الأندلسيون فى ظلال الرفاهية :

لم يعرف المجتمع الأندلسى وحدة كالتى عرفها فى فترة الخلافة ؛ فقد كان منذ الفتح بين عوامل للتجميع وأخرى للتفريق ؛ حتى كانت الفترة السابقة للخلافة — وهى فترة الأمير عبد الله — فوقعت الفرقة الرهيبة التى أوشكت أن تفصم عرى الوحدة بين أبناء الأندلس جميعاً . وكان من مظاهر تلك الفرقة ، أن عاد العرب يتكتلون ، وانقلب

الإسبان يتجمعون ، ورجع البربر ينفصلون ، وبرزت زعامات لهؤلاء وهؤلاء ، تؤيد الفرقة وتذكى نار العنصرية ، لتربح هى آخر الأمر الرياسة والسيطرة .

ولكن الحال تبدل فى عهد الخلافة ؛ فقد استطاع عبد الرحمن الثالث أن يعيد إلى الشعب الأندلسى وحدته ، فقضى على الزعامات العربية التى كان يتكتل وراءها من ينتمون إلى العرب من أبناء الأندلس ، وقضى كذلك على الزعامات الإسبانية التى كانت معقد أمل الخارجين على النظام من مسلمى الإسبان المعروفين بالمولدين . كذلك أراح الأندلس من الزعامات البربرية التى كانت تثور بسكان الأندلس من أهل شمال إفريقيا ، وتستقل ببعض الأقاليم الأندلسية .

وهكذا رأت العناصر المكونة للشعب الأندلسى أن الخير كل الخير فى ترك العنصرية جانبًا ، فاندمجوا فى المجتمع الأندلسى الكبير اندماجًا توحد معه هذا المجتمع وامتزجت عناصره ؛ واختفت منه — أو كادت — تلك العنصرية المختلفة ، من عربية وإسبانية وبربرية ، وبرزت بصورة واضحة قومية موحدة مؤتلفة هى القومية الأندلسية .

وقد أدت سياسة الناصر الحكيمة وانتصاراته الباهرة ، وحكمه المديد إلى شيوع الاستقرار ، واستتباب الأمن ، وانتشار الطمأنينة . وأدى ذلك كله إلى إقبال الناس على أعمالهم فى جد ونشاط وأمل ، كما أنتج هذا جميعه وفرة فى الدخل القومى ، وارتفاعًا فى مستوى المعيشة ، ورخاء للدولة والأفراد جميعًا . وقد قيل : إن إيراد الدولة زاد زيادة عظيمة حتى بلغ مايجبى بالأندلس من الكور والقرى خمسة ملايين وأربعمائة وثمانين ألف دينار ، كما بلغ مايجبى من الأسواق ونحوها سبعمائة وخمسة وستين ألف دينار [١] . وقيل كذلك : إن الناصر قد خلف فى بيوت المال خمسة آلاف ألف ألف ألف (ثلاث مرات) [٢] .

---

(١) انظر : نفح الطيب المقرى ج ١ ص ١٧٧ . والبيان المغرب لابن عذارى جـ ٢ ص ٢٤٥

(٢) انظر نفح الطيب المقرى ج ٢ ص ١٧٧ .

وكل هذا – على ماقد يكون فيه من مبالغة – يدل على ما وصلت إليه الأندلس من الرقى الاقتصادى فى ذلك الحين .

ولم تعرف الأندلس نهضة عمرانية كالتى عرفتها فى فترة الخلافة ؛ فقد كان الناصر مولعاً بالبناء ، محبًّا للتشييد ، كما كان يعتقد أن البنيان يخلد ذكر الباقين ويبقى أسماءهم على الدهر . ومن هنا تم فى عهده أروع ماعرفت الأندلس من قصور ومساجد ، ووصلت العاصمة القرطبية فى فترة الخلافة إلى أوج جمالها وأناقتها وعمرانها ، فازدحمت بالقصور المشيدة ، وزينت بالحدائق العديدة ، وجملت بالنافورات الكثيرة ، وزودت بالحمامات الوفيرة . وقد قيل : إن مبانيها بلغت أكثر من خمسين ألف قصر للعظماء ورجال الدولة ، وأكثر من مائة ألف بيت للعامة . كما قيل : إن مساجدها بلغت تسعمائة ، ووصلت حماماتها سبعمائة [١] ، هذا فى وقت كانت بعض دول أوربا تعتبر النظافة رجساً من عمل الشيطان [٢] .

وكان أعظم أعمال الناصر الإنشائية ، مدينة الزهراء ، التى بناها [٣] فى شمال قرطبة ، وجعل بها قصراً للخلافة وبيوتاً لرجال الحكومة والبلاط ، ومساكن للحرس والجند ، ومسجداً للصلاة والتعليم .

كان قصر الخلافة فى هذه الضاحية القرطبية غاية فى الجلال والجمال والفن ، وقد جلب الناصر أعمدة بنائه ورخامه ، وتماثيل زينته ومواد زخرفته ، من القسطنطينية وقرطاجنة وشمال أفريقيا ، علاوة على ماأنتجته مدن الأندلس .

---

(١) انظر نفح الطيب للمقرى ج ١ ص ٢١٣ وما بعدها ، والبيان المغرب لابن عذارى ج ٢ ص ٣٤٥ – ٣٤٦ ، وقصة العرب فى إسبانيا تأليف « استانلى لين بول » ترجمة الأستاذ على الجارم ص ١١٩ – ١٢٠ .

(٢) انظر المصدر الأخير .

(٣) بدأ فى بنائها سنة ٣٢٥ هـ (البيان المغرب جـ ٢ ص ٢٤٤ . والنفح جـ ٢ ص ٢٤٦) .

وكان للخليفة فى قصره بالزهراء مجلس يسمى بمجلس الذهب ، لكون قبته وحيطانه قد صفحت بهذا المعدن النفيس . وقد جُعل فى هذا المجلس حوض عجيب ، أقيمت عليه تماثيل من الذهب المرصع بالدر النفيس ، وهى صور الأسد والغزال والتمساح والثعبان والعقاب والفيل والحمامة ، وكلها تمج الماء من أفواهها فى الحوض (١) .

وقد مست يد التجميل والتعمير مدناً أندلسية أخرى غير قرطبة ، كما شمل الرخاء والأمن والرفاهية غير القرطبيين من الأندلسيين ، وعاش المجتمع الأندلسى فى فترة الخلافة عهده الذهبي من الناحية الاجتماعية ، كما عاش فى عهده الذهبي أيضاً من الناحية السياسية ؛ حتى لنرى أبرع الصور وأروع الأمثلة عن حضارة الأندلسيين وتقدمهم الاجتماعى ، قد أخذت جميعها أو أخذ أغلبها على الأقل ، من حياة أهل الأندلس فى فترة الخلافة .

٣ — نهضة الثقافة :

نهضت الثقافة الأندلسية فى فترة الخلافة نهضة شاملة ، كان من مظاهرها اتضاح الشخصية العلمية للأندلس ، بل قوة هذه الشخصية واستقلالها إلى حد كبير . وليس من شك فى أن ظروف الأندلس فى تلك الفترة قد ساعدت على هذه النهضة ، فالوحدة والاستقلال ، والأمن والرخاء ، والتحضر والرقى ؛ كل ذلك من شأنه أن يدفع إلى حياة ثقافية ناهضة ، ويساعد على مستوى علمى رفيع . وقد أتيح للأندلس فى فترة الخلافة خليفتان وفرا للناس وحدة واستقراراً ، وحققا لهم أمناً ورخاء ، ومكناهم من تحضر ورقى ؛ فأتاحا لهم كل مامن شأنه أن ينهض بثقافتهم ويرقى بعلمهم . بل إن هذين الخليفتين لم يكتفيا بتهيئة الجو للثقافة والعلم ، وإنما دفعا بالأندلس دفعاً إلى نهضتها

(١) اقرأ ما قيل عن الزهراء فى : نفح الطيب ج ١ ص ٢٤٥ ، ٢٤٦ ، ٢٤٧ ، ٢٦٥ وما بعدها والبيان والمقرب ج ٢ ص ٢٤٤ — ٢٤٥ .

الثقافية الشاملة ، وذلك بتشجيع القادمين إلى الأندلس من علماء المشرق ، وجلب الكتب القيمة من شتى الأقاليم ، والحث على البحث والتأليف فى شتى الفنون . فالناصر قد أحسن استقبال أبى على القالى وأسند إليه تأديب ابنه الحكم ، ومكن له ليعلم الأندلسيين فى قرطبة [١] . وقد حمل القالى إلى الأندلس كثيراً من علم المشرق وأدبه ، ونقل بخاصة مجموعة ضخمة من دواوين الشعراء الجاهليين والإسلاميين [٢] ، مثل امرئ القيس وزهير والنابغة والأعشى والخنساء ، ومثل ابن أبى ربيعة وجميل وكثير والأخطل وجرير والفرزدق ، وكثير جداً غير هؤلاء وأولئك . هذا بالإضافة إلى كثير من كتب الأخبار واللغة ، مما أمد الحياة الثقافية الأندلسية فى هذه الفترة بشحنة عظيمة من الزاد الدسم .

أما الحكم بن عبد الرحمن ، فقد ثبت أنه لم يولع خليفة بالكتب كما أولع ، ولم يجمع أمير منها مثل الذى جمع . وقد اشتهر بمكتبته الغنية التى بلغت أربعمائة ألف مجلد [٣] . وقد كان يحرص على جمع الكتب لها ويدفع فيها أغلى الأثمان ، كما فعل مع أبى الفرج الأصبهانى ، حين وجه إليه ألف دينار ليرسل إليه نسخة من كتاب الأغانى ، فبعث إليه بنسخة من كتابه قبل أن يظهر فى بغداد [٤] .

وقد كان الحكم كذلك يشجع العلماء على التأليف ، ويقترح على المؤلفين بعض الموضوعات [٥] ، ويفسح لهم مكاناً فى القصر يخلون فيه للبحث وإنجاز ما عهد إليهم

---

(١) انظر ما قيل عن قدوم القالى إلى الأندلس فى : نفح الطيب ج ٢ ص ٨٤ — ٨٦ وانظر ترجمته فى : وفيات الأعيان ج ١ ص ٧٤ .

(٢) انظر فيما حمله القالى إلى الأندلس : الفهرسة لابن خير المجلد الأول ص ٣٩٥ وما بعدها .

(٣) انظر : نفح الطيب ج ١ ص ١٨٤ — ١٨٦ ، وطبقات الأمم لصاعد الأندلسى ص ٦٦ .

(٤) المقرى نفح الطيب ج ١ ص ١٨٠ .

(٥) كما اقترح على الخشنى تأليف كتابه « قضاة قرطبة » وكما اقترح على الزبيدى تأليف كتابه « طبقات النحويين » .

من مؤلفات [١] . وهكذا كُتب باقتراحه وتشجيعه كثير من الكتب فى مختلف العلوم ، ولقى العلماء فى ظله كثيراً من الإقبال والتكريم . ولذلك نهضت الأندلس علمياً فى شتى الميادين . وتألق فيها نابهون فى كل فروع المعرفة التى تمثل الثقافة فى ذلك الحين .

وليس أدل على نهضة الأندلس العلمية فى فترة الخلافة ، من وفرة العلماء والمؤلفات فى أغلب فروع المعرفة ، تلك الوفرة التى لم تعرفها الأندلس من قبل والتى اتضحت معها الشخصية العلمية للأندلس واستقلت إلى حد كبير .

فنى الميدان اللغوى ، نرى أنه قد تأسست أول مدرسة للدراسات اللغوية بالأندلس ، وذلك بعد قدوم أبى على القالى ، الذى وفد على الأندلس سنة ٣٤٠ هـ (٩٤١ م) والذى ألف كثيراً فى الدراسات اللغوية ، وأملى على طلبته الأندلسيين كتابه « الأمالى »

وفى هذه الفترة برز عدد من الأندلسيين فى الدراسات اللغوية مثل : أبى بكر الزبيدى ، الذى عمل « مختصر كتاب العين » وألف كتاب « طبقات النحويين » و « كتاب لحن العامة » وكتاب « الواضح فى العربية » وكتاب « الأبنية فى النحو » . وكان مؤدباً للأمير هشام ابن الخليفة الحكم المستنصر [٢] .

ومن الأندلسيين الذين عرفوا بالدراسات اللغوية فى فترة الخلافة أيضاً أبو بكر ابن القوطية ، الذى ألف « كتاب تصاريف الأفعال » و « كتاب المقصور والممدود » . وكان ابن القوطية من كبار علماء الأندلس فى فروع علمية أخرى وخاصة التاريخ [٣] .

---

(١) كما فعل مع ابن الصفار ليؤلف كتاباً فى أشعار خلفاء بنى أمية بالمشرق (انظر جذوة المقتبس ترجمة ٥٣٣) .

(٢) انظر : وفيات الأعيان لابن خلكان ج ١ ص ٥١٤ ، وتاريخ علماء الأندلس لابن الفرضى رقم ١٣٥٧ ، ونفح الطيب ج ٢ ص ٨٥ ، ٨٩ .

(٣) انظر : وفيات الأعيان ج ١ ص ٥١٢ — ٥١٣ ، ونفح الطيب ج ٢ ص ٨٥ — ٨٩ وتاريخ علماء الأندلس ، رقم ١٣١٨ .

وفى الحقل التاريخى ، ظهر من علماء الأندلس فى فترة الخلافة ، أحمد بن محمد بن موسى الرازى ، الذى كان يلقب بالتاريخى لكثرة اشتغاله بالتاريخ . ومما ألفه فى ذلك : كتاب فى « أخبار ملوك الأندلس وخدمتهم وغزواتهم ونكباتهم »، وآخر فى « أنساب مشاهير أهل الأندلس » ، وثالث عن « كبار الموالى الأندلسيين »، ورابع فى « صفة قرطبة وخططها ومنازل الأعيان بها » . وقد ضاعت هذه الكتب كلها ، ولم يصل إلينا من مؤلفاته التاريخية إلا قطعة فى صفة الأندلس ، وهى مترجمة إلى الإسبانية تحت عنوان « كرُونيكا دِلْ مُورو رازيز » [١] Cronica del moro Rasis أى تاريخ المغربى الرازى .

كذلك كان من مؤرخى هذه الفترة . أبو بكر بن القوطية . الذى سبقت الإشارة إليه كلغوى [٢] . وقد خلف لنا فى التاريخ كتابه المشهور « تاريخ افتتاح الأندلس »[٣] وهو يتناول تاريخ الأندلس منذ الفتح حتى نهاية إمارة الأمير عبد الله .

وروح الكتاب تتفق مع روح ابن القوطية كحفيد للقوط أولا ، وكمولى لبنى أمية ثانياً ؛ فنحن نراه يدخل فى رواياته عنصراً قومياً كأخبار أرطباس مع الصميل ابن حاتم . وهى أخبار تظهر الأمير القوطى فى صورة الرجل الموهوب الحميد الخلق ، على حين تصور الزعيم العربى أقل كثيراً من صورة الأمير القوطى . وكذلك نراه يتحدث عن الثائرين على العرب والخارجين عليهم من ذوى الأصول الإسبانية ، كمروان

---

(١) انظر : Palencia : La literatura arabigo-espanola, p. 144 .
وانظر تاريخ الفكر الأندلسى (وهو ترجمة الكتاب السابق) ص ١٩٧ .

(٢) وهو حفيد سارة القوطية . حفيدة غيطشة ملك القوط قبل « رذريق » وكانت سارة قد لجأت إلى الخليفة الأموى سليمان بن عبد الملك فى دمشق لتشكو ظلماً وقع عليها ، فكرمها الخليفة وزوجها أحد مواليه ، فكان من سلالته عالمنا ابن القوطية . انظر ترجمته فى : تاريخ علماء الأندلس لابن الفرضى . رقم ١٣١٨ . وفى وفيات الأعيان ج ١ ص ٨١٢ — ٨١٣ . وفيما كتبه عنه النفح ج ٢ ص ٨٥ — ٨٦ .

(٣) وقد نشره « جايانجوس » وترجمه (ربيرا) إلى الإسبانية سنة ١٩٢٦ ، كما كتب مقدمة دقيقة له.

الجليقي وعمر بن حفصون، كما يورد أخباراً عن الشاعر غرْبيب المتعصب لقومه مستعربى طليطلة ، ثم نراه يحسن القول عن بنى أمية فى أغلب الأحايين ، وهذا أثر من آثار ولائه لهم [١] .

ومن الآثار التاريخية التى ظهرت فى تلك الفترة أيضاً كتاب : «أخبار مجموعة»[٢] وهو لمؤلف مجهول ، ويتناول تاريخ الأندلس من الفتح إلى عهد عبد الرحمن الناصر .

وروح الكتاب فيها ميل إلى العرب عامة وإلى قريش خاصة ، وإلى الأمويين من قريش بصفة أخص .

وقد ألف الكتاب فى عهد عبد الرحمن الناصر كما يرى الأستاذ « ريبرا » خلافاً للأستاذ « دوزى» الذى يرى أنه من تراث القرن الحادى عشر الميلادى [٣] .

وكان من المؤرخين كذلك فى هذه الفترة ، عريب بن سعد ، الذى كان يعمل فى خدمة الحكم المستنصر . ومن أشهر كتبه « صلة تاريخ الطبرى» .وكان هذا المؤرخ الأندلسى طبيباً أيضاً ، ومن آثاره فى الطب : كتاب فى « خلق الجنين وتدبير الحبالى والمولود » وهو مخطوط بمكتبة الإسكوريال [٤] .

كذلك اشتهر بكتابة التراجم بعض علماء تلك الفترة ، مثل أبى عبد الملك بن عبد البر القرطبى ، الذى ألف كتاباً عن « فقهاء قرطبة » [٥] ، هو من المصادر الرئيسية

---

(١) انظر : Julian Ribera : Prologo

(وهى المقدمة التى صدر بها الترجمة الإسبانية لكتاب : تاريخ افتتاح الأندلس) .

(٢) نشر الكتاب وترجمه إلى الإسبانية .« لافونتى ألكنترا » سنة ١٨٩٧ .

(٣) انظر : المقدمة التى كتبها « ريبرا » لكتاب تاريخ افتتاح الأندلس .
وانظر كذلك مقدمة أخبار مجموعة .

(٤) انظر : تاريخ الفكر الأندلسى ص ٢٠٦ – ٢٠٧ .

(٥) انظر : تاريخ العلماء والرواة للعلم بالأندلس لابن الفرضى ترجمة رقم ١٢٠ .

التى اعتمد عليها ابن الفرضىّ فيما بعد ، حين ألف كتابه « تاريخ العلماء والرواة للعلم بالأندلس » [١] . كذلك كان من كتاب التراجم فى فترة الخلافة ، أبو عثمان بن عبد البر الكشكيانى ، الذى صنف كتابًا عن « الفقهاء والقضاء بقرطبة والأندلس » [٢]

ومن عرفوا بكتابة التراجم فى تلك الفترة أيضًا ، محمد بن هشام المروانى ، الذى صنف كتابًا فى « أخبار الشعراء » [٣].

ولكن ألمع شخصية بين كتاب التراجم فى فترة الخلافة ، هى شخصية أبى عبدالله الخُشَنى [٤] ، صاحب كتاب « تاريخ قضاة قرطبة » [٥] ، الذى ترجم فيه للقضاة فى العاصمة الأندلسية من الفتح حتى سنة ٣٧٥ هـ .

والكتاب يضم إلى جانب التراجم العديدة — التى تعرفنا بجمهرة من أهل القضاء والعلم فى الأندلس — معلومات قيمة عن الحياة الاجتماعية .

ويقول عنه الأستاذ « ريبرا » : إن هذا الكتاب يضعنا فى قلب قرطبة ، وإن أخباره مصوغة فى قالب من الواقعية التى لايبلغ إلى تصويرها كتاب غيره من كتب التاريخ والأدب [٦] .

---

(١) انظر المصدر السابق ص ٩ ، ١٣٠ .

(٢) انظر المصدر السابق ، ترجمة رقم ١٦٣ ، وتاريخ الفكر الأندلسى ص ٢٦٧ .

(٣) انظر . نفح الطيب للمقرى ج ٢ ص ٣٢٦ ، ٣٢٧ .

(٤) الخشنى أصله من القيروان ، وقد وفد على الأندلس صغيراً ، وتخرج على بعض علمائها ثم دخل فى خدمة الحكم المستنصر ، وألف له كثيراً من الكتب . اقرأ عنه فى تاريخ العلماء والرواة للعلم بالأندلس لابن الفرضى ، ترجمة رقم ١٤٠٠ وفى : جذوة المقتبس للحميدى ترجمة رقم ٤١ .

(٥) نشره « ريبرا » وترجمه إلى الإسبانية سنة ١٩١٤ . وأعاد السيد عزت العطار نشره (بلا ترجمة) سنة ١٩٥٤ .

(٦) انظر حديث « ريبرا » عن الكتاب فى المقدمة التى صدر بها النشرة والترجمة اللتين أذاعهما سنة ١٩١٤ ، وانظر : تاريخ الفكر الأندلسى ص ٧٦٧ — ٧٧٠ .

وأما فى التفسير والحديث ، فقد نبغ كثيرون مثل ابن محاسن ، عثمان بن محمد ، الذى اشتهر بالتفسير [١] . ومثل ابن القوطية، الذى سبق الحديث عنه كلغوى ومؤرخ [٢]

كذلك اشتهر من علماء الأندلس فى تلك الفترة ، ابن الحجام يعيش بن سعيد ، الذى ألف مسند حديث بأمر الحكم المستنصر [٣] .

وأما فى الفقه ومذاهبه ، فقد برع عديدون ، وكان أكثرهم من أعلام المذهب المالكى الشائع بين الأندلسيين على ما هو معروف . ومن هؤلاء الذين نبغوا فى الفقه المالكى خلال فترة الخلافة : عبد الله بن أبى دليم ، الذى صنف كتاب « الطبقات فيمن روى عن مالك من أهل الأمصار » [٤] ، ومنهم يحيى بن عبد الله بن يحيى الليثى [٥] . وهو حفيد الفقيه الأندلسى المعروف ، يحيى بن يحيى الليثى . ومنهم أيضاً أبو بكر بن القوطية الذى عرفناه لغوياً ومؤرخاً ومحدثاً .

على أن هناك فقهاء آخرين نبغوا فى فقه غير الفقه المالكى ؛ وكان من أسباب ذلك ، تلك الحرية الفكرية التى أتيحت للعلماء فى فترة الخلافة . فقد عُرف بالفقه الشافعى : عثمان بن أبى سعيد الكنانى [٦] ، وأسلم بن عبد العزيز بن هاشم [٧] ، وأحمد ابن عبد الوهاب بن يونس ، الذى كان من المترددين على الحكم المستنصر [٨] . كذلك

---

(١) انظر : تاريخ العلماء لابن الفرضى ترجمة رقم ٩٠١ .

(٢) اقرأ عنه فى المصدر السابق ، ترجمة رقم ١٣١٨ .

(٣) انظر : تاريخ العلماء لابن الفرضى، ترجمة رقم ١٦١٢ . وجذوة المقتبس للحميدى ترجمة رقم ٩١٥.

(٤) انظر : تاريخ العلماء لابن الفرضى ، رقم ٧٠٧ . وتاريخ الفكر الأندلسى ص ٤٢٠ .

(٥) انظر : تاريخ العلماء لابن الفرضى ، ترجمة رقم ١٥٩٧ .

(٦) المصدر السابق ، رقم ٨٩٢ .

(٧) اقرأ عنه فى : تاريخ العلماء لابن الفرضى ، ترجمة رقم ٢٨٠ ، وفى جذوة المقتبس للحميدى ، ترجمة رقم ٣٢٢ .

(٨) اقرأ عنه فى : تاريخ العلماء لابن الفرضى ترجمة رقم ١٥٤ .

عرف من فقهاء الظاهرية : منذر بن سعيد البلوطى ، وكان قد درس فى المشرق على كبار العلماء ، وعندما عاد إلى الأندلس ، أنكر تقليد مذهب مالك ؛ وكان يميل إلى مذهب داود بن خلف الظاهرى ، ويحتج له . ولقد كان يلى قضاء لاردة وطُرْطُوشة ، ثم نال إعجاب الناصر ولفت نظره بخطبته البليغة فى حفل استقبال سفير القسطنطينية ، فولاه الخليفة الصلاة والخطابة بمسجد الزهراء ، ثم ضم إليه بعد ذلك قضاء قرطبة(١) . والذى بلغ إليه منذر بن سعيد — على ظاهريته ومخالفته للمذهب المالكى الرسمى — يدل على مدى ماساد الأندلس فى فترة الخلافة من حرية فكرية ، وما تمتع به العلماء من استقلال فى الرأى مهما خالف هذا الرأى مذهب الحاكمين .

وأما الفلسفة ، فقد أخذت مكانها مرة أخرى بعد أن حورب ابن مسرة فى الفترة السابقة ؛ فعادت مدرسته من جديد ، وشاعت مبادئه وآراؤه ، وعُرف بالانتماء إلى المدرسة المسرية كثير من أهل الفكر الأندلسيين ، ومن هؤلاء : طريف الروطى ، ومحمد بن مفرج المعافرى ، ورشيد بن محمد ، وأبان بن عثمان . وقد كان الفضل فى عودة مدرسة ابن مسرة إلى نشاطها يرجع إلى روح التسامح التى سيطرت على فترة الخلافة ، وخاصة أيام الحكم المستنصر(٢) .

وأما الطب ، فقد ازدهر فى تلك الفترة ، ونبغ فيه أعلام من الأندلسيين . وقد كان من مهرة الأطباء فى تلك الفترة : سعيد بن عبد ربه ، الذى كانت له طريقة خاصة فى علاج الحميات (٣) . وأحمد بن يونس وأخوه عمر ، اللذان عُرفا بالمهارة فى تحضير الأدوية والعلاج ، وخاصة علاج العين (٤) . وغير هؤلاء كثيرون ممن عرفوا أيام الناصر

(١) اقرأ ترجمته وبعض أخباره فى : المصدر السابق ، ترجمة رقم ١٤٥٤ ، وفى نفح الطيب المقرى ج ١ ص ١٧٢ — ١٧٥ ، ٢٦٦ — ٢٦٩ ، ٢٣٠ — ٢٣٣ .

(٢) تاريخ الفكر الأندلسى ص ٣٣٠ .

(٣) انظر : طبقات الأطباء لابن أبى أصيبعة ج ٢ ص ٤٦ .

(٤) اقرأ عنهما فى : طبقات الأمم لصاعد الأندلسى ص ١٢٤ ، وفى طبقات الأطباء لابن أبى أصيبعة ج ٢ ص ٤١ .

والمستنصر [١] وذاعت شهرتهم ، حتى لقد كان بعض ملوك المسيحيين يلجأون إلى أطباء الأندلس ، لعلاج ما يستعصى من أمراضهم [٢] .

وأما الرياضيات فقد نبغ فيها كثيرون ، مثل عبد الله بن محمد المعروف بالسرى والذى كان الحكم يعظمه . ومثل أبى بكر بن عيسى ، الذى كان يجلس للتعليم أيام الحكم ، وكان مقدماً فى الهندسة والعدد والنجوم [٣]

وهكذا نرى عدة ظواهر للحياة الثقافية فى الأندلس خلال فترة الخلافة ، أولاها : تلك المشاركة الواضحة فى أكثر فروع المعرفة ، بل ذلك النبوغ الملموس فى أغلب ألوان الثقافة ؛ حتى لنرى من أبناء الأندلس مبرزين فى شتى العلوم والفنون ، ونجد لهم مؤلفات فى مختلف فروع المعرفة . والظاهرة الثانية للحياة الثقافية فى فترة الخلافة : شيوع الحرية الفكرية بصورة واضحة ، وتشجيع العلماء وإكبارهم ، على اختلاف ميولهم ومعارفهم ومذاهبهم . والظاهرة الثالثة المتصلة بالحياة الثقافية لتلك الفترة : إقبال كثير من الأندلسيين على العلوم الفلسفية والطبيعية ؛ حتى لتعد تلك الفترة بحق من الفترات المعدودات ، التى أتيح فيها للثقافة الأندلسية أن تتصل اتصالا قوياً بالفلسفات والطبيعيات .

وهناك بعد ذلك ظاهرة رابعة جديرة بالاعتبار ، وهى : الاتصال ببعض المعارف الإغريقية واللاتينية عن طريق الترجمة . فقد ترجمت عن هاتين اللغتين بعض الكتب مثل كتاب « ديسقوريدس » Dioscorides فى الحشائش والأدوية ، وكتاب « هروسيس » Orosius فى التاريخ . وقد وصل هذان الكتابان إلى الأندلس ضمن هدية بعث بها

---

(١) انظر : طبقات الأمم لصاعد الأندلسى ص ٨٠ ، ٨١ .

(٢) انظر : قصة العرب فى إسبانيا « ترجمة الجارم » ص ١٠٩ ، ١١٠ .
وانظر : Palencia, Historia, p. 47.

(٣) نظر : طبقات الأمم لصاعد الأندلسى ص ٦٨ .

إمبراطور القسطنطينية « أرمانيوس» إلى عبد الرحمن الناصر . وكان الكتاب الأول مكتوباً بالإغريقية ، وقد ترجمه فى الأندلس راهب يسمى « نيقولا» قد أرسله الإمبراطور بناء على طلب الناصر . أما الكتاب الثانى فكان مكتوباً باللاتينية ، وقد ترجمه فى الأندلس قاضى النصارى بقرطبة ، وقاسم بن أصبغ الأندلسى [١] . ولا يبعد أن يكون هناك كتب أخرى قد ترجمت عن هاتين اللغتين كما حصل لهذين الكتابين ؛ فقد توفرت لتلك الفترة كل الإمكانيات التى تشجع على ذلك ، من حرية فكرية ، وتحمس لجلب الكتب ، ووجود من يستطيعون الترجمة .

وأخيراً هناك ظاهرة خامسة تتصل بالحياة الثقافية لتلك الفترة ، وهى ظاهرة جديرة بالملاحظة ، لما لها من صلة وثيقة ببعض ماسنرى من ظواهر أدبية . تلك الظاهرة هى : ظهور الروح القومية الأندلسية فى الحياة الثقافية . وقد بدا ذلك واضحاً فى العناية بجمع تراث الأندلسيين ، وكتابة تاريخ الأندلس ، والترجمة لأعلام هذه البلاد فى شتى الميادين ، من شعراء وعلماء وقضاة ونحويين ، وغير هؤلاء وأولئك من أدباء ومفكرين . والمتتبع لمؤلفات تلك الفترة لاتخطئه تلك الملاحظة ، فسيرى اتجاهاً واضحاً إلى كل ما هو أندلسى ؛ ففى التاريخ الأندلسى يكتب ابن القوطية وغيره ، وفى رجال الأندلس يكتب خالد بن سعد [٢] ، وفى قضاة قرطبة يكتب الخُشَنى ، وفى شعراء الأندلس تُكتب عدة كتب ، منها فى شعراء إقليم إلبيرة فقط نحو عشرة أجزاء [٣] ، كما يكتب ابن فرج كتابه « الحدائق » الذى يعارض فيه كتاب « الزهرة » لمحمد بن داود

---

(١) انظر فى دخول هذين الكتابين إلى الأندلس ، وترجمة الأول منهما : طبقات الأطباء لابن أبى أصيبعة ج ٢ ص ٤٧ : وانظر فى ترجمة الثانى : ابن خلدون ج ٢ ص ٨٨ .

وانظر كذلك : طبقات الأطباء لابن جلجل تحقيق فؤاد السيد (المقدمة) .

(٢) انظر : تاريخ علماء الأندلس لابن الفرضى ج ١ ترجمة رقم ٣٩٨ .

(٣) انظر : نفح الطيب للمقرى ج ٢ ص ١٢٣ .

الإصبهانى ويزيد عليه ؛ فقد ذكر ابن داود مائة باب فى كل باب مائة بيت ، أما ابن فرج فقد ذكر مائتى باب فى كل باب مائتا بيت ولم يورد فيه لغير أندلسى شيئاً[١].

٤ ــ نهضة الأدب :

نهض الأدب الأندلسى فى فترة الخلافة نهضة عظيمة ، ساعد عليها ما كان من رقى سياسى وتفوق اجتماعى ونهوض ثقافى . وقد بدت نهضة الأدب الأندلسى خلال تلك الفترة فى مظاهرة عديدة ؛ منها ظهور بعض الاتجاهات الجديدة فى الشعر ، وبعض الأنواع الجديدة فى النثر ، هذا بالإضافة إلى تطور الاتجاهات المعروفة ، وازدهار الأنواع المألوفة ، ووفرة النتاج الأدبى وخصوبته وتنوعه ، وشيوع الأدب بين الأندلسيين شيوعاً جعله من أبرز سمات الحضارة الأندلسية فى ذلك الحين . وسوف يتضح كل ذلك بتناول نوعى الأدب تناولا تفصيلياً .

أولا ــ الشعر :

يمكن أن يلاحظ دارس الشعر الأندلسى فى تلك الفترة عدة ظواهر ، منها مايتصل بالاتجاهات الشعرية وما طرأ عليها من زيادة أو تطور ، ومنها ما يتعلق بالأفكار الشعرية وصلتها بالنهضة العلمية التى أظلت الأندلس فى ذلك الحين ، ومنها مايرتبط باللغة الشعرية وعلاقتها بالحياة اللغوية التىكان يحياها الأندلسيون فى تلك السنين ؛ ثم منها مايتصل بدور الشعر كفن يعبر عن الحياة ، ويؤدى وظيفة حيوية فيها . أما من حيث الاتجاهات الشعرية ، فأول ما يلاحظ هو :

(أ) ظهور الاتجاه المحافظ الجديد :

ويقصد به هذا الاتجاه الشعرى الذى كان قد ظهر فى الشرق كرد فعل للاتجاه المحدث الذى تزعمه أبو نواس ، والذى خرج بالشعر العربى عن كثير من تقاليده ؛

---

(١) انظر : جذوة المقتبس للحميدى ترجمة رقم ١٧٥ .

فجاء هذا الاتجاه المحافظ الجديد Neo clasico ، ليعيد الشعر العربي إلى طبيعته العربية ، وذلك بالاقتراب من التقاليد الشعرية المأثورة ، والتخفيف من تلك الثورة المتمردة التي لجأ إليها المحدثون ، كل ذلك دون وقوف أو جمود عندما كان عليه الشعر القديم من بساطة وسذاجة وبداوة ، بل مع سير وتطور يفيدان الشعر مما وصلت إليه العقلية العربية من رقي ، ومما بلغته الثقافة العربية من نهوض ، ومما نعم به المجتمع العربي من حضارة .

ومن هنا جاء هذا الاتجاه محافظاً من جانب ومجدداً من جانب ؛ فهو محافظ في منهج القصيدة ولغتها وموسيقاها ، ثم في روحها وأخلاقياتها إلى حد كبير . وهو مجدد في معاني الشعر وصوره ، ثم في أسلوبه وجمالياته إلى درجة بالغة (١) .

فمن حيث المنهج ، يسير أصحاب هذا الاتجاه غالباً على الطريقة القديمة . في البدء ببكاء الأطلال أو الافتتاح بالغزل التمهيدي ، ثم الانتقال إلى الغرض الأساسي الذي قد يُسبق بوصف رحلة الشاعر ، وقد يتبع بالفخر بشعره .

ومن حيث اللغة يفضل أصحاب هذا الاتجاه الأسلوب القديم ، في الميل إلى جزالة اللفظ وفخامة العبارة .

ومن حيث الموسيقى الشعرية ، يؤثر أصحاب هذا الاتجاه الذوق القديم ، في حب الأوزان الطوال ذات النغم الوقور ، والقوافي القوية ذات الرنين الرزين .

ومن حيث روح الشعر العربي وأخلاقياته ، يغلب على أصحاب هذا الاتجاه البعد عن التطرف المتمرد وتلك الثورة الجامحة ، التي كانت تسخر من التقاليد وتجرح المواضعات ، كما يغلب على أصحاب هذا الاتجاه أيضاً البعد عن الإفراط في المجون والمجاهرة بالعصيان والفخر بارتكاب الرذائل (٢) .

---

(١) لتكوين فكرة مفصلة عن خصائص هذا الاتجاه اقرأ : تاريخ الشعر العربي لنجيب البهبيتي ص ٤٨٥ وما بعدها ، وأبو تمام الطائي للمؤلف نفسه ص ١٨٤ وما بعدها ، والفن ومذاهبه في الشعر العربي لشوقي ضيف ص ١٠٧ وما بعدها ، ومن حديث الشعر والنثر لطه حسين ص ٨١ وما بعدها .

(٢) انظر : من حديث الشعر والنثر لطه حسين ص ٨٥ .

أما من حيث معانى الشعر وصوره ، فقد كان أصحاب هذا الاتجاه يسيرون مسيرة المجددين ، فى البحث عن المبتكر الرائع أو الغائب الطريف أو البعيد الشارد . ومن هنا كانوا يغوصون غوصاً على المعانى حتى يستخرجوها ، كما كانوا يشققونها حتى يستوعبوا كل أجزائها ، بل إنهم كانوا يعتصرونها ويقطرونها حتى يحصلوا على أدق عناصرها وأهم محتوياتها .

وأما من حيث الأسلوب وجمالياته ، فقد كان أصحاب هذا الاتجاه يأخذون كذلك بطريقة المجددين ، فى تجميل الصياغة بألوان من البديع وتوشيتها بصنوف من المحسنات ، وقد كان من أبرز تلك المحسنات المقابلة والطباق والجناس والتكرار .

وقد كان أبو تمام الشاعر المشرقى الكبير ، من أوائل من ساروا فى هذا الاتجاه ، وتبعه بعد ذلك البحترى وآخرون ممن عاصروهما أو جاءوا بعدهما ، حتى وصل هذا الاتجاه إلى غايته بعد ذلك مع أبى الطيب المتنبى ، الذى يمكن أن يعتبر قمة هذا الاتجاه المحافظ الجديد (١) .

وقد دخلت أصول هذا الاتجاه إلى الأندلس فى الفترة السابقة ؛ فقد حدثنا الرواة أن نفراً من الأندلسيين ممن عاشوا فى فترة صراع الإمارة ، قد اتصلوا بأبى تمام ، وقرأوا عليه شعره ، ثم عادوا إلى الأندلس حيث أدخلوا هذا الشعر . وقد كان من هؤلاء أبو عثمان بن المثنى النحوى (٢) ، ومؤمن بن سعيد الشاعر (٣) . كذلك

---

(١) درج الباحثون على تسمية هؤلاء الشعراء بالمحدثين ، وهى تسمية عامة تطلق على الشعراء المجددين من أول بشار ثم أبى نواس ، إلى أبى تمام ومن عاصره وجاء بعده . ولما كان اتجاه الشعراء المجددين من أيام أبى تمام ومن سار فى طريقه يخالف اتجاه المجددين من أيام بشار ومن حذا حذوه ، آثرت أن يقصر اسم محدث على الاتجاه السابق الذى راده بشار وانتهت غايته إلى أبى نواس ، وأن يطلق اسم محافظ جديد على الاتجاه اللاحق الذى بدأه أبو تمام وانتهت غايته إلى أبى الطيب .

(٢) انظر : تاريخ العلماء لابن الفرضى ترجمة ٢٤٩ ، والمغرب ج ١ ص ١١٢ .

(٣) انظر : المغرب ج ١ ص ٣٢ .

قد عرفنا ماكان من أبى اليسر الرياضى العالم الرحالة ، وإدخاله إلى الأندلس أشعار أبى تمام والبحترى فى الفترة السابقة [١] .

ومع هذا لانكاد نرى أثراً لظهور هذا الاتجاه المحافظ الجديد فى أشعار الأندلسيين خلال فترة صراع الإمارة ، على حين نجد كثيراً من الآثار لظهوره فى فترة الخلافة التى نسوق عنها الحديث . ولعل السبب فى ذلك هو غلبة الاتجاه المحدث فى الفترة السابقة غلبة لم تترك حينئذ مكاناً للاتجاه المحافظ الجديد . وإنما غلب الاتجاه المحدث فى الفترة السابقة ، لما سبقت الإشارة إليه من أنه كان أكثر ملاءمة للتعبير عن واقع الأندلسيين الجديد المليء بالثورة والتعلق بالمظاهر الحضارية المحدثة .

وإنما ظهر هذا الاتجاه المحافظ الجديد فى فترة الخلافة ، لأنه اتجاه مرتبط كثيراً بالاستقرار الحضارى والتعقل الاجتماعى والهدوء الثورى [٢] ؛ فهو قد ظهر فى المشرق منذ أوائل النصف الثانى من العصر العباسى الأول . بعد أن هدأت حدة الانبهار باللقاء الأول مع المستحدثات الحضارية ، وبعد أن شبع شعراء القرن الثانى ثورة ولهواً ومجوناً ، وبعد أن جاء القرن الثالث وقد ألف المجتمع العربى الحضارة ومستحدثاتها ، ولم يعد يجن بها فيفقد اتزانه ، كما فعل من قبل جيل أبى نواس .

وقد كان المجتمع الأندلسى فى فترة الخلافة قد ألف الحضارة كذلك ، واستنفد انبهاره ودهشته بالمستحدثات فى الفترة السابقة ؛ ولهذا بدأ كثير من الأندلسيين يهتمون بالاتجاه الشعرى المحافظ الجديد ويجدون فيه طريقاً فنياً ملائماً للتعبير عن حياتهم المتحضرة المستقرة المتعلقة .

ولعل من مظاهر هذا الاهتمام ما ذكره بعض الرواة من عناية الخليفة عبد الرحمن

---

(١) ارجع إلى صفحة ١٦٠ من هذا الكتاب .

(٢) انظر : من حديث الشعر والنثر لطه حسين ص ٨٥ .

الناصر بشعر أبى تمام وتكليفه جماعة من العلماء والأدباء بانتساخه [١] .

ولعل من مظاهر هذا الاتجاه كذلك مانراه من إقبال بعض مؤلفى فترة الخلافة على أشعار أعلام هذا الاتجاه من المشارقة ، كما فعل ابن عبد ربه فى كتاب العقد ، حيث أورد شواهد عديدة من أشعار أبى تمام والبحترى وابن المعتز .

وليس من شك فى أن دخول ديوان المتنبى إلى الأندلس فى فترة الخلافة ، كان من أهم العوامل التى زادت من اهتمام الأندلسيين بهذا الاتجاه المحافظ الجديد . فالمتنبى كان من أشهر شعراء العربية فى عصره ، وكان اسمه يجلجل فى المغرب كما كان يملأ الأسماع والقلوب فى المشرق ؛ فدخول شعره إلى الأندلس فى فترة الخلافة ، قد أثار اهتمام الأندلسيين بالاتجاه الشعرى الذى يسير فيه ، وبالمذهب الفنى الذى يأخذ به .

وقد كان دخول ديوانه إلى الأندلس ، عن طريق أهل المغرب الإسلامى ممن اتصلوا بأبى الطيب فى المشرق ورووا شعره هناك ، ثم دخلوا به إلى الأندلس .

وفى مقدمة هؤلاء الذين نقلوا شعر المتنبى إلى الأندلس ، زكريا بن الأشج وهو جزائرى الأصل ، كان قد التقى بأبى الطيب خلال إقامته بمصر ، ودرس عليه ديوانه ، ثم رحل إلى الأندلس حيث أذاع هذا الديوان [٢] .

ويبدو أن هذا الاتجاه المحافظ الجديد قد بدأ يطغى على الاتجاه القديم ، ويبدو كذلك أن الجمهور الأندلسى المثقف أصبح يؤثر هذا الاتجاه ويعتبره الصورة المثلى للشعر التقليدى ، ويؤيد ذلك مايروى الزبيدى من أن الشاعر الأندلسى ابن يحي الريحانى ، قد نظم قصيدة رثاء بناها على مذاهب العرب ، وخرج فيها عن مذاهب المحدثين [٣]

---

(١) انظر : طبقات النحويين الزبيدى ص ٣٥٦ .

(٢) انظر : تاريخ علماء الأندلس لابن الفرضى ترجمة ٤٥٥ .

(٣) يستعمل الزبيدى اصطلاح المحدثين هنا بالمعنى العام الذى درج عليه الباحثون ، أى بما يشمل الاتجاه الذى نسوق عنه الحديث .

فلم يرضها العامة [١] .

وهكذا ظهرت فى فترة الخلافة أشعار أندلسية تسير فى هذا الاتجاه المحافظ الجديد وتبدو فيها خصائصه فى المنهج والروح ، واللغة والموسيقى . والأفكار والصور ، والصياغة والأسلوب . بل إن بعض أشعار الأندلسيين قد تأثرت بأشعار أعلام هذا الاتجاه من المشارقة ؛ فجاءت حينا وفيها ومضات من ذكاء أبى تمام فى تقطير المعانى والاهتمام بالبديع ، وحينًا نفحات من روح البحترى فى تأليف الصور والعناية بالبيان ؛ ثم فيها مرة وثبات من ذهنية ابن الرومى فى تحليله وتفصيله ، واستقصائه واحتجاجه ؛ ومرة لمسات من أناقة ابن المعتز ، فى تشبيهاته المترفة ، وصوره المفضضة المذهبة ؛ وأخيراً فيها قبسات من عبقرية أبى الطيب فى سبره للنفوس وتحليله للمشاعر وبلورته للتجارب .

على أن ذلك لم يكن — فى الغالب — تقليداً من الأندلسيين لهؤلاء الأعلام المشارقة ؛ وإنما كان إعجابًا بالاتجاه الشعرى أولا ، ورغبة فى إثبات مقدرتهم وتفوقهم ثانيًا . وليس أدل على عدم التبعية والتقليد ، من أن الشاعر الأندلسى كان يجاهر بموازنة نتاجه بنتاج سابقه المشرق ، حين يعالج موضوعًا عالجه ، أو يورد فكرة أورد مثلها ، أو يؤلف صورة رسم نظيرها .

وهذا ابن عبد ربه مثلا ، يورد نماذج لأبى تمام وغيره من أعلام شعراء المشرق ، ثم يورد أشعاراً له فى نفس الموضوعات أو مع بعض الأفكار المتشابهة والصور المتقاربة [٢] ، وهو يشير بهذا العرض إلى مقدرته كشاعر أندلسى ، ويحاول إثبات تفوقه على هؤلاء الأعلام ، بل إنه أحيانًا يصرح بهذا ، فيعلق بعد إيراد نموذجه بما يدل على قصده إلى إثبات التفوق [٣] . فالمسألة إذاً لم تكن تبعية أو سرقة ، وإنما كانت معارضة وتحدياً

(١) انظر : طبقات النحويين للزبيدى ص ٣٩٩ .
(٢) انظر : العقد الفريد فى كثير من فصوله .
(٣) انظر : العقد الفريد ج ٣ص ١٣٧ — ١٣٨ .

وليس معنى ذلك أن الأندلسيين لم يتأثروا بفن سابقيهم ومعاصريهم من المشارقة ؛ فالحق أنهم تأثروا إلى أبعد حد ، ولكن هذا التأثر كان فى الغالب تأثراً بالمذهب وتعلقاً بالاتجاه ، كما كان فى أكثر الأحيان تأثر الأصلاء الواعين ، ذوى الشخصية المتفتحة القوية ، التى تضيف إلى ماتتأثر به كثيراً من ذاتها وفنها فتغنيه وتنميه .

وقد رأينا أن أهم جوانب هذا الاتجاه المحافظ الجديد أربعة ، وهى جانب المعانى والصور ، وما يجب أن تكون عليه من طرافة وغرابة وجدة ، قد تستدعى توليداً أوتشقيقاً أو تقطيراً ، بل قد تستدعى المنطقة والتحليل ، والاحتجاج والاستدلال . ثم جانب الأسلوب ، وما ينبغى أن يجمل به من ألوان البديع وصنوف المحسنات ، وخاصة الجناس والطباق والمقابلة والتكرار . ثم جانب منهج القصيدة وما يغلب أن يتبع فيه من البدء ببكاء الأطلال ، أو الغزل التمهيدى ، ثم الانتقال إلى الغرض الأساسى ، ثم الانتهاء بختام كثيراً مايكون فخراً بالشعر .

وأخيراً جانب اللغة والموسيقى ، وما يغلب أن يراعى فيه من الجزالة والفخامة والجلال .

وفيما يلى عرض لبعض النماذج التى تؤيد ظهور هذا الاتجاه المحافظ الجديد فى الشعر الأندلسى خلال فترة الخلافة ، كما تؤيد معرفة الشعراء الأندلسيين بآثار إخوانهم المشارقة من أعلام هذا الاتجاه ، وتأثرهم بهم تأثراً لم تلغ معه شخصيتهم الأندلسية .

فمن النماذج المتصلة بجانب المعانى والصور ، قول ابن عبد ربه الأديب الأندلسى فى القلم :

بكفه ساحر البيان إذا أداره فى صحيفة سحرا
ينطق فى عجمة بلفظته نَصَمّ عنها ونسمع البصرا
نوادر يقرع القلوب بها إن تستبنها وجدتها صورا
نظام دُرّ الكلام ضمّنه سلكاً لخط الكتاب مستطرا

إذا امتطى الخنصرين أذكر من ... سحبان فيها أطال واختصرا
يخاطب الغائب البعيد بما ... يخاطب الشاهد الذى حضرا
ترى المقادير تَستدفُّ (١) له ... وتنفذ الحادثات ما أمرا
شَخْتٌ(٢) ضئيل لفعله خطر ... أعظِم به فى ملمة خطرا
يَمجُّ فكّاه ريقة صغرت ... وخطبها فى القلوب قد كبرا(٣)

فابن عبد ربه يعالج نفس الموضوع الذى عالجه أبو تمام حين قال فى القلم :

لك القلم الأعلى الذى بشباته ... يصاب من الأمر الكلى والمفاصلُ
لعاب الأفاعى القاتلات لعابه ... وأرْىُ الجنى اشتارته أيد عواملُ (٤)
له ريقة طَلّ ولكنّ وقعها ... بآثاره فى الشرق والغرب وابل
فصيح إذا استنطقته وهو راكب ... وأعجم إن خاطبته وهو راجل
إذا ما امتطى الخمس اللطاف وأفرغت ... عليه شعاب الفكر وهى حوافل
أطاعته أطراف القنا وتقوضت ... لنجواه تقويض الخيام الجحافل
إذا استغزر الذهن الجلىّ وأقبلت ... أعاليه فى القرطاس وهى أسافل
وقد رفدته الخنصران وسددت ... ثلاث نواحيه الثلاث الأنامل
رأيت جليلا شأنه وهو مرهف ... ضَنىً(٥) وسمينا خطبه وهو ناحل(٦)

* * *

(١) تستدف تسهل وتستقيم .
(٢) شخت : دقيق ضامر من غير هزال .
(٣) وردت هذه الأبيات فى العقد ج ٢ ص ١٧٣ ، ١٧٤ .
(٤) الأرى : العسل ، والجنى ما يجنى والعسل أيضاً . واشتارته : استخرجته .
(٥) الضنى فى الأصل . المرض المخامر ، الذى كلما ظن البرء منه عاد من جديد .
(٦) وردت هذه الأبيات فى ديوان أبى تمام ص ٢٥٧ . وذكرها ابن عبد ربه فى العقد ج ٢ ص ١٧٤ .

وليس يخفى سير الشاعر الأندلسى فى نفس الاتجاه الذى سار فيه أبو تمام ، من حيث الغوص على المعنى الغريب ، والجهد فى تأليف الصورة الطريفة . بل ليس يخفى تناول الشاعر الأندلسى لبعض معانى أبى تمام وصوره ، ومحاولة تجويدها بالإضافات والتعديلات ، مما وفق فيه حينًا وأخفق حينًا آخر .

فالقلم عند أبى تمام :

فصيح إذا استنطقته وهو راكب ... وأعجم إن خاطبته وهو راجلُ

فهو ناطق فى فصاحة إذا ركب أصابع الكاتب وبدأ يخط ، وهو أخرس أعجم إن كان راجلا غير ممتط لأصابع الكاتب . أما القلم عند ابن عبد ربه ، فإنه :

ينطق فى عجمة بلفظته ... نَصَمُّ عنها ونُسمع البصرا

أى أنه ناطق فى عجمته لاناطق إذا ركب وأعجم إذا لم يركب كقلم أبى تمام . ثم هو بعد ذلك ناطق عجيب ومتحدث من نوع غريب ؛ لأنه يسمع بالبصر لا بالسمع .

والقلم عند أبى تمام ، يمتطى الأصابع الخمس ، أما عند ابن عبد ربه ، فيمتطى الخنصرين فقط . وهذا أقرب إلى الدقة . ثم هو عند ابن عبد ربه :

إذا امتطى الخنصرين أذكر من ... سحبان فيما أطال واختصرا

فهو فارس فى ميدان البلاغة ، حيث يُذكر بفارس بلاغى هو سحبان . أما القلم عند أبى تمام فهو :

إذا ما امتطى الخمس اللطاف وأفرغت ... عليه شعاب الفكر وهى حوافلُ
أطاعته أطراف القنا وتقوضت ... لنجواه تقويض الخيام الجحافل

فهو ليس فارسًا فى ميدان البلاغة ، وإنما هو فارس فى ميدان الطعن والضرب ، فأطراف القنا تطيعه ، والجيوش تتهاوى أمامه كما تتهاوى الخيام أمام العاصفة .

ويلاحظ على بيت أبي تمام أولا عدم تلاؤم أجزاء الصورة فى البيت الأول ، وهى صورة الراكب الذى تفرغ عليه الشعاب الحوافل ؛ ويلاحظ ثانيًا البعد الشديد بين الوصف والموصوف ، فالمتحدث عنه قلم ، وقد وصف بأنه فارس تطيعه أطراف القنا وتقوض لنجواه الجيوش تقويض الخيام . وليس من شك فى أن تحويل القلم هكذا إلى فارس حقيقى ، أبعد عن الواقع من تصوير ابن عبد ربه له ، بأنه فارس فى ميدانه الطبيعى ، ميدان البلاغة .

وإذا رأيت قلم أبى تمام :

رأيت جليلا شأنه وهو مرهف ضَنىً وسمينا خطبه وهو ناحل

وأما القلم عند ابن عبد ربه ، فهو :

شخت ضئيل لفعله خطر أعظم به فى ملمة خطرا

فكلا القلمين ضئيل ولكن أثره ضخم ، غير أن قلم أبى تمام ناحل وخطره سمين ، وهذه — كما هو واضح — زيادة مفسدة ، قد دفع أبا تمام إليها حبه الشديد للمقابلة ، مما ورطه فى وصف الخطب بالسمن .

والقلم عند أبى تمام :

له ريقة طَلٌّ ولكنّ وقعها بآثاره فى الشرق والغرب وابل

أما القلم عند ابن عبد ربه فإنه :

يمُجُّ فكّاه ريقة صغرت وخطبها فى القلوب قد كبرا

فكلا القلمين يمج ريقة قليلة ، لكنها عظيمة الأثر . غير أن أبا تمام جعل هذه الريقة طلا حين يمجها القلم ، ثم يتضاعف أثرها فتصير وابلا . وهكذا يقدم الشاعر هذه الفكرة فى صورة فنية تستمد عناصرها من الطبيعة . أما ابن عبد ربه فيقف بالفكرة

عند تقديمها تقديمًا إخباريًا مباشراً ساذجًا . وهذا مما قصر فيه الشاعر الأندلسى عن اللحاق بأبى تمام .

ومن النماذج المتصلة بجانب المعانى والصور كذلك ، وتأثرها بالأسلوب الجدلى القائم على الاحتجاج والاستدلال ، قول الشاعر الأندلسى ابن أبى عبدة [١] فى الورد :

خضعتْ نواوير الرياض لحسنه ... فتذللت تنقاد وهى شواردْ
وإذا تبدى الورد فى أغصانه ... يزهو فذا ميْت وهذا حاسد
وإذا أتى وفد الربيع مبشراً ... بطلوع صفحته فنعم الوافد
ليس المبشَّر كالمبشِّر باسمه ... خبر عليه من النبوة شاهد
وإذا تعرّى الورد من أوراقه ... بقيت عوارفه فهن خوالد[٢]

فليس يخفى أن الشاعر الأندلسى يرد على ابن الرومى [٣] ، الذى كان يفضل النرجس على الورد فى قوله :

خجلتْ خدود الورد من تفضيله ... خجلا تورُّدها عليه شاهد
لم يخجل الورد المورد لونه ... إلا وناحله الفضيلة عاند
فَصْلُ القضية أن هذا رائد ... زهرَ الرياض ، وأن هذا طارد
شتان بين اثنين ، هذا مُوعد ... بتسلُّب الدنيا ، وهذا واعد[٤]
للنرجس الفضل المبين بأنه ... زهر ونَوْر ، وهو نبت واحد

(١) هو أبو الحزم جهور بن عبد الله بن أبى عبدة . ذكره ابن الآبار فى : الحلة السيراء وأشار إلى أنه كان من وزراء عبد الرحمن الناصر ، كما نبه إلى أنه غير ابن جهور رئيس قرطبة المتأخر الذى يبدأ بحكمه عصر الطوائف فى العاصمة الأندلسية . انظر : الحلة السيراء ص ١٣٢ — ١٣٧ .

(٢) وردت هذه الأبيات فى المصدر السابق .

(٣) نبه ابن الأبار إلى ذلك فى المصدر السابق .

(٤) وردت هذه الأبيات فى ديوان ابن الرومى ص ٩٧٢ .

فابن أبي عبدة الأندلسي ينقض أبيات ابن الرومي بأبيات على وزنها وقافيتها ، ويرد حججه في تفضيل النرجس على الورد ، ويلجأ إلى التدليل والتعليل والجدل كما يفعل المتناظرون . فإذا قال ابن الرومي :

إن النرجس أفضل من الورد ، لأن النرجس زهر ونور ، والورد زهر فقط ، رد ابن أبي عبدة بأن الورد برغم ذلك قد خضعت لحسنه نواوير الرياض ، فبدت أمامه ذليلة ، وولت من طريقه شاردة ؛ ودليل ذلك أن الورد إذا أقبلت أيامه وبدا ، بدأت النواوير تصفر وتذبل ، بل إن كثيراً منها يموت .

وإذا قال ابن الرومي : إن النرجس يقود أزهار الرياض حين يسبقها إلى الظهور مبشراً بها ، وأن الورد على عكس ذلك ، إذ هو يطرد الزهور الأخرى ويأتي على أنقاضها وفرق بين المنذر بانتهاء الحياة وهو الورد ، والمبشر بقدومها وهو النرجس ؛ إذا قال ابن الرومي ذلك ، رد ابن أبي عبدة بأن النرجس حين يجيء قبل الورد ليس إلا مبشراً بقدومه ، والمبشَّر به خير من المبشر . وفي النبوة دليل ذلك ؛ فالمسيح مبشِّر بقدوم محمد ، ومحمد أفضل من المسيح .

ومن النماذج المتصلة بجانب الأسلوب ، قول الشاعر الأندلسي أبي على السناط [1] في حسناء :

غزاليّـــة العينين وردية الخدّ   كثيبيَّة الـــردفين غصنيـــة القد
ثنت بثنييهـــا التّقى عن التُّقى   وصدّ تصديها الرشيد عن الرشد
لها ناظر يعدو على القلب لحظة   وخد على لحظ النواظر يستعدى
تُراَئي عيـــون الناظرين إذا رنت   بعين لها تزنى وتُعفى من الحد [2]

---

(١) هو أبو الحسن بن حسان ، المعروف بالسناط . ذكره الحميدي في الجذوة ، وقال إنه كان في أيام الناصر ، وأنه متقدم مكثر . انظر : جذوة المقتبس ترجمة ٣٦٥ .

(٢) وردت هذه الأبيات في المصدر السابق .

فليس يخفى هنا أسلوب أصحاب هذا الاتجاه المحافظ الجديد من حيث تشابه المقاطع ، وتوازى الكلمات ، وتساوى الجمل ، كما فى البيت الأول ؛ ومن حيث الاهتمام بالجناس ،حتى يأتى بعض الأبيات وبين كل كلمتين فيه جناس كما فى البيت الثانى ؛ ومن حيث التكرار الذى يجعل عجزُ بعض الأبيات مؤلفًا من كلمات صدره مع تعديل يسيط كما فى البيت الثالث . وهذا يذكرنا بالبحترى فى قوله :

وقدّ يكاد القلب ينقد دونه   إذا اهتز فى قرب من العين أو بعد[١]

وقوله :

فنُعمٌ ولم تنعم بنيـــل تعـــده   وجُمْلٌ ولم تجمل بعارفة جمل[٢]

وقوله :

وحسناءَ لم تحسن صنيعًا وربما   صبوت إلى حسناء سيء صنيعها[٣]

بل إن قطعة الشاعر الأندلسى تذكرنا أكثر بأبى تمام فى قوله عن ديار الأحباب :

تُطلّ الطلولُ[٤] الدمع فى كل موقف   وتمثلُ[٥] بالصبر الديار المواثلُ

دوارس لم يجف الربيع ربوعها   ولا مر فى أغفالها[٦] وهو غافل

فقد سحبت فيها السحائب ذيلها   وقد أخملت[٧] بالنور فيها الخمائل

---

(١) ورد هذا البيت فى قصيدة البحترى التى مطلعها :

دعا عبرتى تجرى على الجور والقصد   أظن نسيما قارف الهجر من بعدى

(٢) ورد هذا البيت فى قصيدة البحترى التى مطلعها :

ضمان على عينيك أنى لا أسلـــو   وأن فؤادى من هوى بك لا يخلو

(٣) ورد هذا البيت فى قصيدة البحترى التى مطلعها :

منى النفس فى أسماء لو يستطيعها   بها وجـــدها من غادة وولوعها

(٤) تطل الدمع : تذهبه هدراً

(٥) تمثل بالصبر : تنكل به كتمثل (بالتشديد) .

(٦) الأغفال : جمع غفل ، وهو ما لا علامة فيه من الطرق ، وما لا بناء فيه من الأرض .

(٧) أخمل القطيفة : جعل لها خملا ، وهو الهدب .

ومن النماذج المتصلة بمنهج القصيدة ، ميمية ابن هانئ الأندلسي في مدح المعز لدين الله الفاطمي ، حيث يبدأ بالغزل التمهيدي فيقول :

أصاخت فقالت وقعُ أجردَ شيظَمِ ... وشامت فقالت لمعُ أبيض مِخْذَمِ [1]
ومــا ذُعرتْ إلا بجرس حليهــا ... ولا لمحت إلا بُرَيَّ في مُخَدَّمِ [2]
ولا طعمت إلا غِراراً من الكرى ... حذار كَلُوءِ العين غير مهوَّمِ [3]
حِذارَ فتى يلقى الغيور بحتفه ... ويمرق تحت الليل من جلد أرقم

إلى أن ينتقل إلى المدح فيقول :

ألا ليت شعري هل يروع خيامَها ... عِثارُ المَذاكي [4] بالقنا المتحطم
فلو أنني أســطيع أثقلت خدرها ... بما فوق رايات المعز من الدم
من اللاء لا يصدرن إلا روية ... كأن عليها صبغ خمر وعَنْدم [5]
كأن قنــاها المُلد وهي خوافق ... قدود المها في كل رَيْط مسهَّم [6]

ثم يبالغ في وصف الممدوح فيقول :

وروح هُدى في جسم نور يمده ... شعاع من الأعلى الذي لم يجسم

---

(١) أصاخت : أنصتت . والأجرد : الفرس القصير الشعر . والشيظم : الطويل الجسم الفتى . وشامت : تطلعت . ومخذم كمنبر : من صفات السيف القاطع ، ويطلق عادة على سيف الحارث بن أبي شمر .

(٢) البرى : جمع برة ، والبرة : الخلخال . والمخدم : موضع الخلخال من الرجل .

(٣) الغرار : القليل من النوم وغيره . وكلوء العين : يقظها الذي لا يغلبه النوم ، والمهوم : من يهز رأسه من النعاس .

(٤) المذاكي من الخيل : المكتملة ، وأصله التي أتى عليها بعد قروحها سنة أو سنتان .

(٥) العندم : دم الأخوين أو البقم .

(٦) المها : جمع مهاة ، وهي البقرة الوحشية . والريط: جمع ريطة ، وهي الملاءة . والمسهم : المخطط .

ومتصل بين الإله وبينه ... مُبمِرٌ[١] من الأسباب لم يتصرم
إذا أنت لم تعلم حقيقة فضله ... فسائل به الوحى المنزل تعلم
على كل خد من أسارير[٢] وجهه ... دليل لعين الناظر المتوسم
فأقسم لو لم يأخذ الناس وصفه ... عن الله لم يُعقل ولم يتوهم

وأخيراً يختم القصيدة بقوله :

وعندى على دانى اللقاء وبُعده ... قصائد تسرى كالجمان المنظم
إذا أشأمتْ كانت لُبانة معرق ... وإن أعرقت كانت لبانة مشئم[٣]
تَطاوَلُ عن أقدار قوم جلالة ... وتصغر عن قدر الإمام المعظم
وأى قوافى الشعر فيك أحوكها ... وما ترك التنزيل من متقدم
ولو أن عمرى بالغ فيك همتى ... لبقّيتُ حيًّا ألف عام محرّم
أسيء ظنونى بالثناء وأنتحى ... لذم ثنائى وهو غير مذمّم
كمن لامَ نفسًا وهى غير ملومة ... وأقحم ظنًّا وهو ليس بمقحم
ولما تلقتك المواسم آنفا ... تربصتُ حتى جئت فرداً بموسم
ليعلم أهل الشرق والغرب أننى ... بنفسىَ لا بالوفد كان تقدمى

ومن النماذج المتصلة بلغة القصيدة وموسيقاها ، هذه القصيدة التى سبقت بعض أجزاء منها ، ثم كثير غيرها مما قاله ابن هانئ بخاصة ، حيث يتضح جليًّا إيثار اللفظة الجزلة والعبارة الفخمة والموسيقى الجليلة ، مما يذكرنا بأبى تمام والمتنبى .

ومن الظواهر التى تتصل بالاتجاهات الشعرية كذلك فى فترة الخلافة :

---

(١) ممر : شديد الفتل .

(٢) الأسارير : محاسن الوجه .

(٣) أشأمت : توجهت إلى الشام ، وأعرقت : توجهت إلى العراق . واللبانة : الحاجة .

(ب) تطور الاتجاهات السابقة :

ونعنى بها تلك الاتجاهات التى عُرفت فى الأندلس قبل الاتجاه المحافظ الجديد، وهى : الاتجاه المحافظ ، والاتجاه المحدث ، والاتجاه الشعبى . أما الاتجاه المحافظ فقد كان تطوره يتمثل فى الذوبان تدريجاً فى الاتجاه المحافظ الجديد ، الذى أخذ يحل محله ويؤدى وظيفته فى التعبير عن تلك الأغراض التقليدية من مدح وفخر ورثاء وحماسة ، وما إلى ذلك . ولم يعد لهذا الاتجاه المحافظ بصورته القديمة مجال كبير بعد أن تعلق الأندلسيون بالاتجاه المحافظ الجديد ، واعتبروه الصورة المثلى للشعر التقليدى . وأغلب الظن أن هذا المجال الضيق الذى انحصر فيه الاتجاه المحافظ أصبح يتمثل فى أوساط الرواة واللغويين وأمثالهم من المتشبثين بطرائق العرب القدماء فى التعبير . أما الشعراء والجمهور المثقف فقد كان الاتجاه المحافظ الجديد هو أمثل الاتجاهات الشعرية التقليدية عندهم وآثرها لديهم . ولعل مما يؤيد هذا ماسبقت الإشارة إليه من قول الزبيدىّ :إن الرياحى نظم قصيدة رثاء بناها على مذاهب العرب وخرج فيها عن مذاهب المحدثين فلم يرضها العامة (١) .

وأما الاتجاه المحدث فقد بقى نامياً مزدهراً لبقاء دواعى نموه وازدهاره ؛ فلا تزال الحياة الأندلسية برغم تعقلها واستقرارها من جانب ، تعج بكثير من التحرر وعدم المحافظة من جانب آخر ؛ فالخمر شائعة بين الأندلسيين شيوعاً يجزع معه الخليفة المستنصر ، ويدعوه إلى الأمر بإراقتها والهم باجتثاث كرومها ، لولا أن يُنصح بالعدول عن ذلك لعدم جدواه ؛ فإن الأندلسيين — كما قيل للمستنصر — سوف يستخرجون خمرتهم من أى شىء آخر إذا اجتثت الكروم (٢) .

---

(١) انظر : طبقات النحويين للزبيدى ص ٢٩٩ . والمراد بالمحدثين ما يشمل الاتجاه المحافظ الجديد .

(٢) انظر : جذوة المقتبس ص ١٢ ، ١٤ .

ويعبر عن مشاعر كثير من الأندلسيين فى تلك الفترة الشاعر الرمادى [(١)] ، بقصيدته التى تمثل الاتجاه المحدث ، فى موضوعها الخمرى ، وأسلوبها القصصى ، وروحها التحررى ، وذلك حيث يقول فى موقف المستنصر من الخمر :

بِخَطْبِ الشاربين يضيق صدرى ... وتُرْمضنى [(٢)] بليَّتُهم لعمرى
وهل هُمْ غير عشاق أصيبوا ... بفقد حبائب ومنوا بهجر
أعشاق المدامة إن جزعتم ... لفرقتها فليس مكان صبر
سعى طُلاّبُكم حتى أريقت ... دماء فوق وجه الأرض تجرى
تضوّع عرفها شرقًا وغربًا ... وطبّق أفق قرطبة بعطر
فقل للمسفحين لها بسفح ... وما سكنته من ظرف بكسر [(٣)]
وللأبواب إحراقًا إلى أن ... تركتم أهلها سكان قفر
تحريتم بذاك العدل فيها ... بزعمكم ، فإن يك عن تحرى
فإن أبا حنيفة وهو عدل ... وفرّ عن القضاء مسير شهر
فقيه لا يدانيه فقيه ... إذا جاء القياس أتى بدر
وكان من الصلاة طويل ليل ... يُقطّعه بلا تغميض شفر
وكان له من الشُّرّاب جار ... يواصل مغربًا فيها بفجر
وكان إذا انتشى غنى بصوت المضاع بسجنه من آل عمرو [(٤)]

---

(١) من الشعراء الذين عاشوا صدر حياتهم فى فترة الخلافة ، وسوف نترجم له فى الفترة التالية التى عاش فيها أكثر حياته .

(٢) أرمضه : أوجعه وأحرقه .

(٣) المسفح : من عمل عملا لا يجدى عليه . والسفح : الإراقة . وظرف الخمر : وعاؤها .

(٤) يشير إلى عبد الله بن عمرو بن عثمان الأموى المرجى الشاعر . وكان قد شبب بجيداء أم محمد ابن هشام بن إسماعيل خال هشام بن عبد الملك ، ليفضح ولدها الذى كان والى مكة ، فسجنه تسع سنين إلى أن مات .

«أضاعوني وأى فتى أضـاعوا ليوم كريهـة وسداد ثغر»[١]
فغيب صوتَ ذاك الجار سجن ولم يكن الفقيه بذاك يدرى
فقال وقد مضى ليـل وثان ولم يسمعه غنّى : ليت شعرى
أجارى المؤنسى ليـلا غناءً لخيرٍ قطعُ ذلك أم لشر
فقالوا : إنه فى سجن عيسى أتاه به المحارس وهو يسرى
فنـادى بالطويلة وهى مما يكون برأسـه لجليـل أمـر
ويمم جـاره عيسى بن موسى فـلاقاه بإكرام وبـر
وقال : أحاجة عرضت فإنى لقـاضيهـا ومتبعهـا بشكر
فقال : سجنت لى جاراً يسمى بعمرو ، قال : يطلق كل عمرو
بسجنى حين وافقـه اسم جار الـ فقيه ، ولو سـجنتهمُ بوتر[٢]
فأطلقهم له عيسى جميعًـا لجـار لا يبيت بغـير سكر
فإن أحببتَ قل لجـوار جار وإن أحببت قل لطلاب أجر
فإن أبا حنيفـة لم يؤب من تطلّبـه تخلّصـه بوزر
نواقعهـا من اجل النهى سرًّا وكم نهيٍ نواقعـه بجهر[٣]

والحب الشاذ كان مألوفًا كذلك بين كثير من الأندلسيين ، حتى لنرى الغزل بالمذكر لايقتصر على مجالات اللهو والمجون فحسب ، بل يتعدى ذلك إلى أكثر المجالات وقاراً واصطناعًا للجد ، وهو مجال مدح الخليفة . فقد أثرت بعض مدائح عن شعراء من تلك الفترة ، مقدمة بغزل شاذ ، مما يدل على أن هذا النوع من الغزل قد بلغ من الشيوع والإلف درجة لم يعد معها مستنكراً حتى فى مقام مدح الخليفة نفسه . ومن أمثلة

(١) هذا البيت للعرجى .
(٢) الوتر : الثأر .
(٣) اقرأ هذه الأبيات فى جذوة المقتبس للحميدى ص ١٤ ، ١٥ .

ذلك قول إسماعيل الكاتب فى مقدمة قصيدة له يمدح بها الناصر :

لطُفتْ أنامله بعقرب صدغه ... عمداً ليلدغ فى فؤاد العاشقِ
وكأن شاربه هلال طالع ... قد خطه بالمسك أحذق حاذق
وكأنما بجبينه شمس الضحى ... قد قُنِّعت بظلام ليل غاسق
وكأن وجنته أزاهر روضة ... يندى بها السوسان فوق شقائق
فإذا تلفّتَ قلت صورة دمية ... وإذا تبسم قلت خطفة بارق
يا غاية الحسن الذى هو غايتى ... كيف احتمالى فى فؤاد خافق
حكمَ الإله بما تراه فما أرى ... من حيلة فى دفع حكم الخالق
قل للخليفة من أمية والذى ... ما دون فيض نواله من عائق
أنسَيْتَ من منصورها ورشيدها ... وفضحت من مهديّها والواثق[١]

والطبيعة الأندلسية كانت كما هى دائمًا ، فاتنة تتصدى لعيون الشعراء ، فتشحذ قرائحهم وتغرى شاعريتهم ، وتلهمهم لوحات شعرية هى من خير ما خطت أقلام الأندلسيين . وقد بلغ من افتتان الأندلسيين منذ فترة الخلافة بالطبيعة ، أن بدأوا يخلّصون بعض أشعارهم فيها مما كان يخالطها من حديث عن الخمر أو اللهو ، وصاروا يجعلون موضوع الطبيعة فى كثير من الأحيان موضوعًا مستقلاً ، يقصد لذاته ويتحدث عن الطبيعة فيه حديثًا خالصًا . ومن ذلك قول عبيدالله بن يحيى[٢] فى الورد وقِصَر مدته :

تخلت من الورد الأنيق حدائقهْ ... وبان حميدَ الأنس والعهد رائقهْ
أقام كرجع الطرف لم يشف غلة ... ولم يرو مشتاق الجوانح شائقه
فما كان إلا الطيف زار مسلمًا ... فَسُرَّ ملاقيه وسيء مفارقه

---

(١) وردت هذه الأبيات فى : أخبار مجموعة ص ١٦٤ ، ١٦٥ .

(٢) ذكره الحميدى فى الجذوة وأشار إلى أنه كان وافر الأدب كثير الشعر جليلا ، وأنه كان فى أيام الناصر . انظر : الجذوة ترجمة ٥٢٢ .

على الورد من إلف التصابى تحية   وإن حرمت إلف التصابى علائقه[1]

والتطور الملحوظ الذى طرأ على الاتجاه المحدث فى فترة الخلافة ، هو أن حدة المجون فيه قد خفت ، فأصبحت المجاهرة بالمعاصى شيئاً لاأثر له تقريباً ، كما صار الاستخفاف بالمواضعات الاجتماعية والأخلاقية المرعية مما لايكاد يحس فى شعر السائرين فى هذا الاتجاه المحدث ؛ فقد حل محل المجاهرة بالمعاصى والاستخفاف بالمواضعات والأخلاق ، تجويد الشعر وصقله ، والتفنن فى معانيه وصوره ، والاحتجاج لما تضمنه من أفكار وآراء . وهكذا سترت الجوانب الفنية غالباً ماقد حواه الشعر من مجون وماصوره من لهو .

وأما الاتجاه الشعبى ، فقد اشتد عوده ، حيث اتجه إليه كبار الشعراء فى تلك الفترة ، واتخذوه فى بعض الأحيان إطاراً لتجاربهم .

فقد أخبرنا مؤرخو الموشحات أن ابن عبد ربه والرمادى كانا من الوشاحين ، وابن عبد ربه من أكبر شعراء فترة الخلافة ، والرمادى كذلك من أكبر الشعراء الذين عاشوا الجزء الأول من حياتهم فى نفس الفترة . وليس من شك فى أن اتجاه شاعرين كبيرين كهذين إلى الموشحات . مما يقوى عودها ويدفعها فى سبيل تطورها ونموها ، وهذا ماحدث ؛ فقد حدثنا الرواة كذلك عن تطور أحرزته الموشحات على يد الرمادى، فذكروا : أنه أول من صنع التضمين فى المراكيز [2] . ولعل المراد بهذا أن الرمادى أول من ضمن الخرجات أجزاء من الأغنيات الشعبية الأندلسية ؛ أو من الأمثال والحكم الشائعة ، أونحو ذلك مما يصدق عليه التضمين .

وبرغم أن الرمادى قد عاش أكثر حياته فى الفترة التالية ، فالمرجح أن يكون هذا التطوير الذى أدخله على الموشحات قد حدث فى فترة الخلافة التى نسوق عنها الحديث ،

---

(١) وردت هذه الأبيات فى الجذوة ص ٢٥١ .

(٢) انظر : مقدمة ابن خلدون ص ٥٨٤ والذخيرة لابن بسام ق ١ م ٢ ص ١ ٦ ٢ .

وذلك لأن هذه الفترة كانت أكثر حرية من الفترة التالية ، والحرية بجوها الرحب هى التى تتيح لشاعر كالرمادى أن يتجه إلى هذا الاتجاه الشعبى أولا . وأن يطور فيه ثانياً.

ومع الأسف لم يُعثر إلى الآن على موشحات من تراث تلك الفترة ؛ ولعل السبب اعتبار الرواة ومؤرخى الأدب الأقدمين هذا الفن الشعرى فناً سوقياً لايستحق التسجيل ، وقد صرح بذلك ابن بسام أول من كتب عن الموشحات من الأقدمين [١] .

هذا مايتعلق بالاتجاهات الشعرية وما أضيف إليها من زيادات ، وماطرأ عليها من تطورات . وأما من حيث الأفكار الشعرية وصلتها بالنهضة العلمية التى أظلت الأندلس فى فترة الخلافة ، فيلاحظ على بعض النماذج الشعرية :

(حـ) تسرب بعض الأفكار العلمية :

ولسنا نعنى بذلك نظم الحقائق العلمية فى منظومات يسهل حفظها ، وإنما نعنى معالجة بعض القضايا معالجة شعرية تشتمل على أفكار واصطلاحات من ميدان العلم لامن ميدان الفن . ومن أوضح الأمثلة على ذلك ، تلك الأبيات التى يوجهها ابن عبد ربه إلى الفلكى أبى عبيدة[٢] ، مناقشاً إياه فى بعض القضايا الجغرافية الفلكية . ورافضاً آراءه فى كل ذلك :

---

(١) انظر : الذخيرة ق ١ م ٢ ص ٢ .

(٢) هو مسلم بن أحمد المعروف بصاحب القبلة لكونه كان مولعاً بالتشريق فى قبلته . وكان عالماً بالحساب والنجوم . ترجم له ابن الفرضى فى تاريخ العلماء وقال إنه توفى سنة ٢٩٥ هجرية . وترجم له الحميدى فى الجذوة والضبى فى البغية ، وذكرا أن وفاته كانت سنة ٣٠٤ هجرية . وهذا التاريخ الأخير هو الراجح ، فإن الأفكار التى يعتنقها أبو عبيدة ويجاهر بها تتناسب مع فترة الخلافة وما فيها من حرية فكرية ، ولهذا يرجح أنه عاش طرفاً من تلك الفترة وجاهر بآرائه وتحمل مثل هذا النقد الذى يوجهه إليه ابن عبد ربه . انظر تاريخ العلماء ترجمة ١٤٢٠ ، وجذوة المقتبس ترجمة ٨٢٢ ، وبغية الملتمس ترجمة ١٣٧١ .

أبا عبيدة ما المسئول عن خبر — تحكيه إلا ســواء والذى سألا
أبيتَ إلا شذوذاً عن جماعتنـــا — ولم تُنصب رأى من أرجَى ولا اعتزلا
كذلك القبـــلة الأولى مبـــدلة — وقد أبيت فما تبغى بهـــا بدلا
زعمتَ بهرم أو بيذخت يرزقنـــا — لا بل عطارد أو مرّيخ أو زحلا
وقلت إن جميع الخلق فى فلَك — بهم يحيط وفيهم يَقسم الأجلا
والأرض كوريَّة حفَّ السماء بها — فوقًا وتحتًا وصارت نقطة مثـــلا
صيف الجنوب شتاء للشمال بها — قد صار بينهما هذا وذا دولا
فما لكانون فى صنعا وقرطبة — برداً وأيلول يذْكى فيهما الشعلا[١]

فهذه قضية يحس معها الشاعر بالنفرة من أراء الفلكيين الذين ينسبون بعض ظواهر الكون لعلاقات بين الكواكب ، وبعدم الاقتناع بما يقول به العلماء من أن الأرض كروية يحيط بها فضاء السماء من كل جهاتها ، وأنها أشبه بنقطة فى وسط دائرة ، وأن الفصول تتعاقب على الأرض وتختلف من مكان لآخر باختلاف موقع هذا المكان شمالا أوجنوبًا ، ومن هنا يكون الصيف فى الجنوب هووقت الشتاء فى الشمال . ويدلل الشاعر على رفضه لتلك النظريات بأن شهر كانون يكون فى كل من صنعاء وقرطبة برداً برغم أن هذه المدينة فى اليمن وتلك فى الأندلس ، وبأن شهر أيلول يكون كذلك فى كل من المدينتين قيظًا برغم هذا الاختلاف فى المكان أيضًا . ولسنا هنا بصدد تفنيد خطأ الشاعر فى رفضه أقوال العلماء ، وإنما الذى نريده فقط هوملاحظة تسرب تلك الأفكار العلمية الكثيرة إلى هذا النموذج من شعر ابن عبد ربه ، وكيف تعوض إلى فكرة الفلك والكواكب وعلاقتها بالظواهر الطبيعية ، وإلى فكرة كروية الأرض وإحاطة السماء بها من

---

(١) وردت هذه الأبيات فى تاريخ العلماء لابن الفرضى ص ١٢٦ وفى طبقات الأمم لصاعد الأندلسى ص ٦٤ ، ٦٥ . وهناك بعض اختلاف بين النص الوارد فى تاريخ العلماء والوارد فى طبقات الأمم . وقد أخذنا من كل ما يتسق أكثر مع السياق .

كل الجهات ، وإلى فكرة الفصول وتعاقبها على أجزاء الأرض ، واختلافها فى كل جزء حسب موقع ذلك الجزء من الشمال أو الجنوب .

ولسنا بعد فى حاجة إلى أن نقول : إن هذه الظاهرة الشعرية كانت أثراً من آثار شيوع الدراسات الجغرافية والفلكية فى فترة الخلافة ، تبعًا لما كان من حرية فكرية ونهضة ثقافية

ومن الأمثلة التى تصور تسرب الأفكار العلمية إلى بعض النماذج الشعرية ، تلك الأبيات التى يوجهها الزبيدى اللغوى والشاعر الأندلسى ، إلى الوزير المصحفى ، ليؤكد له من وجهة نظره — خطأ استعمال الفعل « فاض » بالضاد ، ويبين أن صحته « فاظ » بالظاء :

أتانى كتاب من كريم مكرّم … فنفسىَ عن نفس تكاد تفيظُ
فسرَّ جميعَ الأوليـــاء وروده … وسىء رجال آخرون وغيظــوا
لقد حفظ العهد الذى قد أضاعه … لدىَّ ســـواه والكريم حفيظ
وباحثتَ عن فاظت وقبلىَ قالها … رجال لديهم فى العلوم حظوظ
روَى ذاك عن كيسان سهل وأنشدوا … مقال أبى الغَيّـَاظ وهو مغيظ
وسُميتَ غيَّاظًا ولستَ بغـــائظ … عدوا ولكن للصـــديق تغيظ
فلا حفظ الرحمن روحك حيـــة … ولا هى فى الأرواح حيث تفيظ(١)

(١) كان الوزير المصحفى قد بعث بكتاب إلى الزبيدى وردت فيه كلمة فاض بالضاد ، فكتب إليه الزبيدى بأبيات ختمها بقوله :

لا تدعن حاجتى مطرحـــة … فإن نفسى قد فاظ فائظها

وكأنه أراد بذلك أن يلفت نظره إلى الخطأ ويرشده إلى إصلاحه .

ولكن المصحفى بعث بأبيات إلى الزبيدى يطلب فيها مزيداً من التفسير ويقول :

فالشاعر هنا يحاول إثبات صحة الفعل « فاظ » بالظاء وتخطئة نطقه بالضاد[1] . وهو يعمد إلى التدليل على صحة قوله بذكر آراء الثقات من اللغويين ، وإيراد الشاهد من كلام العرب ، ويضمن نموذجه الشعرى بعض الأفكار والاصطلاحات الخاصة بالحقل اللغوى لا الحقل الشعرى . وواضح أن مثل ذلك كان أثراً من آثار النهضة العلمية وازدهار الدراسات اللغوية فى فترة الخلافة .

وأما من حيث لغة الشعر وعلاقتها بالحياة اللغوية التى كان يحياها الأندلسيون فى فترة الخلافة ، فيلاحظ على بعض نماذج الشعر الفصيح مايمكن أن يسمى :

(د) الازدواج اللغوى :

ونعنى بذلك تسرب بعض الألفاظ من عامية اللاتينية المسماة « رومانثى » Romance إلى لغة الشعر الفصيح ، بحيث يأتى النظم مزدوجاً من الناحية اللغوية . ومن أمثلة ذلك ، هذا النموذج الذى تتضمنه القصة الآتية :

جلس الخليفة الناصر يوماً مع خاصته. وفيهم الوزير ابن جهور والشاعر أبو القاسم لُبّ . فأراد الخليفة أن يداعب جلساءه ، فطلب من الشاعر أن يهجو الوزير ابن جهور ، فامتنع خوفاً على نفسه من سلطة الوزير ، فطلب من الوزير هجاء الشاعر ، فامتنع خوفاً على عرضه من لسان الشاعر . فقال الناصر : فأنا أهجوه ، وأنشد :

لُبٌّ أبو القاسم ذو لحيـة طـويلة فى طولها ميـلُ

= وقد أتتنى فديت شاغلة للنفس أن قلت فاظ فانظها
فأوضحنها تفز بنادرة قد بهظ الأولين باهظها

فرد عليه الزبيدى بالأبيات التى أوردناها. انظر القصة كلها فى جذوة المقتبس ترجمة ٣٤ ص ٤٣-٤٤، ٤٥ .

(١) استعمال الفعل بالضاد لغة بعض العرب . انظر : اللسان مادة « فاظ »

ثم قال لابن جهور : لابد من تذييل هذا البيت ، ودع الاعتذار . فقال :

وعرضها ميلان إن كُسِّرت والعقل مأفون ومخبول
لو أنه احتاج إلى غسلها لم يكفه فى غسلها النيل

فضحك الناصر ، وقال للشاعر المهجو : إنه قد سبب لك القول فقل ، فأنشد :

قال أمين الله فى خلقه لى لحية أزرَى بها الطول
وابن جُهير قال قول الذى مأكله القَرْضيل والفول
لولا حيائى من أمير الهدى نخست بالمنخس « شُو » . . .

ثم أمسك عن الحديث ولم يتم البيت بعد كلمة « شو » فقال له الناصر : « قولو » فقال الشاعر : أنت هجوته يامولاى . فضحك الناصر ، وأمر له بصلة[1] .

فكأن الشاعر قال فى ابن جهور :

لولا حيائى من أمير الهدى نخست بالمنخس « شو قولو »

والإضحاك والحساسية فى هذا الهجاء ، يأتيان من استخدام لفظتين « رومانثيتين» وهما : « شو» و « قولو» ، والأولى تدل على ضمير الملك للمفرد الغائب ، مثل الهاء فى التعبير العربى : « كتابه » ، وقد صارت فى الإسبانية « سو» Su . والثانية معناها الردف . وقد صارت فى الإسبانية « كوُل » Culo فالمعنى على هذا :

لولا حيائى من أمير الهدى نخست بالمنخس ردفه

وهكذا استُخدمتْ بعض الألفاظ « الرومانثى » فى بعض النماذج الشعرية الفصحى فكان منهما ماسميناه بالازدواج اللغوى .

وليس من شك فى أن قوة الصلة بين العنصرين العربى والإسبانى فى فترة الخلافة ،

---

(١) وردت هذه القصة والأبيات التى جاءت ضمنها فى : نفح الطيب ج ٢ ص ٣٤٦ ، ٣٤٧ وفى : البيان المغلوب ج ٢ ص ٣٣٩ ، ٣٤٠ .

كانت من أسباب تسرب مثل هذه الألفاظ الأجنبية إلى لغة الشعر . هذا بالإضافة إلى روح الحرية وطابع التحرر اللذين كانا من أهم سمات تلك الفترة من تاريخ الأندلس.

أما من حيث دور الشعر فى تلك الفترة وصلته بالحياة التى كان يحياها الأندلسيون فأهم مظاهره :

(هـ) تصوير العهد الذهبى :

ونعنى بذلك أن الشعر فى فترة الخلافة قد صور الحياة الأندلسية فى عهدها الذهبى ، الذى نعمت فى ظلاله سياسيًّا واجتماعيًّا وثقافيًّا . فقد صور الشعر عظمة الدولة وقوة الخلافة ، وتفوقها تفوقًا جعل إمبراطور الروم يرسل سفراء إلى قرطبة موالين ، وجعل بعض أمراء الإسبان الشماليين المسيحيين يتقدمون إلى العاصمة الأندلسية خاضعين . وفى بعض ذلك يقول منذر بن سعيد ، مشيراً إلى وفود سفارة إمبراطور الروم على الناصر :

ترى الناس أفواجًا يؤمون بابه ... وكلهمُ ما بين راجٍ وآملِ
وفود ملوك الروم وسط فنائه ... مخافة بأس أو رجاء لنائل
فعش سالمًا أقصى حياة مؤملًا ... فأنت رجاء الكل حافٍ وناعل[١]
ستملكها ما بين شرق ومغرب ... إلى درب قسطنطين أو أرض بابل

ويقول عبد الملك بن سعيد . مشيراً إلى قدوم الأمير الأسبانى « أردون » إلى المستنصر طالبًا العون :

هـذا أميرهمُ أتاه آخـذاً ... منـه أواصر ذمة وحبالِ
متواضعـًا لجـلاله متخشعًا ... فى مأمن لمَّا يُرَعْ بقتـال
سـينال بالتأميل للملك الرضا ... عزًّا يعم عـداه بالإذلال

---

(١) وردت هذه الأبيات فى : نفح الطيب ج ١ ص ١٧٤ .

لا يوم أعظم للولاة مسرة   وأشده غيظاً على الأقيال[١]
من يوم «أردون» الذى إقباله   أمل المدى ونهاية الإقبال[٢]

وصور الشعر كذلك قوة جيش الأندلس وضخامته وسرعة حركته وبعد مسيرته وشدة تنكيله بالأعداء . ومن ذلك قول إسماعيل بن بدر :

وذى لجب كالبحر عب عبابه   فضاق به رحب الفلا والتنائف
قريب الخطا نائى المدى مالىء الملا   بجمع تراه واقفاً غير واقف
تركنا به أرض العدو كأنها   مجاهل للمرتاد غير معارف[٣]

كما صور الشعر أيضاً كثيراً من مظاهر الحياة الاجتماعية ، فى جانبيها اللاهى والجاد . وقد مضت عدة نماذج تتصل بالجانب اللاهى . أما الجانب الجاد فتمثله نماذج كثيرة ضمتها كتب الأدب والتراجم التى حوت أشعاراً من تراث تلك الفترة . ومن أبرز تلك النماذج مايعبر عن تجارب ذهنية مصورة فى شعر حكمى مبنى على البصر بالحياة وسعة الإدارك للحقائق . ومن ذلك قول الناصر :

ما كلُّ شىء فقدتُ إلا   عوضنى الله عنه شيّا
إنى إذا ما منعت خيرى   تباعد الخير من يديا
مَن كان لى نعمة عليه   فإنها نعمة عليا[٤]

ومن أبرز النماذج الشعرية التى تمثل الجانب الجاد من حياة الأندلسيين فى تلك الفترة كذلك ، تلك التى تعبر عن تجارب عاطفية مصورة فى غزل عذرى ، معتمد على صدق

---

(١) الأقيال : جمع قيل ، وهو الملك .
(٢) وردت هذه الأبيات فى : الحلة السيراء لابن الأبار ص ١٣٨ .
(٣) وردت هذه الأبيات فى : نفح الطيب ج ١ ص ١٨٤ .
(٤) وردت هذه الأبيات فى : المغرب لابن سعيد ج ١ ص ١٧٦ .

العاطفة وعمق الشعور ونبل الإحساس وسمو الروح، ومن أمثلة ذلك كثير مما يتضمنه كتاب الحدائق، من مثل قول ابن فرج [١] :

وطائعـــة الوصال عدوتُ عنها ... وما الشيطان فيهـــا بالمطاع
بدت فى الليـــل ســـافرة فباتت ... دياجى الليـــل ســـافرة القنـــاع
ومـــا مـــن لحظة إلا وفيهـــا ... إلى فتن القـــلوب لها دواع
فملّكتُ النهى جمحات شوقى ... لأجرى فى العفاف على طباعى
وبت بها مبيت السَّقْب يظما ... فيمنعه الكعام من الرضاع [٢]
كذاك الـــروض ما فيـــه لمثلى ... ســـوى نظر وشم من متـــاع
ولست من الســـوائم مهمـــلات ... فأتخـــذ الرياض من المراعى [٣]

وهكذا صور الشعر الأندلسى الحياة الأندلسية بأطرافها الرسمية وغير الرسمية، وجوانبها اللاهية والجادة، وشاع بين الأندلسيين شيوعًا جعله يتغلغل فى الحياة العامة ويُستخدم فى كثير من الأمور اليومية. فكان فى بعض الأحيان يؤدى وظيفة الرسائل والبطاقات [٤]، وأحيانًا يحل محل لغة الجدل والمناظرات [٥]. بل، لقد بلغ من شيوع الشعر وقوة اتصاله بحياة الأندلسيين فى تلك الفترة، أن أنطقوا به غير الإنسان فى بعض المواقف. وقد حُكى أن الناصر أحضر طبيبًا لفصده، وقعد لذلك بالبهو المشرف بأعلى

---

(١) هو أحمد بن فرج الجيانى صاحب كتاب الحدائق، ترجم له الحميدى فى الجذوة وذكر أنه كان وافر الأدب كثير الشعر. وكتابه الحدائق قد ألفه للحكم المستنصر وضمنه كثيراً من نماذج الشعر العذرى للأندلسيين. انظر الجذوة ترجمة ١٧٦.

(٢) السقب: ولد الناقة. الكعام: الكمامة.

(٣) وردت هذه الأبيات فى: جذوة المقتبس ص ٩٧، ٩٨.

(٤) اقرأ نماذج من ذلك فى: نفح الطيب ج ١ ص ١٦٨، ١٦٩، ١٧٨ وفى طبقات الأمم لصاعد ص ٧٩.

(٥) اقرأ بعض شواهد ذلك فى: نفح الطيب ج ١ ص ٢٦٩.

الزهراء ، ولما أخذ الطبيب الآلة ليقوم بالجراحة ، أطل زُرزور وصعد على إناء من الذهب كان بالمجلس ، وراح يقول :

أيهـــا الفـــاصد رفقـًــا بأمـــير المؤمنينـــا
إنمـــا تفصـــد عـــرقـًا فيـــه محيـــا العالمينـــا[1]

وقد قالوا : إن بعض نساء الخليفة ربت هذا الزرزور على حفظ هذا الشعر ، وفاجأت به الخليفة لتسعده بهذه المفاجأة . ويمكن أن تكون فى هذه الحكاية مبالغة أو اختراع ، ولكنها مع ذلك دالة على أن الشعر فى هذه الفترة كان من الشيوع فى حياة الأندلسيين بحيث يسمح بمثل هذا الذى يروون عن نطق الزرزور بالشعر .

(و) الشعراء :

شعراء هذه الفترة كثيرون ، وهم من الوفرة بحيث يصعب إحصاؤهم والحديث عن كل واحد منهم . فهم بين خليفة كالناصر والمستنصر ، ووزير كابن جهور وابن شهيد ، وعالم كالزبيدى ومنذر بن سعيد ، هذا بالإضافة إلى الأدباء الذين كانو يصرفون أكثر نشاطهم إلى الأدب ؛ كابن عبد ربه وابن هانىء وغيرهم من الشعراء العديدين الذين عرفتهم تلك الفترة من تاريخ الأندلس ، والذين حفظت المصادر [2] أسماء بعضهم وطرفـًا من أشعارهم : مثل إسماعيل بن بدر ، وهانىء بن محمد ، وعبيد الله بن يعلى ، وعبد الرحمن بن الأصم وأغلب بن شعيب الجيانى ، وعبيد الله بن يحيى بن إدريس . وهؤلاء ممن اشتهروا فى أيام الناصر . ومثل : أحمد بن فرج ، وابن الصفار ، وعبيد الله بن الناصر ، وابن يعقوب الأعمى ، وأبى بكر المغيرى ، ومحمد بن الحسين الطبنى . وهؤلاء ممن اشتهروا فى أيام المستنصر .

---

(١) ورد هذان البيتان وقصتهما فى نفح الطيب ج ١ ص ١٦٨ .

(٢) من أهم تلك المصادر : جذوة المقتبس ، وبغية الملتمس ، والحلة السيراء ، والمغرب .

وقد كان بعض شعراء فترة الخلافة ممن عاشوا بعض حياتهم فى الفترة السابقة وكان لهم فيها نتاج شعرى ، كابن عبد ربه ، ولكنا سنعتبره من شعراء فترة الخلافة ؛ لأنها الفترة التى تم فيها نضجه الفنى . كذلك كان ممن أسهموا بنشاط شعرى فى تلك الفترة ، بعض الشعراء الذين سيلمعون فى الفترة التالية مثل الرمادى ، ولكنا سوف نعتبر أمثال هذا الشاعر من شعراء الفترة التى فيها سيلمعون .

ولكثرة الشعراء فى فترة الخلافة وصعوبة الحديث عنهم جميعاً فى هذا الدرس العام، سنكتفى بالحديث عن شاعرين فقط ، لأنهما أولا أبرز شعراء فترة الخلافة ، ولأن شعرهما ثانياً يمثل كل الاتجاهات الشعرية فى تلك الفترة . وهذان الشاعران هما : ابن عبد ربه ، وابن هانئ .

ابن عبد ربه :

هو أبو عمر ، أحمد بن محمد عبد ربه[1] ؛ كان جده الرابع مولى لهشام بن عبد الرحمن الداخل . وقد ولد ابن عبد ربه فى قرطبة على الأرجح ، وكان مولده سنة ٢٤٦هـ. ونشأ بالعاصمة الأندلسية ، متلقياً علوم الإسلام والعربية على كبار العلماء الأندلسيين فى ذلك الحين[2] ، ثم أكب بنوع خاص على كتب التاريخ والأدب ودواوين الشعر التى جادت بها قرائح المشارقة قبل عهد ابن عبد ربه وفى أيامه[3] . وقد زار المشرق كما

---

(١) اقرأ ترجمته وأخباره فى: تاريخ علماء الأندلس لابن الفرضى رقم ١١٨ ، وفى : جذوة المقتبس للحميدى رقم ١٧٢ وفى : بغية الملتمس للضبى رقم ٣٢٨ ، وفى مطمح الأنفس لابن خاقان ص ٥٨ ، وفى معجم الأدباء لياقوت ج ٤ ص ٢١١ — ٢٢٤ وفى وفيات الأعيان لابن خلكان ج ١ ص ٣٢ — ٣٣ وفى المطرب لابن دحية ص ١٥١ وما بعدها.

واقرأ حياته مفصلة فى كتاب : ابن عبد ربه وعقده لجبرائيل جبور (بيروت سنة ١٩٣٣) .

(٢) مثل الخشنى ووضاح وبقى بن مخلد (ابن الفرضى) .

(٣) القارئ لكتابه العقد والمتأمل فى أشعاره ، يدرك اطلاعه على بعض كتب الجاحظ والمبرد وابن قتيبة وسيرة ابن هشام وأشعار الجاهليين والإسلاميين .

يؤكد ذلك حديثه فى كتابه « العقد » حين عرض لموضوع وصف بعض البلدان والأماكن المقدسة ، كالمسجد الحرام والكعبة والحجر الأسود والمسجد النبوى [١] وما إلى ذلك ، وإن كنا لانجد ذكراً لهذه الزيارة عند أحد ممن ترجموا له من القدماء[٢] . وبرغم مايبدو من أن تلك الرحلة كانت أساسًا للحج ؛ قد كانت إلى جانب ذلك رحلة لتوسيع الدراسة وتعميق العلم وتقوية الاتصال بثقافة المشرق ، التى كانت دائمًا المصدر الأول لثقافة الأندلسيين .

وقد كان أول ظهور شاعرنا كأديب فى الفترة السابقة أيام الأمير محمد ، وقد عاصر ابنيه المنذر وعبد الله ، الذى كانت لشاعرنا فيه قصائد مدح حفظت المصادر طرفاً منها[٣] . ثم امتد الأجل بابن عبد ربه حتى كان من ألمع شعراء فترة الخلافة أيام عبد الرحمن الناصر وبعد حياة حافلة بالأدب شعراً ونثرا وافته منيته سنة ٣٢٨ ، فدفن بقرطبة بعد أن عاش نحو اثنين وثمانين عاماً .

ويبدو أن ابن عبد ربه كان فى شبابه محبًّا للمتعة فى شىء من التحرر ؛ فكان يشرب ويطرب ويلهو . ومما يدل على ذلك قوله :

وقضيبٍ يميس فوق كثيب ... طيّبِ المجتنى لذيذِ العناقِ
قد تغنى كما استهل يغنى ... ساقُ حرّ [٤] مغردٌ فوق ساق

وقوله :

دِيننـــا فى السَّماع دينُ مدينيّ ... وفى شُربنا الشـــرابَ عـــراقى[٥]

---

(١) انظر : العقد ج ٣ ص ٢٨٠ وما بعدها (ط . الشرفية — القاهرة) .

(٢) ذكر الدكتور أحمد أمين هذه الزيارة . انظر كتابه . ظهر الإسلام ج ٣ ص ٨٥ .

(٣) انظر : المقتبس لابن حيان (الجزء الذى نشره القس ملشور أنطونيا) ص ٤٣ وما بعدها ، و ٩٧ وما بعدها .

(٤) ساق حر : هو الطائر المسمى بالقمارى .

(٥) يريد أن يشير إلى أنه على مذهب مالك فى إباحة السماع ، وعلى مذهب أبى حنيفة فى إباحة شرب النبيذ . والأبيات واردة فى : يتيمة الدهر ج ٢ ص ٨ .

ومما يصور تحرره أيضاً في الشطر الأول من حياته قوله :

بزمــام الهوى أمتُ إليــهِ ... وبحكم العُقــار أقضى عليــه
بأبي من زهــا عليّ بوجــه ... كاد يدمىّ لما نظرتُ إليــه
ناولَ الكأس واســتمال بلحظ ... فسقتني عينــاه قبــل يديه(١)

ولما تقدمت السن بابن عبد ربه تاب وأناب. وأصبح أميل إلى الزهد، ومن شواهد ذلك قوله :

ألا إنما الدنيــا غَضَارة أيكة ... إذا اخضر منها جانبٌ جف جانب
هي الدار ما الآمال إلا فجائع ... عليها ولا اللذات إلا مصائب
وكم سَخنت بالأمس عينٌ قريرة ... وقرّت عيون دمعها اليوم ساكب
فلا تكتحل عينــاك فيهــا بعبرة ... على ذاهب منها فإنك ذاهب(٢)

وشعر ابن عبد ربه لا يلتزم اتجاهاً واحداً من تلك الاتجاهات التي كانت معروفة في عهده ، وإنما هو شعر يسير في أكثر تلك الاتجاهات ، ولكن بلا فقدان لشخصية الشاعر أو انمحاء لملامحه الخاصة ، بل مع ظهور شخصية متميزة ذات ملامح واضحة .

فابن عبد ربه شاعر قد مد الله في أجله ، فعاصر مدارس عدة وشاهد اتجاهات مختلفة ، ثم هو قد كان رجلا محباً للقراءة ، مكثراً من تتبع الأساليب ، ومن هنا كانت حصيلته الأدبية غنية ، ومعرفته بكل الاتجاهات دقيقة . فإذا صادف ذلك كله طبعاً متخيراً وملكة متحررة ، كانت النتيجة تنقلا بين كل الأغصان وتغريداً لكل الألحان .

فهو رجل يسير بشعره في الاتجاه المحافظ حيناً ، وفي الاتجاه المحدث أحياناً ،

---

(١) وردت هذه الأبيات في : اليتيمة ج ٢ ص ٦ .

(٢) وردت هذه الأبيات في : المطرب لابن دحية ص ١٥٥ وفي : جذوة المقتبس للحميدي ص ٩٦ وفي يتيمة الدهر للثعالبي ج ٢ ص ٧ .

ثم هو يشارك أيضاً فى الأخذ بالاتجاه الشعبى ، ويسابق المتجهين إلى المذهب المحافظ الجديد ، الذى كان يغلب على شعره بعد نضجه .

لكن ترك ابن عبد ربه للتقيد بمذهب خاص لم يخف شخصيته ولم يمح ملامحه ؛ فشعره يتسم بسمتين واضحتين هما : البساطة والغنائية . فأكثر شعره تتضح فيه بساطة الفكرة ، بحيث لا تظهر فيها محاولة لتعقيد أو تركيب أو تفلسف . كذلك أكثر صوره الشعرية تبدو بسيطة ، بحيث يسهل إدراكها وتوشك أن تلمس وتحس . وألفاظه أيضاً تأتى جلية واضحة ، بحيث لا تحتاج غالباً إلى تفسير . وكذلك أسلوبه ، يبدو بسيطاً سهلا ، ويبلغ من السهولة أحياناً أن يذكر جزء من البيت فيوشك أن يكمله السامع .

واستمع إلى قوله فى بعض انتصارات الأمير عبد الله على الثائر ابن حفصون لتحس تلك البساطة :

هو الفتحُ منظوماً على إثره الفتحُ ... وما فيهما عهد ولا فيهما صلح
سوى أن صفحاً كان من بعد قدرة ... وأحسن مقرون إلى قدرة صفح
ومُغْرِبةٍ تغبرُّ فى النقع كُمْتُها ... وتخضرّ طوراً كلما بلها الرشح[1]
تراهُنَّ فى نضح الدماء كأنما ... كساها عقيقاً أحمراً ذلك النضح
تطير بلا ريش إلى كل صيحة ... وتسبح فى البر الذى ما به سبح
عليها من الأبطال كل ممارس ... يرى أن جد الحرب من بأسه مزح
يعدونه الأعداء كربا عليهمُ ... على أنه طلق لنا وجهه السمح
وكان ابن حفصون يعد جياده ... سراحين قبل اليوم فهى لنا سرح[2]
نجا مستكنا تحت جنح من الدجى ... وليس يؤدى شكر ما أنعم الجنح

(١) المغربة : الخيول الكثيرة العدو . والكمت : جمع كميت ، وهو ما خالط حمرته قنوء .

(٢) السراحين : جمع سرحان ، وهو الذئب أو الأسد ، والسرح المال السائم .

دعته مُنّى دبابث عليه منية   فترحمًا له منها وقل له الترح [١]

على أن تلك البساطة لم تكن دائماً مصدر جمال لشعر ابن عبد ربه ؛ فقد كانت أحياناً تصل إلى درجة السطحية أو التفاهة ، ومن ذلك قوله يمدح الأمير المنذر بن محمد :

بالمنـــذر بن محمـــد   شـــرفت بلاد الأندلس
فالطـــير فيهـــا ســـاكن   والوحش فيهـــا قد أنس[٢]

وقوله فيمن اسمه أبو العباس :

الله جرّدَ للنـــدى والباسِ   ســـيفًا فقلده أبا العبـــاسِ
ملك إذا استقبلت غـــرة وجهه   قبض الرجاء إليك روح اليـــاس
وبه عليك من الحياء سكينة   ومحبـــة تجرى مع الأنفـــاس
وإذا أحب الله يومًا عبـــده   ألقى عليـــه محبـــة للنـــاس[٣]

أما السمة الثانية من سمات شعر ابن عبد ربه ، وهى الغنائية ، فنعنى بها الغنائية بالمعنى الخاص[٤] ، التى تتمثل فى غلبة الجانب الموسيقى واتضاح العنصر العاطفى ، وشيوع الرقة والسلاسة . فأكثر شعر ابن عبد ربه تتضح فيه تلك السمة الغنائية وخاصة ما كان متصلا بموضوع غنائى بطبعه .

ومن ذلك قوله [٥] :

ودّعتنى بزفـــرة واعتنـــاقِ   ثم قالت : متى يكون التـــلاقى

---

(١) وردت هذه الأبيات ضمن قصيدة فى: المقتبس لابن حيان نشر ملشور أنطونيا ص ٩٧ ، ٩٨ .

(٢) ورد هذان البيتان فى : وفيات الأعيان ج ١ ص ٣٣ .

(٣) وردت هذه الأبيات فى : العقد الفريد ج ١ ص ٨٢ .

(٤) لأن كل ما سوى شعر الملاحم والشعر التمثيلى يسمى شعراً غنائياً بالمعنى العام للغنائية .

(٥) وردت هذه الأبيات فى : معجم الأدباء لياقوت ج ٤ ص ٢٢١ وفى : وفيات الأعيان لابن خلكان ج ١ ص ٣٣ .

وتصدت فأشرق الصبح منها بين تلك الجيوب والأطواق
يا سقيم الجفون من غير سقم بين عينيك مصرع العشاق
إن يوم الفراق أفظع يوم ليتني مت قبل يوم الفراق

ومنه أيضاً قوله :

الجسم في بلد والروح في بلد يا وحشة الروح بل يا غربة الجسد
إن تبك عيناك لي يا من كلفت به من رحمة ، فهما سهمان في كبدي(١)

وتلك السمة في شعر ابن عبد ربه — وهي سمة الغنائية — مصدر حرارة شعرية له ، ومبعث إيحائية فنية فيه . وهو يقوى ويضعف تبعاً لحظه من تلك السمة الشعرية الأصيلة.

فالنان هما أهم سمات شعر ابن عبد ربه ، فإذا أضيف إليهما تحرره ، وعدم تقيده باتجاه فني خاص ، تكونت الصورة الكاملة لشاعريته .

وقد جانب الدقة قول المرحوم الأستاذ أحمد ضيف ، في شعر ابن عبد ربه : إنه كان « من قبيل الصناعة وحب الكلام الجميل لأنه كان يميل إلى قول الشعر ونظم الكلام ، لا ممن خلقوا شعراء»(٢) . نعم قد جانب هذا القول الدقة ، لأن ابن عبد ربه صاحب هذا الشعر المطبوع الذي رأينا بعض نماذجه ، والذي قيل (٣) إنه جُمع في نيف وعشرين مجلداً — لا يمكن أن يتصور رجل صناعة وحب الكلام الجميل ، كما لا يمكن أن يسلم بأنه ليس من الشعراء الموهوبين .

كذلك ليس من الأحكام التي يطمئن إليها الباحث ، قول المرحوم الأستاذ أحمد أمين ، في ابن عبد ربه : إنه يسير في ركاب المشارقة ، « ويجتهد ما استطاع أن يأخذ

(١) هذان البيتان واردان في : جذوة المقتبس للحميدي ص ٩٥ وفي : المطرب لابن دحية ص ١٥٣ .
(٢) انظر كتابه : بلاغة العرب في الأندلس ص ٩١ .
(٣) انظر : جذوة المقتبس للحميدي ص ٩٤ .

معانيهم ويزيد عليها ويختار فى كل نوع من الشعر إماماً من المشارقة ؛ فطوراً إمامه صريع الغوانى ، وطوراً أبو العتاهية ، وغيرهم ؛ لم يتحرر تحرراً كافياً ولم يصغ إلى قلبه فقط»[١].

نعم ليس هذا القول من الأحكام التى يطمئن إليها الباحث ، وذلك لأن ابن عبد ربه لم يكن يسير فى ركاب المشارقة ، وإنما كان يعارضهم ، ويهدف إلى التفوق عليهم . وكان مدفوعاً إلى ذلك بثقافته الأدبية الواسعة وطبعه الفنى الأصيل وروحه الأندلسى الطموح المتفق مع الاتجاه العام لعصره ؛ حيث كان الأندلسيون يحاولون دائماً تأكيد ذواتهم الأندلسية ، وإثبات عدم تخلفهم عن المشارقة . فهو لم يكن يأخذ معانى المشارقة ؛ وإنما كان يحاول أن يثبت قدرته على الإتيان بمثلها أو بأحسن منها . وهو لم يكن يتخذ لنفسه إماماً من شعراء المشرق فى كل فن ؛ وإنما كان يعارض هؤلاء الأئمة ؛ ليثبت أنه مثلهم أو أقدر منهم . وهو لم يجانب التحرر ويترك الإصغاء إلى قلبه ؛ وإنما تحرر فلم يلتزم مذهباً معيناً ، وأصغى إلى قلبه فقال فى كل أحاسيسه وخلجاته . وانظر إلى قوله فى معارضة مسلم بن الوليد، ثم تعليقه هو على تلك المعارضة، لترى أنه ما كان يسير فى ركاب شعراء المشرق ، وإنما كان يحاول أن يسبقهم . يقول ابن عبد ربه فى معارضة قصيدة مسلم التى مطلعها . أديرا علىّ الراح لاتشربا قبلى :

أتقتلنى ظلماً وتجحدنى قتلى ... وقد قام من عينيك لى شاهدا عدل
أطلاب ذَحْلِى[٢] ليس بى غير شادن ... بعينيه سحر فاطلبوا عنده ذحلى
أغارَ على قلبى فلما أتيته ... أطالبه فيه أغار على عقلى
بنفسى التى ضنت بردِّ سلامها ... ولو سألت قتلى وهبت لها قتلى
إذا جئتها صدت حياء بوجهها ... فيعجبنى هجر ألذ من الوصل
وإن حكمت جارت على بحكمها ... ولكنّ ذاك الجور أشهى من العدل

---

(١) اقرأ هذه الأحكام فى كتاب الأستاذ أحمد أمين : ظهر الإسلام ج ٣ ص ١٢٤ .
(٢) الذحل : الثأر .

كتمتُ الهوى جهدى فجرده الأسى ... بماء البكا هذا يخط وذا يملى
وأحببت فيها العذل حباً لذكرها ... فلا شىء أشهى فى فؤادى من العذل
أقول لقلبى كلما ضامه الأسى ... إذا ما أتيت العز فاصبر على الذل
برأيك لا رأيى تعرضتَ للهوى ... وأمرك لا أمرى وفعلك لا فعلى
وجدتَ الهوى نصلا من الموت مغمداً ... فجردتَه ثم اتكيت على النصل
فإن تك مقتولا على غير ريبة ... فأنت الذى عرضت نفسك للقتل[1]

ثم يعقب ابن عبد ربه على هذه القصيدة بقوله : « فن نظر فى سهولة هذا الشعر مع بديع معناه ورقة طبعه ، لم يفضل شعر مسلم عنده إلا بفضل التقدم »[2] .

وأخيراً ليس من الآراء التى يمكن التسلم بها قول المستشرق الإسبانى الأستاذ « بالنثيا » Palencia : « إنه كان شاعر بلاط فقط ولم يكن ذا شاعرية ممتازة »[3] .

فالحق أن ابن عبد ربه لم يكن شاعر بلاط فقط ؛ وذلك لأن له بجانب شعره فى بنى أمية الأندلسيين ، أشعاراً كثيرة فى شتى الأغراض . والحق أيضاً أن شعره الذى بين أيدينا ، يدل على شاعرية ممتازة . وحسبنا فى تقدير شاعريته رأى الشاعر المشرقى الكبير أبى الطيب المتنبى الذى تتضمنه تلك القصة :

لقى أبو الوليد بنُ عسال الأندلسى أبا الطيب المتنبى فى مسجد عمرو بن العاص ؛ وبعد حديث جرى بينهما قال المتنبى : ألا أنشدنى لمليح الأندلس – يعنى ابن عبد ربه – فأنشد قوله :

يا لؤلؤاً يسبى العقول أنيقا ... ورشاً بتقطيع القلوب رفيقا

(١) وردت هذه الأبيات فى : العقد الفريد ج ٣ ص ١٣٧ – ١٣٨ .

(٢) انظر المصدر السابق .

(٣) انظر : Palencia, Historia de la Literatura Arabigo - Espana, p. 55.

وانظر أيضاً تاريخ الفكر الأندلسى (ترجمة الكتاب السابق) ص ٦٢ ، ٦٣

ما إن رأيت ولا سمعت بمثلــه وردا يعــود من الحيـــاء عقيقا
وإذا نظرتَ إلى محاسن وجهــه أبصـــرت وجهك فى سناه غريقا
يا من تقطع خصره من ردفه ما بال قلبك لا يكون رقيقا

فلما أكمل الأندلسى إنشاده ، استعاده المتنبى ، ثم صفق بيده وقال : « يا بن عبد ربه ، لقد يأتيك العراق حبواً »[١] .

هذا وليس بين أيدينا ديوان لشعر ابن عبد ربه ، على الرغم من أن ديوانه كان غنيًّا وضخماً فيما يبدو . فقد ذكر بعض من ترجموا للشاعر أن شعره جمع للحكم المستنصر ، فجاء فى نيف وعشرين مجلداً[٢] ، ولكن هذا الديوان ذا المجلدات العديدة قد ضاع ، ولم يبق من شعر ابن عبد ربه إلا مجموعة من القصائد والمقطوعات المتفرقة بين كتب الأدب والمختارات والتراجم ، مثل كتابه العقد ، وكتاب يتيمة الدهر للثعالبى ، وكتاب المقتبس لابن حيان ، وكتاب المطرب لابن دحية[٣] .

وقد عُرف ابن عبد ربه بأشعار تسمى «الممحِّصات» . وهى أشعار قالها بعد توبته فى الشطر الأخير من حياته ، وعارض بها أشعاراً كان قد قالها أيام لهوه ؛ فكأن تلك الأشعار الأخيرة قد محصت ما كان من أشعاره الأولى . ومن أمثلة تلك الممحصات قوله :

يا عاجزاً ليس يعفو حين يقتدرُ ولا يقضّى له من عيشه وطر
عاين بقلبك إن العين غافلة عن الحقيقــة واعلم أنهـــا سقر
سوداء تزفر عن غيظ إذا سـعرت للظالمين فلا تبـــقى ولا تذر
إن الذين اشـــتروا دنيا بآخرة وشقوة بنعيم ، ســـاء ما تجروا

---

(١) انظر : معجم الأدباء لياقوت ج ٤ ص ٢٢٢ – ٢٢٣ .
(٢) انظر : جذوة المقتبس للحميدى ص ٩٤ .
(٣) ومثل : نفح الطيب للمقرى ، ومطمح الأنفس لابن خاقان ، والبيان المغرب لابن عذارى ، ورايات المبرزين لابن سعيد ، والقطعة التاريخية التى نشرها بروفنسال وجومث فى تاريخ الناصر .

يا من تلهى وشيب الرأس يندبه ماذا الذى بعد شيب الرأس تنتظر
لو لم يكن لك غير الموت موعظة لكان فيه عن اللذات مزدجر
أنت المقول له ما قلت مبتدئًا « هلا ادكرت لبين أنت مبتكر »(١)

وهو يشير بهذا البيت الأخير إلى قطعة له سابقة ، كان قد قالها أيام اللهو ، بمناسبة عزم محبوبه على الرحيل ، وسقوط المطر الذى حال بين ذلك المحبوب والسفر . وفى تلك القطعة يقول ابن عبد ربه :

هلا ابتكرت لبين أنت مبتكرُ هيهات يأبى عليك الله والقـــدر
ما زلت أبكى حذار البين ملتهفًا حتى رثى لىَ فيك الريح والمطر
يا برده من حيا مزن على كبد نيرانهـــا بغليـــل الشوق تستعر
آليت ألا أرى شمسًا ولا قمراً حتى أراك فأنت الشمس والقمر(٢)

وكما عرف ابن عبد ربه بالمحصات ، عرف كذلك بأرجوزته فى الخليفة عبد الرحمن الناصر ؛ تلك الأرجوزة التى مجد فيها الخليفة ووصف حروبه وغزواته(٣) . والحق أن تلك الأرجوزة أشبه ما تكون بالمنظومات التاريخية ؛ فليس فيها من عناصر الشعر شىء ، ومن الإنصاف للشاعر والشعر أن تعد فى نتاجه التاريخى لا فى تراثه الفنى .

هذا ابن عبد ربه الشاعر . على أن الشعر لم يكن كل نشاطه الأدبى ؛ فهو قد كان أيضاً ناثراً من كبار كتاب فترة الخلافة . وسوف نفصل القول فى ذلك حين نتحدث عن النثر فى القسم الخاص به من هذا الفصل .

---

(١) وردت هذه القصيدة فى : جذوة المقتبس ص ٩٥ — ٩٦ . وفى المطرب ص ١٥٤ .
(٢) انظر هذه القطعة فى المصدرين السابقين .
(٣) جاءت هذه الأرجوزة فى العقد الفريد ج ٢ ص ٢٨٨ — ٣٠٣ .

ابن هانئ :

هو أبو الحسن[١] محمد بن هانئ الأزدى . يتصل نسبه من جهة أبيه بالمهلب بن أبي صفرة . وكان أبوه هانئ يستوطن أولا إحدى قرى شمال إفريقيا ، ثم هاجر إلى الأندلس ، حيث ولد ابنه محمد بمدينة إشبيلية سنة ٣٢٠ أو ٣٢٦ على خلاف فى ذلك[٢] . وقد كان الوالد أديباً شاعراً ، فنشأ ابنه بين إشبيلية وقرطبة وإلبيرة نشأة أدبية شعرية فحصل حظاً وافراً من أدب العرب ودراسة لغتهم وأشعارهم ، ثم قال الشعر ونبغ فيه . واتصل بصاحب إشبيلية وحظى عنده ، غير أن مقامه بالأندلس لم يستمر ، بل كان ما حمله حملا على الهجرة إلى شمال إفريقيا ، وهو ابن سبعة وعشرين عاماً . ذلك أنه كان فيما يبدو قد تعلق بالدعوة الفاطمية وعرف ذلك عنه ، ولعله صرح بشيء من ذلك فى شعره . وكانت الدعوة الفاطمية مرفوضة من حكومة الأندلس لأنها كانت تمثل خطراً على هذه الحكومة ، وكان فى تعلق ابن هانئ بتلك الدعوة ، ثم اتصاله بصاحب إشبيلية الذى هو حاكم من قبل الخليفة الأندلسى ؛ كان فى ذلك خطر لا على ابن هانئ وحده وإنما على حاكم إشبيلية أيضاً . ومن هنا نصح هذا الحاكم ابن هانئ بمغادرة إشبيلية والأندلس جميعاً ، فهاجر إلى عدوة المغرب .

وقد تعود بعض المترجمين لابن هانئ أن يذكروا فى سبب هجرته للأندلس أنه كان متهماً بالفلسفة كثير الانهماك فى الملذات . وهذان السببان غير مقنعين ؛ فالفلسفة لم تكن فى أيام ابن هانئ تهمة توجب المطاردة ، بل قد ثبت أن كثيرين من أهل الأندلس

---

(١) يكنى أيضاً أبا القاسم . انظر فى ترجمته وأخباره : جذوة المقتبس للحميدى رقم ١٥٧ ، والمطرب لابن دحية ص ١٩٢ — ١٩٥ . والتكملة لابن الأبار رقم ٣٥٠ . والإحاطة لابن الخطيب ج ٢ ص ٢١٢ وما بعدها . ووفيات الأعيان لابن خلكان ج ٢ ص ٥ ، ٦ ونفح الطيب للمقرى ج ٢ ص ٢٦٤ — ٢٦٧ . ومطمح الأنفس للفتح بن خاقان ص ٨٤ — ٨٩ .

(٢) ذكروا أن وفاته كانت سنة ٣٦٢ وأنه مات وعمره ٣٦ سنة أو ٤٢ ، وبطرح سنه من سنة وفاته نحصل على سنة ميلاده ، فلما حصل خلاف فى سنه ترتب عليه خلاف فى سنة ميلاده .

كانوا يشتغلون بها فى تلك الآونة ، التى عرفت بحرية الفكر واحترام كل الاتجاهات وتقدير كل العلوم . كذلك لم يكن الانهماك فى الملذات مما يسبب إخراج أندلسى من بلده ؛ فقد كان حب الشراب والسماع والمتاع مما يشيع بين الأندلسيين فى أكثر الأحايين ، ولم يكن ابن هانئ بدعا بين مواطنيه فى ميله إلى الملذات ؛ لهذا كله يرجح أن تكون هجرته لسبب سياسى هو اتصاله بالدعوة الفاطمية . ولعل صلته مباشرة بالحكام والقواد الفاطميين بعد هجرته إلى شمال إفريقيا ، ثم تمكنه من الفكرة الفاطمية ، ومعرفته بمصطلحات الشيعة — كما يدل على ذلك شعره — لعل ذلك كله مما يؤيد هذا التفسير لهجرة ابن هانئ من الأندلس[١] .

ومهما يكن من أمر . فقد اتصل ابن هانئ فى شمال إفريقيا بالقائد جوهر الصقلى ومدحه ، ثم اتصل ببعض الولاة ونال جوائزهم على ما كان له فيهم من مدائح[٢] . وأخيراً وصل خبره إلى المعز لدين الله الفاطمى . فطلب أن يتوجه إليه ، فسار ابن هانئ إلى لقائه ، وكانت له فيه أشعار قوبلت بالإنعام والتقدير . ولما توجه المعز إلى مصر ، شيعه ابن هانئ . ثم رجع إلى المغرب لأخذ عياله ، فتجهز وتبعه ، ولما وصل إلى برقة ، انتهت حياته نهاية غامضة . فقيل : إن شخصاً من أهلها استضافه ، فأقام عنده أياماً ، ثم كانت عربدة عليه فى مجلس أنس سببت قتله . وقيل : إنه خرج سكران من دار مضيفه ، فنام فى الطريق وأصبح ميتاً ، ولم يعرف سبب موته . وقيل : إنه وجد فى ساقية من سواقى برقة مخنوقاً بتكة سراويله . وأغلب الظن أن ابن هانئ قد قتل قتلا سياسيًّا على يد بعض أنصار حكومة قرطبة المناهضة للفاطميين[٣] . وليس أدل على ذلك من

---

(١) انظر : تبيين المعانى فى شرح ديوان ابن هانى للدكتور زاهد على ص ٢٠ (مقدمة) .

(٢) كان أكثر مدحه لجعفر ويحيى ولدى على الملقب بابن الأندلسية . وكان جعفر والياً على مدينة الزاب وكان أخوه مساعداً له وكانا فى تلك الآونة موالين للفاطميين .

(٣) انظر المرجع السابق ص ٢٢ (مقدمة) .

هذا الغموض الشديد الذى يكتنف قتل ابن هانئ أو موته . وعلى أية حال . قد كانت نهاية الشاعر سنة ٣٦٢ هـ بعد أن بلغ من العمر اثنتين وأربعين سنة ، أو ستًّا وثلاثين . على خلاف فى ذلك .

هذا وقد كان فى سلوك ابن هانئ كثير من الاستهتار . كما كان فى عقيدته كثير من القلق ؛ فهو قد كان منهمكا فى الملذات ، كما كان لا يتحرج من ذكر ما يمس الدين وما يدل على فساد العقيدة . وشعره فى المعز الذى كان يرفعه إلى درجة التأليه دليل على هذا الاستهتار فى السلوك والعقيدة جميعاً . وسوف ترد أمثلة كثيرة تؤيد هذا الجانب فى شخصية ابن هانئ .

وشعر ابن هانئ يسير فى الاتجاه المحافظ الجديد الذى كان على رأسه بالمشرق فى تلك الفترة أبو الطيب المتنبى ، بل إن ابن هانئ قد تأثر كثيراً بأبى الطيب حتى كان الأندلسيون يقارنونه به ، غير أن شاعرنا كان مع ذلك ذا شخصية شعرية متميزة . وسمات فنية خاصة .

وكان ابن هانئ قد عرف شعر البحترى وأبى تمام[1] . كما در وتعلق بمذهبه[2] ، ثم كانت قريحته الشعرية وملكته الفنية ، فكان اختياره للاتجاه المحافظ الجديد أولا ، ثم تميزه بسمات خاصة ثانياً .

ومن هنا لم يكن شعر ابن هانئ شعراً يحول فيه اللون الخاص ، ويعتمد فقط على الشاعرية التى تمدها القراءة ، ويعينها الاطلاع على نتاج كالذى قرئ وشعر كالذى

---

(١) من أدلة ذلك قوله :

من أين أنكر فضلكم ولو اننى ... كأبى عبادة أو أبى تمام

(الديوان ص ١٨٤) .

(٢) اقرأ قصيدته فى رجل كان قد أعاره كتاباً فيه شعر المتنبى ثم أساء استرداده منه (فى ص ٧٧ من ديوان ابن هانئ) .

حُصِّل ، وإنما كان لشعر ابن هانئ هذا اللون المميز ، والطابع الخاص ، الذي لا يعدو تحصيل صاحبه أن يكون زاداً كالذى ترشفه النحلة من الأزهار المختلفة ، لتخرجه بعد ذلك شيئاً آخر هو العسل الذى فيه طبيعة النحلة وعملها ، إلى جانب طبيعة الرحيق وعنصره .

أما أهم تلك السمات الفنية الخاصة التى تميز شعر ابن هانئ برغم اتجاهه المحافظ الجديد ، فسمتان هما : الحدة الشعرية ، والمذهبية السياسية . والسمة الأولى وهى سمة الحدة تتضح فى شعر ابن هانئ وتشمل مضمونه وشكله على السواء . فهو فنان حاد فى فنه الأدبى ، صارخ فى لونه الشعرى . وحدته تبدو فى معانيه وصوره ، وفى ألفاظه وتعابيره ، بل فى أوزانه وقوافيه .

أما الأفكار ، فيلاحظ أن ابن هانئ يتعمقها ، ويبالغ أحياناً فيها ، ولا يهمه بعد ذلك أيقبلها العقل أم لا يقبلها ؛ بل أينكرها الدين أم لا ينكرها ؛ فهو يقول مثلا فى سيفه :

لى صارم وهو شيعىٌ كحامله   يكاد يسبق كرّاتى إلى البطلِ
إذا المعــز معــز الدين سلطه   لم يرتقب بالمنايا مدة الأجل[1]

وهذه حدة مقبولة بل جميلة ؛ لأن الشاعر خفف منها فى البيت الأول بقوله «يكاد» ، ثم بتلك الصورة الفنية التى تخيل السيف يسابق صاحبه إلى عدوه . كما خفف منها فى البيت الثانى أن الآجال غير معروفة ، فكون السيف لا يرتقب مدة الأجل ليقضى على العدو ، شىء مقبول جميل .

لكن لابن هانئ أحياناً حدة لا يقبلها العقل ، وقد يرفضها الذوق ويأباها الدين ؛ فهو يقول فى كرم بعض ممدوحيه :

---

(١) ديوان ابن هانئ ص ١٦٩ .

من كان أول نقطه فى مهده أن قال أهلا للعفاة ومرحبًا [١]

ويقول فى أهمية آخر :

هو علة الدنيـا ومن خلقت له ولعلة ما ، كانت الأشياء [٢]

ويقول فى تقديسه :

إمام رأيتُ الدين مرتبطًا به فطاعته فوز وعصيانه خسر
أرى مدحـه كالمدح لله إنه قنُوت وتسبيح يُحط به الوزر [٣]

ويقول فى سلطانه :

ما شئتَ لا ما شـاءت الأقدارُ فاحكم فأنت الواحـد القهـار

وليس من شك فى أن الحدة تكون مقبولة حينما تكون عمقاً فى الفكرة وصدقاً فى التجربة وحرارة فى الإحساس . أما حين تكون مبالغة يرفضها الذوق أو العقل أو الدين ، فإنها تأتى سخيفة ساقطة ، ككثير مما قاله ابن هانئ فى ممدوحيه وخاصة المعز الفاطمى .

وابن هانئ حاد كذلك فى صوره الشعرية ؛ فهو يوسع رقعتها ويبرز خطوطها ، ويظهر ألوانها ، ولا يعنيه بعد ذلك أجاءت الألوان صارخة أم هادئة ، ولا يهمه أأتت الخطوط متناسقة أم متنافرة . فهو يقول مثلا فى تصوير أكول :

يا ليت شعرى إذا أوما إلى فمه أحلقـه لهوات أو ميـادينُ
كأنهـا وخبيث الزاد يضـرمها جهنم قذفت فيهـا الشياطين
تبارك الله ما أمضى أسـنته كأنما كل فك منـه طاحون
كأن بيت سـلاح فيـه مختزن مما أعـدته للرسـل الفراعين

---

(١) ديوان ابن هانئ ص ١٨ .
(٢) ديوان ابن هانئ ص ٥ .
(٣) ديوان ابن هانئ ص ٨١ .
(٤) ديوان ابن هانئ ص ٨٨ .

كأنه الحمـــل المشوى فى يده ... ذو النون فى الماء لما عضه النون
كأن فى فكه أيتـــام أرمـــلة ... أو باكيات عليهن التبابينُ (١)

وهذا من جميل التصوير ؛ لأن المقام يحتمل المبالغة ؛ فهو مقام سخرية تتحمل هذا التعبير « الكاريكاتيرى » . غير أن ابن هانئ فى مقام آخر يصل فى حدته التصويرية إلى درجة تفسد الصورة ؛ ومن ذلك قوله فى وصف ليلة . يصورها غادة أرسلت من ظلامها شعراً طويلا مسترسلا ، ولبست من أنجمها شنفاً فى أذنها :

أليلتنا إذ أرسلت وارداً وحْفا ... وبتنا نرى الجوزاء فى أذنها شنفا(٢)

ومن ذلك أيضاً قوله فى معذّر مورد الخد :

وكأن صفحـــة خـــده وعـــذاره ... تفاحة رميت لتقتـــل عقـــربا(٣)

ومنه كذلك قوله فى البرق :

بل ما لهذا البرق صِلاً ّ مطرقا ... ولأىّ خيـــل الشائمين أتيحـــا(٤)

وابن هانئ كذلك حاد فى ألفاظه وعباراته ؛ فهو يؤثرها فخمة ذات جرس عال ورنين واضح ، وهو فى كثير من الأحيان موفق فى ذلك . ومن هذا قوله :

رأيت بعينى فوق ما كنت أسمعُ ... وقد راعنى يوم من الحشر أروع
غداة كأن الأفق سـد بمثـله ... فعاد غروب الشمس من حيث تطلع

(١) التبابين : جمع تبان — بضم التاء وتشديد الباء — وهو سروال صغير . وقد وردت هذه الأبيات فى : ديوان ابن هانئ ص ٢٠٧ — ٢٠٨ .

(٢) الوارد : الشعر الطويل . والوحف : الشعر الكثير الأسود . والشنف : ما يعلق فى أعلى الأذن . والبيت فى ديوان ابن هانئ ص ١٦ .

(٣) ديوان ابن هانئ ص ١٦ .

(٤) الصل : الحية أو الدقيقة الصفراء . والبيت فى ديوان ابن هانئ ص ٣٠ .

فلم أدر إذ سلمت كيف أشيع ... ولم أدر إذ شيعت كيف أودع
وكيف أخوض الجيش والجيش لجة ... وإنى بمن قاد الجيوش لمولع
وأين ؟ ومالى بين ذا الجمع مسلك ... ولا لجوادى فى البسيطة موضع
ألا إن هذا حشد من لم يذق له ... غرارَ الكرى جفن ولا بات يهجع (١)

على أنه فى أحيان أخرى تدفعه الحدة المؤثرة للفظ الفخم والرنين الواضح ، إلى الصخب والقعقعة والإتيان بالغريب . ومن هذا قوله :

أصاخت فقالت : وقْعُ أجردَ شيظَمِ ... وشامت فقالت : لمع أبيضَ مِخذَمِ
وما ذُعرتْ إلا لجرس حليِّها ... ولا لمحت إلا بُرًى فى مُخَدَّمِ (٢)

ومنه أيضاً قوله :

أقول دمى وهى الحسان الرعابيبُ ... ومن دون أستار القباب محاريب (٣)
نَوًى أبعدت طائية ومزارها ... ألا كل طائى إلى القلب محبوب
سلوا طيئً الأجبال أين خيامها ... وما أجأٌ إلا حصان ويَعبوب (٤)
همُ جنَبوا ذا القلبَ طوع قيادهم ... وقد يشهد الطِّرفُ الوغى وهو مجنوب (٥)
وهم جاوزوا طلع الشواجن والغضا ... تخب بهم جُرْدُ اللقاء السراحيب (٦)

---

(١) غرار الكرى : القليل من النوم . والأبيات فى ديوان ابن هانئ ص ٩٨ — ٩٩ .

(٢) أصاخت : أصغت . والشيظم من الخيل : الطويل الجسم . وشامت : تطلعت . والمخذم : السيف القاطع . والبرى : جمع برة ، وهى كل حلقة من سوار وقرط وخلخال . . والمخدم : موضع الخلخال من الرجل (والبيتان من مطلع قصيدة ص ١٧٢ ديوان) .

(٣) الرعابيب : جمع رعبوبة ورعبوب ورعبيب وهى : الجارية البيضاء الحسنة الحلوة الناعمة . والمحاريب : جمع محراب . وهو الكثير الحرب وخوض المعارك .

(٤) طيئ : قبيلة من العرب . وأجأ : أحد جبالهم . واليعبوب من الخيل : السريع الطويل .

(٥) جنبه : قاده إلى جنبه ، فهو جنيب ومجنوب ومجنب . والطرف : الكريم من الخيل .

(٦) الشواجن : جمع شاجنة وهى ضرب من الأودية كثير الشجر . والطلح : شجر عظيم والموز . والغضا : شجر عظيم واحدته غضاة . والسراحيب . جمع سرحوب وهى الفرس الطويلة الحسنة .

وقد عيب ذلك على ابن هانئ . وهو عيب من غير شك . إلا أن من الإنصاف أن يقال : إن هذا العيب ليس عاماً فى شعره ولا فى أكثره حتى يحكم به على فنه جملة . ومن هنا كان أبو العلاء غير دقيق الحكم حين اعتبر شعر ابن هانئ شيئاً لا طائل تحته وقال : « ما أشبهه إلا برحى تطحن قروناً »(١) . فالحق أولا أن أكثر شعر ابن هانئ لا تصل فيه حدة التعبير إلى الصخب والجلبة والقعقعة ، وإنما أكثره فيه ميل حقيقة إلى اللفظة الفخمة ، والعبارة الجزلة ، والأسلوب ذى الموسيقى الواضحة . وهذا لون من التعبير ومذهب فى الأداء ، فكما يحب البعض التعبير المهموس والأداء الهادئ ، يؤثر البعض الآخر الموسيقى الرنانة والأنغام العالية . والحق ثانياً أن حب أبى العلاء الشديد للمتنبى وشعره ، هو الذى جعله يهجن من شعر ابن هانئ الشاعر الأندلسى ، الذى كان مواطنوه فى المغرب يقارنونه بالمتنبى فى المشرق(٢) . وإلا فكيف يصدق حكم أبى العلاء على مثل قول ابن هانئ :

فتكات طرفك أم سيوف أبيكِ ... وكئوس خمر أم مراشف فيكِ

أجِلادُ مرهفة وفتكُ محاجر ... ما أنت راحمة ولا أهلوكِ

يا بنت ذى البرد الطويل نجاده ... أكذا يكون الحكم فى ناديكِ

قد كان يدعونى خيالك طارقاً ... حتى دعانى بالقنا داعيكِ

عيناك أم مغناك موعدنا وفى ... وادى الكرى ألقاك أم واديكِ

منعوك من سنة الكرى وسَروا فلو ... عثروا بطيف طارق ظنوكِ

ودعوك نشوى ما سقوك مدامة ... لمَّا تمايل عِطفك اتهموكِ(٣)

وابن هانئ كما هو حاد فى معانيه وصوره وألفاظه . حاد كذلك فى موسيقى شعره ،

---

(١) انظر : وفيات الأعيان ج ٢ ص ٥ .

(٢) انظر المصدر السابق .

(٣) انظر هذه الأبيات فى : ديوان ابن هانئ ص ١٣٤ .

فهو يختار غالباً تلك الأوزان الطوال ذات التفاعيل الكثيرة والنغم الواضح والرنين العالى . ومن هنا كانت أكثر قصائده من الطويل والبسيط والكامل ؛ وقليل من شعره هو الذى جاء على غير هذه الأوزان . وقلما نجد له شعراً من الأوزان القصيرة ذات الموسيقى البسيطة الهادئة . وكما يفعل ابن هانئ فى الأوزان يفعل فى القوافى ، فكثير من شعره يختم بالقوافى الفخمة التى تملأ الفم وتزحم السمع ، بل إن قوافيه تأتى أحياناً على حروف لم تؤلف فى القوافى كثيراً ، كالثاء والخاء والطاء . ومن أمثلة حدة ابن هانئ فى موسيقى شعره وزناً وقافية قوله :

لمن صولجان فوق خدك عابثُ ومن عاقد فى لحظ طرفك نافث
ومن مذنب فى الهجر غيرك مجرم ومن ناقض للعهد غيرك ناكث[١]

وقوله كذلك :

ألؤلؤٌ دمع هذا الغيث أم نقطُ ما كان أحسنه لو كان يلتقط
بين السحاب وبين الريح ملحمة معامع وظبى فى الجو تخترط[٢]

وإيثار ابن هانئ لتلك القوافى الفخمة أو غير المألوفة قد يجره أحياناً إلى التورط فى الغريب المعمَّى كقوله :

سرى وجناح الليل أقتم أفتخُ[٣] ضجيع مهاد بالعبير مضمَّخ
فحييتُ مزورَّ الخيـــال كأنه محجب أعلى قبة الملك أبلخ[٤]

وأخيراً تبدو حدة ابن هانئ فى كم أعماله الشعرية ؛ فهى فى الغالب قصائد . وأغلب

---

(١) ديوان ابن هانئ ص ٢٥ .
(٢) تخترط : تستل .
(والبيتان من مطلع قصيدة فى صفحة ٩٦ من ديوان ابن هانئ) .
(٣) أفتخ ، من الفتخ — محركة — وهو استرخاء المفاصل أو عرض القدم والكف وطولهما .
(٤) الأبلخ : المتكبر .
(والبيتان فى شرح ديوان ابن هانئ ص ١٨٣) .

تلك القصائد من النوع الطويل المفرط الطول ، حتى إن بعضها يتجاوز المائتى بيت .

هذه هي السمة الأولى من سمتيه البارزتين . أما الثانية — وهى المذهبية السياسية — فتبدو فى كون ابن هانئ شاعراً مذهبياً ، لا يؤمن بالفن فقط ، وإنما يستخدمه فى تدعيم مذهب يميل إليه ويدعو له . فابن هانئ قد اتصل بالحركة الشيعية وهو فى الأندلس ، وكانت السبب فى خروجه من بلده وهجرته إلى شمال إفريقيا . ثم إنه قد اتصل بزعماء الفاطميين اتصالا مباشراً بعد هجرته ، وعمل للدعوة الفاطمية ، فكان لسانها الناطق وداعيّها ذا الصوت الجهير . ومن هنا كثرت فى شعره مصطلحات الشيعة وآراؤهم ، وبدت فى نتاجه خطوط مذهبهم وروح دعوتهم ، واشتمل أسلوبه فى كثير من المواطن على الحجاج والجدل والتعليل والتدليل ومحاولة الإقناع المنطقى لا التأثير الوجدانى . وربما لا تخلو قصيدة من قصائده فى المعز ، من عشرات الأمثلة على ذلك . فهو يقول مشيراً إلى فكرة الإمامة :

إمام عدل وفّى فى كل ناحية   كما قضوا فى الإمام العدل واشترطوا[١]

ويقول مشيراً إلى فكرة العصمة :

مؤيد باختيار الله يصحبه   وليس فيما أراه الله من خلل[٢]

ويقول فى فكرة ميراث آل البيت للحكم :

هو الوارث الأرض عن والدين   أب مصطفى وأب مرتضى[٣]

ويقول فى فكرة تقديس الإمام :

من شعلة القبس التى عُرضت على   موسى وقد جازت به الظلماء

من معدن التقديس وهو سلالة   فخرت به الأجداد والآباء[٤]

---

(١) ديوان ابن هانئ ص ٩٧ .

(٢) ديوان ابن هانئ ص ١٩٢ .

(٣) ديوان ابن هانئ ص ٢١٧ .

(٤) ديوان ابن هانئ ص ٥ ، ٦ .

ومثل هذه الأفكار الشيعية كثير واضح فى شعر ابن هانئ(١) ، ويكفى أن نطالع قصيدة واحدة من قصائده فى المعز الفاطمى لنستخرج عديداً من الأفكار والآراء الشيعية ، ولندرك ببساطة تلك المذهبية السياسية فى شعر ابن هانىء ، بالإضافة إلى معالم فنه الأخرى . يقول شاعرنا فى مدح المعز ، ويذكر دخول الفاطميين مصر :

تقول بنو العباس : هل فُتحت مصرُ	فقل لبنى العباس قد قضى الأمر
وقد جاوز الإسكندرية جـوهر	تطالعـه البشرى ويقـدمه النصر
وقد أوفدت مصرٌ إليه وفودها	وزيد إلى المعقود من جسرها جسر
فما جاء هذا اليوم إلا وقد غدت	وأيديكمُ منها ومن غيرها صفر(٢)
فلا تكثِروا ذكر الزمان الذى خلا	فذلك عصر قد تقضَّى وذا عصر
أفى الجيش كنتم تمترون رويدكم	فهذا القنا العرّاض والجحفل المَجْرُ(٣)
وقد أشرقت خيل الإله طوالعًـا	على الدين والدنيا كما طلع الفجر
وذا ابن نبى الله يطلب وتـره	وكان حرٍ أن لا يضيع له وتـر
فكونوا حصيداً خامدين أو ارعووا	إلى ملك فى كفه الموت والنشـر
فإن تتبعوه فهو مولاكم الذى	له برسول الله دونكم الفخـر
وإلا فبعـداً للبعيـد فبينـه	وبينكمُ مـا لا يُقرّبه الدهـر
أفى ابن أبى السبطين أم فى طليقكم(٤)	تنزلت الآيات والسور الغـر
بنى نَتْلة ما أورث الله نتلة(٥)	وما ولدت ، هل يستوى العبد والحر
وأنَّى بهذا وهى أعدت برقّهـا	أباكم فإياكم ودعوى هى الكفر
فدونكموهـا أهـل بيت محمد	صفت بمعز الدين جمَّاتها(٦) الكدْرُ

---

(١) انظر أمثلة كثيرة قد استخرجها الدكتور زاهد على فى مقدمته لشرح ديوان ابن هانئ ، المسمى تبيين المعانى.

(٢) الصفر بالضم ويثلث : الخالى .

(٣) القنا المراض : اللدن المهزة ، الذى إذا هز اضطرب . والجحفل المجر : الجيش العظيم .

(٤) المراد بالطليق : العباس عم الرسول ، لأنه أسر يوم بدر ، فأطلقه النبى صلى الله عليه وسلم بالفدية .

(٥) نتلة : هى أم العباس عم الرسول ، ويقال لها : نتيلة . وهى بنت جناب بن كلب .

(٦) الجمات : جمع جمة ، وهى البئر الكثيرة الماء .

فقد صارت الدنيا إليكم مصيرهـا وصار له الحمد المضاعف والأجر
إمام رأيت الدين مرتبطًا به فطاعتـه فوز وعصيانه خسر
أرى مدحه كالمدح لله إنه قنوت وتسبيح يحط به الوزر
فيا مالكًا هَدْيُ الملائك هـديه ولكن نجر الأنبياء له نَجْر[١]
ويا رازقًا من كفه نشأ الحيـا وإلا فمن أسرارها نبع البحـر
ألا إنما الأيام أيامك التي لك الشطر من نعمائها ولنا الشطر
لك المجد منها يالك الخيرّ والعـلا وتبقى لنا منها الحلوبة والدَّر
لقد جدت حتى ليس للمال طالب وأعطيت حتى ما لمنْفِسِه[٢] قدر
فليس لمن لا يرتقى النجم همـة وليس لمن لا يستفيد الغنى عذر
وددت لجيل قد تقادم عصرهم لو استأخروا فى حلبة العمر أوكروا
ولو شهدوا الأيام والعيش بعدهم حدائق والآمال مونقـة خضـر
فلو سمع التثويب[٣] من كان رمة رفاتًا ولبى الصوت من ضمه القبر
لناديت من قد فوَّز[٤] احيَ بدولة تقام لها الموتى ويرتجع العمر[٥]

ولما كان ابن هانئ أقرب إلى أبى الطيب منه إلى أى شاعر آخر من شعراء الاتجاه المحافظ الجديد ، لاتفاقهما فى حدة الطبع أولا ، ودراسة ابن هانئ لشعر المتنبى وافتتانه بمذهبه ثانياً ؛ كان من مظاهر ذلك أخذ ابن هانئ لبعض أفكار المتنبى ، كقوله :

ألم يبد سرَّ الحب أن من الضنا رقيبًا وإن لم يهتك السر هاتكُ[٦]

---

(١) النجر : الأصل كالنجار .
(٢) شيء منفس : كنفيس ، ثمين يتنافس فيه .
(٣) التثويب : الدعاء إلى الصلاة .
(٤) فوز : مات .
(٥) هذه الأبيات مختارة من قصيدة لابن هانئ . وهى كاملة فى ديوانه ص ٧٨ وما بعدها .
(٦) ديوان ابن هانئ ص ٢٨١ .

فإن هذا المعنى من قول المتنبي :

وإذا خامر الهوى قلب صب فعليه لكل عين دليل

ومن أخذ ابن هانئ لبعض معانى المتنبي قوله كذلك :

إنّ ذل العزيز أفظع مرأى بين عينيه من لقاء الحتوف[١]

فهذا المعنى من قول المتنبي :

غير أن الفتى يلاقى المنايا كالحالات ولا يلاقى الهوانا

وهذا مما يعاب على ابن هانئ . ومما يعاب عليه كذلك : المبالغة المفرطة التى تفضى أحياناً إلى الاصطدام بالعقل أو الذوق أو الدين ، وقد مضت نماذج لذلك . ثم تكرار المعنى الواحد فى عدة مواضع أحياناً . ومن ذلك قوله :

شهدتْ بمفخرك السموات العلا وتنزل القرآن فيك مديحا[٢]

ثم قوله فى قصيدة أخرى .

من يشهد القرآن فيه بفضله وتصدق التوراة والإنجيل[٣]

ثم قوله فى قصيدة ثالثة :

إن الخبير بكم أجد بخلقكم غيبًا فجرد فيكم التنزيلا[٤]

ومن ذلك أيضاً قوله :

هو علة الدنيا ومن خلقت له ولعلة ما ، كانت الأشياء[٥]

---

(١) ديوان ابن هانئ ص ١٠٦ .

(٢) ديوان ابن هانئ ص ٣٢ .

(٣) ديوان ابن هانئ ص ١٤٢ .

(٤) ديوان ابن هانئ ص ١٤٧ .

(٥) ديوان ابن هانئ ص ٥ .

ثم قوله فى قصيدة ثانية :

من أجل هذا قدّر المقدور فى ... أمّ الكتاب وكُوّن التكوين[١]

ثم قوله فى قصيدة ثالثة :

هو الوارث الدنيا ومن خلقت له ... من الناس حتى يلتقى القُطْر والقطر[٢]

وأخيراً يؤخذ على ابن هانئ تورطه أحياناً فى التعبير الصاخب واللفظ الغريب . وقد سلفت أمثلة لهذا .

على أن ذلك كله لا يغض من قيمة الشاعر ، ولا يزحزحه عن الصف الأول بين شعراء الأندلس ؛ فهو من غير شك شاعر ممتاز ، يجمع إلى الأصالة الفنية التمكن من أدوات الشعر ، يحشد له غالباً المعنى العميق واللفظ القوى والعبارة المحكمة والصورة الرائعة والموسيقى الرنانة . كل هذا إلى طول نفس ووفرة نتاج .

وكما كان ابن هانئ أقدم شاعر أندلسى عرفناه متفرغاً للشعر ، كان كذلك أقدم شاعر أندلسى حفظت لنا الأيام ديوان شعره . فكل سابقيه ومعاصريه لم تبق الأيام من تراثهم إلا مختارات هنا وهناك ، قد تكثر وقد تقل . أما ابن هانئ فقد بقى له ديوان . ولعل السر فى ذلك اتصاله بالحركة الشيعية ؛ فالشيعة كانوا أصحاب مذهب ، لهم دعاة ورواة ، يشيعون أمجادهم وينقلون جميل الثناء عليهم ، وقد كان شعر ابن هانئ مادة صالحة لعمل هؤلاء الدعاة الرواة . ومن هنا كان حفظ ديوانه ، الذى بقى ضمن تراث الشيعة . ومما يرجح ذلك أننا لا نجد بين دفتى الديوان شعراً لابن هانئ يتصل بإشبيلية وحياته فيها . فأغلب الظن أن الشيعة الذين حفظوا ديوانه ، قد عنوا فقط بما يتصل بهم ، أو على الأكثر بالشعر الذى قاله بعد اتصاله بهم وعمله معهم . ومن هنا يرجح أن ديوان

---

(١) ديوان ابن هانئ ص ١٩٧ .

(٢) القطر : الناحية والجانب ، ولعل المراد التقاء جانبى الدنيا بطيها يوم القيامة . ديوان ابن هانئ ص ٨١ .

ابن هانىء الذى بين أيدينا لا يمثل كل شعره ، وإنما هو فى أغلب الظن مختارات قد اختارها هو فى حياته أو اختارها له غيره من الشيعة بعد مماته .

ومهما يكن من أمر فإن هذا الديوان يحوى مجموعة طيبة غنية من شعر ابن هانىء ، تصور فنه وحياته ، وتأخذ فى التراث الأندلسى مكاناً مرموقاً[١] .

ثانياً — النثر :

كان أهم مظاهر النهضة الأدبية فى فترة الخلافة ، ظهور نوع من النثر لم تعرفه الأندلس من قبل ، وهو النثر التأليفى . وهكذا أصبح للأدب الأندلسى فى فترة الخلافة نوعان من النثر ، أولهما ذلك النوع الذى عرفته من قبل وهو النثر الخالص ، وثانيهما ذلك النوع الذى ظهر فى تلك الفترة ، وهو النثر التأليفى وسنخص كلا منهما بحديث .

(١) النثر الخالص :

سار هذا النوع من النثر متأثراً بالمذهب الجاحظى الذى بدأ التأثر به فى أواخر الفترة السابقة ، وزاد التأثر به فى هذه الفترة . كما أخذ هذا النوع من النثر يتجه بشكل واضح إلى المنهجية والعناية بالبدء والموضوع والختام . كذلك انعكست عليه فخامة الأندلس وعظمتها فى فترة الخلافة . فكثرت الألقاب ، والجمل الدعائية المفخمة ، والعبارات الاعتراضية المعظمة . وظهر الميل إلى التطويل والتكرار والبسط .

ويلاحظ أن النثر الصادر عن ذوى الثقافة الدينية كان أكثر استشهاداً بالقرآن الكريم ، وأعظم ميلا إلى السجع ، وأشد تعلقاً بالإطناب .

---

(١) طبع ديوان ابن هانىء عدة طبعات بعضها فى مصر وبعضها فى بيروت . وخير طبعاته هى التى حققها زاهد على ونشرت بالقاهرة سنة ١٣٥٢ هـ .

وقد لقيت الكتابة الرسمية عناية كبيرة فى تلك الفترة ؛ حيث قام بها طائفة من الأدباء المقتدرين ، ووصل بعضهم إلى مرتبة الوزارة أو الحجابة .

ومن بين الأسماء التى لمعت فى هذا الميدان . ابن المنذر ، وابن جهور ، وابن بسيل ، وابن فطيس ، وابن أبى عامر ، والمصحفى[1] .

وقد عمل بعض النساء خلال فترة الخلافة ، فى ميدان الكتابة الرسمية . وممن حفظت أسماؤهن : مزنة[2] كاتبة الخليفة الناصر ، ولبنى[3] كاتبة الخليفة المستنصر .

وتلك بعض نماذج من فترة الخلافة ، يتضح معها ما أسلفنا من ملاحظات . فمن المنشورات ، ذلك المنشور الذى وجهه عبد الرحمن الثالث إلى حكام الأقاليم ليخبرهم باتخاذه لقب الخليفة ، وليلزمهم بمخاطبته به ، ولينبهوا الخطباء إلى مراعاته . وهذا نص المنشور :

« بسم الله الرحمن الرحيم . أما بعد . فإنا أحق من استوفى حقه ، وأجدر من استكمل حظه ، ولبس من كرامة الله ما ألبسه ؛ للذى فضلنا به وأظهر أثرتنا فيه ، ورفع سلطاننا إليه ، ويسر على أيدينا دركه ، وسهل بدولتنا مرامه ؛ وللذى أشاد فى الآفاق من ذكرنا وعلو أمرنا ، وأعلن من رجاء العالمين بنا ، وأعاد من انحرافهم إلينا ، واستبشارهم بدولتنا . والحمد لله ولى الإنعام بما أنعم به ، وأهل الفضل بما تفضل علينا فيه .

« وقد رأينا أن تكون الدعوة لنا بأمير المؤمنين . وخروج الكتب عندنا وورودها علينا بذلك ؛ إذ كل مدعو بهذا الاسم غيرنا منتحل له ودخيل فيه ومتسم بما لا يستحقه . وعلمنا أن التمادى على ترك الواجب لنا من ذلك حق أضعناه ، واسم ثابت أسقطناه .

---

(١) يمكن استخراج أسماء كثيرة من الكتاب من خلال ما كتبه ابن عذارى فى البيان المغرب عن تاريخ الناصر والمستنصر ج ٢ ص ٢٣٤ وما بعدها .

(٢) ذكرها ابن بشكوال فى الصلة ترجمة ١٥٣٠ ، والضبى فى البغية ترجمة ١٦٩٠ .

(٣) ذكرها ابن بشكوال فى الصلة ترجمة ١٥٢٩ ، والضبى فى البغية ترجمة ١٥٨٩ .

فأمر الخطيب بموضعك أن يقول به ، وأجر مخاطبتك لنا عليه ، إن شاء الله . والله المستعان »[1] .

ومن الخطب ، تلك الخطبة التي ألقاها الفقيه منذر بن سعيد البلوطي في حفل الاستقبال الذي أقامه الناصر لسفير إمبراطور القسطنطينية ، وكان أبو على القالي قد وقف ليخطب في هذه المناسبة ، فافتتح بحمد الله والثناء على نبيه ثم أحصر ، فوقف منذر وبدأ من حيث انتهى القالي فقال : « أما بعد حمد لله والثناء عليه والتعداد لآلائه والشكر لنعمائه ، والصلاة على محمد صفيه وخاتم أنبيائه ؛ فإن لكل حادث مقاماً ، ولكل مقام مقالا ، وليس بعد الحق إلا الضلال . وإني قد قمت في مقام كريم ، بين يدى ملك عظيم ، فأصغوا إلىّ معشر الملأ بأسماعكم ، وأتقنوا عنى بأفئدتكم . إن من الحق أن يقال للمحق صدقت وللمبطل كذبت . وإن الجليل – تعالى في سمائه ، وتقدس بصفاته وأسمائه – أمر كليمه موسى – صلى الله جل وعز على نبينا وعليه وعلى جميع أنبيائه – أن يذكّر قومه بأيام الله جل وعز عندهم . وفيه وفي رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أسوة حسنة . وإني أذكركم بأيام الله عندكم . وتلافيه لكم ، بخلافة أمير المؤمنين التي لمت شعثكم ، وأمنت سربكم . ورفعت قوتكم ، بعد أن كنتم قليلا فكثركم ، ومستضعفين فقواكم ، ومستذلين فنصركم . ولاّه الله رعايتكم ، وأسند إليه إمامتكم ، أيام ضربت الفتنة سرادقها على الآفاق ، وأحاطت بكم شعل النفاق ؛ حتى صرتم في مثل حدقة البعير ، من ضيق الحال ونكد العيش والتغيير . فاستبدلتم بخلافته من الشدة بالرخاء ، وانتقلتم بيمن سياسته إلى تمهيد كنف العافية بعد استيطان البلاء . أنشدكم الله معاشر الملأ ، ألم تكن الدماء مسفوكة فحقنها ، والسبل مخوفة فأمنها ، والأموال منتهبة فأحرزها وحصنها ؟ ألم تكن البلاد خراباً فعزرها ، وثغور المسلمين مهتضمة فحماها

---

(١) انظر : البيان المغرب لابن عذارى ج ٢ ص ٢٩٧ ، ٢٩٨ ، وقد جاء في آخر المنشور ، « وكتب يوم الخميس لليلتين خلتا من ذى الحجة سنة ٣١٦ » .

ونصرها ؟ فاذكروا آلاء الله عليكم بخلافته ، وتلافيه جمع كلمتكم بعد افتراقها بإمامته ؛ حتى أذهب الله عنكم غيظكم ، وشفى صدوركم وصرتم يداً على عدوكم ، بعد أن كان بأسكم بينكم . فأنشدكم الله ، ألم تكن خلافته قفل الفتنة بعد انطلاقها من عقالها ؟ ألم يتلاف صلاح الأمور بنفسه بعد اضطراب أحوالها ؟ ولم يكل ذلك إلى القواد والأجناد ، حتى باشره بالقوة والمهجة والأولاد ، واعتزل النسوان ، وهجر الأوطان ، ورفض الدعوة وهى محبوبة ، وترك الركون إلى الراحة وهى مطلوبة . بطوية صحيحة ، وعزيمة صريحة ، وبصيرة ثابتة نافذة ثاقبة ، وريح هابة غالبة ، ونصرة من الله واقعة واجبة ، وسلطان قاهر ، وجد ظاهر ، وسيف منصور ، تحت عدل مشهور ، متحملا للنصب ، مستقلا لما ناله فى جانب الله من التعب ؛ حتى لانت الأحوال بعد شدتها ، وانكسرت شوكة الفتنة عند حدتها ، ولم يبق لها غارب [1] إلا جبه ، ولا نجم لأهلها قرن إلا جذه[2] . فأصبحتم بنعمة الله إخواناً ، وبلم أمير المؤمنين لشعثكم على أعدائه أعواناً . حتى تواترت لديكم الفتوحات . وفتح الله عليكم بخلافته أبواب الخيرات والبركات ، وصارت وفود الروم وافدة عليكم ، وآمال الأقصين والأدنين مستخدمة إليه وإليكم ، يأتون من كل فج عميق ، وبلد سحيق ؛ لأخذ حبل بينه وبينكم جملة وتفصيلا ، ليقضى الله أمراً كان مفعولا . ولن يخلف الله وعده ، ولهذا الأمر ما بعده ، وتلك أسباب ظاهرة بادية ، تدل على أمور باطنة خافية . دليلها قائم ، وجفنها غير نائم . وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم فى الأرض كما استخلف الذين من قبلهم[3] . وليس فى تصديق ما وعد الله ارتياب ، ولكل نبأ مستقر ولكل أجل كتاب . فاحمدوا الله أيها الناس على آلائه ، واسألوه المزيد من نعمائه ؛ فقد أصبحتم بين خلافة أمير

(١) الغارب : الكاهل . والجب : القطع .

(٢) القرن : الذؤابة ، والخصلة من الشعر . والعبارة فى الأصل : « ولا نجم لأهلها قرن إلاجده » . وقد ضبطناها بما يتفق مع السياق ويتأتى معه معنى .

(٣) زاد فى الأصل : الآية .

المؤمنين — أيده الله بالعصمة والسداد ، وألهمه خالص التوفيق والرشاد — أحسن الناس حالا ، وأنعمهم بالا ، وأعزهم قراراً ، وأمنعهم داراً ، وأكثفهم جمعاً وأجملهم صنعاً ؛ لا تهاجمون ولا تذادون ، وأنتم بحمد الله على أعدائه ظاهرون . فاستعينوا على صلاح أحوالكم بالمناصحة لإمامكم ، والتزام الطاعة لخليفتكم وابن عم نبيكم صلى الله عليه وسلم ؛ فإن من نزع يداً من الطاعة ، وسعى فى تفريق الجماعة ، ومرق من الدين ، فقد خسر الدنيا والآخرة ، ذلك هو الخسران المبين . وقد علمتم أن فى التعلق بعصمتها ، والتمسك بعروتها ، حفظ الأموال وحقن الدماء ، وصلاح الخاصة والدهماء ، وأن بقوام الطاعة تقام الحدود ، وتوفى العهود ، وبها وصلت الأرحام ، ووضحت الأحكام ؛ وبها سد الله الخلل ، وأمن السبل ، ووطأ الأكناف ، ورفع الخلاف ، وبها طاب لكم القرار ، واطمأنت بكم الدار . واعتصموا بما أمركم الله بالاعتصام به فإنه تبارك وتعالى يقول : " أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم " (١) . وقد علمتم ما أحاط بكم فى جزيرتكم هذه من ضروب المشركين ، وصنوف الملحدين ؛ الساعين فى شق عصاكم ، وتفريق ملاكم ، الآخذين فى مخاذلة دينكم ، وهتك حريمكم ، وتوهين دعوة نبيكم ، صلوات الله وسلامه عليه وعلى جميع النبيين والمرسلين . أقول قولى هذا ، وأختم بالحمد لله رب العالمين ، مستغفراً الله الغفور الرحيم ، فهو خير الغافرين »(٢) .

ومن أمثلة المراسلات ، ما دار بين الفقيه أبى إبراهيم والأمير الحكم بن عبد الرحمن الناصر . وكان الفقيه قد دعى إلى حفل رسمى بالزهراء فتخلف فغضب الخليفة وأمر ابنه الحكم بالكتابة إليه فى ذلك ، فكتب .

« بسم الله الرحمن الرحيم . حفظك الله وتولاك ، وسددك ورعاك . لما امتحن أمير المؤمنين — مولاى وسيدى أبقاه الله — الأولياء الذين يستعدبهم ، وجدك متقدماً فى

(١) زاد فى الأصل : الآية .

(٢) وردت هذه الخطبة فى : نفح الطيب للمقرى ج ١ ص ١٧٢ ، ١٧٢ .

الولاية متأخراً عن الصلة . على أنه قد أنذرك ـــ أبقاه الله ـــ خصوصاً للمشاركة فى السرور الذى كان عنده ـــ لا أعدمه الله المسرة ـــ ثم أنذرت من قبل إبلاغاً فى التكرمة ، فكان منك على ذلك كله من التخلف ما ضاعت عليك فيه المعذرة . واستبلغ أمير المؤمنين فى إنكاره ومعاتبتك عليه ، فأعيت عليك الحجة . فعرفنى ـــ أكرمك الله ـــ ما العذر الذى أوجب توقفك عن إجابة دعوته ، ومشاهدة السرور الذى سر به ، ورغب المشاركة فيه ؛ لنعرّفه ـــ أبقاه الله ـــ بذلك ، فتسكن نفسه العزيزة إليه إن شاء الله تعالى » .

وقد أجابه أبو إبراهيم كاتباً :

« سلام على الأمير سيدى ورحمة الله . قرأت ـــ أبقى الله الأمير سيدى ـــ هذا الكتاب وفهمته ، ولم يكن توقفى لنفسى ، إنما كان لأمير المؤمنين سيدنا ـــ أبقى الله سلطانه ـــ لعلمى بمذهبه ، وسكونى إلى تقواه ، واقتفائه لأثر سلفه الطيب ، رضوان الله عليهم ؛ فإنهم يستبقون من هذه الطبقة بقية لايمتهنونها بما يشينها ، ولا يغض منها ، ويطرق إلى تنقيصها ؛ يستعدون لدينهم ، ويتزينون بها عند رعاياهم ومن يفد عليهم من قصادهم . فلهذا تخلفت ، ولعلى بمذهبه توقفت إن شاء الله تعالى »[1] .

ومن أمثلة المحاورات مادار بين الناصر وابنه الحكم بشأن منذر بن سعيد . وكان هذا الفقيه قد انتقد الناصر فى إسرافه فى تشييد قصر الزهراء ، حتى شغل بها عن شهود الجمعة ثلاث مرات . وكان مما انتقد به الفقيه الخليفة ، ابتداؤه خطبة حضرها الخليفة بقوله تعالى : « أتبنون بكل ريع آية تعبثون ، وتتخذون مصانع لعلكم تخلدون » . فغضب الناصر وأقسم ألا يصلى الجمع وراء منذر ـــ وكان قاضى مسجد الزهراء ـــ وشرع يصلى وراء قاضى الجماعة بمسجد قرطبة .

---

(١) اقرأ الرسالتين وقصتهما فى : نفح الطيب ج ٢ ص ١٧٥ ، ١٧٦ .

وقد قال الناصر لابنه فى ذلك :

« والله لقد تعمدنى منذر بخطبته ، وما عنى بها غيرى ، فأسرف على ، وأفرط فى تقريعى وتفريعى ، ولم يحسن السياسة فى وعظى ، فزعزع قلبى وكاد بعصاه يقرعنى » .

فقال الحكم :

« فما الذى يمنعك من عزل منذر عن الصلاة بك ، والاستبدال بغيره منه إذ كرهته ؟ »

فزجره الناصر وقال :

« أمثل منذر بن سعيد فى فضله وخيره وعلمه – لاأم لك – يعزل لإرضاء نفس ناكبة عن الرشد ، سالكة غير القصد ؟ ! هذا مالايكون . وإنى لأستحى من الله ألا أجعل بينى وبينه فى صلاة الجمع شفيعاً مثل منذر فى ورعه وصدقه ، ولكنه أحرجنى فأقسمت ، ولوددت أن أجد سبيلا إلى كفارة يمينى بملكى ؛ بل يصلى بالناس حياته وحياتنا ، إن شاء الله تعالى . فما أظننا نعاض منه أبداً » (١) .

ومن المحاورات الطريفة ، تلك المحاورة التى دارت بين الناصر ومنذر نفسه ، وكان الناصر قد أبدع فى تزيين قبة بالذهب والفضة ، حتى جعلها تخطف الأبصار ، وسأل ذات يوم جلساءه من الوزراء والحاشية عنها ، فأكبروا صنعه وأثنوا عليه . ثم دخل عليهم منذر بن سعيد ، فلما جلس سأله الناصر عن القبة كما سأل غيره ، فقال له : « يا أمير المؤمنين ، ما ظننت أن الشيطان – لعنه الله – يبلغ منك هذا المبلغ ، ولا أن تمكنه من نفسك هذا التمكين – مع ما أتاك الله من فضله ونعمته ، وفضلك به على العالمين حتى ينزلك منازل الكافرين » .

فانفعل الناصر وقال له :

« انظر ماذا تقول ، وكيف أنزلتنى منزلتهم » .

---

(١) اقرأ هذه المحاورة وقصتها فى : نفح الطيب ج ١ ص ٦٦ ، ٣٦٧ .

فقال له منذر :

« نعم أليس تعالى يقول : « ولولا أن يكون الناس أمة واحدة لجعلنا لمن يكفر بالرحمن لبيوتهم سقفاً من فضة ومعارج عليها يظهرون » .

فوجم الخليفة ، وأطرق ثم قال :

« جازاك الله يا قاضي عنا وعن نفسك خيراً ، وعن الدين والمسلمين أجلّ الجزاء ، وكثّر من أمثالك ؛ فالذى قلت هو الحق »[١] .

(ب) النثر التأليفى :

قد ظهر هذا النوع من النثر خلال فترة الخلافة فى صورتين ، أو تمثل حينذاك فى فرعين ، الفرع الأول : التأريخ الأدبى ، والفرع الثانى : التأليف الأدبى أما الفرع الأول ، فكان تأريخاً ساذجاً بطبيعة الحال ؛ فهو مزيج من التراجم ، والأخبار ، والمختارات ، والحديث عن الشعر والشعراء . ومن أمثلة ذلك ما ألفه عثمان بن ربيعة القرطبي باسم « طبقات الشعراء بالأندلس »[٢] . وما ألفه محمد بن هشام المروانى باسم « أخبار الشعراء بالأندلس »[٣] . ثم ما ألفه عبد الله بن محمد بن مغيث بعنوان « شعر الخلفاء من بنى أمية »[٤] . وأخيراً ما ألفه أبو عمر أحمد بن فرج الجيانى بعنوان « الحدائق » . وقد ألف الجيانى هذا الكتاب للحكم المستنصر ، وأودعه مختارات من أشعار الأندلسيين فى الحب . معارضاً بذلك كتاب الزهرة لابن داود الأصبهانى . وقد تضمن هذا الكتاب

---

(١) اقرأ هذه المحاورة وقصتها فى : نفح الطيب ج ١ ص ٢٦٨ . وزاد فى هذا المصدر أن الناصر « قام عن مجلسه ذلك وهو يستغفر الله تعالى . وأمر بنقض سقف القبة » .

(٢) انظر : تاريخ الفكر الأندلسى ص ٢٨٥ .

(٣) انظر : المصدر السابق ، وجذوة المقتبس ترجمة ١٩٥٩ ، ونفح الطيب ج ٣ ص ٣٢٦ ، ٣٢٧ .

(٤) انظر : الصلة لابن بشكوال ترجمة رقم ٥٤٦ ، وتاريخ الفكر ص ٢٨٦ .

بالإضافة إلى ذلك كثيراً من أخبار الشعراء الأندلسيين حتى القرن الرابع الهجرى[١] .

ومن المؤسف أن أكثر هذه المؤلفات قد ضاع[٢] . ولم يبق مما فقد إلا مقتبسات فى كتب ألفت بعد ذلك . ومع ضياع أكثر هذه الكتب يلاحظ أن هذا النوع من التأليف قد جاء متأثراً بنظيره فى المشرق ؛ فمثلا يلاحظ أن كتاب عثمان بن ربيعة « طبقات الشعراء بالأندلس» قد حمل الاسم الذى سبق به ابن سلام فى كتابه « طبقات الشعراء » . كذلك يلاحظ أن كتاب عبد الله بن مغيث « شعر الخلفاء من بنى أمية » قد عمل صاحبه ما عمله الصولى فى كتابه « الأوراق » الذى تناول فيه شعر بنى العباس . وأوضح من ذلك كله فى تأثر الأندلسيين فى هذا النوع من التأليف بإخوانهم المشارقة ، «كتاب الحدائق » الذى ألفه ابن فرج الجيانى ؛ فقد قال فيه الحميدى صاحب جذوة المقتبس : إنه عارض فيه كتاب الزهرة لأبى بكر محمد بن داود الأصبهانى ، إلا أن أبا بكر إنما ذكر مائة باب ، فى كل باب مائة بيت . والجيانى أورد مائتى باب . فى كل باب مائتى بيت ، ليس منها باب تكرر اسمه لأبى بكر ، ولم يورد فيه لغير أندلسى شيئاً[٣] .

ويستفاد من حديث الحميدى ، أن الأندلسيين مع تأثرهم بالمشارقة فى هذا الفرع الأدبى كانوا يحاولن التفوق على سابقيهم المشارقة ، وكانوا أحياناً يتفوقون فعلا . وهم فى كل ذلك مدفوعون بروح القومية الأندلسية التى كانت تدعوهم دائماً إلى تأكيد ذواتهم وإبراز جهود بلدهم .

وأما الفرع الثانى من فروع النثر التأليفى وهو فرع التأليف الأدبى فنعنى به تأليف كتب أدب بمفهوم القرن الثالث والرابع لكلمة أدب ؛ فقد كان الأدب يعنى فى تلك

---

(١) انظر : جذوة المقتبس ترجمة رقم ١٧٦ .

(٢) توجد نسخة مخطوطة من كتاب (طبقات الشعراء بالأندلس) فى مدينة فاس (تاريخ الفكر الأندلسى ص ٣٨٥) .

(٣) جذوة المقتبس . ترجمة رقم ١٧٦ .

الفترة ، الثقافة العربية الخالصة . التى تتمثل فى كل ما يكون به التأديب والتهذيب . وعلى هذا جاء كتاب البيان والتبيين للجاحظ ، وكتاب الكامل للمبرد . وكتاب الأمالى لأبى على القالى ، وكتاب الأغانى لأبى الفرج الأصبهانى . فكلها كتب أدب بمعنى كتب ثقافة عربية خالصة ، يكون بها التأديب والتهذيب والتثقيف . وقد جمعت هذه الكتب بين مختارات الشعر والنثر ، وبين التاريخ والطرائف ، وبين اللغة والرواية ، وبين البلاغة والنقد ، وما إلى ذلك من فروع الثقافة العربية الخالصة . وكانت تلك الكتب مع اشتراكها فى الطابع الثقافى العربى العام ، تفترق فيما بينها تبعاً لميل صاحبها إلى فرع معين من فروع الثقافة ، ومن هنا كان الغالب على البيان والتبيين مثلا طابع البلاغة . وعلى الكامل والأمالى طابع اللغة ، وعلى الأغانى طابع التراجم والشعر الغنائى .

وقد أسهم الأندلسيون خلال فترة الخلافة فى هذا الفرع الأدبى بكتاب قيم هو كتاب :

العقد الفريد

وقد ألفه أحمد بن عبدربه الشاعر والأديب الأندلسى المعروف . وهو كتاب أدب بهذا المعنى القديم لكلمة أدب ، ذلك المعنى الذى كان شائعاً فى القرنين الثالث والرابع ، والذى فى ظلاله ألف الجاحظ والمبرد والقالى وأبو الفرج . فهو كتاب ثقافة عربية عامة ، يجمع بين التاريخ والأخبار والمختارات الشعرية والنثرية ، ويتعرض للبلاغة والنقد والعروض والموسيقى والأخلاق والعادات .

وقد قسم ابن عبد ربه كتابه إلى خمسة وعشرين باباً ، وسمى كل باب باسم حبة من حبات العقد الحقيقى ، وجعل تلك الأبواب فى ترتيبها كحبات العقد المنظوم فى ترتيبه فهو يبدأ عقده بكتاب اللؤلؤة فى السلطان ، ثم يثنى بكتاب الفريدة فى الحروب ومدارها ، ثم يتبع ذلك بكتاب الزبرجدة فى الأجواد والأصفاد ، ثم بكتاب الجمانة فى الوفود ، ثم بكتاب المرجانة فى مخاطبة الملوك ، ثم بكتاب الياقوتة فى العلم والأدب ،

ثم بكتاب الجوهرة فى الأمثال ثم بكتاب الزمردة فى المواعظ والزهد ، ثم بكتاب الدرة فى التعازى والمراثى . ثم بكتاب اليتيمة فى النسب وفضائل العرب ، ثم بكتاب العسجدة فى كلام الأعراب ، ثم بكتاب المجنبة فى الأجوبة . وهنا تأتى الواسطة فى الخطب. وبعد الواسطة تأتى أبواب بتلك الأسماء السابقة . كأنها حبات مماثلة تأتى على الجانب الآخر من واسطة العقد الحقيقى . فيأتى بعد الواسطة كتاب المجنبة الثانية فى التوقيعات والفصول والصدور وأخبار الكتبة . ثم كتاب العسجدة الثانية فى الخلفاء وتاريخهم وأيامهم ، ثم كتاب اليتيمة الثانية فى أخبار زياد والحجاج والطالبيين والبرامكة ، ثم كتاب الدرة الثانية فى أيام العرب ووقائعهم ، ثم كتاب الزمردة الثانية فى فضائل الشعر ومقاطعه ومخارجه ، ثم كتاب الجوهرة الثانية فى أعاريض الشعر وعلل القوافى ، ثم كتاب الياقوتة الثانية فى علم الألحان والاختلاف فيه ، ثم كتاب المرجانة الثانية فى النساء وصفاتهن ، ثم كتاب الجمانة الثانية فى بيان المتنبئين والموسومين والبخلاء والطفيليين ، ثم كتاب الزبرجدة الثانية فى بيان طبائع الإنسان وسائر الحيوان ، ثم كتاب الفريدة الثانية فى الطعام والشراب ، ثم كتاب اللؤلؤة الثانية فى الفكاهات والملح .

وهكذا ينتهى آخر باب فى العقد بلؤلؤة كما بدأ أول باب بلؤلؤة ، تماماً كما ينتهى أى عقد بحبة مماثلة للحبة التى بدأ بها .

ويلاحظ من هذا العرض السريع لأبواب الكتاب ، طبيعة المادة التى يحويها .

وأكثر مواد الكتاب تتصل بالمشرق وتاريخه وسير أعلامه وأخبار فنانيه . والقليل جداً من مواد العقد هو ما يتصل بالأندلس . وهذا ما حدا بالصاحب بن عباد إلى القول عن هذا الكتاب : « هذه بضاعتنا ردت إلينا »[١] .

والسبب فى إيراد المؤلف كتابه على هذا النحو المشرقى ، هو أنه أراد أن ينقل إلى

---

(١) انظر : معجم الأدباء لياقوت جـ ٤ ص ٢١٤ ، ٢١٥ .

مواطنيه ثقافة عامة عن المشرق تغنيهم عن الرجوع إلى كثير من الكتب وعديد من المراجع . كما أن المؤلف أراد أيضاً أن يبين تفوق الأندلسيين حتى فى الثقافة المشرقية نفسها .

أما مصادر كتاب ابن عبد ربه . فهى كثيرة متنوعة ، قد اتصل بها المؤلف بما أتيح له من ثقافة واسعة وعمر مديد . وفى مقدمة تلك المصادر « عيون الأخبار» لابن قتيبة ، « والبيان والتبيين » و « البخلاء » و « الحيوان » للجاحظ ، و « الكامل » للمبرد ، و « طبقات الشعراء » لابن سلام ، و « السيرة » لابن هشام ، و «كليلة ودمنة» لابن المقفع . هذا إلى كثير من دواوين الشعراء الجاهليين والإسلاميين[1] .

ولابن عبد ربه طريقته فى العرض ؛ فهو دائماً لا يأتى بالسند ، على عكس صاحب الأغانى . وهو أحياناً لا يدقق فيما يروى من أخبار . ثم هو غالباً يتبع ما يورد من نصوص شعرية بشعر له هو .

والكتاب عظيم القيمة من النواحى التاريخية والأدبية والعلمية ، وهو ذخيرة أدبية حافلة بالنصوص القيمة شعراً ونثراً فى شتى الفنون والأغراض والمواقف ، وهو موسوعة ثقافية عربية عامة ، فيها اللغة وفيها النقد وفيها العروض ، بل فيها الموسيقى . وهو إلى ذلك مصدر لمعرفة كثير من تاريخ الأندلس وأخبار حكامها وعادات أهلها . والكتاب بعد ذلك كله أهم مرجع لفن ابن عبد ربه ؛ فهو يشتمل على نماذج كثيرة من شعره ونثره .

هذا ، والكتاب لم يكن يوصف « بالفريد » فى أيام صاحبه ، وإنما كان يسمى بالعقد . وقد أضاف بعض المتأخرين الوصف بالفريد ، فعرف من يومها « بالعقد الفريد » . فقد ذُكر الكتاب فى كل المراجع القديمة مجردا من هذا الوصف ؛ ذكره الضبى فى « بغية الملتمس» قائلا عن ابن عبد ربه : « وله الكتاب الكبير المسمى العقد فى الأخبار» . وذكره ياقوت فى « معجم الأدباء » بنفس الاسم فقال عن المؤلف : « وهو صاحب

(١) اقرأ تحليلا وافياً لمواد العقد فى كتاب الأستاذ جبرائيل جبور : ابن عبد ربه وعقده .

كتاب العقد فى الأخبار» . وكذلك كل المؤلفين المتقدمين لم يذكروا كلمة «فريد» التى اشتهر بها كتاب «العقد» فيما بعد ، مثل ابن شرف القيروانى ، والفتح بن خاقان ، وصاعد التطيلى ، وابن خلكان ، وابن خلدون ، وابن بسام . ولعل أول من ذكر كلمة «فريد» هو الأبشيهى صاحب «المستطرف فى كل فن مستظرف» . وربما كان ذكر الأبشيهى لتلك الصفة بدافع تكوين سجعة ، فهو يقول فى كتابه : «ونقلت كثيراً مما نقله ابن عبد ربه فى كتابه العقد الفريد ، ورجوت أن يجد مطالعه كل ما يقصد ويريد»[١] .

وليس من شك فى أن ابن عبد ربه قد أخرج هذا الكتاب فى صورته الكاملة أيام الناصر ، بل إن هذا الإخراج كان بعد أن تلقب الناصر بلقب أمير المؤمنين[٢] أى بعد سنة ٣١٦ هـ ؛ لأن ابن عبد ربه يخلع على الناصر هذا اللقب . ومع هذا فالمرجح أن المؤلف قد بدأ فى عمل هذا الكتاب قبل عهد عبد الرحمن الناصر ؛ لأن الأرجوزة العروضية التى فيه مختومة بالدعاء للأمير عبد الله[٣] . ولعل ابن عبد ربه كانت لديه بعض مواد الكتاب قبل تأليفه بصورته التى هو عليها الآن ، وكان من تلك المواد ما أعده قبل عهد الخلافة ، ومنها ما أعده أيام الخلافة ، ثم جمع ذلك ونسقه وكمله وأخرجه فى هذا «العقد»[٤] .

ونثر ابن عبد ربه — كما يبدو من كتابه — نثر جيد خال من التكلف ، أقرب إلى الوضوح والسلاسة ، مع ميل شديد إلى الاقتباس والاستشهاد وإيراد مأثور القول ، ومع

---

(١) انظر فى هذا ، التحقيق المفصل الذى كتبه جبرائيل جبور عن كتاب العقد ، فى كتابه القيم ، ابن عبد ربه وعقده .

(٢) انظر العقد الفريد جـ ٢ ص ٢٨٦ ، ٢٨٨ .

(٣) انظر : العقد الفريد ج ٣ ص ١٥٤ .

(٤) طبع كتاب العقد عدة مرات فى مصر منها : طبعة بولاق سنة ١٢٩٣ . وطبعة العثمانية سنة ١٣٠٢. وطبعة الشرفية سنة ١٣٠٥ ، ١٣٠٦ . وطبعة الأزهرية سنة ١٣٣١ . وأحسن طبعة هى التى أخرجتها لجنة التأليف بتحقيق الأساتذة : أحمد أمين وإبراهيم الإبيارى وأحمد الزين .

رغبة فى التزيين والسجع فى بعض الأحايين . وهذا نموذج من كتاب العقد ، يصور طريقة ابن عبد ربه وأسلوبه ، ويعطى فكرة عن آرائه فى الأدب وتأليفه . يقول ابن عبد ربه فى مقدمة العقد :

« . . . وبعد ، فإن أهل كل طبقة ، وجهابذة كل أمة ، قد تكلموا فى الأدب وتفلسفوا فى العلوم على كل لسان ومع كل زمان . وإن كل متكلم منهم قد استفرغ غايته ، وبذل مجهوده ، فى اختصار بديع معانى المتقدمين . واختيار جواهر ألفاظ السالفين ، وأكثروا فى ذلك حتى احتاج المختصر منها إلى اختصار ، والمتخيَّر إلى اختيار .

« ثم إنى رأيت آخر كل طبقة . وواضعى كل حكمة ، ومؤلفى كل أدب أعذب ألفاظاً ، وأسهل بنية ، وأحكم مذهباً ، وأوضح طريقة من الأول ؛ لأنه ناقض متعقب ، والأول بادئٌ متقدم .

« فلينظر الناظر إلى الأوضاع المحكمة . والكتب المترجمة ، بعين إنصاف ، ثم يجعل عقله حكما عادلا ، وفيصلا قاطعاً ؛ فعند ذلك يعلم أنها شجرة باسقة الفرع ، طيبة المنبت ، ذكية التربة ، يانعة الثمرة ؛ فمن أخذ بنصيبه منها كان على إرث من النبوة ، ومنهاج من الحكمة ؛ لا يستوحش صاحبه ، ولا يضل من تمسك به .

« وقد ألفتُ هذا الكتاب ، وتخيرت جواهره من متخيرات جواهر الأدب ، ومحصول جوامع البيان ؛ فكان جوهر الجوهر ولباب اللباب . وإنما لى فيه تأليف الأخبار ، وفضل الاختيار ، وحسن الاختصار ، وفرشٌ فى صدر كل كتاب . وما سواه فمأخوذ من أفواه العلماء ، ومأثور عن الحكماء والأدباء . واختيار الكلام أصعب من تأليفه ، وقد قالوا : اختيار الرجل وافدُ عقله .

« وقال الشاعر :

قد عرفنـــاك باختيارك إذ كا ن دليـــلا على اللبيب اختياره

« وقال أفلاطون :

عقول الناس مدفونة فى أطراف أقلامهم ، وظاهرة فى حسن اختيارهم . فتطلبت نظائر الكلام : وأشكال المعانى وجواهر الحكم وضروب الأدب ونوادر الأمثال ، ثم قرنت كل جنس منها إلى جنسه ؛ فجعلته باباً على حدة ، ليستدل الطالب للخبر على موضعه من الكتاب ونظيره فى كل باب .

« وقصدت من جملة الأخبار وفنون الآثار أشرفها جوهراً ، وأظهرها رونقاً ، وألطفها معنى ؛ وأجزلها لفظاً ، وأحسنها ديباجة ، وأكثرها حلاوة وطلاوة ؛ آخذ بقول الله تبارك وتعالى : « الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه » وقال يحيى بن خالد : الناس يكتبون أحسن ما يسمعون ، ويحفظون أحسن ما يكتبون ، ويتحدثون بأحسن ما يحفظون . وقال ابن سيرين : العلم أكثر من أن يحاط به ، فخذوا من كل شىء أحسنه . وفيما بين ذلك سقط الرأى وزلل القول ، ولكل عالم هفوة ، ولكل جواد كبوة ، ولكل صارم نبوة .

« وقيل للعتابى : هل تعلم أحداً لا عيب فيه ؟ قال : الذى لا عيب فيه لا يموت أبداً ، ولا سبيل إلى السلامة من ألسنة العامة . وقال العتابى : من قرض شعرا أو وضع كتابا فقد استهدف للخصوم واستشرف للألسن ، إلا من نظر فيه بعين العدل وحكم بغير الهوى ، وقليل ما هم .

« وحذفتُ الأسانيد من أكثر الأخبار ، طلبا للاستخفاف والإيجاز ، وهرباً من التثقيل والتطويل ؛ لأنها أخبار ممتعة وحكم ونوادر ، لا ينفعها الإسناد باتصاله ، ولا يضيرها ما حذف منها . وقد كان بعضهم يحذف أسانيد الحديث عن سنة متبعة ، وشريعة مفروضة ؛ فكيف لا تحذف من نادرة شاردة ، ومثل سائر ، وخبر مستطرف ، وحديث يذهب نوره إن طال وكثر ؟ ! . سأل حفص بنُ غياث الأعمش عن إسناد

حديث ، فأخذ بحلقه وأسنده إلى حائط وقال : هذا إسناده ! ! . وحدّث ابن السماك بحديث ، فقيل له ما إسناده ؟ فقال : هو من المرسلات عرفاً ، وحدّث الحسن البصري بحديث ، فقيل له : يا أبا أسعد ، عمن ؟ قال وما تصنع بعمن يا ابن أخى ؟ أمّا أنت فنالتك موعظته ، وقامت عليك حجته .

« وقد نظرتُ فى بعض الكتب الموضوعة ، فوجدتها غير متصرفة فى فنون الأخبار ، ولا جامعة لجل الآثار ، فجعلت هذا الكتاب جامعاً لأكثر المعانى التى تجرى على أفواه العامة والخاصة ، وتدور على ألسنة الملوك والسوقة . وحليت كل كتاب منها بشواهد من الشعر ، يجانس الأخبار فى معانيها . وتوافقها فى مذاهبها ، وقرنت بها غرائب من شعرى ، ليعلم الناظر فى كتابنا هذا أن لمغربنا على قاصيته ، وبلدنا على انقطاعه ، حظاً من المنظوم والمنثور »[1] .

(١) انظر العقد الفريد ـ المقدمة .

الفصل الخامس

فترة الحجابة

١ — فترة حكم استبدادى :

تتمثل هذه الفترة فى السنين التى حكم الأندلس فيها من الناحية الرسمية الخليفة هشام الثانى[١] الذى بويع بعد موت أبيه الحكم المستنصر . أما من الناحية الحقيقية ، فقد كان الحكم لمحمد بن أبى عامر ، الذى عمل حاجباً للخليفة وتلقب بالمنصور[٢] ، ثم لابنه عبد الملك ، الذى خلف أباه فى الحجابة وتلقب بالمظفر[٣] ، ثم لابنه الثانى عبد الرحمن ، الذى عمل عمل أبيه وأخيه وتلقب بالمأمون[٤] .

ذلك أن هشاما بويع بالخلافة ، وهو فى الثانية عشرة من عمره ، فلم يكن يستطيع أن يلى الأمر بنفسه ؛ وتصادف أن كان من رجال القصر وقتئذ ، رجل ذكى طموح ، هو محمد بن أبى عامر ، الذى تمكن من انتزاع السلطان لنفسه شيئاً فشيئاً ، حتى أصبح الحاكم الفعلى بعد فترة وجيزة[٥] . ثم سار ابناه من بعده على سنته ؛ حتى لم يبق لهشام مع المنصور وابنيه من بعده إلا اسم الخلافة فقط[٦] .

وابن أبى عامر من نسل عبد الملك المعافرى ، أحد المحاربين العرب الداخلين مع طارق بن زياد . ويتصل نسبه ببنى عامر إحدى قبائل اليمن . وقد استوطن جده

---

(١) بويع بالخلافة سنة ٣٦٦ وخلع سنة ٣٩٩ هـ (٩٧٦ — ١٠٠٩ م)

(٢) استأثر بالحجابة بعد أن سجن المصحفى سنة ٣٦٧ وظل حتى توفى سنة ٣٩٢ هـ (٩٧٨ — ١٠٠٢ م) .

(٣) عمل بعد موت أبيه من سنة ٣٩٣ إلى أن توفى سنة ٣٩٩ هـ (١٠٠٢ — ١٠٠٨).

(٤) عمل بعد أخيه شهوراً حتى قتل فى رجب سنة ٣٩٩ هـ (مارس سنة ١٠٠٩) م وعلى هذا تكون فترة الحجابة نحو ٣٢ سنة .

(٥) انظر أخباره وتاريخ فترته فى : البيان المغرب ج ٣ ص ٣٨٢ وما بعدها . وفى النفح جـ ١ ص ١٨٥ وما بعدها . وانظر أيضاً : Levi, Historia. pp. 397 ff.

(٦) انظر فى تاريخ المظفر : المصدر السابق ص ٤٣٧ وما بعدها ، وفى تاريخ المأمون نفس المصدر ص فى ٤٥٥ وما بعدها .

إقليم الجزيرة الخضراء ، وكان أبوه من علماء عصره . أما محمد بن أبي عامر نفسه ، فقد رحل إلى قرطبة شاباً يطلب العلم ويتمرس بالأدب ، وبدأ حياته العلمية كاتب عرائض على باب القصر الخليفي بقرطبة ، ثم انتقل إلى عمل فى القصر ، حيث اختارته الملكة صُبْح ليكتب عنها . ثم زكته عند الخليفة الحكم المستنصر ، فولاه بعض المناصب المالية والقضائية ، وأسند إليه الإشراف على أموال ابنه الأمير هشام ولى العهد . ولما مات الخليفة الحكم ، كان ابن أبي عامر أحد الشخصيات الكبيرة فى القصر ، والمرموقة فى الدولة . وقد وصل إلى ما وصل إليه بمساعدة الوزير المصحفى صديقه ، والملكة صبح المعجبة به .

وقد تاقت نفس ابن أبي عامر إلى انتزاع السلطان . ولم يكن فى الميدان وحده ، بل كان هناك الحاجب المصحفى ، وهناك القائد غالب ، ثم هناك الصقالبة وعلى رأسهم جؤذر وفائق . وقد استطاع ابن أبي عامر أن يتغلب على هؤلاء جميعاً ، وأن يضربهم الواحد بعد الآخر ، فتعاقد أولا مع المصحفى للقضاء على نفوذ الصقالبة ، ثم اتفق ثانياً مع غالب القائد للتخلص من المصحفى الوزير ، ثم حارب غالباً آخر الأمر فقضى عليه . وانتهى الأمر بتفرده كأعظم شخصية فى الدولة بعد الخليفة . ولكى يطغى على الخليفة أيضاً حجبه عن الناس حجباً حقيقياً وصرف هو كل شئون الدولة ، وما زال ينتزع لنفسه كل يوم كسباً جديداً حتى صارت كل السلطات فى يده ، وكاد الناس ينسون الخليفة المؤيد ، أمام الحاجب المنصور .

وقد كان ابن أبي عامر ، محباً للجهاد كثير الغزوات ، حتى قيل إنه كان يغزو كل عام مرتين ، وإن غزواته قد بلغت نيفاً وخمسين ، وإن النصر كان حليفاً له ، حتى استحق بجدارة لقب المنصور . فقد اجتاحت جيوشه عدة مرات أقاليم مسيحيي الشمال ، وانتصرت فى قشتالة وجليقية وقطلونية[١]

(١) اتخذ لقب المنصور سنة ٣٧١هـ . انظر : البيان المغرب ج ٢ ص ٤١٧ .

وأخيراً مات ابن أبي عامر أثناء عودته من غزو قشتالة ، ودفن بمدينة سالم ، بعد أن كفن بكفن كان يحمله دائماً في غزواته ، وأمر بأن يذرّ عليه تراب كان يجمعه مما تخلف على جسمه من آثار تلك الغزوات العديدة ، وأوصى بأن يكتب على قبره :

آثاره تنبيك عن أخباره حتى كأنك بالعيان تراهُ
تالله لا يأتي الزمان بمثله أبداً ولا يحمي الثغور سواه[1]

وقد خلفه في الحجابة ابنه عبد الملك وتلقب بالظافر ، واتبع سنة أبيه في التفرد بالسلطان ، وحجب الخليفة وإبعاده عن كل شيء ذي أهمية في السياسة أو الحكم . وكذلك اتبع سنة أبيه في الجهاد والغزو ، فرد اعتداءات ملوك الشمال ، وحافظ على هيبة الدولة وسلامة حدودها ، ثم مات في ريعان شبابه .

وتولى بعده أخوه عبد الرحمن ، وتلقب بالمأمون . وكانت أمه مسيحية بنت رجل يسمى « سانشو » ولذا سماه الفقهاء « سانشول » Sanchuelo أي سانشو الصغير ؛ وذلك لأنهم كانوا يكرهونه ، كما كان يكرهه كثير من الأندلسيين بسبب استهتاره واتهامه بقتل أخيه عبد الملك . وربما كان نسبه لأم مسيحية من أسباب كراهيته .

وكان ذلك كله بمثابة البارود الذي ينتظر الشرارة لينفجر . وقد انطلقت الشرارة ، وكان مطلقها (سانشو) نفسه ؛ فقد دعاه طمعه إلى الضغط على الخليفة ليكتب له بولاية العهد ، وفعلا امتثل الخليفة وكتب بالعهد له . وهنا غلى مرجل الغضب في نفوس الأندلسيين وانتهزوا فرصة غيابه في غزو إقليم ليون في أول سنة ١٠٠٦ م وثاروا بقيادة محمد بن هشام بن عبد الجبار بن عبد الرحمن الناصر ، الذي انضم إليه الساخطون على العامريين وخاصة من كانوا على ولاء لبني أمية ، من يمنيين ومضريين . وهاجم الثائرون

---

(١) ورد هذان البيتان في نفح الطيب ج ١ ص ١٨٦ .

قصر الخلافة ، وقتلوا الحراس ، واضطروا الخليفة إلى التنازل عن الخلافة لزعيم الثورة محمد بن هشام ، الذى ولى الخلافة ، وتلقب بالمهدى.

ولما وصلت أنباء الثورة إلى المأمون أثناء عودته من غزوته . عزم على إخمادها ، ولكن جنده البربر انفصلوا عنه ، وأخذوا يتسللون أثناء مسيره ويدخلون قرطبة ، ويبايعون الخليفة الجديد . ثم قُبض على المأمون ، وقتل وصلبت جثته . وهكذا دالت دولة بنى عامر ، وانتهت فترة الحجابة .

وقد كان الطابع السياسى لتلك الفترة ، هو الطابع الاستبدادى ؛ ففيه القوة التى تحمل الضعف ، والانتصار الذى ينطوى على الهزيمة ، والصعود الذى ينذر بالهبوط . ذلك لأن القوة كانت قوة الحاكم لا قوة الشعب ، والانتصار كان انتصار الطمع لا انتصار المبدأ . كما كان الصعود صعوداً انتهازياً ، لا تسنده دعائم من القيم تضمن له البقاء . فالمنصور قد سلك للوصول إلى تحقيق مآربه طريقاً غير نبيل . حيث قضى على الكفاءات التى رأى فيها حداً من سلطانه ، واستعان بالمرتزقة من الجنود المسيحيين والصقالبة والبربر ، وسجن وقتل . حتى لم يسلم منه صديقه وحموه ، بل لم يسلم ابنه نفسه[1] . وقد يكون كل هذا قد حقق له قوة ، وقد تكون تلك القوة قد انعكست حينا على الدولة . ولكنها فى الواقع كانت قوة شكلية ، قوة مؤقتة ، تنتهى بانتهاء صاحبها . فبعد موت المنصور ، سارت الدولة فترة وجيزة بقوة الدفع ، ثم ما لبثت أن اشتعلت فيها ثورة كانت مبدأ فتنة طاحنة ، لم تود بالدولة العامرية وحدها ، بل بالدولة الأموية ووحدة الأندلس جميعاً . وسوف نفصل القول فى تلك الفتنة فى الفصل التالى إن شاء الله .

---

(١) من ضحاياه : صديقه المصحفى الحاجب ، وحموه غالب القائد ، وابنه عبد الله ، وكان قد اشترك فى حركة ضد أبيه ولكنه وقع فى يده فقتله .

٢ — فترة تحلل اجتماعى

عادت إلى المجتمع الأندلسى فى فترة الحجابة كثير من الأمراض التى كان قد برئ منها فى سنيه السالفة ؛ فقد أدى استخدام المنصور للمرتزقة من البربر والصقالبة ومسيحيى الإسبان ؛ إلى نوع من الانفصال بين الشعب والجيش ، بل وإلى شىء من الكراهية يضمرها هؤلاء لهؤلاء . كذلك أدى سلوك المنصور فى الاستبداد بالأمر والاستئثار بالحكم ، إلى نوع من الانقسام فى المجتمع الأندلسى فكان من الناس من يغضى عن استبداد المنصور واستئثاره ، لأن عينيه تمتلئان بمشاهد الشجاعة ومواكب النصر ؛ ولأن بصره منجذب دائماً إلى هذا التوفيق الهائل الذى أحرزه المنصور فى إخضاع الأعداء المسيحيين ، وهزيمة جيوش المعتدين ، وتأمين الأندلس من الخارج والداخل على السواء .

على أنه كان من الناس أيضاً من ينظر بعين الاستنكار إلى تصرفات المنصور ؛ لتخلصه بطريقة قاسية من كل رجال الدولة الأكفاء ، ولحجبه بصورة مؤلمة للخليفة الشرعى للأندلس ، ثم لتقريبه للمرتزقة الغرباء دون الأندلسيين الأقربين .

وليس من شك فى أن مسلك المنصور فى الوصول إلى السلطان ، ونجاحه فى السيطرة على كل شىء ، قد أدى إلى تفشى روح الطمع ، وشيوع التطلع إلى الغلبة ، وخاصة بين هؤلاء الذين كانوا يرون أن ابن أبى عامر دونهم فى المنبت والاستعداد . وغير ذلك مما يؤهل للسلطان والحكم .

هذا ، وقد أدت الانتصارات الكثيرة إلى وفرة الغنائم وكثرة الثروات ، مما ساعد على انتشار اللهو وشيوع الإقبال على الملذات .

وقد كان المنصور نفسه قدوة فى ذلك ؛ فهو على الرغم من ظهوره بمظهر المتعصب للدين ليجامل الفقهاء ويقوى مركزه بين الشعب ، كان فى حياته الخاصة متحرراً ،

يحب الشراب والرقص واللهو . وقد كانت له مجالس أنس تحكى أخبارَها بعض كتب الأدب[١] .

وقد كان المنصور محبًّا لتقليد الخلفاء والأمراء الأمويين ، بل ربما كان ميالا إلى منافستهم والتفوق عليهم . لهذا اهتم بالتعمير والإنشاء مثلهم ، فبنى مدينة الزاهرة[٢] وجعلها مقر حكمه وموطن رجاله وحرسه ، وذلك ليقابل بها الزهراء التى بناها الناصر ، والتى كانت مقر الخليفة الاسمىّ هشام . وأنشأ المنصور كذلك المنية العامرية[٣] ، وجملها بالبساتين الرائعة والقصور الفخمة ، ليباهى بها المنى التى أنشأها أمراء بنى أمية ، كمنية الرصافة التى كان قد أقامها عبد الرحمن الداخل .

وكما زاد أمراء بنى أمية وخلفاؤهم فى مسجد قرطبة الجامع ، زاد المنصور أيضاً فيه زيادة كبيرة ، وأدخل عليه إصلاحات قيمة ، ربما فاقت ما عمله بعض الأمويين أنفسهم[٤] . وله غير ذلك كثير من أعمال البناء والإنشاء فى القناطر والقصور وغيرها[٥] .

هكذا كان المجتمع فى فترة الحجابة مجتمعاً فيه استقرار وثراء وحضارة وترف من جانب ، وفيه طبقية وعنصرية وطمع وكراهية ونفاق ولهو وتحلل من جانب آخر . ولسنا نبالغ إذا قلنا إنه كان مجتمعاً يحمل فى أعماقه بركاناً يوشك أن ينفجر ، ولكنه حتى ذلك الحين كان بركاناً هامداً يوهم بهدوئه أنه جبل راس ، ويخدع بما فيه أنه منجم غنى ،

---

(١) انظر : الذخيرة لابن بسام ق ٤ م ١ ص ١٧ .

(٢) انظر : نفح الطيب للمقرى ج ١ ص ٢٧٠ وما بعدها .

(٣) انظر : المرجع السابق ص ١٧٢ ، ١٧٣ .

(٤) انظر : المصدر السابق ص ٢٥٥ وما بعدها . والبيان المغرب لابن عذارى جـ ٢ ص ٢٢٩ ، ٢٣٠ .

(٥) انظر : نفح الطيب ج ١ ص ١٩١ . والبيان المغرب جـ ٢ ص ٤٣٠ ، ٤٣١ .

٣ ــ فترة تقييد الثقافة

سارت الثقافة الأندلسية فى فترة الحجابة ، بقوة الدفع الذى دفعته فى الفترات السابقة ، وخاصة فى فترة الخلافة . لذلك لا نلاحظ تقدماً جدياً فى أى ميدان من ميادين المعرفة ، ولا نصادف أعلاماً بارزين فى أى فرع من فروع الثقافة ، هذا باستثناء تلك البقية الباقية من أعلام فترة الخلافة . وربما كان من عوامل استمرار الثقافة الأندلسية فى تلك الفترة على شىء من السير ، أن المنصور بن أبى عامر كان على صلة قديمة بالثقافة ، قد ارتبط بها منذ نشأته ؛ وأنه كان على صحبة قوية للعلماء ، قد أخذ نفسه بها منذ ولايته . وقد قيل : إنه كان له مجلس علمى يضم كبار علماء عصره ، وأن هذا المجلس كان يعقد اجتماعات دورية أسبوعية يحضره المنصور ، طيلة إقامته بقرطبة[١] .

هذه أولى الملاحظات على الثقافة الأندلسية فى فترة الحجابة . وهناك ملاحظتان أخريان ، لعلهما أهم ما غير ملامح الثقافة الأندلسية عما كانت عليه فى فترة الخلافة . أما أولاهما فخمول الدراسات الفلسفية . وأما الثانية فنشاط الدراسات اللغوية . وقد كان خمول الدراسات الفلسفية بسبب مقاومة المنصور لتلك الدراسات ، ترضياً للعامة وكسباً لتأييد الفقهاء . ومن أبرز أعماله فى ذلك إحراقه لكتب الفلسفة والمنطق والفلك ، التى كانت تمتلئ بها مكتبة الحكم المستنصر ، وبهذا تقيدت الحرية الفكرية ، وتهيب الناس الاتصال بالعلوم العقلية ، وكان من نتائج ذلك كما يقول بعض المؤرخين ، أن سكن أكثر من كان قد تحرك للحكمة ، وخلت نفوس من شبوا للفلسفة ، وآثر هؤلاء وأولئك التستر ، بل إن بعضهم قد هاجر إلى المشرق أيام المنصور فراراً من الأذى وطلباً للحرية[٢] .

---

(١) انظر : جذوة المقتبس للحميدى ص ٧٣ .

(٢) انظر : طبقات الأمم لصاعد الأندلسى ص ٦٦ — ٦٩ .

وهكذا عوّق هذا الفرع من فروع الثقافة عن النمو ، بعد أن بدأ يورق وخاصة فى أيام الحكم المستنصر ، راعى حرية الفكر .

وأما نشاط الدراسات اللغوية فى فترة الحجابة ، فأهم أسبابه قدوم اللغوى المشرقى الأديب ، صاعد البغدادى[1] الذى وفد على الأندلس أيام المنصور ، فتلقاه تلقياً حسناً ، متشبهاً بالناصر فى تلقيه لأبى على القالى .

وقد جاء تنشيط صاعد للدراسات اللغوية فى الأندلس خلال الحجابة ، من جهة أن الأندلسيين كانوا يحسون بشبه مركب نقص أمام المشارقة كما عرفنا[2] ، ولهذا كانوا يميلون غالباً إلى إظهار تفوقهم على كل مشرق وافد عليهم . وكما حاول يحيى الغزال إخمال الفنان زرياب ، وكما أراد منذر بن سعيد هزيمة أبى على القالى ، كذلك تصدى كثير من علماء فترة الحجابة لكشف صاعد البغدادى ، فكانت بينه وبينهم مناقشات لغوية كثيرة ، بلغت أحياناً درجة التحدى ، بل انحدرت فى بعض الأحيان إلى هوة نصب الحبائل ؛ كل ذلك ليسقط العالم المشرق فيسقط معه النفوذ الأدبى المشرقى الذى كان يثقل كاهل الأندلسيين فيما يبدو.

وهكذا كان لمحاورات الأندلسيين ومناظراتهم لصاعد، أثر كبير فى تنشيط الحركة اللغوية فى فترة الحجابة ، على الرغم مما تخلل تلك المحاورات والمناظرات من كيد ونصب

---

(١) كنية هذا الرجل : أبو العلاء ، واسمه صاعد بن أبى الحسن بن عيسى ، وهو ربعى النسب ، طبرى الأصل بغدادى التربة . وقد وفد على الأندلس أيام المنصور ، سنة ٣٨٠ هـ (٩٩٠ م) تقريباً وكان عالماً باللغة والأدب والأخبار ، كما كان سريع الجواب حسن الشعر بارع الارتجال ، محباً للمزاح . انظر ترجمته وبعض أخباره فى : الذخيرة لابن بسام ق ٤ م ١ ص ٢ وما بعدها . وفى نفح الطيب المقرى جـ ٢ ص ٨٦ وما بعدها . وفى : المعجب لعبد الواحد المراكشى ص ١٩ وما بعدها فى وفيات الأعيان لابن خلكان جـ ١ ص ٢٢٩ .

(٢) انظر : صفحة ٦٢ من هذا الكتاب .

أحابيل[١] . وذلك أن الرجل كان — إلى طبيعته الفنية — على كثير من العلم والرواية والبصر بالشعر العربى ، وقد اعترف له بعض الأندلسيين بالتفوق[٢].

وقد كان كتاب « الفصوص» الذى ألفه صاعد ، ذا أثر كذلك فى تغذية الدراسات اللغوية والأدبية بالأندلس . وهوكتاب كان صاعد قد أملاه على الأندلسيين فى مسجد الزهراء . وأراد له أن يتفوق على أمالى القالى[٣] . وكان المنصور قد كافأه عليه مكافأة كبيرة ، قيل إنها خمسة آلاف دينار[٤]. وقد تتبع هذا الكتاب أدباء الأندلس نقدا وتجريحاً[٥]

هذا ولا تُذكر الثقافة الأندلسية فى فترة الحجابة ، دون أن ينوه بابن الفرضى وكتابه « تاريخ علماء الأندلس» ؛ فالرجل من أجل العلماء الأندلسيين ، وكتابه من أشهر ما أخرجت الأندلس من ذخائر[٦].

وقد ألف ابن الفرضى عدة كتب ضاعت فيما ضاع من تراث الأندلس مثل : « تاريخ شعراء الأندلس» وكتاب فى « المؤتلف والمختلف» . ولكن شهرة ابن الفرضى قد اقترنت بكتابه القيم الباقى « تاريخ علماء الأندلس» ، الذى يعتبر أقدم معجم رجال

---

(١) انظر طرفا من ذلك فى : الذخيرة ق ٤ م ١ ص ٨ ، وفى : النفح ج ٢ ص ٨٨ . وانظر بعض ما اتهم به الأندلسيون صاعداً فى : الذخيرة ق ٤ م ١ ص ٧١ وفى : النفح ج ٢٧٠ ص ٢٠ — ٢١ .

(٢) اقرأ بعض شواهد ذلك فى الذخيرة ق ٤ م ١ ص ٢١ — ٢٢ .

(٣) انظر : نفح الطيب ج ٢ ص ٧٧ .

(٤) انظر : وفيات الأعيان ج ١ ص ٢٢٩ .

(٥) انظر : النفح ج ٢ ص ٨٧ .

(٦) واسم الرجل أبو الوليد عبد الله بن محمد بن يوسف بن نصر الأزدى ، وقد اشتهر بابن الفرضى . وهو من أهل قرطبة . وكان فقيهاً محدثاً خطيباً جماعاً للكتب ، حتى كانت له منها خزانة عامرة ، وقد تولى القضاء فى بلنسية حيناً ، ثم انتهت حياته أيام الفتنة بقرطبة على يد البربر . انظر ترجمته فى : جذوة المقتبس للحميدى رقم ٥٣٧ وفى : الصلة لابن بشكوال ٥٧١ . وفى الذخيرة لابن بسام ق ١ م ٢ ص ١٢٠ ، ١٢١ .

أندلسى عام بين آيدينا[1] ، والذى لا يستغنى عنه باحث فى الحياة الثقافية الأندلسية ، ولا مترجم لشخصية من شخصيات العلماء الأندلسيين الأولين ، ممن عاشوا فى القرن الرابع أو قبله .

٤ — فترة جمود الأدب

سار الأدب كذلك فى فترة الحجابة بقوة الدفع الذى دفعته فى الفترات السابقة ؛ فظل على ما كان عليه من أنواع ، ولم يعرف غير الذى كان يعرف من المذاهب . بل إن بعض الظواهر الأدبية الطيبة التى بدت فى فترة الخلافة ، وكان يرجى لها النماء فيما بعد ، قد اختفت فى فترة الحجابة ، ولم تجر الأمور معها على ما كان يتوقع . كل هذا بسبب تأثر الأدب بالظروف السياسية الاستبدادية ، والأحوال الاجتماعية المنحلة ، والأوضاع الثقافية المقيدة وهذا تفصيل ذلك :

أولا — الشعر :

ظل الشعر خلال فترة الحجابة على تلك الاتجاهات التى ظهرت فى الأندلس خلال الفترات السابقة ، وكان بعضها وافداً من المشرق وبعضها الآخر نابعاً من الأندلس ، وهى الاتجاه المحافظ والاتجاه المحدث والاتجاه الشعبى والاتجاه المحافظ الجديد . ولم يضف إلى تلك الاتجاهات المعروفة أى اتجاه جديد خلال فترة الحجابة . بل إن بعض الظواهر الشعرية التى ظهرت فى الفترة السابقة ، وكانت سبب إثراء للشعر وتوسيع لميدانه ، قد اختفت فى فترة الحجابة ؛ فعاد الشعر أفقر تراثاً وأضيق ميداناً . فظاهرة

---

(١) نشره المستشرق الإسبانى « كوديرا » Codera فى مجلدين سنتى ١٨١٩ ، ١٨٩٢ وسماه بالاسم الذى ذكره ابن بشكوال صاحب الصلة ، وهو (تاريخ علماء الأندلس) ثم نشره السيد عزت العطار فى مجلدين سنة ١٩٥٤ . وسماه بالاسم الذى ذكره الحميدى فى جذوة المقتبس وهو (تاريخ العلماء والرواة للعلم بالأندلس) .

تأثره بالنهضة العلمية واستخدامه للمعانى الفلسفية ، مما كان يبشر بظهور شعر فلسفى ؛ هذه الظاهرة قد اختفت فى فترة الحجابة ، وعاد الشعر إلى معانيه المألوفة وموضوعاته الغنائية المعروفة . وليس يصعب تعليل اختفاء هذه الظاهرة بعد أن عرفنا ما كان فى عهد الحجابة من محاربة للفلسفة وإحراق لكتبها ومطاردة للمشتغلين بها . فكما كانت الحرية العقلية فى فترة الخلافة سبباً فى ظهور الشعر الفكرى أو بواكير الشعر الفلسفى ، كانت الاستبدادية الفكرية فى فترة الحجابة سبباً فى اختفاء هذا اللون من ألوان الشعر .

على أنه إذا كان الشعر قد سار فى تلك الفترة على اتجاهاته المعروفة ، واستمر على أغراضه المألوفة ، فإن بعض الأغراض كان أوفر حظاً وأشد نشاطاً ؛ وذلك نتيجة للظروف السياسية والاجتماعية الخاصة التى تميزت بها الحياة الأندلسية فى تلك الفترة . ومن تلك الأغراض التى كانت على حظ موفور من النشاط خلال فترة الحجابة :

(أ) المجون :

فقد كثر الشعر فى الدعوة إلى الشراب ، ووصف ما يدور فى مجالس اللهو ، ثم فى الحديث عن لذائذ ومتع قد يصل إلى حد الأدب المكشوف . وقد نشط هذا الغرض الشعرى نتيجة لشيوع التحلل فى المجتمع الأندلسى وميله إلى اللهو ، وإقباله على المتع الحسية ؛ من شراب ورقص واقتناء لحسان الجوارى ، ممن كثر سبيهن ضمن ما كان ما يسبى فى الانتصارات الحربية الكثيرة .

ومن أمثلة شعر المجون فى تلك الفترة ، ما نقله ابن بسام فى هذا الخبر : كتب عبد الملك بن شهيد إلى المنصور فى يوم قُرّ فقال :

أما ترى بَرْد يومنا هذا ... صيرنا للكمون أفذاذا
قد فُطرتْ صحة الكبود به ... حتى لكادت تعود أفلاذا

فادعُ بنـــا للشَّمول مصطليا نُغذَّ ســيراً إليك إغذاذا
وادع المسمى به وصاحبه تدع نبيــلا وتدع أســتاذا

قال ابن بسام : « وكان المنصور قد عزم ذلك اليوم على الانفراد بالعيال ، فأمر بإحضار الأصحاب ، وأحضر الوزير أبا مروان (عبد الملك بن شهيد) وأخذوا فى شأنهم ، فمر يوم من الطيب لم يُشهد ، وألوان من اللهو لم تُعهد . وطما الأمر وسما ، حتى تصايح القوم وتزافنوا[1] ، ودار الدور (بالرقص) ثم انتهى إلى الوزير ابن شهيد ، وكان لا يطيق القيام لنقرس كان يلازمه ، فأقامه الوزير أبو عبد الله بن عياش ؛ فارتجل الشيخ أبياتاً جعل يقود بها وينشد :

هاك شيخ قاده عــذر لكا قــام فى رقصتــه مستهلكا
لم يطــق رقصهــا مستثبتًا فانثنى يرقصهــا مستمسكا
عــاقه مــن هزها معتــدلا نقرس أنحى عليــه فاتكا
طَــرِب اللهوُ وقد حــق له طربا أرقصــه حتى اشتكى
من وزير فيهمُ رقَّاصــة قام من طيب ينــاغى ملكا
أنا لو كنت كما تعــرفنى قمت إجلالا على رأسى لكا
قَهقَهَــةَ الإبريق منى ضحكا ورأى رعشــة رجلى فبكى[2]

ومن شعر المجون كذلك ما دار بين عبد الملك بن شهيد والمنصور بشأن بعض الجوارى . وكان ابن شهيد قد تخلف عن غزوة ، فكتب إلى المنصور بعد عودته بالسبي يطلب منه أن يهديه بعض الحسان ممن سبين فى تلك الغزوة ، فكان مما قال :

أنا شيخ والشيخ يهوى الصبايا فبنفسى أقيــك كل الــرزايا

---

(١) تزافنوا : تراقصوا .

(٢) اقرأ هذه القصة وما اشتملت عليه من شعر فى : الذخيرة لابن بسام ق ٤ م ١ ص ١٦ ، ١٧ .

ورسولُ الإله أسهم فى الفتـــىء لمن يحثّ فيـه المطايا
فاجعلنّى – فديت – أشكر معرو فك وابعث بها عِذاب الثنايا

وكان مما رد به المنصور على هذا الطلب :

قد بعثنا بها كشمس النهـارِ فى ثلاث من المهَا أبكارِ
وامتحنّا بعُذرة الغيـد إن كنـت تَوَخّى بوادر الأعـذار
فاتئـد واجتهـد فإناك شيخ سلخ الليل عن بياض النهار
صانك الله من كلالك فيهـا فمن العـار كَلّة المسمـار

فتلقى الشيخ الهدية ، وكتب بعد ذلك لابن أبى عامر بهذا الشعر الذى يستر مكشوفه بكثير من الحيل البلاغية :

قد فضضنا ختام ذاك السوارِ واصطبغنـا من النجيع الجارى
ونعمنـا فى ظل أنعم ليـل ولهونا بالبـدر ، ثم الدرارى
وقضى الشيخ ما قضى بحسام ذى مضاء عَضْب الظبا بتّار
فاصطنعه فليس يجزيك كفراً واتخذه فحـلا على الكفار(١)

ومن الأغراض الشعرية التى نشطت كذلك فى فترة الحجابة :

(ب) المدح :

فقد كان الحاجب يحس بالحاجة إلى تثبيت سلطانه غير الشرعى ، فكان يتخذ من أفواه الشعراء أبواق دعايته . ومن هنا أحاط المنصورُ نفسه بجماعة من شعراء عهده ، وجعل لهم ديواناً خاصًّا ، يُعطى فيه كل على حسب طبقته(٢) ، كما كان يصطحبهم

---

(١) اقرأ هذه الأبيات وقصتها فى : الذخيرة لابن بسام ق ٤ م ١ ص ١٨ ، ١٩ ، وفى نفح الطيب للمقرى ج ١ ص ٢٧٤ . وبين المصدرين خلاف فى النص . وقد اخترنا الأحسن من كل .

(٢) انظر : جذوة المقتبس للحميدى ص ١٠٣ ، ٢٣٩ .

معه فى الغزوات ، لتسجيل ما يحظى به من انتصارات ، ثم التغنى بذلك بين الأندلسيين[١]

ومن النماذج الشعرية التى تمثل هذا الغرض الشعرى ، قول ابن دراج القسطَلّى للمنصور :

ما كفرُ نعماك من شأنى فيثنينى ... عما توالى لنصر الملك والدين

ولا ثنائى وشكرى للوفاء بما ... أوليتنى ، دون بذل النفس يكفينى

حقٌ على النفس أن تبلى ولو فنيت ... فى شكر أيسر ما أضحيت تُولينى

ها إنها نعمة ما زال كوكبها ... إليك فى ظلمات الخطب يهدينى

تنأى بجوهر وُد غـــير مبتذل ... عندى . وجوهر حمد غير مكنون

وحبذا النأى عن أهلى وعن وطنى ... فى كل برّ وبحر منك يدنينى

وموقف للنوى أغليتُ متّندى ... فيه وأرخصتُ دمع الأعين العين

من كل نافرة ذلت لقود يدى ... فى ثنى ما يَدُكَ العلياء تحبونى

والخدر يخفق فى أحشاء والهة ... تردد الشجو فى أحشاء محزون

أجاهد الصبر عنها وهى غافلة ... عن لوعة فى الحشا منها تناجينى

يا هذه كيف أعطى الشوق طاعته ... وهذه طاعة المنصـــور تدعونى

شدى علىّ نجاد السيف أجعـــله ... ضجيع جنب نبا عن مضجع الهون

رضيت منها وشيك الشوق لى عوضا ... وقلت فيها للوعات الأسى بينى

فإن تَشجّ تباريحُ الهوى كبدى ... فقد تعوضت قربًا منك يأسونى

وإن يمت موقف التوديع مصطبرى ... فأحرِ لى بدنو منـــك يحيينى

وأى ظلٍ سوى نعماك يلحفنى ... أو وِردِ ماء سوى جدواك يروينى[٢]

كذلك كان من الأغراض الشعرية التى نشطت فى فترة الحجابة :

---

(١) انظر : الإحاطة لابن الخطيب ج ٧ ص ٧١ (المختصر المطبوع فى القاهرة سنة ١٣١٩) .

(٢) هذه الأبيات من قصيدة وردت فى يتيمة الدهر للثعالبى ج ٢ ص ١٠٤ — ١٠٥ .

(ج) الوصف :

فقد كثرت مظاهر الترف ، وتعددت مشاهد الجمال ، وشاعت فى الحياة الأندلسية ألوان مادية استرعت انتباه الشعراء ، وأوحت إليهم بنقلها فى لوحات من القريض . وقد كانت الطبيعة من أهم ما جذب أنظار الشعراء الوصافين ، حتى لنجد شعر الطبيعة قد اتضحت معالمه واحتل مكاناً واضحاً فى الشعر الأندلسى منذ ذلك الحين ؛ فقد وصفت الرياض وأنوارها ، والحدائق وأزهارها ، بل أنطقت الأزهار فتفاضلت ، وأجرى الثناء على لسانها فمدحت . ومن أمثلة ذلك ما نرى فى أشعار أبى مروان الجزيرى ، الذى يعد من أبرع شعراء تلك الفترة[1] . والذى لا شك فيه أن وقوف الأندلسيين على شعر الصنوبرى[2] وتأثرهم به ، كان من أسباب نضج شعر الطبيعة الأندلسى وازدهاره فى تلك الفترة . وقد دخل شعر هذا الشاعر المشرقى إلى الأندلس فى أواخر فترة الخلافة مع محمد بن العباس ، وهو عالم من أهل حلب ، وكان قد تلقى علمه بالمشرق ، وروى شعر الصنوبرى عنه ، ثم نقله إلى الأندلس حين وفد عليها فى أيام الحكم المستنصر[3] .

ومعروف أن الصنوبرى اشتهر بشعره فى الطبيعة ورياضها وأزهارها ، حتى كان أجمل شعره الروضيات والنوريات[4] . فكان لوقوف الأندلسيين على شعره ، أثر فى نضج شعرهم فى الطبيعة ، وظهور روضياتهم ونورياتهم التى أريد لها أن تنافس روضيات الصنوبرى ونورياته . والقارئ لشعر الجزيرى — خير شعراء الطبيعة فى هذه الفترة —

---

(١) اقرأ بعض أشعاره وأخباره فى : الذخيرة ق ٤ م ١ ص ١١ وما بعدها .

(٢) هو أحمد بن محمد بن الحسن الضبى الحلبى المتوفى سنة ٣٣٤ هـ . اقرأ عنه فى : شذرات الذهب لابن العماد ج ٢ ص ٣٣٥ . وفى التاريخ الكبير لابن عساكر ج ١ ص ٤٥٦ .

(٣) انظر : تاريخ علماء الأندلس لابن الفرضى ترجمة رقم ١٤٠٤ .

(٤) جمع بعض شعره فى الطبيعة ، الأستاذ محمد راغب الطباخ ، وجعله فى كتاب سماه « الروضيات » والكتاب مطبوع فى حلب سنة ١٩٣٢ .

يرى بجلاء روح الصنوبرى وطيفه، يرفان وراء أكثر الصور، ويحلقان مع معظم الأخيلة ومن ذلك قول الجزيرى على لسان بهار المنية العامرية :

حَدَقُ الحسان تُقِرُّ لى وتغارُ ... وتضل فى صفتى النهى وتحار
طلعتْ على قضبى عيون كمائمى ... مثل العيون تحفها الأشفار
وأختصُّ شىء بى إذا شبهتنى ... دُرَرٌ تنطّقَ سلكهَا دينار
أهدَى له قضبُ الزمرد ساقه ... وحباه أنفس عطره العطار
أنا نرجس حقًّا بهرت عقولهم ... ببديع تركيبى فقيل بهار[1]

ومن نماذج شعر الطبيعة فى فترة الحجابة ما كان يمزج فيه وصف الطبيعة بالمدح ، وكثيراً ما يكون هذا حين يحدث الوصف بحضرة الممدوح ، أو حين يكون الموصوف مما يتصل به . وكثيراً ما كان الحاجب يحث على هذا الوصف فى مجلس من مجالسه أو روضة من رياضه . ومن أمثلة هذا اللون من الوصف قول أبى المطرّف بن أبى الحباب ، وكان قد دخل على المنصور فى المنية العامرية ، فوقف على روضة فيها ثلاث سوسنات ، ثنتان منها قد فتحتا ، وواحدة لم تتفتح :

لا يوم كاليوم فى أيامنا الأولِ ... بالعامرية ذات الماء والظُّلَلِ
هواؤها فى جميع الدهر معتدل ... طيبًا وإن حل فصل غيرُ معتدل
ما إن يبالى الذى يحتل ساحتها ... بالسعد أن لاتحل الشمس فى الحمل
كأنما غرست من ساعة وبدا السوسان من حينه فيها على عجل
أبدت ثلاثًا من السوسان مائلة ... أعناقها من الإعياء والكسل
فبعض نوارها للبعض منفتح ... والبعض منغلق عنهن فى شُغُل

(١) انظر : الذخيرة ق ٤ م ١ ص ٣٣ .

كأنهــا راحة ضمت أناملها … من بعد ما ملئت من جودك الحفل
وأختها بسطت منها أناملهــا … ترجو نداك كما عودتها فصل[١]

(د) النقد السياسى :

وقد كان ذلك نتيجة لعدم سلامة الوضع السياسى فى نظر كثير من الأندلسيين ، حيث يوجد خليفة شرعى معطل ، وإلى جانبه حاجب مستبد مسيطر ، هذا إلى جانب نفوذ أم الخليفة المسماة صبح ، ووصول المنصور عن طريقها إلى كثير مما أراد . ووضع كهذا من شأنه أن يثير بعض الشعراء وينطقهم بما يعبر عن سخط الساخطين وتبرم المتبرمين . ومن ذلك قول بعضهم :

أبنى أمية أين أقمار الدجى … منكم وأين نجومها والكوكبُ
غابت أسود منكمُ عن غابها … فلذاك حاز الملك هذا الثعلب[٢]

ومن ذلك أيضاً قول بعضهم على لسان الخليفة هشام .

أليس من العجائب أن مثلى … يرى ما قل ممتنعًا عليـــه
وتُملك باسمه الدنيـــا جميعًا … وما من ذاك شىء فى يديه[٣]

وألذع من ذلك قول بعض الشعراء ينتقد الوضع كله فى كثير من السخرية والتجريح :

اقتربَ الوعدُ وحـــان الهلاكْ … وكل ما تحـــذره قد أتاكْ
خليفـــة يلعب فى مكتب … وأمـــهُ حبُـــلى وقاضٍ . . .[٤]

وآخر الأغراض الشعرية التى برزت فى فترة الحجابة :

(١) اقرأ هذه الأبيات فى : نفح الطيب ج ١ ص ١٧٢ .
(٢) ورد هذان البيتان فى : نفح الطيب ج ١ ص ٢٨٦ .
(٣) ورد هذان البيتان فى : البيان المغرب لابن عذارى ج ٢ ص ٤١٨ .
(٤) قد حذفنا الكلمة الأخيرة لقبحها ويمكن فهمها من السياق . والبيتان فى النفح ج ١ ص ٢٨١ ، ٢٨٢ .

(هـ) الاستعطاف :

وقد كان نتيجة طبيعة لوجود كثير من الضحايا السياسيين فى تلك الفترة . وأروع أشعار استعطاف خلفتها فترة الحجابة ، هى أشعار الوزير المصحفى ، الذى رأى فيه المنصور عقبة فى سبيل الوصول إلى غايته ، فألقى به فى السجن بعد أن وصل عن طريقه إلى المجد . وكان الرجل شاعراً مجيداً ، فنظم كثيراً من مقطوعات الاستعطاف الرقيقة ، ولكنها لم تحرك قلب المنصور . ومن مقطوعات المصحفى الاستعطافية قوله له :

هبنى أسأت فأين الفضل والكرمُ ... إذ قادنى نحوك الإذعان والندمُ
يا خير من مُدّت الأيدى إليه أما ... ترثى لشيخ نعاه عندك القلم
بالغتَ فى السخط فاصفح صفح مقتدر ... إن الملوك إذا ما استُرحموا رحموا[1]

ومن استعطاف المصحفى كذلك قوله :

لئن جلّ ذنب ولم أعتمده ... فأنت أجل وأعلى يدا
ألم تر عبداً عدا طورَه ... ومولًى عفا ورشيداً هدى
ومُفسد أمر تلافيتَه ... فعاد فأصلح ما أفسدا
أقِلْنى أقالك من لم يزل ... يقيك ويصرف عنك الردى[2]

(و) الشعراء :

عرفت الأندلس خلال فترة الحجابة طائفة من الشعراء ، الذين كان بعضهم قد عاصر الفترة السابقة وأسهم فيها بنشاط شعرى ، والذين عمر بعضهم حتى أدرك الفترة اللاحقة وشارك فيها بنشاط شعرى أيضاً . وقد آثرنا ذكر هؤلاء الشعراء هنا ، لارتباطهم

---

(١) اقرأ هذه الأبيات فى الذخيرة ق ٤ م ١ ص ٥١ وف . نفح الطيب ج ١ ص ٢٨١ .

(٢) انظر : نفح الطيب ج ١ ص ٢٨٧ .

أكثر بفترة الحجابة ، الأمر الذى من شأنه أن يجعلهم أكثر تأثراً بتلك الفترة وأشد انفعالا بها .

ويبدو أن شعراء فترة الحجابة كانوا كثيرين ؛ حتى لقد قيل : إن المنصور قد صحب فى إحدى غزواته أربعين شاعراً من طبقات مختلفة[1] . ومع هذا فالأسماء الباقية التى اقترنت بأشعار تتصل بتلك الفترة ، ليست من الكثرة بهذ الحد الذى ذكروا . ولعل السبب فى ذلك هو ضياع كثير من الأشعار والآثار بسبب ما أعقب تلك الفترة من اضطراب . ومهما يكن من أمر فقد بقيت أسماء نفر من شعراء فترة الحجابة ، كما بقيت بعض أشعار تتصل بتلك الفترة ، ومن هذه الأسماء : الحاجب المنصور ، والوزير المصحفى ، والأديب الجزيرى ، والشاعر ابن بدر ، والزاهد بن أبى زمنين[2] ، والأمير الطليق[3] . ولكن ألمع شاعرين تألقا فى فترة الحجابة هما : الرمادى والقسطلى وسنفرد كلا منهما بحديث.

---

(١) انظر : Palencia, Literatura. P. 58

وانظر أيضاً : تاريخ الفكر الأندلسى ص ٦٦ .

(٢) اقرأ بعض أشعار المنصور فى : نفح الطيب ج ١ ص ١٨٧ ، ١٩٠ وبعض أشعار المصحفى فى المرجع نفسه ص ١٩٠ ، ١٩١ ، ٢٧٧ ، ٢٧٨ ، وبعض أشعار الجزيرى فى الذخيرة ق ٤ م ١ ص ٣١ وما بعدها .

واقرأ ترجمة ابن أبى زمنين وبعض شعره فى : جذوة المقتبس ترجمة رقم ٥٧ .

(٣) هو مروان بن الرحمن بن مروان بن عبد الرحمن الناصر ، كان شاعراً رقيقاً يشبه فى بنى أمية ابن المعتز فى بنى العباس . وقيل إنه قتل أباه لأنه وجده مع جارية له ، فسجنه المنصور مدة ثم أطلقه بعد أن رأى فى منامه أن النبى يأمره بإطلاقه ، فسمى بالطليق لهذا . وقد مات سنة ٤٠٠ هـ . انظر : نفح الطيب ج ٢ ص ٣٣٣ ، ٣٣٤ ، وجذوة المقتبس ترجمة رقم ٧٩٩ ، وبغية الملتمس ترجمة رقم ١٣٤٣ ، ويتيمة الدهر للثعالبى ج ١ ص ٤٠٢ ، والمغرب لابن سعيد ج ١ ص ١٧٦ ، والحلة السيراء لابن الأبار ص ١١٤ وما بعدها .

انظر أيضاً البحث الذى كتبه عنه جارثيا جوميث فى Cinco Poetas Musulmanes

الرمادى :

اسمه يوسف بن هارون [١] ، وكنيته أبوعمر ، أما الرمادى فلقبه . وقد ظن بعض من ترجموا له أن هذا اللقب نسبة إلى مكان بالمغرب يسمى الرمادة ، وأن منه أحد أجداد الشاعر [٢] . غير أن هذا اللقب ليس — كما ظنوا — نسبة إلى الرمادة ، وإنما هو الصورة العربية للقب « رومانثى » كان يطلق على الشاعر كأثر من آثار امتزاج العربية بالرومانثية فى المجتمع الأندلسى .

ومما يؤكد هذا أن بعض المصادر الأندلسية القديمة قد حفظت لنا هذا اللقب بصورته الرومانثية ، ونبهت كذلك إلى نقل هذا اللقب من صورته غير العربية إلى صورته العربية ؛ فقال ابن بشكوال صاحب كتاب الصلة ، فى ترجمته للشاعر يوسف بن هارون : «كان يلقب بأبى جنيش فنقل إلى الرمادى »[٣] . فكلمة جنيش هى الكلمة الرومانثية التى صارت فى الأسبانية Cenisa «ثنيسا» ومعناها رماد . فأبو جنيش هى أبو رماد أو الرمادى [٤] .

وهو من أسرة تتصل بقبيلة كندة ، ولذا يقال له : يوسف بن هارون الكندى .

---

(١) انظر ترجمته وبعض أخباره وأشعاره فى : جذوة المقتبس ترجمة رقم ٨٧٨ وفى الصلة لابن بشكوال رقم ١٤٩١ . وفى بغية الملتمس للضبى رقم ١٤٥١ ، وفى المطرب لابن دحية ص ٣ ، وفى وفيات الأعيان ج ٢ ص ٥٤٢ وما بعدها . وفى مطمح الأنفس ص ٧٨ — ٨٤ — وفى يتيمة الدهر ج ٢ ص ١٠٠ وما بعدها ، وفى المغرب ج ١ ص ٣٩٢ ، وفى المعجب ص ١٦ ، وفى نفح الطيب ج ٢ ص ٢٢٦ — ٢٢٧ .

(٢) ممن ظن ذلك صاحب جذوة المقتبس ، وتابعه من نقلوا عنه .

(٣) انظر : الصلة ترجمة رقم ١٤٩١ .

(٤) أنظر : Palencia Literatura. P.59

وانظر : تاريخ الفكر الأندلسى ص ٦٨ .

وقد ولد فى السنوات الأولى من المائة الرابعة[١] . ونشأ بقرطبة وتثقف على علمائها ، واكتسب صناعة الأدب من شيخه أبى بكر بن هذيل[٢] كما أفاد كذلك من علم أبى على القالى ، إذ روى عنه كتابه الأمالى . ويبدو أن الرمادى قد قام بالتدريس فى قرطبة حيناً ، بعد أن بلغ من العلم درجة تسمح له بذلك ؛ فقد ذكر اسمه ضمن من قرأ عليهم بعض الدارسين فى تلك الفترة[٣] . ولكن المرجح أن الشعر اجتذبه فى عهد مبكر من حياته ، كما تدل على ذلك قصيدته فى استقبال أبى على القالى حين وفد على الأندلس[٤] .

وقد عاصر الرمادى عدداً من حكام الأندلس ، وكان له فى عهد كل منهم نشاط شعرى ؛ فقد عاصر عهد الناصر ، وكان مما أثر عنه من شعر قيل فى تلك الفترة ، قصيدته التى استقبل بها القالى ، والتى يقول فى مطلعها :

مَن حاكمٌ بينى وبين عذولى ... الشَّجْوُ شجوى ، والعويل عويلى[٥]

كذلك عاصر الرمادى عصر المستنصر ، وكان مما أثر عنه من شعر قيل فى تلك الفترة ، تلك القصيدة التى قالها دفاعاً عن الخمر ، حين عزم الخليفة على إراقتها وهم باجتثاث الكروم ؛ وهى القصيدة التى مطلعها :

بخطب الشاربين يضيق صدرى ... وتُرمضنى بليتهم لعمــرى[٦]

---

(١) لأنه كان حين قدم القالى إلى الأندلس سنة ٣٣٠ شاباً يقول الشعر ، ويتحدث عن شعرات بيض تنزلن بمفرقه ، فإذا فرضنا أنه كان حينئذ فى حدود السابع والعشرين من عمره كان مولده نحو سنة ٣٠٣ .

(٢) انظر ترجمته ، فى : جذوة المقتبس رقم ٩٠٧ .

(٣) من قرأ على الرمادى ، أرقم بن عبد الرحمن ، انظر : المغرب ج ٢ ص ١٤ .

(٤) وفد القالى على الأندلس سنة ٣٣٠ .

(٥) وردت أبيات من هذه القصيدة ، فى وفيات الأعيان ج ٢ ص ٤١٠ ، وفى يتيمة الدهر ج ٢ ص ١٠٠ .

(٦) وردت هذه القصيدة فى : جذوة المقتبس ص ١٤ — ١٥ .

وكان من شعر الرمادى فى عهد الحكم بعض الشعر السياسى الذى انتقد فيه الشاعر الخليفة ، ومنه قوله :

يُوَلِّى وَيعزلُ مِن يومــهِ فلا ذا يتمُّ ولا ذا يتمْ[1]

وقد كان من نتائج هذا اللون من الشعر أن سجن الشاعر ، فألف فى سجنه مجموعة شعرية سماها «كتاب الطير» ؛ ووصف فى هذه المجموعة كل طائر معروف وذكر خواصه ، ثم ذيل كل قطعة بمدح لولى العهد هشام بن الحكم ، مستشفعاً به إلى أبيه فى إطلاق سراحه[2] .

ويبدو أن الرمادى لم يخرج من السجن إلا بعدموت المستنصر ، ثم عاصر كذلك عهد المنصور ، وكان له فى أيامه نشاط شعرى ملحوظ . ويبدو أيضاً أن بعض هذا النشاط كان سياسيًّا ؛ فقد اتهم الشاعر بهجاء المنصور ومشايعة خصومه ، فعاقبه ابن أبى عامر وأمر بتغريبه ، ثم استشفع له عنده ، فخفف الحكم إلى المقاطعة الاجتماعية ؛ فقد طلب إلى الناس ألا يكلمه أحد ولايتصل به أحد ، فعاش فترة قاسية من حياته وكأنه ميت[3] .

والمؤكد أن تلك المقاطعة لم تستمر بقية حياة الشاعر كما ظن بعض الرواة ، والمرجح أنها لم تستمر بقية عهد المنصور ، كما ذكر ذلك البعض[4] ؛ وذلك لأن الرمادى قد عاش مدة بعد عهد المنصور ، حتى شهد الفتنة ، كما تقول أدق الروايات[5] ، وليس بمعقول

---

(١) ورد هذا البيت فى المصدر السابق ص ٣٤٩ .

(٢) انظر المصدر السابق ، الصفحة نفسها .

(٣) انظر : المعجب لعبد الواحد المراكشى ص ١٦ .

(٤) ظن ذلك المراكشى : انظر المصدر السابق .

(٥) قال الحميدى فى جذوة المقتبس : إن الرمادى «عاش إلى أيام الفتنة» ؛ وقال ابن بشكوال فى الصلة : إنه «توفى سنة ٤٠٣» . وقال ابن خاقان فى المطمح : «أدرك الفتنة وخاض لجتها» . انظر الجذوة ص ٣٤٩ ، والصلة ص ٦٣٨ ، والمطمح ص ٧٠ .

أن يظل الشاعر معاقباً بحكم المنصور حتى بعد موته وزوال عهده، ثم إن من الثابت أن الرمادى كان من مداح المنصور[١] ، وأن المنصور كان يقر به ويعتز به[٢]. والذى يطمأن إليه ، أن ذلك كله لم يكن فى أوائل عهد المنصور ؛ لأن تلك الفترة هى الفترة التى اتهم فيها الشاعر بهجاء الحاجب ومشايعة خصومه، والمعقول أن يكون إكثار الشاعر من مدح المنصور ، وتقريب المنصور له واعتزازه به، فى الجزء الأخير من حياة ابن أبى عامر ، بعد أن صفح عن الشاعر وأراد كسبه إلى جانبه واستغلال موهبته الشعرية فى الدعاية لعهده .

وقد كانت للرمادى رحلات خارج قرطبة ، اقترنت بنشاط شعرى . ومن هذه الرحلات رحلته إلى سرقسطة ، حيث قصد عبد الرحمن بن محمد التُّجيبى واليها[٣] ، ومدحه بقصيدة[٤] مطلعها :

قفوا تشهدوا بثّى وإنكار لائمى   علىّ وقوفى فى الرسوم الطواسم

ومن رحلاته كذلك رحلة إلى شنترين ، حيث قصد فرحون بن عبد الله واليها[٥] ومدحه بشعر منه تلك القصيدة[٦] التى مطلعها :

---

(١) انظر : المغرب ج ١ ص ٣٩٢ .

(٢) اقرأ مثالا من هذا الاعتزاز فى : نفح الطيب ج ٢ ص ٢٢٦ – ٢٢٧ .

(٣) هو عبد الرحمن بن محمد بن مطرف بن هاشم التجيبى ، كان من كبار رجال الدولة فى أيام المنصور ، وقد استعان به فى التخلص من منافسيه ، ولما رأى شر المنصور يقترب منه دبر مؤامرة مع عبد الله بن المنصور للتخلص منه ، ولكن المنصور كشف المؤامرة . ثم تحايل للقبض على التجيبى وقتله سنة ٣٨٩ . اقرأ بعض أخبار هذا الرجل فى: البيان المغرب ج ٢ ص ٤٢٢ – ٤٢٣ . وفى المغرب ج ١ ص ١٩٧ ، وفى جذوة المقتبس ص ٣٤٧ ، وفى نفح الطيب ج ١ ص ١٨٧ .

(٤) وردت أبيات هذه القصيدة فى : جذوة المقتبس ص ٣٤٨ ، وفيها حكاية رحلة الشاعر إلى سرقسطة .

(٥) هو محمد بن عبد الله بن عبد الواحد ، ويشتهر بفرحون ، كما يعرف كذلك بابن الوبلة ، كان والياً على شنترين أيام الحكم المستنصر ثم أيام الحاجب المنصور .

انظر بعض أخباره فى : الحلة السيراء لابن الأبار ص ١٥٥ – ١٦٥ .

(٦) وردت أبيات من هذه القصيدة فى المصدر السابق ، وفى حكاية الشاعر مع فرحون

أيها العارض والمهدِى لمستقيه وبلا
حين لا يهدِى إذاما استُسْقِيَ العارضِ طَلاً

وامتدت حياة الرمادى كما تقدم حتى شهد طرفا من الفتنة، ثم مات فقيراً معدماً معانياً لشرور تلك السنوات المريرة سنة ٤٠٣ هـ[1] . وهكذا عاش الرمادى نحو مائة عام ؛ لأنه كان شاعراً حين قدم القالى إلى الأندلس سنة ٣٣٠ هـ ، فكأنه عاش ثلاثة وسبعين عاماً بعد مقدم القالى ، فإذا فرضنا أنه كان يوم أن قدم القالى فى حدود السابعة والعشرين ، وأنه بخاصة تحدث فى مدحة للقالى عن شعرات بيض بدأت تتسرب إلى رأسه ، إذا فرضنا له هذه السن يوم أن قدم القالى ، كان عمره يوم مات لا يقل عن مائة عام .

هذا وقد كان فى أخلاق الرمادى كثير من الجرأة، وفى سلوكه كثير من الاستهتار ، وربما كان فى عقيدته ميل إلى التشيع . ومن مظاهر جرأته ، هذا النقد السياسى الذى ورطه مع الخليفة المستنصر، ثم مع الحاجب المنصور. كذلك كان من مظاهر استهتاره ، شعره الكثير فى الخمر والدفاع عنها ، وفى الغلمان والتشبيب بهم ، ثم مجاهرته بألوان من السلوك لا يجاهر بها غير المستهترين . ومن ذلك قوله فى غلام مسيحى :

قَبَّلْتُـــه أمـــام قسيســـهِ شَرِبتُ كاســـاتٍ بتقديسه
يَقْرَع قلبي عند ذكرى له مِن فرط شوقى قرع ناقوسه[2]

وهذا من آثاره اتصاله بالمسيحيين وتردده على أديرتهم ومنادمته لقساوستهم . ومن شواهد مجاهرته كذلك بسلوك المستهترين قوله :

---

(١) انظر الجذوة ص ٣٤٩ ، والصلة ص ٦٣٨ ، والمطمح ص ٧٠ .

(٢) ورد هذان البيتان فى المطمح ص ٨٣ .

فكان في تحليل أزراره أقود لي من ألف شيطانِ
فتُحت الجنة من جيبه فبتُّ في دعوة رضوان[١]

ولعل من مظاهر ميل عقيدته إلى التشيع حديثه عن علي والحسين في مثل قوله :

أنا إن رمتُ سُلوّاً عنك يا قُرّة عيني
كنت في الإثم كمن شا رك في قتل الحسين
لك صولات على قلـ ـبي دليلاتٌ لحَيْني
مثل صولات عليّ يوم بدر وحنين[٢]

شعره :

وقد خلف الرمادي شعراً كثيراً من غير شك ؛ وذلك نظراً لتبكيره في قول الشعر ، وامتداد أجله الذي كان نحو القرن ؛ ثم نظراً لما عرف من سرعته في قول الشعر[٣] وعدم المعاناة فيه .

وقد قال الشعر في أكثر أغراضه المعروفة ، بل طرق بعض الأغراض الجديدة كدراسة الطير ؛ التي اتجه إليها أثناء سجنه ، والتي تحدث فيها شعراً عن كل طائر معروف وذكر خواصه .

وبرغم ذلك ، لم يؤثر عن هذا الشاعر ديوان يجمع أطراف شعره ، بل لم يبق من شعره هذا الكثير إلا بعض قصائد ومقطوعات مفرقة في كتب الأدب والتراجم والتاريخ ،

(١) هذان البيتان ضمن قطعة وردت في : المطرب لابن دحية ص ٤ .
(٢) وردت هذه الأبيات في : يتيمة الدهر للثعالبي جـ ٢ ص ١٩٢ .
(٣) انظر : جذوة المقتبس ص ٣٤٦ .

التى عرضت للشاعر أو بعض من اتصل بهم[١] . وكان مما ضاع من شعر الرمادى قصائده فى المنصور ، وأشعاره فى الطير . أما جل الباقى من شعره فقطع غزلية ، وخمرية ، مما يدل على أن هذين الغرضين كانا من أهم أغراض شعره .

اتجاهه :

وشعر الرمادى — حسب ما بقى من نصوصه — كان يسير أحياناً فى الاتجاه المحدث ، وأحياناً فى الاتجاه المحافظ الجديد . وأغلب الظن أن الشاعر كان يؤثر الاتجاه الأول حين يكون الموضوع أو الموقف أقرب إلى اللهو والتحرر والدعابة ، كما كان يؤثر الاتجاه الثانى حين يكون الموضوع ألصق بالجد والمحافظة والتوقر . فمثلا حين يذهب إلى سرقسطة ، لينال رفد واليها محمد بن عبد الرحمن التجيبى ، كى يستعين به على نيل حبيبته « متعة » التى كان يعانى فى عنف تجربة حبها ؛ نراه يقول فى قصيدته لعبد الرحمن :

قفوا تشهدوا بثى وإنكار لائمى ... علىّ بكائى فى الرسوم الطواسم
أيأمن أن يغدو حريقَ تنفسى ... وإلا غريقاً فى الدموع السواجم
خذوا رأيه إن كان يتبع كل من ... ينوح على ألاَّفه بالملاوم
فهذا حمام الأيك يبكى هديله ... بكائىَ ، فليفرغ للوم الحمائم
وما هى إلا فُرقة تبعث الأسى ... إذا نزلت بالناس أو بالبهائم
خلا نظرى من نومه بعد « خلوة » ... متى كان مِنى النومُ ضربة لازم[٢]

فهو هنا يبدأ مدحه لعبد الرحمن التجيبى بالغزل لينتقل منه إلى المدح ، وفقاً للمنهج

---

(١) انظر المصادر التى ذكرت فى هامش أول الحديث عن الرمادى .

(٢) وردت هذه الأبيات مع قصة حب الشاعر لمتعة والتجائه إلى سرقسطة فى : جذوة المقتبس ص ٣٤٧ — ٣٤٨ .

المحافظ الجديد ، وهو يعنى بطرافة المعنى وغرابة الصورة، والمبالغة فى هذا وتلك ، ثم هو يعنى ببعض المحسنات ، كالتجنيس بين « خلا » و « خلوة » فى البيت الأخير . كل هذا إلى رعاية الفخامة فى التعبير والجزالة فى اللفظ والجلال فى الوزن والقافية .

أما حين يذهب إلى شنترين ، ويلقى إهمالا من بعض رجال واليها فرحون بن عبد الله ، ويفرض الموقف عليه شيئاً من المرارة الدافعة إلى السخرية والدعابة، نراه يقول لفرحون :

أيها العارض والمهدى لمستقيه وبلا
حين لا يُهدِى إذاما استُسقِىَ العارض طلا
قائداً أفنت مغازيه العـــدا سبياً وقتلا
إن ضيفاً قاصداً قلتَ له : أهلا وسهلا
قد توسعتَ له فيما يسر الضيفَ خَذْلا[1]
ماله فرشٌ على الأرض سوى وجه المصلَّى
لم تجد عينى لنوم بمبيت السوء كحلا[2]

فهو هنا يدخل فى صميم غرضه دون تمهيد بغزل ، كما أنه يعنى ببساطة الفكرة وشيوع روح السخرية ، ويؤثر بعد ذلك كله التعبير الرشيق واللفظ البسيط والموسيقى الهادئة القريبة من لغة الحديث . وكل ذلك من سمات الشعر المحدث . وواضح جداً أن أسلوب الرمادى فى هذا النموذج يذكرنا بأبيات الغزال التى قالها فى وصف هياج البحر حين ركب هو وصديقه السفينة متجهين إلى حيث أرسلا فى سفارة[3] . وهى الأبيات التى أولها :

---

(١) الخذل : ترك النصرة .

(٢) وردت هذه الأبيات وحكاية الشاعر مع فرحون فى : الحلة السيراء ص ١٥٥ — ١٥٦ .

(٣) اقرأ قصة هذه السفارة ورحلتها وما قيل فيها من شعر فى صفحة ١٥٨ وما بعدها من هذا الكتاب .

قال لى صحبى وصرنا بين موج كالجبال
وتولتنا رياح من دبور وشمال

على أنه إذا كان الباقى من شعر الرمادى يدل على أن شعره كان قسمة بين هذين الاتجاهين ، فإن ما ذكره المؤرخون للموشحات يدل على أن الاتجاه الشعبى كان يجتذب شعر الرمادى أحياناً ؛ فقد ذكروا أنه كان من المشاركين فى قول الموشحات ، بل إنه كان من المطورين لها ، الذين أدخلوا على أسلوبها بعض الزيادات[1] .

مستواه :

والباقى من شعر الرمادى بعد ذلك قسمان من حيث الجودة الفنية ، فقسم قليل الجودة ، يصل أحياناً إلى السطحية والنثرية ، وقسم على جانب عظيم من الجودة ، يصل أحياناً إلى القمة من الناحية الشعرية . ويغلب على الظن أن القسم الأول من مخلفات عهود الرمادى الأولى بقول الشعر ، قبل أن تنضج شاعريته ، وأن القسم الثانى من آثار الفترات المتأخرة من حياته الفنية ، بعد أن استوت شاعريته واكتمل نضجها . ويرجح هذا الظن أن نماذجه الشعرية الملتصقة تاريخيًّا بعهوده الأولى تنحدر إلى النوع الأول ، أما نماذجه الصحيحة النسبة إلى العهود المتأخرة فتسمو إلى النوع الثانى . ويمكن أن نتأمل بعض قصيدته فى أبى على القالى ، التى هى من الناحية التاريخية من نتاجه فى عهوده الأولى . أو نتأمل بعض أبيات من قصيدته فى الدفاع عن الخمر حين أمر المستنصر بإراقتها وهم باجتثاث الكروم ، وهى الأخرى من نتاجه فى العهود المتقدمة من حياته الفنية ، وسوف نرى من تأمل جزء من هذه أو تلك ، أن عدم جودة بعض شعره مرتبط بتلك العهود المتقدمة ، حين كانت شاعريته لم تنضج بعد .

---

(١) انظر : الذخيرة لابن بسام ق ١ م ٢ ص ٢ ، ومقدمة ابن خلدون ص ٥٨٤ .

يقول الرمادى فى مدح القالى :

مَنْ حاكمٌ بينى وبين عذولى ... الشجو شجوى والعويل عويلى
فى أى جارحة أصون معــذبى ... سلمتْ من التعذيب والتنكيل
إن قلتُ فى بصرى فثَمّ مدامعى ... أو قلتُ فى كبدى فثم غليلى
وثلاثُ شيبات نزلن بمفــرقى ... فعلمتُ أنّ نــزولهن رحيــلى
طلعتْ ثلاثٌ فى نزول ثلاثة ... واش ووجــهِ مراقب وثقيــل
فعذلننى عن صبوتى فلئن ذللتُ ... لقد سمعت بذلة المعــذول[١]

وفى هذه الأبيات يلاحظ ضعف المستوى الفنى لأكثر من سبب ؛ ففيها عدم الترابط كما يظهر فى البيت الأول ، إذ لا ترابط بين شطريه أصلا ؛ فالشاعر يتساءل فى الشطر الأول عمن يحكم بينه وبين العذول ، ويقرر فى الشطر الثانى أن الشجو شجوه والعويل عويله ، ولا علاقة مطلقاً بين الأمرين. وكما فى البيت الثانى بالنسبة لسابقه ؛ فهو فى البيت الثانى يتساءل عن المكان الذى يصون فيه حبيبه ، بينما كان فى البيت الأول يتساءل عمن يحكم بينه وبين عذوله ، ويقرر أن الشجو شجوه والعويل عويله . وكما فى البيت الرابع مع ما قبله من أبيات ؛ فقد انتقل فيه فجأة إلى الحديث عن الشيبات التى نزلت بمفرقه ، بعد أن كان يتحدث عن أشياء لا علاقة لها بذلك أصلا .

وفى هذه الأبيات — زيادة على عدم الترابط — ركاكة فى بعض المواطن ، كما فى البيت الثانى الذى يقول فيه :

فى أى جارحة أصــون معذبى ... سلمت من التعذيب والتنكيل ؟

فهو يريد أن يقول : فى أى جارحة سلمت من التعذيب والتنكيل أصون معذبى ؟ لكنه اضطر بسبب ضغط الوزن والقافية إلى طول الفصل بين الموصوف وهو « جارحة» ،

---

(١) وردت هذه الأبيات فى : وفيات الأعيان ج ٢ ص ٤١٠ . وفى يتيمة الدهر ج ٢ ص ١٠٠ .

وبين الوصف وهو « سلمت من التعذيب والتنكيل» ، فجاء السياق مهلهلا ركيكاً .

وفى هذه الأبيات سطحية فى بعض الأجزاء ، كما فى هذا البيت السابق الذى يتساءل فيه الشاعر هذا السؤال ، مما جعل المتنبى يعلق عليه تعليقاً قاسياً مكشوفاً ، حين قال : « يصونه فى . . . »[١].

وأخيراً يلاحظ فى تلك الأبيات تعمل بعض المحسنات تعملا يحيل الصياغة الشعرية فى بعض الأحيان إلى شىء أقرب إلى العمليات الحسابية ، وذلك حيث يقول الشاعر عن الشعرات الثلاث النازلات بمفرقه ، وتسبيبهن لظهور بعض المتاعب :

طلعتْ ثلاثٌ فى نزول ثلاثة ‏ ‏ واش ووجـه مراقب وثقيـل

ويقول الرمادى فى قصيدته التى يدافع بها عن الخمر ويحتج على من أمروا بإراقتها :

تحرّيتم بذاك العـدل فيهـا ‏ ‏ بزعمكم ؟ فإن يلك عن تحرى
فإنّ أبا حنيفـة وهـو عدل ‏ ‏ وفرّ من القضـاء مسير شهر
فقيـهٌ لا يدانيـه فقيـه ‏ ‏ إذا جاء القياس أتى بدُر
وكان من الصلاة طويل ليل ‏ ‏ يُقطعه بلا تغميض شـفر
وكان له مـن الشُّراب جارٌ ‏ ‏ يواصـل مغربا فيهـا بفجر[٢]

إلى أن يمضى قاصًّا حكاية هذا الجار السكير الذى كان يأتى كل ليلة متغنياً بقول العرجى :

أضـاعونى وأى فتى أضـاعوا ‏ ‏ ليـوم كريهـة وسـداد ثغـر

ثم قبض عليه ، فسأل عنه أبو حنيفة ، وحين علم بسجنه سعى لإطلاق سراحه .

---

(١) حذفنا اسم السوأة التى ذكرها المتنبى اعتماداً على فطنة القارئ . انظر : نفح الطيب جـ ٢ ص ٨٥ .

(٢) هذه الأبيات من قصيدة وردت فى : جذوة المقتبس ص ١٤ — ١٥ .

فيلاحظ فى أبيات الرمادى هنا نثرية تبعد بها عن لغة الشعر ، كما يلاحظ هذا الاستطراد الشديد ، الذى يصرف الحديث أحياناً عن الشيء الأساسى المتحدث عنه ، إلى موضوع آخر يوشك أن يقطع الصلة بالموضوع الأصلى . فالحديث أساساً عن الخمر والدفاع عنها والتشكيك فى جرم شربها وعقوبة معاقرها . ولكن الشاعر حين أراد الاحتجاج لذلك ، وبدا له أن يستشهد بحكاية أبى حنيفة مع جاره ؛ قد صرف الحديث إلى أبى حنيفة ، فأخذ يصفه فى عدله وفراره من القضاء ، وفى أنه فقيه فذ لا يدانيه فقيه ، وأنه مشهور بالقياس الذى يأتى فيه بالدرر ، وفى أنه كان طويل القيام بالليل ، وأنه كان يقضيه فى الصلاة دون أن يغمض له جفن. وكان يكفى أن يذكر الشاعر أبا حنيفة ووقوفه إلى جانب جاره ، دون الاستطراد بذكر كل تلك الصفات للفقيه الغنى عن التعريف .

ويمكن بعد ذلك أن نتأمل شعر الرمادى المرتبط تاريخيًّا بعهوده المتأخرة ، مثل قطعتيه السابقتين فى عبد الرحمن بن محمد التجيبى ، وفرحون بن عبد الله ؛ لنرى مستوى آخر من الشعر ، فيه تجنب الشاعر كل تلك العيوب التى كانت تشيع فى شعره إبان عهوده المبكرة بقول الشعر . ومن هنا يستطاع ببساطة أن ينسب جل شعره الجيد إلى فترة نضجه الفنى الذى يُرجَّح أن تكون أواخر عهد الحكَم ، وطول عهد المنصور . ويؤكد ذلك مثل هذا الشاهد من شعر الرمادى فى السجن :

أعينىَّ إن كانت لدمعك فضلة تُشَبِّتُ صبرى ساعة فتدفقِى
ولو ساعدت قالت : أمِنْ قلة الأسى تبقت دموعى ، أم من البحر تستقِى

* * *

مقالت تظن الدهر يجمع بيننا ؟ فقلت لها : من لى بظن محقق
ولكننى فيما زَجرْتُ[1] بمقلتى زجرتُ اجتماع الشمل بعد التفرق

---

(١) الزجر : التكهن .

فقد كانت الأشعار فى مثل بعدنا   فلما التقت بالطيف ، قلتُ سنلتقى
أباكية يومًا ، ولم يأت وقتُـــه   سينفد قبل اليوم دمعُك فارفقى[1]

فى هذه الأبيات يلاحظ كثير من الترابط ، الذى يشد بعضها إلى بعض ، ويؤلف بينها فيما يقارب الوحدة العضوية . فى البيت الأول يرجو الشاعر – فى يأس – أن تمده عينه بفضل ما لديها من دمع ، لعل ذلك ينفس عن نفسه ويثبت صبره ، وفى البيت الثانى يعلل الشاعر ليأسه من إمداد عينه بفضل من دمع . فيبين أن عينه لو فرض وقدمت مساعدة ما ، لكانت تلك المساعدة هى جوابها : بأن لا دموع لديها ، وذلك لأن الأسى لم يكن قليلا فيبقى بعض الدمع ، ولأن البحر لا يمد المآقى فتجد شيئاً تقدمه بعد الذى قدمت .

وفى الأبيات التالية ينتقل الشاعر إلى الحديث عن صاحبته ، وسؤالها إياه عن احتمال اجتماع الشمل بعد التفرق ، وعن إجابته لها بالأمل فى ذلك على وجه البعد ، وعن تعليل ذلك بأن الأشعار كانت نافرة منه بعيدة عنه بعد الحبيبة ، ثم أنست إليه ودنت منه حين التقى الخيال بطيف تلك الحبيبة ؛ فكان هذا الالتقاء الخيالى تكهناً وتأميلا بعيداً عن اللقاء الحقيقى . ثم يحدث الشاعر صاحبته فى صراحة مريرة بأن اللقاء الواقعى على فرض حدوثه قد يطول انتظاره ويتراخى مجىء يومه ، ومن هنا ، عليها ألا تستمر فى بكائها هذا اليوم ؛ لأن دمعها قد ينفد قبل أن يجىء .

كذلك يلاحظ على تلك الأبيات – زيادة على الترابط المشبه للوحدة العضوية – صدق التجربة الباعث على حرارة العاطفة ، وترقرق التعبير المسبب لقوة التأثير ، ثم تلاؤم الموسيقى الشعرية مع الموضوع ورزانته والانفعال وضخامته .

---

(١) وردت هذه الأبيات فى : مطمح الأنفس ٨١ – ٨٢ .

وعلى هذا الأساس الذى حدد لتوزيع شعر الرمادى على مرحلتى حياته الفنية ، يمكن أن ينسب إلى مرحلة نضجه مثل تلك القطعة الغزلية :

على كبدى تَهمى السحاب وتذرِفُ   وعن جزعى تبكى الحمامُ وتهتف
كأن السحاب الواكفات غواسلى   وتلك على فقدى نوائح هُتَّف
ألا ظعنتْ ليلى وبان قطينهـا   ولكننى باق فلومـوا وعنفـوا
وآنستُ فى وجه الصباح لبينها   نحولا كأن الصبح مثلى مدنف(١)

فنى هذه الأبيات تتجلى قدرة الشاعر فى تحقيق الوحدة ؛ حيث يقع كل بيت بل كل شطر من بيت ، فى موقعه الذى لا يمكن أن يزحزح عنه . ثم فيها كذلك تتجلى قدرة الشاعر فى الربط بين مشاعره وبين الطبيعة ، وفى استغلال بعض مظاهر تلك الطبيعة رسم صور شعرية تنمى التعبير الشعرى وتصعد به . فالسحب تهمى بالمطر لتبرد غليله ، والحمائم تبكى لتنوح على جزعه ؛ بل إنه أشبه بميت تغسله السحب الواكفة وتنوح عليه الحمائم الهاتفة . إن صاحبته قد رحلت وبَعد ركبها ، ولكنه هو باق ، ومن هنا كان طبيعيًّا أن تذهب نفسه حسرات وأن يبلغ الحال به ما بلغ ، فليلم اللائمون إذن وليعنف المعنفون ، فهم فى الحق متجنون . وماذا يضيره من هؤلاء وأولئك ؟ إن الطبيعة نفسها أحست فراق الحبيبة وتأثرت لبعدها ، فهذا هو الصبح يراه الشاعر — من خلال إحساسه الخاص وشعوره بالمأساة — ناحلا شاحب الوجه ، كأنه هو الآخر محب مدنف فارقه من يحب .

وفى هذه الأبيات بعد هذا تتضح قدرة الشاعر على رسم الصور الفنية البارعة التى يحكمها التآزر ، كما تتضح قدرته على الصياغة الشعرية الرائعة التى يشرق فيها البيان .

(١) وردت هذه الأبيات فى المصدر السابق ص ٨٢ .

سماته :

وأهم سمات شعر الرمادى المكتمل النضج : المبالغة فى المعنى ، والتهويل فى الصورة ، وشيوع روح السخرية والاستهتار ، فى الموضوعات غير الجادة كالخمريات والغزل الشاذ ، واتضاح حرارة العاطفة والتهالك ، فى الموضوعات الجادة كالعذريات والشكوى . ثم الاتجاه إلى خلع الحياة الإنسانية على الطبيعة الصامتة ، والميل أحياناً إلى الأسلوب القصصى ، الذى قد يشتمل على حوار . وأخيراً إيثار الوضوح فى اللغة وعدم الاحتفال كثيراً بالصياغة .

ولعل بعض ما مضى من نماذج يؤكد سمة المبالغة فى المعنى والتهويل فى التصوير عند الرمادى . ومن أبرز النماذج الدالة على تلك السمة قوله فى الغزل :

وإنى لأغضى الطرف عنك جلالة ... وخوفًا على خديك من لحظاتى
ولو أننى أهملت عينى بأن ترى ... سناك لحالت دونها عبراتى
زعمت بأنى حلت عنك ولم أكن ... أعنيك فى بثى وفى حسراتى
وهل أنا إلا طالب لمنيتى ... إذا حُلْتُ عمن فى يديه وفاتى(١)

فكون الشاعر يغضى عن النظر إلى محبوبه خوفاً على خديه من النظرات ، وكون الشاعر يعتبر طالباً لمنيته إذا هو تحول عن حبيبه الذى فى يديه وفاته ؛ مثل هذا كله من الأفكار المبالغة . وقول الشاعر إنه لو ترك عينيه ترى نور المحبوب لحالت دموعه دون الرؤية ، من الصور المهوّلة كذلك .

وأكثر مبالغة من ذلك وتهويلا قوله بمناسبة ارتحال أحبته :

غداً يرحلون فيا يزمُ رسائك كن بالظلام بطىء اللحاق
ويا دمعَ عينىَ سُدّ الطريق ... وأفرغ عليهم نجيع المآق
ويا نَفَسى جئهمُ من أمام ... وقابلهمُ بنسيم احتراق

(١) وردت هذه الأبيات فى أ يتيمة الدهر ج ٢ ص ١٠١ .

ويا همّ نفسي بهم كن ظلاما　　وقيدهمُ عن نوى وانطلاق
ويا ليل مِنْ بَعْد ذا إن ظفر　　ت بالصبح فاقذف به فى وثاق(١)

ففكرة تسخير عناصر الطبيعة المختلفة لتعويق الأحباب عن السفر ، فكرة كلها مبالغة ، وصور الدمع وهو يسد الطريق ، ويفرغ على الأحباب غيوث العيون ؛ والزفير وهو يهب من أمام ويقابل الأحباب بفيح الحريق ؛ وهمّ النفس وهو يتحول إلى ظلام يمنع الرؤية ويسد المسالك على الراحلين ، والليل وهو يظفر بالصبح فيقبض عليه ويقذف به فى القيد ، حتّى لا يتمكن هذا الصبح من القدوم ؛ كل هذه صور مهولة شديدة المبالغة .

أما شيوع روح السخرية والاستهتار فى الموضوعات غير الجادة ، فمن أبرز شواهده قول الرمادى فى الخمر مخاطباً مسيحيًّا اسمه نصير :

اشرب الكأس يا نصير وهات　　إن هـذا النهار من حسناتى
بأبى مُزَّةٌ ترى الشمس فيها　　فى صفاء أصفى من المرآة
يسرع الناس نحوها بازدحام　　كازدحام الحجيج فى عرفات
هاتها يا نصير إنا اجتمعنا　　لقلوب فى الدين مختلفات
فإذا ما انقضى دنان على اللهـ　　ـو اعتمدنا مواقع الصلوات
لو مضى الدهر دون راح وقصف　　لعددنا هذا من السيئات(٢)

فالشاعر هنا واضح السخرية بيّن الاستهتار ببعض المقدسات ؛ حيث جعل إسراع السكارى إلى الخمر وازدحامهم حولها كازدحام الحجيج حول عرفات ، وكان من الممكن — لو أراد الشاعر — أن يشبه ازدحام السكارى بأى مشهد آخر من مشاهد الزحام ، ولكنه أراد السخرية بهذه الشعيرة المقدسة . ثم إنه سخر فى موضع آخر سخرية لا تقل عن

(١) وردت هذه الأبيات فى : جذوة المقتبس ص ١٦٥ .
(٢) وردت هذه الأبيات فى : مطمح الأنفس ص ٨١ .

تلك ؛ حيث قال ؛ إن دنان الخمر إذا ما فرغت ولم يعد مجال للشرب ، توجهنا إلى أماكن الصلاة . فهو يشرب ويلهو مع أصحابه أولا ثم يصلون ثانياً ، فصلاتهم مسبوقة بالسكر واللهو الذى تفرغ منه الدنان ، وكأنهم لا يذهبون إلى الصلاة تعبداً ولا إقامة لشعيرة ، وإنما يذهبون عربدة وهزءاً ، أو فى الأقل يذهبون لأنهم لم يجدوا الأفضل فى زعمهم ، وهو الشراب واللهو . وأخيراً يسخر الشاعر سخرية ثالثة ، حيث يقرر أنه هو وأصحابه يرون أن الدهر لو مضى دون سكر وخمر ، لكان من السيئات والذنوب . وهذا عكس تام للفكرة الدينية التى ترى أن السكر والخمر من أكبر المآثم .

وأما اتضاح حرارة العاطفة فى الموضوعات الجادة ، فقد مضت بعض شواهد من شعر الرمادى فى الحب العذرى وفى الحديث عن آلام السجن .

وأما خاصة الاتجاه إلى خلع الحياة الإنسانية على الطبيعة الصامتة ، فمن شواهدها قول الرمادى فى مقدمة طبيعية لبعض قصائده :

تأمل بإثر الغيم من زهرة الثرى ... حياة عيون متن قبل التغيم
كأن الربيع الطلق أقبل مهديا ... بطلعة معشوق إلى عين مغرم
تعجبت من غوص الحيا فى حشا الثرى ... فأفشى الذى فيه ولم يتكلم
كأن الذى يسقى الثرى صرفُ قهوة ... تنم عليه بالحديث المكتم[1]

فالشاعر فى هذه الأبيات يخلع الحياة الإنسانية على الطبيعة ، فيصور الأزهار عيوناً تفتحت بالحياة بسبب المطر ، بعد أن كانت ميتة بسبب الجفاف . ويصور الربيع محبوباً طلق المحيا ، قد جاء يهدى بجماله طلعة المعشوق إلى عين المغرم . ثم يصور الأرض إنساناً يشرب من المطر خمراً تتغلغل فى أعماقه فتذيع أسراره دون أن ينطق ؛ فالأرض تعبر عن سعادتها وبهجتها بالمطر فى صورة ما تزدهر به من أزهار وأنوار وأعطار ،

(١) وردت هذه الأبيات فى : الحلة السيراء ص ١٠٩ .

يعو تعبير صامت لا حديث معه ، كتعبير الشارب المنتشى ، بنظراته ولمحاته ومظاهر بهجته المختلفة . وليس يخفى هنا تأثر الشاعر بحياته الخاصة فيما يخلع على الطبيعة من حياة الإنسان ؛ فالشاعر كان كثير تجارب الحب ، شديد التعلق بالخمر ؛ حتى لقد كانت الخمريات والغزليات من أبرز وأكثر أشعاره ؛ لهذا نراه يقيم علاقات حب فى الطبيعة ؛ ويجعل الأرض حين تشرب المطر سكيراً يحتسى الخمر ، فتبدو بهجته دون حديث .

وأما خاصة الاتجاه أحياناً إلى أسلوب القص ، فقد مضت بعض شواهدها ، كقصيدة الدفاع عن الخمر . وكأبيات آلام المحبس .

وأما خاصة الوضوح فى اللغة ، فسمة عامة ، يمكن أن تلاحظ فى كل شعر الرمادى . ولو تتبعنا كل ما ورد له من نماذج لما تخلفت تلك السمة فى نموذج واحد . فمن النادر جداً أن تحتاج كلمة استخدمها أو تعبير ألفه ، إلى بحث عن المعنى أو استفسار عن المراد .

وأما خاصة عدم الاحتفال كثيراً بالصياغة ، فسمة تبدو فى كثير من شعر الرمادى ؛ فأكثر صياغاته بعيد عن التعمل والتصنع ، بل بعيد أحياناً عن الصقل والتجويد ، وقلما تدل صياغة شعرية من صياغاته على احتفال كبير بغير توصيل معانيه ومشاعره فى أبسط تعبير . بل إنه يصل أحياناً فى عدم الاحتفال بالصياغة إلى عدم تحقيق الأسلوب الشعرى الملائم للمضمون ، مما يدل على أن الرمادى كان غالباً يهتم بالمضمون ، أكثر من اهتمامه بالشكل . فمثلا نراه يقول فى مقدمته الرائعة لقصيدة التجنى :

وما هى إلا فرقة تبعث الأسى إذا نزلت بالناس أو بالبهائم

فيذكر ببساطة كلمة « البهائم » على ما فيها من ثقل ظل ، لا يناسب الشفافية التى ترف على القطعة كلها .

ونراه كذلك يقول فى الحديث عن محبوبته ، من أبياته فى ذكر آلام السجن :

تُكلفنى أن أعتب الدهر إنها   لجاهلة بمن لى بإعتــاب محنق

فيصف صاحبته بالجهل ، على ما فى هذا الوصف من تقليل لشأن تلك المحبوبة التى ذكرها بكل حب وإجلال فى باقى القطعة .

ثم نراه يقول أيضاً فى أبياته التى يتحدث فيها عن رحيل الأحباب :

ويا نَفَسى جئتهمُ من أمــام   وقــابلهم بنســيم احــتراق

فهو لا يريد « النفس» فى الحقيقة ، وإنما يريد الزفرات خاصة ، لكنه ذكر كلمة « النفس» على قصورها وعدم دقتها هنا فى أداء المعنى . وهو كذلك لا يريد « النسيم» فى الواقع ، وإنما يريد الهجير أو نحوه من الهواء اللافح المحرق . ولكنه ذكر كلمة النسيم على رقتها وإيحائها بالترويح والإنعاش ، مما يناقض المراد تماماً .

وأخيراً نراه يقول من قطعة غزلية .

يا شِقة النفس واصلها بشقتهــا   فإنما أنفُسُ الأعداء تهتجر(١)

ظلمتنى ثم إنى جئت معتــذراً   يكفيك أنى مظلوم ومعتــذر

فهو يريد أن يقول فى عجز البيت الأول : فإنما تتهاجر أنفس الأعداء . لكنه صاغ هذه الفكرة دون اهتمام بالدقة وحسن الأداء للمعنى ، فقدم وأخر لرعاية الوزن والقافية . كذلك هو يريد فى صدر البيت الثانى أن يقول : إنك ظلمتنى لكننى أنا الذى جئتك معتذراً بعد ذلك . ولكنه لم يؤد هذه الفكرة بالصياغة التى تلائمها ، وإنما بتلك الصياغة التى تقل كثيراً عن جودة ما يراد بها من معنى .

والسبب فى كل ذلك وأمثاله : هو عدم احتفال الرمادى كثيراً بالصياغة ، وميله أحياناً إلى التعبير فى سرعة عما يخطر له من معان وما يتراءى له من صور وما يحس به

---

(١) الشقة من الشىء : نصفه . تهتجر : تتهاجر وتتقاطع .

من انفعال . ولعل ذلك هو ما عناه بعض من ترجموا له حين قالوا عنه ، إنه كان سريع القول[١] .

ومع ذلك فالرمادى معدود فى كبار شعراء الأندلس ، حتى لقد قال بعض شيوخ الأدب فى وقته « فتح الشعر بكندة وختم بكندة »[٢] . وهم يقصدون أن الشعر فتح بامرئ القيس الكندى ، ثم ختم بالمتنبى والرمادى الكنديين كذلك .

ولعل مما يدل على مكانة الرمادى ومنزلته وتقدير معاصريه له . ما روى من أنه نال على إحدى قصائده ثلاث مائة دينار ذهباً ، غير نفقات الطريق فى الذهاب والإياب . وهى قصيدته التى مدح بها عبد الرحمن بن محمد التجيبى صاحب سرقسطة[٣] .

القسطلى :

يعرف بابن درّاج ، ويلقب بالقَسْطَلّى[٤] ، ويسمى أحمد ، ويكنى

---

(١) انظر : جذوة المقتبس ص ٣٤٦ .

(٢) انظر المصدر السابق ص ٣٤٦ — ٣٤٧ .

(٣) انظر المصدر السابق ص ٣٤٧ .

(٤) اقرأ ترجمته وأخباره وبعض أشعاره فى : جذوة المقتبس للحميدى ترجمة ١٨٦ ، والذخيرة لابن بسام ق ١ م ١ ص ٤٣ وما بعدها ، وفى الصلة لابن بشكوال ترجمة ٧٥ ، وبغية الملتمس للضبى ترجمة ٣٤٢ ، والمغرب لابن سعيد ج ٢ ص ٦٠ — ٦٢ ، ٢٩٩ ، ٣٤٥ . وفى وفيات الأعيان لابن خلكان ج ١ ص ٤٢ — ٤٣ ، والمطرب لابن دحية ص ١٥٦ والمعجب للمراكشى ص ٢٥ ، والبيان المغرب لابن عذارى ج ٢ ص ٢٧٤ ، ج ٣ ص ٩ ، ٢٠ ، ٢١ ، ٢٥ ، ١٢٤ . وفى : الروض المعطار لعبد المنعم الحميرى ص ١١٥ — ١١٦ ، ١٦٠ ، والإحاطة لابن الخطيب ج ٢ ص ٨١ ، وأعمال الأعلام لابن الخطيب ص ١٢٢ — ١٢٤ ، ١٧٩ — ٢٠٠ ، ٢١٢ — ٢١٥ ، ٢٢٢ — ٢٢٥ . وفى جمهرة أنساب العرب لابن حزم ص ٤٦٦ — ٤٦٧ ، والنجوم الزاهرة لابن تغرى بردى ج ٣ ص ٢٧٢ — ٢٧٠ ، ونفح الطيب للمقرى ج ٢ ص ١٤٢ — ١٤٣ ، ويتيمة الدهر للثعالبى ج ٤ ص ١١٤ — ١١٦ .

أبا عمر[١] . أما لقبه القسطلى فنسبة إلى بلدة قسطلة Cacella فى غرب الأندلس[٢]. وقد ولدابن دراج سنة ٣٤٧ هـ (٩٥٨ م) فى بيت ذى مكانة من بيوت قسطلة ؛ فقد نسبت البلد إلى الجد الأعلى للأسرة، فقيل لها : « قسطلة دراج » كما كان هذا الجد وبنوه الذين ينتمى إليهم شاعرنا ، يتداولون رياسة هذه البلد[٣] .

وأسرة بن دراج ذات أصول بربرية تنتمى إلى صنهاجة[٤] ، وكانت — فيما يبدو — ضمن البربر الذين دخلوا الأندلس فى فترة الفتح ، ثم اندمجت هذه الأصول فى البيئة الأندلسية ، واتحدت مع العناصر البشرية الأخرى التى كونت المجتمع الأندلسى ، حتى أصبحت بمضى الزمن أندلسية تماماً ، لا يكاد يربطها بالبربر إلا هذا النسب المحفوظ . وهذا شأن كل العناصر البربرية التى دخلت الأندلس فى تاريخ مبكر .

ولا يعرف شىء عن نشأة ابن دراج الأولى ، إذ لم يتعرض لها من ترجموا له من الأندلسيين والمشارقة ، غير أننا نستطيع أن نستنتج من شعره ، أنه نشأ فى بلده نشأة أدبية ، وتزود بثقافة لغوية وتاريخية ، وأقبل بنوع خاص على شعر الجاهليين والإسلاميين ، وفتن بنوع أخص بالاتجاه المحافظ الجديد فى الشعر ، ذلك الاتجاه الذى وصل إلى قمته فى القرن الرابع الهجرى ، حين انتهت زعامته فى المشرق إلى الشاعر الجهير أبى الطيب المتنبى ، وفى المغرب إلى الشاعر المجلجل ابن هانئ الأندلسى . ومن المؤكد أن ابن دراج قد أطال دراسة شعر هذين الشاعرين الكبيرين .

---

(١) اسمه كاملا ، أحمد بن محمد بن العاصى بن أحمد بن سليمان بن عيسى بن دراج (انظر ، وفيات الأعيان ج ١ ص ٥١ — ٥٣ والنجوم الزاهرة ج ٤ ص ٢٧٢).

(٢) هذا ما عليه أكثر الباحثين ، على أن ابن سعيد يذكر أن ابن دراج من قسطلة أخرى فى إقليم جيان بموسطة الأندلس ،وقد رجح ذلك الدكتور محمود مكى . (انظر مقدمة ديوان ابن دراج ص ٢٨ وما بعدها) .

(٣) انظر : المغرب لابن سعيد ج ١ ص ٦٠ .

(٤) انظر : جمهرة أنساب العرب لابن حزم ص ٢٦٦ — ٢٦٧ .

وأول ما يذكر من أخبار ابن دراج صلته بالمنصور بن أبي عامر ، وقدومه إلى قرطبة ليبدأ عهد التألق بها . فبعد أن قوى عود القسطلى ، وآنس من نفسه القدرة الثقافية والأدبية ، تطلع إلى العاصمة الأندلسية حيث الشهرة والمال والمناصب ، وحيث كانت الرياسة فى ذلك الحين للحاجب المنصور ، الذى يقرب الشعراء ويستخدمهم ألسنة لتأكيد سلطانه وتسجيل أمجاده . وهكذا قدم بن دراج إلى قرطبة ، ومدح المنصور بقصيدته التى يقول فى مطلعها :

أضاء لها فجرُ النُّهَى فنهاها ... عن الدنِف المضْنى بحرّ هواها
وضللها صبح جلا ليلة الدجى ... وقد كان يهديها إلىّ دجاها

ثم يمضى فى الغزل التمهيدى ووصف الرحلة وفراق الأهل واستقرار الآمال فى رحاب المنصور ، إلى أن يقول :

فحطتْ بمغنى الجود والمجد رحلها ... وألقت بربع المكرمات عصاها
لدى ملك إحدى لواحظ طرفه ... بعين الرضا حسبُ المنى وكفاها
هو الحاجب المنصور والملك الذى ... سعى فتعالى جده فتناهى
سليل الملوك الصّيد من سروِ حميرِ ... توسط فى الأحساب سمك ذراها
لُباب معاليها وإنسان عينها ... وبدرُ دياجيها وشمس ضحاها
معظّمها منصورها وجوادها ... وفارسها يوم الوغى وفتاها
ووارث ملك أثّلتْه ملوكها ... وجامع شملى مجدها وعلاها
نماه لقود الخيل « تُبّعُ » فخرها ... وأورثه سَبْىَ الملوكِ « سَبَاها »
ذوو الملك والتيجان والغرر التى ... جدير بها التيجان أن تتباهى[1]

(١) تاريخ إنشاء هذه القصيدة هو سنة ٣٨٢ هـ كما أشار إلى ذلك الحميدى فى الجذوة (ص ١٠٣) وقد وردت هذه القصيدة كاملة فى ديوان ابن دراج ص ١٠ وما بعدها .

وقد كانت تلك القصيدة مبعث حسد للقسطلي ، ومثار تشكيك الوشاة فيه ، فقد خاف كثيرون ممن حول المنصور من شعراء وأدباء ، أن يؤثر هذا الفتى الوافد من قسطلة على مكانتهم ، واستكثروا عليه أن يشاركهم فى ديوان الشعراء . فاتهموه بالسرقة والانتحال عند المنصور . وكان من نتائج ذلك أن استحضره المنصور ليختبره – على طريقته حين يشكك فى عالم أو أديب – فاقترح عليه بعض الموضوعات وطلب إليه أن يقول فيها شعراً ، فقال ابن دراج شعراً مرتجلا فيما اقترح عليه القول فيه . وهكذا زالت تهمة السرقة والانتحال عنه ، ووصله المنصور بمائة دينار ، وأثبته فى جملة شعرائه وأجرى عليه الرزق[1] .

ولم يفت الشاعر الذكى أن يؤكد شاعريته بما هو أكثر من ذلك ليقضى قضاء تاماً على مزاعم الحاسدين ، فأعد قصيدة جديدة أنشدها للمنصور فى نفس المجلس الذى امتحن فيه ، وكأنه كان يحس أن ما سيقوله ارتجالا سيأتى دون الدرجة الفنية التى يجب أن يعرف بها كشاعر ، وكأنه كان يحس أيضاً أن من واجبه الرد الموضوعى المباشر على اتهام المتهمين . ولذا أنشد المنصور القصيدة المدحية الطويلة ، التى يقول فى أولها :

حسبى رضاك من الدهر الذى عتبا ... وعطف نعماك للحظ الذى انقلبا

يا مالكا أصبحتْ كفى وما ملكت ... ومهجتى وحياتى بعض ما وهبا

ثم يمضى إلى أن ينتقل إلى ذكر محنة الاتهام الباطل له بالانتحال فيقول :

ودسُّوا لىَ فى مثنى حبائلهم ... شنعاء بتُّ بهـا حران مكتئبا

من بعد ما أضرم الواشون جاحمة ... كانت ضلوعى وأحشائى لها حطبا

حتى هُزِزتُ فلا زند القريض كبا ... فيها لدىَّ ولا سيف البديه نبا

وأشرقتْ شاهدات الحق تنشر لى ... نورا غدت فيه أقوال الوشاة هبا

---

(١) انظر : جذوة المقتبس للحميدى ص ١٠٣ – ١٠٤ .

هيهات أعجزَ أهلَ الأرض أن يجدوا ... للدُّر غـير عباب البحر منتسبا
وحاش للورد أن يُعزَى إلى رَمَض[١] ... وأن يكون له غـير الربيع أبا

وهكذا ، إلى أن يقول فى قدم الحاسدين لكبار الشعراء ، وفى بيان تنوع قدراته الأدبية :

ولستُ أول من أعيت بدائعه ... فاستدعت القول ممن ظن أو حسبا
إن امرأ القيس فى بعض لمتهم ... وفى يديه لواء الشعر إن ركبا
والشعر قد أسر الأعشى وقيـده ... دهرا ، وقد قيل: والأعشى إذا شربا
وكيف أظما وبحرى زاخر فطَنًا ... إلى خيال من الضَّحْضاح قد نضبا
فإن نأى الشك عنى ، أو فها أنذا ... مهيأ لجلىِّ الخـير مرتقبـا
عبدك لنعماك فى كفيه فجر هدى ... سارٍ لمدحك يجلو الشك والريبا
إن شئتَ أملى بديع الشعر أو كتبا ... أو شئت خاطب بالمنثور أو خطبـا
كروضة الحَزْن[٢] أهدى الوشىَ منظرُها ... والماء والزهر والأنوار والعشبـا
أو سابق الخيل أعطى الحُضْر[٣] متئداً ... والشد والكرَّ والتقريب والخَبَبا[٤]

وهكذا تأكدت منزلة الشاعر فى بلاط المنصور ، فلم يكن فى ديوان الشعراء فحسب ، بل ما لبث أن ضم إلى ديوان الإنشاء ، لتمكنه من صناعة النثر إلى جانب تمكنه من صناعة الشعر . . وما زال ابن دراج يصعد حتى أصبح من كبار شعراء المنصور ، إن لم يكن أكبرهم أجمعين . وظل يعمل فى خدمته شاعراً يمدح ويسجل الانتصارات

---

(١) الرمض : شدة وقع الشمس على الرمل .

(٢) الحزن : ما غلظ من الأرض .

(٣) الحضر بضم الحاء وسكون الضاد : ارتفاع الفرس فى العدو .

(٤) قصة هذه القصيدة واردة فى : جذوة المقتبس ص ١٠٣ — ١٠٤ ، والقصيدة كلها واردة فى الديوان ص ٣٦٣ وما بعدها .

ويصور كبار الأحداث ، وناثراً يجيد ما يطلب منه تحريره فى ديوان الانشاء ؛ حتى مات المنصور . ثم استمر يعمل مع الحاجب الجديد عبد الملك المظفر ، وظل كذلك يمدحه ويسجل انتصاراته ويصور كبار الأحداث فى عهده . وحين شبت الفتنة بالأندلس، بعد فترة الحجابة ، وتناوب الأمر فى قرطبة رؤساء مختلفون بربر وأمويون ، اتصل ابن دراج ببعض هؤلاء الرؤساء ومدحهم (١) ، ثم اضطر إلى مغادرة قرطبة بسبب ما تعج به من قلاقل وما تنوء تحته من اضطرابات . فاتجه إلى سبتة فى العدوة الافريقية ومدح رئيسها (٢) . وكانت هذه الرحلة أولى رحلاته خارج الأندلس ، كما كانت الأخيرة ؛ فليس فى أخباره ولا فى شعره ، ما يدل على أنه قصد إقليماً خارج الأندلس غير سبته . ولم يلبث ابن دراج أن عاد إلى الأندلس ، إذ يبدو أنه لم يجد فيها مستقراً ولا فى رئيسها ملاذاً . وقصد شاعرنا بعد ذلك عدة أقاليم أندلسية ، مادحاً رؤساءها مؤملا أن يجد الاستقرار فى بعضها (٣) . ولكنه — فيما يبدو — عجز عن أن يظفر بتحقيق أمله. وأخيراً قصد إقليم سرقسطة ، حيث المنذر بن يحيي التجيبي يلى الأمر هناك ، فنعم بكثير من الاستقرار ، وظفر بعظيم من التقدير ، فى ظل هذا الحاكم ، ثم فى ظل ابنه من بعده يحيي بن منذر بن يحيي التجيبي (٤) ، مما جعله يستوطن إقليم سرقسطة ، ولا يفارقه فى تلك الفترة الأخيرة من حياته ، إلا ليقصد دانية ، حيث كان على رياستها مجاهد العامرى

---

(١) ممن اتصل بهم : ابن عبد الجبار وسليمان المستعين ، وعبد الرحمن المرتضى ، والقاسم ابن حمود . انظر : ديوان ابن دراج والذخيرة لابن بسام ق ١ م ١ ص ١٦ وما بعدها .

(٢) هو على بن حمود أخو القاسم بن حمود . انظر القصيدة التى مدح بها الشاعر عليا فى الديوان ص ٧٥ .

(٣) تردد القسطلى على ألمرية وعليها خيران العامرى ، وعلى بلنسية وعليها مبارك ومظفر العامريان ، وعلى شاطبة وعليها الفتح بن أفلح ، وعلى طرطوشة وعليها لبيب العامرى . انظر الديوان لترى أشعاره فى هؤلاء الموالى العامريين ص ٨٦ ، ٩٥ ، ١٠١ ، ١٠٩ ، ٥٢٠ . وانظر : الصقالبة فى إسبانيا للدكتور مختار العبادى : لتعرف قصة هؤلاء الموالى العامريين وإمارتهم فى الأندلس .

(٤) انظر الديوان ص ١٢٤ وما بعدها .

المعروف بعلمه وتأدبه وإكرامه للعلماء والأدباء وتشجيعه لهم[(١)]. وأغلب الظن أن ابن دراج قد عاد بعد هذه الرحلة ثانية إلى سرقسطة . وأنه ظل بها بقية حياته ، حتى مات بها[(٢)] سنة ٤٢١ هـ (١٠٣٠ م) .

هذا ، وقد كانت أخلاق ابن دراج على كثير من الاستقامة والبعد عن التحرر الذى كان يتورط فيه كثير من معاصريه . كذلك كان فى طبيعته كثير من الجد والحساسية المسببين لشىء غير قليل من الأسى . ومن أبرز طباع ابن دراج إحساسه العميق بالأسرة ، وتعلقه الشديد بزوجته وأولاده[(٣)] . ثم شىء أخير يلاحظ فى طبيعته ابن دراج ، وهو الشعور بالحاجة إلى الأمن ، والإحساس بضرورة الحامى ، الذى يتحقق فى ظله الاستقرار .

وهذه الملامح النفسية والأخلاقية تدرك جميعاً فى شعره ، وتبدو بوضوح لمن يعيش ولو مع بضع قصائد من هذا الشعر .

شعره :

ويعتبر ابن دراج من أغزر الشعراء الأندلسيين شعراً ، بل من أكثر شعراء العربية نتاجاً ، فقد خلف ديواناً ضخماً . أكثره من القصائد الطوال التى يغلب عليها طول النفس[(٤)]

---

(١) انظر فى ترجمة مجاهد : جذوة المقتبس للحميدى ترجمة ٨٤٩ ، وانظر فى وفادة بعض العلماء والأدباء عليه وإكرامه لهم : الجذوة ، والذخيرة لابن بسام ق ٤ م ١ ص ٤ — ٥ ، ٩٧ والصلة لابن بشوال ترجمة ١٢٥ . وانظر قصيدة القسطلى فى مدح مجاهد بالديوان ص ٤٧٨ .

(٢) هذا ما عليه أكثر من ترجموا له ودرسوا حياته . ويرجح الدكتور محمود مكى أن ابن دراج مات فى دانية ، ويذكر مبررات هذا الترجيح . انظر مقدمة الديوان ص ٦٩ — ٧٠

(٣) كان عدد أفراد الأسرة التى يعولها ابن دراج أخيراً أربعة عشر فرداً ، كما يدل على ذلك قوله :

ولسبعة مع مثلهم أنا كلهم　　　فى النائبات وليس كلهم أنا

ويبدو أنه كان له سبع بنات وأربعة أولاد : كما يدل على ذلك قوله :

بسبع كسبع سماء السموم　　　وأربعة كربوع العفاء

وأنه بزوجته وشخص آخر لعله خادم ، ثم بالشاعر نفسه يكمل عدد الأفراد أربعة عشر .

(٤) حقق هذا الديوان وقدم له الدكتور محمود مكى ، ونشره المكتب الإسلامى بدمشق سنة ١٩٦١ .

وموضوع المدح هو الموضوع الرئيسى الغالب على قصائد ديوان ابن دراج ، حتى لا يكاد يعثر فيه على أعمال شعرية مستقلة غير المدح ، سوى بعض الآثار القليلة التى توشك أن تضيع فى زحمة المدح . ومن ذلك قصيدتان قصيرتان فى الغزل(١) ، وثالثة فى الاستهداء(٢) . بل إن موضوع المدح يغلب لدرجة أن الشاعر قد يمزجه بما قد يعرض له من وصف زهر ونحوه ؛ مما يتصل بممدوح من ممدوحيه(٣) .

ولعل غلبة المدح على هذا النحو فى شعر ابن دراج ، كان مبعثها أن هذا الشاعر تحت إلحاح ظروف معينة بدأ حياته الفنية وختمها شاعراً رسمياً ، يعمل فى خدمة الحكام والرؤساء ، من المنصور بن أبى عامر ، إلى يحيى بن المنذر التجيبى (٤). أما هذه الظروف المعينة التى دفعت بالشاعر إلى أن يكون شاعراً رسمياً ، فبعضها يرجع إلى أحواله الخاصة ، وبعضها يرجع إلى أحوال عصره العامة . فمعروف أن أجداده كانوا سادة بلدة قسطلة وحكامها ، أى أنه ألف العيش الرغد والحياة الناعمة ، فلعل سلطان قومه قد زال ، ولعل رياستهم قد انتقلت إلى غيرهم ، ولكن ابن دراج ظل على تعلقه بحياة القصور والاتصال بالرؤساء . ومعروف كذلك أن ابن دراج كان ذا عيال عديدين وأسرة كثيرة التكاليف ثقيلة المسئوليات(٥)، فلعل ذلك أيضاً كان من دوافع إكثاره من المدح ، حتى ينال ما يسد به حاجة العيال العديدين والأسرة الباهظة . وقد صرح الشاعر نفسه بما يؤكد هذا ، وذلك فى مثل قوله :

وتحت جناحىْ مقدمى وتعطّفِى ثمان وعالت بالبنين إلى الشطر

(١) انظر : ديوان ابن دراج ص ٣٤٨ ، ٣٤٩ .

(٢) انظر : ديوان ابن دراج ص ١٥٨ .

(٣) انظر : ديوان ابن دراج ص ٣٧ ، ٣٨ ، ٣٩ ، ٤٠ ، ٤١ ، ٤٢ : ٢٥٣ .

(٤) انظر ما كتب عن حياة ابن دراج فى الصفحات الأولى من ترجمته .

(٥) انظر ما كتب عن أولاده فى آخر ترجمته ص ٣١٢ هامش (٣)

فما جهدوا فُلْكا كما جهدوا يدى ... ولا أنقضوا ظهراً كما أنقضوا ظهرى

ولولاهمُ لم أبد صفحة معـــدم ... ولم أسمع الأعداء دعوة مضطر [١]

ومعروف كذلك أن ابن دراج قد صدم فى أول عهده بالانتقال إلى قرطبة ، وعانى كثيراً من الدس والتحريض والاتهام بانتحال الشعر ، حتى يحال بينه وبين النجاح الفنى الذى كان يحلم به[٢] ؛ فلعل ذلك بالإضافة إلى ما تقدم ، قد خلف فى نفسه نوعاً من القلق وعدم الاطمئنان ، مما حمله حملا على البحث عن المستقر ، والالحاح فى طلب الحامى ، واللجوء إلى ظل القوى .

تلك بعض أحوال ابن دراج الخاصة التى ربما تفسر غلبة المدح على قصائده . أما أحوال عصره العامة ، فواضح أنها كانت أحوالا قاسية ربما شجعت كثيراً على هذا السلوك . فقد أظلت أولا فترة المنصور وابنيه ، بما فيها من حكم استبدادى . برغم ما حفلت به من انتصارات وأمجاد حربية وسياسية . وهذا اللون من الحكم الاستبدادى ، يحمل حملا على تسخير الطاقات المختلفة فى خدمة النظام الحاكم[٣] ؛ فكأنه كان لا بد للقسطلى لكى يتلاءم مع فترة الحجابة ، وحتى لا ينال من الأذى ما ناله كثيرون ، أن يسخر فنه فى خدمة المنصور ومدحه ومدح ولديه . ثم أظلت بعد ذلك فترة الفتنة ، بما فيها من قلق وخوف وضياع[٤] ، مما يدفع دفعاً إلى طلب الحمى والبحث عن المستقر واللجوء إلى القادرين على الحماية المحققين للاستقرار ، من ذوى النفوذ والسلطان .

---

(١) هذه الأبيات من قصيدة طويلة لابن دراج ، والبيت الأول يقع فى صفحة ١٩٠ والبيتان الثالث والرابع يقعان فى صفحة ١٩٤ من الديوان .

(٢) انظر : ما كتب عن ذلك فى الصفحات الأولى من ترجمته .

(٣) انظر ما كتب عن سياسة فترة الحجابة فى أول هذا الفصل ، ثم ما كتب عن الشعر فى الفصل نفسه .

(٤) انظر ما كتب عن هذه الفترة فى أول الفصل الأخير من هذا الكتاب .

فلعل ذلك كله كان من أسباب أمداح ابن دراج الكثيرة ، فالحق أن أحواله الخاصة وأحوال عصره العامة تفسر هذا بل تسوغه إلى حد كبير .

أغراضه :

إلا أنه يجب أن يلاحظ أن المدح وإن غلب على قصائد ديوان ابن دراج فإنه لم يستأثر بتلك القصائد التى قيلت أساساً فيه . فأكثر قصائد الديوان التى أخذت عنوان المدح ، أو قيلت لبعض ممدوحيه فى مناسبة ما ، لا تخلو من أغراض أخرى ، كثيراً ما زاحمت الغرض الأصلى ، بل كثيراً ما طغت عليه . وعلى هذا يكون من الظلم لابن دراج وشعره أن تحسب تلك القصائد مدحاً خالصاً ، وأن يسقط من ديوانه ما فيه من موضوعات أخرى ، ربما كانت أهم ما فيه ، برغم تخللها لقصائد أخذت عنوان المدح .

وأهم تلك الأغراض الفرعية التى يضمها الديوان ، وتتضمنها قصائد المدح : وصف مواقف الوداع وفراق الأهل ، ووصف الأسفار ومشاق الرحلة فى البر والبحر وبالنهار والليل ، ثم التعبير عن تجارب القلق والغربة والضياع ، والإحساس بقسوة الأيام على الأبناء ، وأخيراً وصف المعارك الحربية ومشاهد الجيوش والعدد البرية والبحرية .

فابن دراج كثير الحديث عن وداعه لزوجته وأولاده ، وصاف لما يكون فى مواقف الوداع من مشاهد حسية وآلام نفسية . وهو قد يفتتح بعض قصائده بذلك ، وقد يذكره فى خلال القصيدة ، ولكنه يلح عليه ويهتم به ويوفيه حقه من القول . ومن ذلك قوله فى أول قصيدة يمدح بها المنصور بن أبى عامر .

دَعِى عزماتِ المستضام تسيرُ   فتُنْجِد فى عرض الفلا وتغورُ
لعل بما أشجاك من لوعة النوى   يَعز ذليلٌ أو يُفك أسير
ألم تعلمى أن الثواء هو التوى[1]   وأن بيوت العاجزين قبور

(١) التوى : الهلاك .

إلى قوله :

ولما تدانت للوداع وقد هفا بصبرى منهـا أنة وزفـير
تناشدنى عهد المودة والهوى وفى المهد مبغوم[1] النداء صغير
عَيِيٌّ بمرجوع الخطاب ولحظه بموقع أهـواء النفوس خبـير
تبوأ ممنوع القلوب ومُهدتْ له أذرع محفوفة ونحـور
فكل مُفَدّاة الترائب مرضـعٌ وكل محيّـاة المحاسن ظئـر[2]
عصيتُ شفيع النفس فيه وقادنى رواح لتدآب السرى وبكور
وطار جناحُ الشوق بى وهفتْ بها جوانحُ من ذعر الفراق تطير[3]

فالشاعر هنا يبدأ قصيدته المدحية بالحديث إلى زوجته ، مبرراً لها سفره وفراقه لها ولولده ، ويصف موقف الوداع بينه وبين الزوجة والولد ، مبيناً أن الزوجة حين اقتربت منه للوداع ، قد زفرت زفرة وأنت أنينا لعبا بصبر الشاعر ، ثم راحت تناشده وتستحلفه بعهد الود والحب أن يبقى . ولا ينسى الشاعر الطفل الرضيع الذى يمثل جزءاً من هذا المشهد الحزين ، فيذكر أن ابنه الرضيع كان ساعة هذا الوداع فى مهده ، لا يستطيع أن ينطق إلا بغاما ، فهو عاجز عن فهم ما يدور بين الأب والأم من حديث باك ، ولكنه ذو نظرات مدركة خبيرة ، تفهم حالات الأب والأم وما هما فيه من ألم وحزن . ثم يمضى الشاعر متحدثاً عن هذا الطفل ومنزلته ، حيث سكن القلوب وافترش الأذرع والنحور ، ليصل إلى القول بأنه مع ذلك قد تركه وعصى فيه شفيع الدمع . وهكذا طار بالشاعر جناح الشوق ، وهفت بزوجته جوانح من ذعر الفراق تطير . وكما هو واضح ،

---

(١) بغم فلان صاحبه : لم يفصح له عن معنى ما يحدثه ، وبغمت الظبية : صاحت بأرخم ما يكون من صوتها .

(٢) الظير : الظئر ، وهى العاطفة على ولد غيرها المرضعة له .

(٣) وردت هذه الأبيات فى ديوان ابن دراج ص ٢٩٧ – ٢٩٩ .

قد جمع القسطلى فى هذه الأبيات بين وصف المشهد حسياً ونفسياً . حيث الحديث من الزوج عن السفر وجدواه ، والإقناع من الزوجة بالبقاء وضرورته ، وحيث تئن الزوجة وتزفر ، ويزلزل صبر الزوج ويهفو ، وحيث الرضيع فى مهده ، يتابع ما يحدث بنظراته الواعية ، ولكنه لا يبين ، وحيث تشفع نفس الأب لهذا الوليد ، لكن العزيمة تغلب شفاعة النفس ، وينتهى الصراع بالفرقة القاسية ، التى يطير معها الزوج بجناح الشوق ، وتضطرب بسببها جوانح الزوجة ، حتى لتوشك أن تطير من الفزع .

ومن ذلك أيضاً قول القسطلى فى خلال قصيدة أخرى يمدح بها المنصور بن أبى عامر :

ولله عــزمى يوم ودعتُ نحــوه	نفوسـًا شــجانى بثهـا وشجاها
وربةَ خدر كالجمـان دموعها	عزيز على قلبى شطوط نواهـا
وبنت ثمان لا يزال يروعنى	على النأى تذكارى خفوق حشاها
وموقفها والبين قد جد جـده	منوطا بحبلىْ عاتقىّ [1] يداها
تشكّى جفاء الأقربين إذا النوى	ترامت برحلى فى البلاد فتاها[2]

فالشاعر لا ينسى خلال قصيدته المدحية أن يذكر موقف الوداع بينه وبين أهله ، ويخص بالذكر زوجته التى كانت تبكى بدمع كالجمان ، وابنته ذات الثمان ، التى كانت أحشاؤها تخفق اضطراباً وحزناً لفراق الوالد . ثم يصورها وقت الوداع ، وقد تعلقت يداها بكتفيه ، وراحت تشكو إلى أبيها ما قد يصيبها بعده من جفاء الأقارب . فالمشهد كما هو واضح يمتزج فيه الوصف الحسى بالوصف النفسى ، ففيه دموع وتوسل وخفوق أحشاء وتعلق من الطفلة بأكتاف الأب ، ثم فيه شجو يحركه البث ، واستشعار للوعة الفراق وألم البعاد، وارتياع من مشهد خفوق أحشاء الطفلة وعلو قلبها وانخفاضه من الانفعال .

---

(١) العاتق : موضع الرداء من المنكب ، أو ما بين المنكب والعنق .

(٢) وردت هذه الأبيات فى : ديوان ابن دراج ص ١٣ — ١٤ .

وابن دراج كذلك وصاف للأسفار والرحلات مفصل للقول فيها حينما تكون بالبر أو بالبحر ، راسم لما يكون خلالها من مشاهد ، شارح لما يعانى فيها من أهوال . وهو كعادته يمزج بين الوصف الحسى والنفسى ، ويجمع إلى المشاهد الخارجية الانفعالات الداخلية . ومن قوله فى بعض الأسفار البرية نهاراً وليلا :

ولو شاهدَتْنى والصواخد[1] تلتظى ... علىّ ورقــراق السراب يمورُ
أسلِّط حرَّ الهاجرات إذا سطا ... على حُرِّ وجهى والأصيل هجير
وأستنشق النكباء وهى بوارح[2] ... وأستوطن الرمضـــاء وهى تفــور
وللموت فى عين الجبـــان تلون ... وللذعر فى شمع الجرىء صفير
لبان لها أنى من الضيم جازع ... وأنى على مَضِّ الخطوب صبور
أمير على غَوْل التنائف[3] ما لَهُ ... إذا ريع إلا المشرفى وزير
ولو بصرت بى والسرى جُلُّ عزمتى ... وجَرسى لجِنَّـــان[4] الفلاة سمير
وأعتسف الموماة فى غسق الدجى ... وللأسْد فى غِيل الغياض زئير
وقد حوّمتْ زُهْرُ النجوم كأنها ... كواعب فى خضر الحدائق حور
ودارت نجوم القطب حتى كأنها ... كئوس مَهاً[5] والى بهن مدير
وقد خيَّلتْ طــرق المجرة أنهـــا ... على مفرق الليل البهيم قتير[6]
وثاقب عزمى والظلام مروع ... وقد غض أجفان النجوم فتور
لقد أيقنت أن المنى طوع همتى ... وأنى بعطف العامرىّ جـــدير[7]

(١) الصواخد : من صخدته الشمس أى أحرقته .
(٢) البوارح : الرياح الحارة فى الصيف .
(٣) التنائف : المفاوز والصحارى ، وهى جمع تنوفة .
(٤) الجنان : جمع جن .
(٥) المها : البلور .
(٦) القتير : الشيب .
(٧) وردت هذه الأبيات فى ديوان القسطلى ص ٢٩٩ — ٣٠٠ .

فالشاعر هنا يتحدث عن مشاهد الطريق وأهواله التى يعانيها المسافر بالنهار ثم بالليل، فيذكر اشتداد الحر الذى يتلظى، والسراب الرقراق الذى يمور، والقيظ الذى يتسلط لهيبه على الوجه فى النهار الذى أصيله هجير؛ ويذكر الرياح النكباء التى تستنشق، والرمضاء الفائرة التى توطأ. وهو لا يغفل الوصف النفسى، فيذكر مخاوف المسافر، وإحساسه بالموت إحساساً يصوره فى عينه ألواناً مختلفة وأشكالا متعددة، كما يجسم الرعب واستيلاءه على المسافر فى تلك الظروف، بحيث يخدع حواسه فيسمع له صفيراً. حيث الظلام الكثيف يتخلله زئير الأسد، وحيث تتراقص زهر الكواكب فى السماء، كحسان كواعب فى حديقة خضراء، وحيث تدور نجوم القطب، مثل كئوس بلور يدور بها ساق، وحيث يظهر طريق المجرة كأنه شيب أبيض على مفرق الليل الأسود، وحيث يروع الظلام، حين تفتر جفون النجوم فتغمض منها العيون.

ومن ذلك أيضاً قوله فى بعض الرحلات البحرية:

إليك شحنّا الفُلك تهوى كأنها ... وقد ذُعرتْ عن مغرب الشمس غربانُ
على لجج خضر إذا هبت الصَّبا ... ترامى بنا فيها ثَبير وثهْلان(١)
موائل ترعى فى ذراهـا مواثلا ... كما عُبدت فى الجاهلية أوثان
وفى طىّ أسمال الغريب غرائب ... سكنّ شغاف القلب شيب وولدان
يرددن فى الأحشاء حرّ مصائب ... تزيد ظلاما ليلها وهى نيران
إذا غيض ماء البحر منها مددنه ... بدمـع عيون تمتريهن أشـجان
وإن سكنتْ عنا الرياح جرى بنا ... زفير إلى ذكر الأحبـة حنان
يقلن وموج البحر والهمّ والدجى ... تموج بنـا فيها عيون وآذان
ألا هل إلى الدنيا معاد وهل لنا ... سوى البحر قبر أو سوى الماء أكفان(٢)

---

(١) ثبير وثهلان: جبلان.

(٢) وردت هذه الأبيات فى ديوان القسطلى ص ٨٧ — ٨٨.

فالشاعر هنا يتحدث عن الفلك التي تهوى ساعة الغروب كأنها غربان خائفة من مقدم الليل . ويصفها وهي تسرع على جحج الماء الخضر التي تقذف بما يشبه جبلي ثبير وثهلان كلما هبت الريح ، فتبدوا السفن موائل ترى فى أعلاها ركابا قد تجمدو من الخوف فصاروا كالأصنام . ثم يتحدث الشاعر عن نفسه وأهله الذين سكنوا منه شغاف القلب ، وراحوا يرددون فى أحشائه لهيب مصائب تزيد الليل ظلاماً ، برغم أن تلك المصائب نيران من المفروض أن تضئ . ثم يذكر الشاعر أن أهله يبكون ، ودموعهم غزار ، فلو أن البحر غاض ماؤه ، لمدته دموعهم بما تجرى فيه السفينة . كما يذكر أنهم يزفرون ، وزفراتهم قوية ، فلو أن الريح هدأت لسيرت تلك الزفرات الشراع . وأخيراً يذكر أن أهله كانوا يقولون بين أمواج البحر والهم والظلام التى تضطرب فيها العيون والآذان : هل لنا عودة إلى الدنيا ؟ وهل لنا قبر غير البحر أو أكفان غير الماء ؟

وهكذا يصف الشاعر أهوال الرحلة البحرية ، ويصور وقع تلك الأهوال على النفس ، فيجمع إلى الأوصاف الخارجية الانفعالات الداخلية . ويمزج بين الوصف الحسى والوصف النفسى مزجاً فنياً رائعاً .

وابن دراج كذلك كثير الحديث عن أولاده ، دائم الحنين إليهم ، والاهتمام بأمرهم. وربما كان هذا اللون من الحديث أبرز موضوعات ابن دراج الشعرية التى تتخلل قصائده المدحية . فقد ذكر أبناءه ألواناً مختلفة من الذكر ، بلغت أكثر من عشرين مرة فى ديوانه[١] . وهذه ظاهرة قد لا يشاركه فيها شاعر عربى آخر . ولعل من أسباب ذلك تلك الظروف الخاصة التى أحاطت بابن دراج ، من شدة حساسيته بأولاده ، إلى قسوة الأيام عليه وعليهم ؛ فقد اضطر الرجل أول الأمر إلى مغادرة بلده قسطلة إلى العاصمة

(١) انظر : ديوان القسطلى ص ٩ ، ١٣ ، ٧٤ ، ٧٨ ، ٨٧ ، ٨٩ ، ١٠٠ ، ١٠٧ ، ١١٠ ، ١١٧ — ١١٨ ، ١٢٦ — ١٢٨ ، ١٦٧ ، ١٧٨ ، ١٨٤ ، ١٩٠ ، ١٩٨ ، ٣٠٧ ، ٣٢٧ ، ٥٢٩ .

قرطبة ، وفى هذه المرة ترك أولاده إلى أن هيأ له ولهم حياة مستقرة ، غير أن الفتنة وقعت بعد فترة من الاستقرار والرفاهية ، وحملت الشاعر على الضرب فى الآفاق بحثاً لنفسه ولأولاده عن الملجأ والقوت ، فكان يرحل عنهم أحياناً ويودعهم راحلين عنه أحياناً أخرى ، وكان فى أكثر الأحيان مفتقداً لهم أو لبعضهم ، حاملا لهمهم ، محساً بقسوة الأيام عليهم . ثم إنهم بلغوا حداً من الكثرة يرهق الكاهل ؛ فقد كانوا بضعة عشر ، بين بنين وبنات [١] ، كما كانوا جميعاً معلقين فى عنق أبيهم فى تلك الظروف القاسية التى أظلت الأندلس فى تلك السنين . لهذا كله نرى ابن دراج يكاد يكون أكثر شعراء العربية ذكراً لأولاده ، وشكاية من قسوة الأيام عليهم . ومن ذلك ما سبق من حديث الوداع لزوجته وطفله الرضيع ، ومن حديث الوداع لزوجته وطفلته ذات الثمانية الأعوام . ومنه أيضاً قوله فى اغتراب أبنائه على رغم تعلقه بهم ، وتشردهم عنه على شدة حاجتهم إليه :

فى ستة ضُعفوا وضعّف عدُّهم ... حملا لمبهور الفؤاد مُبَلَّدِ [٢]
شد الجلاء رحالهم فتحمّلَتْ ... أفلاذُ قلب بالهموم مبدد
وحدت بهم صعقاتُ روع شرّدت ... أوطانهم فى الأرض كل مشرد
لا ذات خدرهمُ يُرام لوجهها ... كِنٌّ ولا ذو مهدهم بممهّد
عاذوا بلمع الآل [٣] فى مدّ الضحى ... من بعد ظل فى القصور ممدد
من كل عار بالتجمل مكتس ... ومُزَوَّد بالصبر غير مزود [٤]

ومن ذلك أيضاً قوله فى قسوة غربتهم عليهم ، وشدة حنينهم إلى دراهم ، حتى إنهم

(١) انظر الحديث عن حياة القسطلى ص ٢٢٦ هامش ١ .
(٢) المبلد : المتلهف غير المتجلد .
(٣) الآل : السراب .
(٤) وردت هذه الأبيات فى : ديوان ابن دراج ص ٧٤ .

ليحزنون كلما تخيلوا داراً لساكنين ، ويتألمون كلما رأو حيواناً أو طائراً يستمتع بمربض أو عش ، على حين هم مشردون هائمون :

في أهل دار كالكواكب والنَّوَى بعـد النوى فَلَكٌ بهم دوّارُ
كانوا جمالا للزمـان فأصبحـوا وهمُ عليـه بالتغـرب عار
تنبو الديار بهم وتلك ديارهم غـرض المصائب ما بهـا ديّارَ
قد أقفروا وطن الأنيس وأنّست بهمُ مفـاوز بالفلا وقفـار
يتأوهون إذا رمتْ أوهـامُهم داراً لسـاكنهـا بها استقرار
ويهيجهم عِينٌ لهـنَّ مـرابض ويشوقهم طـير لهـا أوكار[1]

وابن دراج كثير الحديث عن قلقه وضياعه وسوء حاله . وغني عن البيان شرح أسباب ذلك عند هذا الشاعر ؛ فظروف الرجل الخاصة . وظروف الأندلس العامة ، كانت من دوافع ذلك ، وخاصة إذا كانت كل تلك الظروف تحيط بشاعر شديد الحساسية كابن دراج ، الذي لم ينس أنه ذل بعد عز ، واحتاج بعد غنى ، واضطر وهو الشاعر الكبير ، وسليل السادة من حكام قسطلة إلى أن يقصد الناس ليبيع شعره بقوته وقوت أولاده[2] . ومن نماذج شعره في ذلك قوله :

أقرُّ عيـون الشامتين وليتني أبرّد ما تَطوِي الضلوع من الغلِّ
أمرُّ بهم ألقَى الثَّرَى وكأنمـا فؤادي من أحداقهم غرضُ النبل
إذا الأسَد الضرغام أنفذ مقتلي فما فزعي إلا إلى الأرقم الصّل
وإن ذاب حُرُّ الوجه من حَرّ نارهم فما مستغاثي منه إلا إلى المُهل
ومن شيمة الماء القراح إذا صفا إذا اضطرمت من تحته النار أن يغلي[3]

(١) وردت هذه الأبيات في ديوان ابن دراج ص ١٥٧ .

(٢) اقرأ ما كتب عن تفسير كثرة أمداحه في أول هذا الفصل .

(٣) وردت هذه الأبيات في ديوان القسطلي ص ٤٦ .

ومنه أيضاً قوله :

وكان ضياعى حسرة وتنـدماً إذا لم يفد شيئاً ولم يغنى شيئاً
وأصبحتُ فى دار الغنى عن ذوى الغنى وعُوّضتُ فاستقبلتُ أسعدَ يوميا
سوى حسرتىْ عرض ووجه تضعضعا لقارعة البـلوى وكانا عتـاديا
وللستر والصبر الجميل تأخرا فأمهما حرصى وكانا إماميـا
فيا عبرتى سحى لعلى مبلل ببحريك ما أنزفت من ماء عينيا
ويا زفـرتى هل فى وقودك جذوة تنير لنا صبحا ثناه الأسى مسيا(١)

وابن دراج بعد ذلك من وصاف المعارك الحربية . ولا غرو ؛ فقد عاش فى فترة كانت المعارك من أبرز نشاط حكامها ، وكان الشاعر يعمل فى خدمة هؤلاء الحكام . فكثيراً ما خاض المنصور معارك ضد مسيحيي الشمال ، وكثيراً ما خاض غير المنصور من الرؤساء معارك أخرى ، وقد كان طبيعياً أن يحتل وصف تلك المعارك مكاناً فسيحاً فيما يقول ابن دراج للمنصور وغيره من شعر ؛ لأنه كان رابطاً حياته بهم ، جاعلا فنه فى خدمتهم وتسجيل انتصاراتهم وأمجادهم . ومن هنا كثر حديثه عن المعارك والمحاربين وعدد الحرب . ومن شعره فى بعض المعارك ، قوله لمنذر بن يحى التجيبى :

فى جحفل كالليل جرّارٍ له من عزّ نصرك جحفل جرّارُ
أمددتَ فيـه بالملائكة التى نُصرت بها أعمامك الأنصـار
وكسوتَ فيه الشمس بُردَ عجاجة للموت تحت ظلالها إسـفار
والجو يحمَى والدماء سوافك والأرض ريـا والسمـاء غبار
والمقفـرات سـوافق وخوانق والشـاهقات أسـنة وشفار
كل رفعن صـدورهن لغـارة ما إن لها قبل الصدور مغار(٢)

(١) وردت هذه الأبيات فى ديوان القسطلى ص ١٨٠ .

(٢) وردت هذه الأبيات فى ديوان القسطلى ص ١٥٣ .

ولقد غلبت صور المعارك الحربية على خيال ابن دراج ، حتى استخدمها فى أبعد الموضوعات عن هذا الجو الدامى العنيف . فقد نقل صور المعارك مثلا إلى الغزل ، وإلى وصف مجالس الأنس ، وطبق كل تفاصيل المعارك على هذين الغرضين الرقيقين ، ومن ذلك قوله متغزلا :

أَوْجَفْتُ[1] خيلى فى الهوى وركابى ... وقذفت نبلى فى الصبا وحرابى
وسللت فى سُبُل الغواية صارماً ... عضباً ترقرق فيه ماء شبابى
ورفعت للشوق المبرح راية ... خفاقة بهوائج الأطراب
ولبست للّوّام لامة خانع ... مسرودة[2] بصبابة وتصاب
وبرزت للشكوى بشِكّة معلم[3] ... نكَص الملام بها على الأعقاب
فاسأل كمىّ الوجد كيف أثرته ... بغُروب دمع صائب التسكاب[4]
واسأل جنود العذل كيف لقيتها ... فى جحفل البُرحاء والأوصاب
ولقد كررت على الملام بزفرة ... ذهل العتاب بها عن الإعتاب[5]

ومن أبرز الموضوعات التى يصفها ابن دراج : السفن وركوبها ، والبحار وأهوالها . وواضح أن هذه الظاهرة إقليمية محلية ترتبط أشد الارتباط بوضع الأندلس كشبه جزيرة ، تكثر الرحلة فيها من مكان إلى آخر عن طريق البحر . وقد كان ابن دراج من أكثر الشعراء الأندلسيين التفاتا إلى البحر والسفن واهتماماً بهذا وتلك ، حتى لقد تحدث عنها مرات

(١) أوجف : سير وجيفا ، والوجيف : ضرب من سير الخيل .
(٢) اللامة : الدرع ومسرودة : من السرد ، وهو نسج الدرع .
(٣) الشكة : السلاح . والمعلم : الفارس الجرىء الذى يتخذ علامة تدل عليه .
(٤) غروب الدمع : جمع غرب ، وهو انهمال الدمع وتدفقه . وصائب : من الصوب وهو الإنصباب .
(٥) وردت هذه الأبيات : فى ديوان القسطلى ص ١٨١ — ١٨٢ .

عديدة خلال قصائده . وقد مضت قطعة له فى الحديث عن البحر والرحلة فيه . ومن ذلك أيضاً قوله فى السفينة :

وكم عجزتْ عنـا ذواتُ قوائم فعجنـا بعُوج مالهن قوائمُ
جآجئ[1] غربان تطير لنا بهـا على مثل أطواد الفيافى نعائم
لها من أعاصير الشمال إذا هوت خوّاف ومن عصف الجنوب قوادم
يُحاجَى بها : ما حاملٌ وهو راقد وما طائر فى جـوّه وهو عائم
سرَتْ من عصا موسى إليه قرابة فطَبٌّ بفلق البحر والصخرِ عالم
وشاهدَ لقْمَ الحوت يونسَ فاقتدى فغادٍ وسارٍ وهو للسفْر لاقم[2]

هذا شعر ابن دراج من حيث الموضوعات ، وقد رأينا أن الموضوع الغالب فى الظاهر ، هو موضوع المدح ، ولكن خلال قصائد المدح المستبدة بالديوان ، أغراض كثيرة هامة ، أبرزها كما تقدم : وصف مواقف الوداع للزوجة والأولاد ، ووصف الأسفار براً وبحراً ، نهاراً وليلا ، وتصوير الغربة والقلق والضياع ، وخاصة غربة الأبناء وقلق الأهل وضياع الأسرة ؛ وأخيراً تسجيل المعارك الحربية ، ، ووصف البحار والسفن .

فنه وسماته :

أما شعر القسطلى من الناحية الفنية ، فأول ما يلاحظ عليه أنه يبلغ الذروة من الاتجاه المحافظ الجديد ، وتتضح فيه معالم هذا الاتجاه[3] بأكمل ما يكون الاتضاح ، وتبدو فيه ناضجة كأحسن ما يكون النضج . حتى ليمكن أن يعتبر ابن دراج قمة هذا الاتجاه فى الأندلس ، فى أواخر القرن الرابع الهجرى وأوائل القرن الخامس .

---

(١) الجآجئ : جمع جؤجؤ وهو الصدر .

(٢) وردت هذه الأبيات فى : ديوان ابن دراج ص ١٦٥ — ١٦٦ .

(٣) اقرأ ما كتب عن هذا الاتجاه فى صفحة ٢١٧ وما بعدها من هذا الكتاب .

وبرغم أن ابن دراج كان يسير فى هذا الاتجاه الذى سار فيه كثيرون غيره من المشارقة والأندلسيين ، قد كانت له مميزات خاصة تجعل لشعره شخصية ذات سمات واضحة بين أشعار الآخرين من أصحاب هذا الاتجاه الأندلسيين والمشرقيين . ويمكن أن نلخص تلك السمات فى خمس ، وهى : اللون المحلى ، والشعور الأسرى ، والتحليل المعنوى ، والوصف النفسى ، والنضج الثقافى .

أما سمة اللون المَحلى ، فنعنى بها كون الشعر واضح التأثر بطابع الإقليم ومؤثراته وشعر ابن دراج بيِّن الأندلسية بشكل يدل قارئه وسامعه على أن صاحبه من أبناء الأندلس ، المتأثرين بموقعها وحياتها السياسية والاجتماعية واللغوية أوضح تأثير . ففى شعر ابن دراج ذكر لكثير من أسماء البلاد الإسبانية التى اتصل بها المسلمون خلال معاركهم مع المسيحيين .

ومن ذلك قوله :

وبسطتَ مِن « قَشْتِلَّةٍ » يدَ آمن لرضاك فيها بارقٌ وسوارُ(١)

وقوله :

وبيعةُ «شَنْتَقَرُوجَ»أوريتَ فوقها سنا لهب فيه لعميانها شرحُ (٢)

وقوله :

« وقُلُنْبةٌ » أنشأت فيها عارضًا للحرب أبرق بالحتوف وأرعدا(٣)

---

(١) المراد بقشتلة المنطقة المسماة بالإسبانية «كاستيليا Castilla » وتقع فى وسط شبه الجزيرة الإيبيرية. والاسم يرد كذلك فى المراجع العربية : قشتالة وقشتيلة ، ولكن الصورة التى جاء عليها فى بيت ابن دراج أقرب الصور إلى النطق الإسبانى . والبيت وارد فى ديوان ابن دراج ص ١٦٥ .

(٢) الشاعر يقصد « بشنت قروج » كنيسة كانت تسمى بالإسبانية « سنتا كروث Santa cruz » أى الصليب المقدس . وكانت مما خربه المنصور فى حملاته على نصارى الشمال . والبيت وارد فى ديوان القسطلى ص ٣٩١ .

(٣) قلنية : اسم مدينة فى قشتالة ، كانت من أمنع معاقل المسيحيين فى هذه المنطقة وترد فى =

وقوله :

فتتتْ منها قواصى « بَنْبِلونَتِهِ » بالهدم والنار فتًّا فتَّ فى عضده*(١)

وفى شعر ابن دراج إيراد لكثير من أسماء الملوك والأمراء الإسبان الذين كانوا على احتكاك بالدولة الإسلامية فى الأندلس ، بالحرب أو المهادنة .

ومن ذلك قوله :

«وفِرْذِلَنْدُ» رددتَ الملك فى يده وما رجا غيرَ ردِّ الروحِ فى جسده(٢)

وقوله :

ودنا ابنُ « رُذْمير » يزلزل خطوه أملٌ تقسَّم نفسه وحِذارُ (٣)

وقوله :

وقد تيممَ «شَنْجٌ» منك عائذة تجيره من سيوف الكرب والوجلِ (٤)

وفى شعر ابن دراج كذلك استخدام لمعانى كلمات من اللاتينية المحلية التى تسمى « رومانثى » ؛ فهو يذكر الكلمة من هذه الكلمات ، ثم يستخدم معناها اللاتينى استخدام العارف به ، ويبنى على ذلك فكرة شعرية . ومن ذلك قوله فى الحديث عن حصن « لونة » وفتح المنصور له :

ولامِثْل يوم نحو« لُونَة » سِرْتَهُ وقد قَنَّعت شمسَ النهار غياهبه*

= المراجع العربية أيضاً باسم قلونية . ولكنها فى بيت ابن دراج أقرب إلى صورة النطق الإسبانى الذى يسمى تلك المدينة Clona . والبيت وارد فى ديوان ابن دراج ص ٤٥٥ .

(١) بنبلونة : اسم عاصمة مملكة البشكنس أو مملكة نبرة فى شمال شبه الجزيرة الإيبرية وهى بالإسبانية : « Pamplona » كما وردت فى بيت ابن دراج ص ١٤٦ .

(٢) « فرذلند » : أحد الأمراء المسيحيين. والاسم بالإسبانية قريب من هذا وهو « Fernando » والبيت وارد فى ديوان القسطلى ص ١٥٠ .

(٣) « ابن رذمير » هو ملك ليون ألفونسو الخامس . وقد نسب إلى جد أبيه ، واسم هذا الجد بالإسبانية Ramiro والبيت فى الديوان ص ١٥٥ .

(٤) « شنج » هو شانجة بن غرسية بن فرذلند ثالث قوامس قشتالة . وكان معاصراً للمنصور وابنيه واسمه بالإسبانية Sancho والبيت وارد فى ديوان القسطلى ص ٤١٤ .

إلى قوله :

فيا ليت قُوطًا حين شاد بناءه رآه وقد خرت إليك جوانبه
ويا ليت إذ سماه بدراً معظما رآه وفى كسف العجاج مغاربه[١]

فقد اعتمد الشاعر على أن معنى « لونه Luna » فى اللاتينية : البدر ، واستخدم هذا المعنى اللاتينى الأصل ، فى البيت الثالث ، حيث قال : وليت من سمى الحصن بالاسم الدال على النور ، وهو اسم « لونة » ليته قد رآه وقد كسف فى غبار المعركة .

وفى شعر ابن دراج استعمال لألفاظ أندلسية خاصة ، بعضها متسرب من هذه اللهجة اللاتينية المحلية المسماة « رومانْثى » . ومن أمثلة ذلك قوله :

وانصِبْ مجانيقًا مِن النِّيم التى أحجارهن من الرَّواطِم والنَّخَب[٢]

فكلمة « نيم » فى الشطر الأول : جمع نيمة ، وهى القنينة أو الزجاجة فى استعمال الأندلسيين خاصة . وكلمة الرواطم فى الشطر الثانى : جمع رطومة وتنطق أيضاً رضومة ، وهى القنينة كذلك ، وقد تسربت إلى لغة الأندلسيين من « الرومانْثى »، ويقال لها فى تلك اللغة Arradoma أو Rotoma [٣]

وفى شعر ابن دراج كما مر ، تأثر واضح بالموقع الجغرافى للأندلس ، كشبه جزيرة تحيط بها المياه من أكثر الجهات ، ويُتنقل بين أطرافها بطريق البحر ، وتستخدم السفن كوسيلة ذات شأن بين وسائل المواصلات . ومن هنا كثر وصف ابن دراج

(١) وردت هذه الأبيات فى ديوان ابن دراج ص ٢٤ – ٢٦ .

(٢) ورد هذا البيت فى ديوان القسطلى ص ٣٦ .

(٣) انظر : ملحق القواميس العربية لدوزى ج ٢ ص ٧٤٣ ، ج ص ٥٣٤ وانظر دراسة حول الأصوات الأندلسية لشتايجر ص ١٦٣ ، ٣٥٤ .

للبحر والسفن والرحلة المائية ، وقد مضت نماذج من ذلك ؛ كما كثرت فى شعره الصور والتشبيهات المستمدة من البحر ، كقوله فى بعض ممدوحيه :

وكأننى بجبينـه فى لجـة ‏ ‏ ‏ ‏ للحرب يَخْرِق بالقنا أمواجها(١)

وقوله :

صَليتَ ونار الحرب يذكو سعيرها ‏ ‏ ‏ ‏ وخُضتَ وموج الموت تطفو غواربه(٢)

وقوله :

وخضت وقد أعيت نجاةٌ غريقها ‏ ‏ ‏ ‏ وهالت بأمواج المنـايا بحورها(٣)

وقوله :

ليُزْهَ به بحر كأن مدوده ‏ ‏ ‏ ‏ نوافل مـن معروفه وفضول(٤)

وقوله :

بسوابح فى لجِّ بحرِ سـوابغ ‏ ‏ ‏ ‏ فاضت على الأرض الفضاء مدودها(٥)

وديوان ابن دراج يعد سجلا لأهم المعارك التى دارت بين المسلمين ومسيحيى الشمال فى عهده، كما أنه سجل لكثير من العلاقات بين الرؤساء الأندلسيين ومجاوريهم من الملوك والأمراء المسيحيين .

وسمة المحلية تلك التى تتضح فى شعر ابن دراج، تضيف سمة جديدة إلى السمات الخاصة التى عرفنا بعضاً منها للشعر الأندلسى منذ أول عهوده(٦) . ولم يكن ابن دراج

(١) ورد هذا البيت فى الديوان ص ٢٨ .

(٢) ورد هذا البيت فى الديوان ص ٢٤ .

(٣) ورد هذا البيت فى الديوان ص ٢٢ .

(٤) ورد هذا البيت فى الديوان ص ٨ .

(٥) ورد هذا البيت فى الديوان ص ٦٤ .

(٦) راجع ما كتب عن تلك السمات فى هذا الكتاب أثناء الحديث عن الشعر فى فترة تأسيس الإمارة .

أول شاعر أندلسى ظهر فى شعره هذا اللون المحلى ؛ فمن الممكن تلمس طلائع هذا اللون عند شعراء أندلسيين قد سبقوه زمناً ، كالغزال وأبى القاسم لبّ وابن عبد ربه ، ولكن ابن دراج قد تفرد بين هؤلاء جميعاً باتضاح اللون المحلى فى شعره بشكل لا يحتاج إلى تلمس أو بحث ؛ فهو فى شعره لون واضح فى أكثر من جانب ، ويبرز فى أكثر من ناحية ؛ ومن هنا اعتبر سمة من سماته ، وأضيفت تلك السمة إلى سمات الشعر الأندلسى التى تفرق بينه وبين الشعر المشرقى ، منذ اتضحت فى شعر ابن دراج .

وأما سمة الشعور الأسرى ، فنعنى بها غلبة العاطفة الأسرية واتّضاحها بشكل يلفت النظر . وقد كان ذلك الجانب بارزاً فى شعر ابن دراج ؛ فقارئُ شعره يطالع ألواناً مختلفة من الحديث عن الزوجة والأولاد والبنات ، فى وداعهم ورحيلهم ، وحاجتهم وضياعهم ، وثقل مسئوليتهم وشدة الإحساس بمطالبهم. وقد مضت نماذج تؤكد هذه السمة من سمات شعر ابن دراج .

وأما سمة التحليل المعنوى فنقصد بها ميل الشاعر غالباً إلى تحليل المعنى ، وبسط الفكرة ، وتوسيع جوانب الصورة . وقد كان ابن دراج واضح الميل إلى التحليل المعنوى بهذا المفهوم ؛ فهو لا يجمل ولا يركز ، ولا يكتفى باللمسة السريعة واللمحة العابرة ، وإنما يفصل ، ويحلل ويبسط ويوسع ، ويستطرد ويستوعب ، على نحو ما عرف عن ابن الرومى فى هذا المذهب . ومن أمثلة ذلك قول القسطلى فى الدعوة إلى مجلس أنس :

جهز لنا فى الروض غزوة محتسبْ ... واندب إليها من يساعد وانتــدب
واحمل على خيل الهوى شيم الصبا ... واعقد لجيش اللهو ألوية الطرب
واهتف بأجناد السرور وقُدْ بها ... نحو الرياض وأنت أكرم من ركب
جيشاً تكون طبــوله عيــدانه ... وقرونه النايات تسعدها القصب
واهزز رماحا من تباشير المنَى ... واسلل سيوفًا من معتقة العنب

وانصب مجانيقـًا من النَّيم التى أحجارهن من الرواطم والنَّخَب[١]
لمعاقل من سوسن قد شَيَّدتْ أيدى الربيع بناءها فوق القضب

فهو يحلل معنى المعركة فى مجلس الشراب ، ويفصل أجزاء هذا المعنى تفصيلا لا يترك جزئية ، وينقل صورة المعركة بكل تفاصيلها وعددها إلى هذا المجلس ، بحيث لا يدع مما يكون للمعركة دون أن يجعله للمجلس الذى يلبسه صورتها ؛ فهناك التجهيز والاحتساب والندب ، وهناك الحمل على الخيل وعقد لواء الجيش والهتاف بالجنود ، وهناك الطبول والعيدان والرماح والسيوف ، وهناك بعد ذلك كله المجانق والأحجار والمعاقل .

وكثيراً ما كانت تورط هذه السمة فى الإملال أو التعسف أو الإحالة أو اهتزاز الصورة ، كما يرى فى هذا النموذج السابق ؛ فقد بلغ تحليل المعنى ، وحبك صورة المعركة على صورة مجلس الشراب حد التعسف والافتعال ، وحمل ذلك على الملل ورؤية بعض الصور مهزوزة أو شائهة . فليست تتصور الخمرة سيوفاً ، ولا الكاسات مجانيق . وإنما هى الرغبة الملحة فى التحليل والتفصيل وتتبع كل الجزئيات واستقصاء كل الجوانب ؛ قد ورطت فى الإحالة واهتزاز الصور وأساءت إلى الجمال الفنى .

على أن ابن دراج فى أكثر الأحيان موفق فى هذا التحليل مقارب للكمال فيه ، وذلك يتأتى له عادة حين يصدر عن عاطفة صادقة وتجربة حية . ومن أمثلة ذلك قوله مقارناً بين موقفه من بنيه وموقف ممدوحه من جنده :

وقد عاذ أبطالُ الجِلاد بعطفه كما عاذ أطفالُ الجَلاء بعِطْفَيَّا
وقد قصرتْ عنه رماح عداته كما قصرت عنهم رياش جناحيا
ولكن أواسِ بين عار ولابس أقلصُ عن ذَيَّا لأَثنى على تَيَّا[٢]

---

(١) النيم : جمع نيمة وهى الزجاجة أو القنينة ، والرواطم : جمع رطومة ، وهى القنينة كذلك واللفظتان من الألفاظ الأندلسية المحلية . انظر هامش ص ٣٤٥ .

(٢) وردت هذه الأبيات فى ديوان ابن دراج ص ١٧٩ .

فهذا التفصيل فى المقارنة رائع ، لأن مصدره الصدق والإحساس الدافق ؛ الذى يحمل على أن يصور الشاعر أبناءه فى أكثر من وضع بائس ، وأن يصور نفسه منهم فى أكثر من موقف عاجز. فهم يعوذون بعطفيه و يتعلقون به احتياجاً وحباً وطلب حماية ؛ ولكن ريش جناحيه أقصر من أن يدفئهم أو يحميهم ، وأمام الحنو العاجز والالتجاء المسكين ، لا يجد الأب بداً من أن يواسى بين اللابس والعارى من بنيه ، فيقصر الثوب للابس ليجد فضلة يثنيها على العارى .

وأما سمة الوصف النفسى ؛ فنعنى بها تجاوز الوصف الجانب الحسى الخارجى ، وتغلغله إلى الجانب النفسى الداخلى ، بحيث يصور الشاعر خلجات النفس وجنبات الوجدان ، ووقع الأحداث والأشياء على هذا وذاك . وقد مضت نماذج من شعر ابن دراج فى موقف الوداع ، وفى الحديث عن القلق والضياع ، وفى وصف حال الأبناء مغتربين مشردين . وكل هذه النماذج تؤكد إجادة ابن دراج لهذا الوصف النفسى . ومن أوضح شعر القسطلى تصويراً لهذه السمة ، قوله عن استشعار أبنائه للغربة :

يتأوهون إذا رمت أوهامُهم   داراً لساكنها بها استقرارُ
ويهيجهم عين لهن مرابض   ويشوقهم طير لها أوكار (١)

وأما سمة النضج الثقافى ، فنقصد بها أن ثقافة الشاعر تتسرب إلى شعره وتنضح عليه ، بحيث يشف عنها ويشير إليها ويستمد منها. وقد كان ابن دراج ذا ثقافة واسعة ، وخاصة فى التاريخ والأدب .

وقد تمثل نضج الثقافة التاريخية فى شعر ابن دراج فى كثرة إيراد أسماء القبائل والأعلام والأماكن والمواقع ذات الصلة بالتاريخ ، وكثيراً ما يتلاعب ابن دراج بهذه الأسماء التاريخية فيشتق منها ، ويجانس بينها ويحتلب معانيها .

---

(١) ورد هذان البيتان فى ديوان ابن دراج ص ١٥٧ .

ومن ذلك قوله فى لقائه لبعض ممدوحيه :

وأصبتُ فى سبأ مورِّثَ ملكها يسبى الملوكَ ولا يَدِبُّ لها الضَّرا
فكأنما تابعتُ تُبَّعَ رافعاً أعلامه ملكاً يدين له الورى
والحارثَ الجَفْنِيَّ ممنوع الحمى بالخيل والآساد مبذول القرى
وحططتُ رحلى بين نادِى حاتم أيام يقرى موسراً أو معسرا
ولقيتُ زيد الخيل تحت عَجاجة تكسو غلائلها الجياد الضُّمَّرا(١)

كذلك تمثل نضج ثقافة ابن دراج الأدبية فى الإشارة أحياناً إلى أسماء أدباء ، وأقوال دارت حولهم ، وصفات خلعت عليهم ، كقوله :

إنّ امرأ القيس فى بعض لمتَّهَم وفى يديه لواء الشعر إن رَكبا
والشعر قد أسر الأعشى وقيده دهراً ؛ وقد قيل والأعشى إذا شربا(٢)

على أن أهم ما تمثل فيه النضج الثقافى لحصيلة ابن دراج الأدبية ، هو تلك المعارضات الشعرية العديدة التى خلفها ؛ فقد عارض قصائد لأبى نواس والمتنبى وصاعد البغدادى(٣).

---

(١) وردت هذه الأبيات فى ديوان ابن دراج ص ١٢٩ .

(٢) ورد هذان البيتان فى ديوان ابن دراج ص ٣٦٦ .

(٣) عارض رائية أبى نواس التى مطلعها .

أجارة بيتنا أبوك غيور وميسور ما يرجى لديك عسير

برائيته التى مطلعها :

دعى عزمات المستضام تسير فتنجد فى عرض الفلا وتغور

وعارض رائية المتنبى فى ابن العميد التى مطلعها :

باد هواك صبرت أم لم تصبرا وبكاك إن لم يجر دمعك أو جرى

برائيته التى مطلعها :

بشراك من طول الترحل والسرى صبح بروح السفر لاح فأسفرا

وعارض هائية لصاعد البغدادى بهائيته التى مطلعها :

أضاء لها فجر النهى فنهاها عن الدنف المضنى بحر هواها

(أنظر جذوة المقتبس ص ١٠٣ وديوان ابن دراج ص ١٠) .

وقد مضى شرح الدافع الذى كان يحدو بالأندلسيين إلى عمل معارضات لشعراء مشارقة كبار ، وهذا الدافع — وهو إجمالا تأكيد الذات الأندلسية — كان وراء معارضات القسطلى ، مضافاً إليه هذا الزاد الثقافى والأدبى الضخم ، الذى يزيد الرغبة فى هذه المعارضة ويمكن منها وينجح فيها .

أما نضج الثقافة اللغوية ، فقد تمثل فى استخدام بعض أفكار نحوية ، مثل قوله فى قيمة ما قد يستهان به وفى قوته كذلك :

فقد تُخفض الأسماء وهى سواكن ويَعمل فى الفعل الصحيح ضميرُ[1]

ولكن أهم ما يتمثل فيه نضج ثقافة ابن دراج اللغوية ، هو تمكنه من اللغة ومفرداتها تمكناً ساعده كثيراً على طول النفس فى القصائد واستخدام العويص من القوافى ، وورطه أحياناً أيضاً فى استعمال الغريب من الألفاظ .

منزلته :

هذا ، وقد كان القسطلى ذا منزلة شعرية عظيمة بين الأندلسيين ؛ فقد قال عنه مؤرخ الأندلس الكبير ابن حيان : « وأبو عمر القسطلى سباق حلبة الشعراء العامريين ، وخاتمة محسنى أهل الأندلس أجمعين »[2] . وقال عنه ابن بسام صاحب الذخيرة : « وكان أبو عمر القسطلى وقته لسان الجزيرة شاعراً ، وأولا حين عد معاصريه من شعرائها المشهورة ، وآخر حاملى لوائها ، وبهجة أرضها وسمائها ، وأسوة كتابها وشعرائها »[3] . وقال عنه ابن حزم القرطبى : « لو قلتُ إنه لم يكن بصقع الأندلس أشعر من ابن دراج لم أبعد » . وقال فيه كذلك : « لو لم يكن لنا من فحول الشعراء إلا أحمد بن دراج

---

(١) ورد هذا البيت فى ديوان ابن دراج ص ٣٠٢ .

(٢) هذا الكلام منقول عن الذخيرة لابن بسام ق ١ م ١ ص ٤٤ .

(٣) انظر : المصدر السابق ص ٤٣ .

لما تأخر عن شأو حبيب والمتنبي»(١) . وكذلك كانت لابن دراج شهرة كبيرة في الشرق ؛ فقد ذكره الثعالبي ونقل بعض شعره ، وقال عنه : «كان بصقع الأندلس كالمتنبي بصقع الشام ، وهو من الشعراء الفحول . وكان يجيد ما ينظم ويقول»(٢) .

ومن هذه الأقوال ، ومما سبق أن ذكرنا عن شعر ابن دراج في موضوعاته وسمات فنه ، وما تدل عليه النماذج التي عرضناها هنا وهناك، يتضح أن المرحوم أحمد أمين لم يكن دقيق الحكم على ابن دراج ، حين أورد أبياتاً من قصيدته الرائية ، ثم عقب عليها بقوله : « فنرى من هذا محاكاة للمتنبي في الوزن والقافية وتقليده في أسلوبه ومعانيه»(٣) .

فالحق أن القسطلي لم يكن يحاكي أو يقلد ، وإنما كان كغيره من شعراء الأندلس يعارض الكبار من شعراء المشرق ، بدافع الرغبة في تأكيد الذات الأندلسية وإظهار سبق الشعراء الأندلسيين .

كذلك يتضح من كل ما سبق أن المرحوم الدكتور أحمد ضيف لم يكن صائب الحكم حين قال عن القسطلي : «لم يكن شاعراً فطرياً يقول الشعر عن شعور صحيح أو دافع نفسي ، وإنما هو مقلد بارع التقليد ، حتى في المعاني التي لم تشعر بها نفسه ، وفي وصف الأمكنة التي لم يرها إلا في كلام الشعراء ؛ فهو من الذين اتخذوا الشعر صناعة لفظية ، وآلة من آلات الكلام ليمدح من يريد»(٤) .

وأساس هذا الحكم البعيد عن الصواب ، عدم دراسة الدكتور أحمد ضيف لابن دراج دراسة كافية ، بسبب عدم ظهور ديوان الشاعر يوم كتب عنه . وأول الأخطاء

(١) هذا الكلام منقول عن جذوة المقتبس للحميدي ص ١٠٥ — ١٠٦ .

(٢) انظر . يتيمة الدهر جـ ٢ ص ١١٦ .

(٣) انظر . ظهر الإسلام جـ ٢ ص ١٣٤ .

(٤) انظر . بلاغة العرب في الأندلس ص ٩٧ .

فى حكم الدكتور ضيف أنه وصف ابن دراج بأنه لم يكن شاعراً فطرياً . ومن يكون شاعراً فطرياً إذا لم يكنه ابن دراج صاحب هذا الديوان الضخم ذى القصائد المطولات ، التى تتسم بالجيشان والتدفق والغزارة المنبئة عن الفطرية والموهبة ؟. وثانى الأخطاء قول الدكتور ضيف : إن ابن دراج لم يكن يقول عن شعور صحيح أو دافع نفسى . فهذا القول إن صدق على بعض شعر الرجل فى المدح ، فإنه لن يصدق على كله ، كهذا الذى قاله فيمن أحبهم وبجلهم واتصل بهم اتصالا نفسياً من ممدوحيه كالمنصور . ثم إن كلام الأستاذ ضيف لا يصدق أصلا على هذا الشعر الكثير الغزير الذى قاله الرجل فى زوجته وأبنائه ووداعهم وفرقتهم وضياعهم وغربتهم ، ولا على الشعر الكثير الغزير الذى قاله ابن دراج فى قلقه وحنينه وتأفقه وسوء حظه . وثالث أخطاء المرحوم ضيف قوله : إن ابن دراج مقلد بارع . فالذى كان من ابن دراج ليس تقليداً ، وإنما معارضة ، وقد عرضنا دوافع هذه المعارضة ، من ابن دراج ومن غيره من الأندلسيين . ورابع الأخطاء عند الأستاذ ضيف ، اتخاذه ذكر ابن دراج لأمكنة لم يرها دليلا على الكذب والتقليد . فالحق أن إيراد ابن دراج لهذه الأمكنة ، كإيراد كل شعراء العربية وغير العربية لأماكن ذات دلالات خاصة وارتباط بذكريات معينة ، مما يثيره ذكر تلك الأماكن الموحية . وخامس الأخطاء فى كلام الأستاذ ضيف قوله عن ابن دراج : إنه ممن اتخذوا الشعر صناعة لفظية ، وآلة من آلات الكلام يمدح من يريد . فالحق أن الرجل استخدم شعره فعلا فى التكسب ، ولكنه كان فى ذلك كأكابر الشعراء المشارقة والأندلسيين فى تلك العهود ، التى لم يكن التكسب بالشعر فيها مما يعاب ، والتى كان الشاعر فيها أشبه برجل الدعاية فى عهودنا الحديثة . على أن الرجل لم يجعل شعره مدحاً كله كما رأينا ؛ وإنما عبر به عن تجارب نفسية قلما عبر عن مثلها شاعر فى عصره .

والذى لا شك فيه بعد ذلك كله أن ابن دراج كان من شعراء الصف الأول بين الأندلسيين ؛ بل إنه من شعراء الصف الأول بين شعراء العربية الأقدمين . وعذر

الذين لم يحسنوا الحكم على شعره أن شعره كان ضائعاً معظمه ، وأن ديوانه كان محتجباً وقت كتابة هذه الأحكام التي لا تعطي الرجل حقه ومكانته

هذا ، ولم يكن ابن دراج شاعراً فقط ، وإنما كان ناثراً أيضاً ؛ وقد عمل في ديوان الإنشاء للمنصور بن أبي عامر . كما حفظت بعض كتب الأدب طرفاً من نثره[1].

ثانياً – النثر :

لم يؤثر عن فترة الحجابة نثر من النوع التأليفي ، الذي يضم إلى التعبير الجميل أفكاراً ومعارف ، والذي يجمع إلى إمتاع الوجدان تغذية الفكر ، والذي يحتاج عادة إلى نضج عقلي وازدهار ثقافي واستقرار نفسي . وإنما أثر عن تلك الفترة نثر من النوع الخالص ممثلا في قطع وصفية وبعض الرسائل والوصايا .

ويبدو أن هذا النوع من النثر كان مزدهراً في فترة الحجابة ، حيث وجد ديوان كتّاب ، يحررون الرسائل ، ويصدرون المنشورات ، ويصفون المعارك ، ويسجلون الغزوات[2] . كذلك كانت مظاهر الحياة المترفة والحضارة المتأنقة مما دعا بعض الأدباء لتسجيل مشاهداتهم نثراً ، ولم يعد الأمر مقصوراً على تسجيل تلك المشاهدات شعراً . ومن هنا برز النثر الوصفي ، الذي لا ينقصه إلا الوزن والقافية ليكون من نوع الشعر .

وأهم ما يلاحظ على أسلوب النثر في فترة الحجابة، ظهور أثر طريقة ابن العميد ، تلك الطريقة التي تميل غالباً إلى الإطناب ، وتعتمد كثيراً على المحسنات وخاصة السجع والجناس والمقابلة والازدواج ، والتي تتجه أيضاً إلى تضمين النثر بعض الأمثال أو الإشارات

---

(١) انظر : جذوة المقتبس للحميدي ص ١٠٣ ، والمطرب لابن دحية ص ١٥٦ . والذخيرة لابن بسام ق ١ م ١ ص ٤٣ وما بعدها .

(٢) انظر جذوة المقتبس للحميدي ص ١٠٢ ، ١٠٥ .

التاريخية أو التلميحات الثقافية بعامة ، ثم تُعنى كذلك بتدعيم النثر بالشعر ، الذى يتخلله أحياناً ويأتى فى نهايته أحياناً أخرى .

وليس من شك فى أن حياة الترف ومظاهر الفخامة فى فترة الحجابة ، كانت من أسباب الاستجابة إلى هذه الطريقة فى أسلوب النثر خلال تلك الفترة . وليس من شك أيضاً فى أن آثار ابن العميد ومن نمَّوا طريقته كالصاحب ابن عباد ، قد وصلت إلى الأندلس قبيل تلك الفترة ، فيما وصل من تراث المشرق خلال القرن الرابع ، وبخاصة فى فترة الخلافة . ولكن أثر هذه الطريقة قد اتضح فى فترة الحجابة بعد أن تمثل الأندلسيون تلك الطريقة .

على أن الأسلوب المعروف من قبل ، والمعتمد إلى حد كبير على الطريقة الجاحظية ، قد بقى فى فترة الحجابة إلى جانب هذا الأسلوب الجديد ، وحفظت لنا بعض المراجع نماذج من كل من الأسلوبين .

وهذه بعض الأمثلة التى توضح ما قدمنا من أحكام :

يقول أبو مروان الجزيرى [1] ، فى قطعة وصفية له على لسان بنفسج العامرية : « إذا تدافعت الخصوم — أيد الله مولانا المنصور — فى مذاهبها ، وتنافرت فى مفاخرها ، فإليه مفزعها ، وهو المقنع فى فصل القضية بينها . لاستيلائه على المفاخر بأسرها ، وعلمه بسرها وجهرها . وقد ذهب البهار والنرجس فى وصف محاسنهما ، والفخر بمشابههما كل مذهب . وما منهما إلا ذو فضيلة ، غير أن فضلى عليهما أوضح من الشمس التى تعلونا ، وأعذب من الغمام الذى يسقينا . فإن كانا قد تشبها ببعض ما فى العالم من جواهر الأرض ومصابيح السماء . وهى من الموات الصامت ، فإنى أتشبه بأحسن ما زين الله به الإنسان وهو الحيوان الناطق ، مع أنى أعطر منهما عطراً وأحمد

---

(١) اقرأ بعض أخباره فى : الذخيرة لابن بسام ق ٤ م ١ ص ٣١ وما بعدها .

خبرا ، وأكرم إمتاعاً شاهداً وغائباً ، ويانعاً وذابلا . وكلاهما لا يمتع إلا ريثما ينع ، ثم إذا ذبل تستكره الأنوف شمه ، وتستهدف الأكف ضمه . وأنا أمتع رطباً ويبساً ، وتدخرنى الملوك فى خزائنها وسائر الأطباء ، وأصرف فى منافع سائر الأعضاء . فإن فخرا باستقلالهما على ساق هى أقوى من ساقى ، فلا غرو ، إن الوشى ضعيف ، والهواء لطيف ، والمسك خفيف ، وليس المجد يدرك بالصراع .

« وقد أودعت — أيد الله مولانا — قوافى الشعر من وصف مشابهى ما أودعاه ، وحضرت بنفسى . لئلا أغيب عن حضرتهما ، فقديما فضل الحاضر وإن كان مفضولا ، ولهذا قالوا . ألذ الطعام ما حضر لوقته ، وأشعر الناس من أنت فى شعره . فلمولانا أتم الفضل ، فى أن يفصل بحكمه العدل .

« شهدتْ لنوّار البنفسج ألسنٌ — من لونه الأحوى ومن إيناعه
لمشابه الشَّعر الأثيث أعاره الـ — ـقمر المنير الطلق نور شعاعه
ولربما جُمد النجيع من الطُلى[1] — فى صارم المنصور يوم قراعه
فحكاه غير مخالف فى لونه — لا فى روائحه وطيب طباعه
ملك جهلنا قبله سبل الهدى — حتّى وضحن بنهجه وشراعه
فى سيفه قِصَرٌ لطول نجاده — وتمام ساعده وفسحة باعه
ذو همة كالبرق فى إسراعه — وصريمة[2] كالحَيْن فى إيقاعه
تلقى الزمان له مطيعـًا سامعـًا — وترى الملوك الشم من أتباعه[3] »

---

(١) الطلى : الأعناق ، جمع طلية ، بضم فسكون ففتح ، أو جمع طلاء بضم ففتح .

(٢) الصريمة : العزيمة .

(٣) وردت هذه القطعة فى الذخيرة لابن بسام ق ٤ م ٢ ص ٣٣ ، ٣٤ .

ويقول ابن دراج القسطلى فى إحدى رسائل سليمان بن الحكم[1] :

« حاش لله أن أستشف الحِسْى قبل جمومه[2] ، وأستكره الدّر قبل حفوله ؛ أو أتعامى عن سراج المعذرة . وأرغب عن أدب الله فى نظرة إلى ميسرة . ولكن :

ماذا تقول لأفراخ بذى مَرَخ ... حمر الحواصل لا ماء ولا شجرُ

ما أوضح العذر لى لو أنهم عذروا ... وأجمل الصبر بى ، لو أنهم صبروا

لكنهم صغروا عن أزمة كبرتْ ... فما اعتذارىَ عمن عذره الصغر ؟!

« وقد قلّبتُ لهم ظهر الأمور ، وميزت بين المعسور والميسور ، فما وجدت أحسن بدءاً ، ولا أحمد عوداً ، مما أذن الله فيه لعباده الذين أعمرهم أرضه ، وسخر لهم بره وبحره ، أن يمشوا فى مناكبها ويأكلوا من رزقه . وحيث نتقلب فى كرمك ، وأين نأمن فى حرمك . وحيث لا توحشنا دعوتك ، ولا تفوتنا نعمتك . من ملكك إلى ملكك ومن يمينك إلى شمالك[3] » .

فى هذين النموذجين السابقين يتضح أثر طريقة ابن العميد السالفة الذكر ؛ ففيهما تدعيم للنثر بالشعر ، وفيهما ميل إلى البديع وخاصة السجع والجناس والمقابلة والازدواج ، ثم فيهما انعكاسات ثقافية واضحة ، كإيراد بعض الأمثال فى النموذج الأول ، وكالاقتباس من القرآن الكريم والشعر القديم فى النموذج الثانى .

ويقول المنصور بن أبى عامر فى وصيته لابنه عبد الملك[4] :

---

(١) هو أبو أيوب سليمان المستعين بن الحكم بن سليمان بن عبد الرحمن الناصر . وكان قد بويع بالخلافة فى منتصف ربيع الأول سنة ٤٠٠ هـ بعد وقعة له على محمد بن هشام بن عبد الجبار الملقب بالمهدى الذى قام بعد الدولة العامرية .

(٢) استشفه : أتى عليه ، من استشف الإناء : شرب كل ما فيه . والحسى : مجتمع الماء . والجموم : الوفرة والكثرة .

(٣) وردت هذه الرسالة فى . الذخيرة ق ١ ص ٤٦ ، ٤٧ .

(٤) هذه الوصية تمثل الاتجاه الجاحظى بخلاف القطعتين السابقتين فهما تمثلان الاتجاه الجديد المعتمد على الزخرفة والتطويل وتضمين الشعر .

« يا بنى ، لست تجد أنصح لك منى ، فلا تـُعدِّين مشورتى ، فقد جردت لك رأيى وروِيتى على حين اجتماع من ذهنى . فاجعلها مثالا بين يديك . قد وطأت لك مهاد الدولة ، وعدلت لك طبقات أوليائها ، وغايرت لك بين دخل المملكة وخرجها ، واستكثرت لك من أطعمتها وعددها ، وخلفت جباية تزيد على ما ينوبك لجيشك ونفقتك ، فلا تطلق يدك فى الإنفاق ، ولا تقبض لظلمة العمال ، فيختل أمرك سريعاً ، فكل سرف راجع إلى اختلال لا محالة . فاقصد فى أمرك جهدك ، واستثبت فيما يرفع أهل السعاية إليك . والرعية استقصيت لك تقويمها . وأعظم مناها أن تأمن البادرة وتسكن إلى لين الجنبة[١] . وصاحب القصر قد علمت مذهبه ، وأنه لا يأتيك من قبله شىء تكرهه ، والآفة ممن يتولاه ويلتمس الوثوب باسمه ؛ فلا تنم عن هذه الطائفة جملة ، ولا ترفع عنها سوء ظن وتهمة ، وعاجل بها من خفته على أقل بادرة ، مع قيامك بأسباب صاحب القصر على أتم وجه ؛ فليس لك ولا لأصحابك شىءٌ يقيكم الحنث فى يمين البيعة إلا ما تقيمه لوليها من هذه النفقة. فأما الانفراد بالتدبير دونه ، مع ما بلوته من جهله وعجزه عنه ، فإنى أرجو أنى وإياك منه فى سعة ، ما تمسكنا بالكتاب والسنة[٢] . . . فإن انقادت لك الأمور بالحضرة ، فهذا وجه العمل وسبيل السيرة ؛ وإن اعتاصت[٣] عليك ، فلا تلقين بيدك إلقاء الأمة ، ولا تنتظر بك وأصحابك السلامة ، فتنسوا ما لكم فى نفوس بنى أمية وشيعتهم بقرطبة . فإن قاومت من وثب عليك منهم فلا تذهل عن الحزم فيهم ، وإن خفت الضعف ، فانتبذ بخاصتك وغلمانك على بعض الأطراف التى حصنتها لك . واختبر غدك إن أنكرت يومك . وإياك أن تضع يدك فى يد مروانى

---

(١) البادرة : ما يبدر فى الغضب من قول أو فعل . والجنبة : الاعتزال والناحية ، والجانب المجتنب .

(٢) تركت هنا جزءاً من الوصية قد لايتعلق بالسياسة العامة قدر تعلقه بشئون أسرة المنصور . ويمكن الرجوع إليه فى صفحة ٥٧ ، ٥٨ من الذخيرة ق ٤ م ١ .

(٣) اعتاص الأمر : استدار والتاث .

ما طاوعتك بنانك ؛ فإنى أعرف ذنبى إليهم»[١]

ويقول ابن برد الأكبر[٢] ، فى رسالة عن المظفر بن أبى عامر إلى بعض الرؤساء :

« أما بعد — آتاك الله رشدك ، وأجزل من توفيقه قسطك — فإن الله تعالى خلق الخلق غنياً عنهم ، وأنسأهم بمهل غير مهمل ، بل ليحصى آثارهم ، وليبلو أخبارهم . وجعلهم أخيافاً[٣] متباينين ، وأطواراً مختلفين ؛ فمنهم المختص بالطاعة ومنهم المبتلى بالمعصية ، وبين الفريقين أقوام خلطوا عملا صالحاً وآخر سيئاً عسى الله أن يتوب عليهم . ولو شاء الله لكان الناس أمة واحدة ، ولا يزالون مختلفين ولذلك خلقهم . والسعيد من خاف ربه وعرف ذنبه ، وبادر بالتوبة قبل فواتها واستعطى الرحمة قبل منعها . وإن كنت تركت قصدك ، وخالفت رشدك ، ونكبت عن سبيل سلفك ، فلم يوحشك ممن شردت عليه مكروه نالك به ، ولم يؤنسك ممن جنحت إليه أمل لم تطمع فيه إلا لديه ؛ بل كنت آمنا المخاوف ، بعيداً عن المكاره ، قريب المكاتب ، رفيع الدرجة ، مصدراً فى أهل النصيحة والثقة ؛ خلا أنه حدث بينك وبين الحاجب مالم يزل يحدث بين القواد والعمال على قديم الزمان ، مما لم يبلغ أن يُخرج ذا الرأى الأصيل عن طبقته ، ولا يجاوز أن يزيد المحنق على المحل فى خصومته ، والله عليم أن أمير المؤمنين لم يبخسك فى تلك الهبات حظاً ، ولا أولاك إعراضاً ، ولقد اعتنى بمصلحتك وعزم على إزاحة علتك حتى يتهيأ من ذلك ما يفى بأملك لو أنظرته ، واستقام فيه ما يزيد على طلبتك لو صبرت

(١) وردت هذه الوصية فى الذخيرة ق ٤ م ١ ص ٥٦ — ٥٨ .

(٢) هو أبو حفص أحمد بن برد ، جد أحمد بن محمد برد الأصغر . وكان أبو حفص ذا حظ وافر من الأدب نثره وشعره . وكان قد قلد ديوان الإنشاء فى الدولة العامرية بعد ابن الجزيرى . وامتد أجله حتى كتب لبعض من حكموا بعد العامريين كسليمان المستعين . ومات سنة ٤١٨ هـ . (انظر فى ترجمته وبعض آثاره الأدبية : جذوة المقتبس ترجمة رقم ١٠٧ ، والذخيرة ق ١ م ١ ص ٨٤ وما بعدها) .

(٣) الأخياف : المختلفون . وإخوة أخياف : أمهم واحدة والآباء شتى .

عليه ؛ ولك في القدر المقدور فسحة ، وفي القضاء المحتوم مندوحه ، ولن تضيق بك السبل عند أمير المؤمنين ، وأنت بين طاعة سالفة ، واستقامة موروثة ، وبين إنابة منتظرة ، وتوبة مستقبلة ، فإحدى الحالتين تحط الذنوب الكبيرة ، وتغطى على العيوب الكثيرة . فالآن – عصمك الله – واللبب[1] رخيّ ، والمركب وطيّ ؛ وبابك إلى رضا أمير المؤمنين مفتوح ، وسبيلك إلى حسن رأيه سهل ، ولا يذهب بك اللجاج إلى عار الدنيا ونار الآخرة . إياك ومصارع الناكثين . وحذار موارط الغادرين»[2] .

وفي هذين النموذجين يبدو أثر للطريقة الجاحظية التي سبق الحديث عنها والتي كانت سائدة في الفترة السابقة تقريباً . وتتضح سمات هذه الطريقة خلال هذين النموذجين الأخيرين ، في الميل إلى الجمل القصار ، والفقرات المتقابلة ، وعدم تعمد المحسنات ، باستثناء السجع الذي يأتي طبعاً بين الحين والحين ؛ ثم في الإلحاح على المعنى وتأديته بعدة أساليب فيما يوهم التكرار وليس تكراراً . وأخيراً في إجادة استخدام حروف الجر والظروف بعامة .

---

(١) اللبب : ما استرق من الرمل ، وما يشد في صدر الدابة ليمنع استئخار الرحل .

(٢) وردت هذه الرسالة في الذخيرة لابن بسام ق ١ م ١ ص ٨٨ ، ٨٩ .

الفصل السادس

فترة الفتنة

١ – السياسة بين الانقلابات والاضطرابات :

ليس لهذه الفترة طابع سياسى أصدق مما وصفت به من أنها فترة الفتنة المبيرة . فقد عانت الأندلس منذ سقوط الدولة العامرية إلى قيام الحكم الجمهورى[١] فتنة طاحنة ، كان من آثارها أن قتل كثير من الأندلسيين وتفككت وحدتهم وتصدعت قوتهم وأهدرت قيمهم . وذلك لأن السلطان ظل موضع نزاع بين الأمراء الأمويين أولا ، ثم بينهم وبين الرؤساء البربر ثانياً[٢] ، وقد دفع حب الغلبة بعض هؤلاء وهؤلاء إلى الاستعانة بالأمراء المسيحيين ، وكان الثمن هو تسليم بعض المدن والحصون الأندلسية ، وإباحة العاصمة قرطبة لجند الإسبان الداخلين مع المتغلبين .

---

(١) تبدأ فترة الفتنة من سنة ٣٩٩ وتنتهى ٤٢٢ هـ (١٠٠٩ – إلى ١٠٣١) م .

(٢) تولى الخلافة فى هذه الفترة من الأمويين والبربر :

محمد المهدى	من ٣٩٩	إلى ٤٠٠ هـ	(١٠٠٨–١٠٠٩)م	المرة الأولى
سليمان المستعين	» ٤٠٠	» ٤٠٠	(١٠٠٩–١٠٠٩)	المرة الأولى
محمد المهدى	» ٤٠٠	» ٤٠٠	(١٠٠٩–١٠١٠)	المرة الثانية
هشام المؤيد	» ٤٠٠	» ٤٠٣	(١٠١٠–١٠١٣)	المرة الثانية
سليمان المستعين	» ٤٠٣	» ٤٠٧	(١٠١٣–١٠١٦)	المرة الثانية
الناصر على محمد حمود	» ٤٠٧	» ٤٠٨	(١٠١٦–١٠١٨)	
عبد الرحمن المرتضى	» ٤٠٨	» ٤٠٩	(١٠١٨–١٠١٨)	بشرق الأندلس
المأمون القاسم بن حمود	» ٤٠٨	» ٤١٢	(١٠١٨–١٠٢٢)	المرة الأولى
المعتلى يحيى بن حمود	» ٤١٢	» ٤١٣	(١٠٢٢–١٠٢٣)	المرة الأولى
المأمون القاسم بن حمود	» ٤١٣	» ٤١٤	(١٠٢٣–١٠٢٣)	المرة الثانية
عبد الرحمن المستظهر	» ٤١٤	» ٤١٤	(١٠٢٣–١٠٢٣)	
محمد المستكفى	» ٤١٤	» ٤١٦	(١٠٢٣–١٠٢٥)	
المعتلى يحيى بن حمود	» ٤١٦	» ٤١٧	(١٠٢٥–١٠٢٧)	المرة الثانية
هشام المعتد	» ٤١٧	» ٤٢٢	(١٠٢٧–١٠٣١)	

فقد ثار محمد بن هشام بن عبد الجبار الأمير الأموى ، على عبد الرحمن بن أبى عامر وقوض الدولة العامرية وأنهى فترة الحجابة على ما هو معروف[1] ولكنه اضطهد البربر لأنهم كانوا أعوان العامريين وجندهم ، وطارد الصقالبة لأنهم كذلك كانوا رجال العامريين وخدمهم ، وتشدد مع الأندلسيين ونزع السلاح من كثير منهم ، لأنه كان يخاف هياجهم . وأعلن كذلك وفاة الخليفة هشام ، بعد أن أحضر جثة تشبه جثته ، وأشهد على الوفاة بعض الفقهاء ورجال القصر ؛ وشيع جنازة الخليفة وهو حى لا يزال ، إذ كان قد سجنه فى مكان خفى .

وبالإضافة إلى ذلك كله ، عُرف محمد بن هشام – رغم اتخاذه لقب المهدى – بالفسق والفجور والميل إلى الملذات ، كما اشتهر بالقسوة والعنف . وقد أثار كل ذلك العامة عليه ونفرهم منه ، فانتهز الفرصة أمير أموى اسمه هشام بن سليمان بن عبد الرحمن الناصر – وكان المهدى قد سجن أباه – فثار بطائفة من الحانقين على المهدى ، وتقدم إلى القصر وطلب من المهدى ترك الخلافة له . وفى أثناء ذلك عبث البربر بقرطبة ، وكان كثير منهم ضمن الثائرين ؛ فقام القرطبيون بمطاردة البربر لا دفاعاً عن المهدى وإنما دفاعاً عن أنفسهم . وقد استطاعوا أن يجلوهم عن قرطبة . وفى أثناء ذلك قتل الأمير الثائر على المهدى .

ولم تنته الفتنة عند هذا الحد ؛ فقام أمير أموى آخر ، هو سليمان بن الحكم بن سليمان ابن عبد الرحمن الناصر ، وانضم إلى البربر المتحفزين خارج قرطبة ، فبايعوه بالخلافة ، وتلقب بالمستعين . وقد أراد المستعين وأعوانه البربر أن يحتشدوا لدخول قرطبة ؛ فاتجهوا أولا إلى مدينة سالم ، وطلبوا من حاكمها واضح أن ينضم إليهم فرفض ، فاتجهوا إلى أمير قشتالة[2] وطلبوا منه المساعدة ، وكان قد سبقهم إلى طلب المساعدة نفسها رسل من

---

(١) كانت حركة المهدى سنة ٣٩٩ هـ – ١٠٠٩م وكانت خلافته – منذ أن قام إلى أن قتل – عشرة أشهر .

(٢) اسمه سانشو جارثيا Sancho Garcia .

قبل المهدى . ولما كان الأمير القشتالى يعرف ضعف المهدى ، فإنه آثر مساعدة رسل المستعين ، واشترط لذلك الاستيلاء على حصون ومدن مما فى أيدى المسلمين . ولما أخذوا المؤن والمساعدات زحفوا على قرطبة ونازلوا المهدى وهزموه ، وأبيحت قرطبة للبربر والقشتاليين مدة[1] . وكان من نتائج هذه الحرب بين المهدى وجنده والمستعين وأعوانه ، قتل الآلاف ، وغرق الآف ، وتدمير الكثير من قصور قرطبة ، ونهب العديد من متاجرها ، وانتشار الرعب والأسى بين من بقى من سكانها . أما المهدى فقد فر إلى طليطلة ، وتتبعه المستعين . وقبل أن تناله يده كان واضح حاكم مدينة سالم الموالى للمهدى ، قد استنجد أميرى قطلونيا المسيحيين[2] ، فأنجداه على شروط سخية فى صالح القطلونيين . ولما وصله المدد انضم إلى المهدى ؛ فاضطر المستعين إلى الانسحاب ثانياً إلى قرطبة . ولكن المهدى وواضحاً والقطلونيين تبعوه ، واستطاعوا هزيمته واضطراره إلى الفرار خارج قرطبة ، ووقعت العاصمة الأندلسية مرة ثانية[3] فريسة لجيش منتصر يعاونه إسبان مسيحيون . وخرج القطلانيون من قرطبة بعد فترة مثقلين بالأسلاب .

وأخيراً رأى الجنود الأندلسيون التخلص من الأمويين المتنازعين ، فثاروا على المهدى وقتلوه[4] ، وبايعوا من جديد هشاماً المؤيد الذى كان قد شيع المهدى منذ حين جنازته الكاذبة ، وعمل واضح وزيراً لهشام فى هذه المرة . وقد حاول سليمان استرداد السلطان فطلب العون من حليفه السابق أمير قشتالة ، فطلب هذا الحليف حصوناً من واضح ، وكأنه يهدده بمساعدة المستعين إن لم تسلم الحصون ؛ فاضطر واضح إلى التسليم .

---

(١) كان دخول المستعين على رأس البربر إلى قرطبة سنة ٤٠٠ هـ - ١٠٠٩ م .

(٢) هما : رامون الثالث أمير برشلونة Ramon III de Barcelona
وإرمنجول أمير أرخيل Eermengol de Urgel .

(٣) كانت هذه المرة بعد المرة الأولى بستة أشهر .

(٤) كان ذلك فى آخر سنة ٤٠٠ هـ .

ومع هذا لم يسلم الأمر لهشام في تلك الخلافة الثانية . فقد كان البربر خارج قرطبة يعيثون وينهبون ، حتى لقد دمروا الزهراء وحولوها إلى خرائب[١] . ثم حاصروا قرطبة . وكان القرطبيون قد ثاروا على واضح وزير هشام وقتلوه ، وجعلوا مكانه في الوزارة ابن أبي مضاء وظلوا يدافعون عن مدينتهم حيناً ، ثم اقتحمها عليهم البربر بقيادة سليمان المستعين ، فدمروا ونهبوا وقتلوا فيها الكثير[٢] . واستدعى المستعين هشاما وأنبه على قبوله الخلافة . ويقال إنه قتله سراً ، ويقال إنه سجنه ففر بعد حين من سجنه وعمل عاملا عادياً في الأندلس ثم هاجر إلى المشرق . وبهذا الغموض انتهت قصة هشام . أما المستعين فظل حيناً يحكم ، ولكن الميدان لم يخل له بانتهاء هشام والمهدى من بني أمية ، فقد ظهر خطر جديد من غير الأمويين . ذلك أنه كان من قواد البربر الكبار الذين عاونوا المستعين أخوان ، أحدهما كوفئ بولاية سبتة وطنجة ، وهو على بن حمّود ، والآخر كوفئ بولاية الجزيرة الخضراء وهو القاسم بن حمود . وقد تاقت نفس على إلى تولى الحكم في الأندلس ؛ فهو بربرى ، والبربر هم ذوو القوة حينئذ ، وعلى رماحهم قامت دولة المستعين . فتحالف على بن حمود مع صقلبي من أعوان بني عامر كان يلى المرية ، وهو خيران العامرى . واتفق معه على الزحف إلى قرطبة . وانضم البربر إلى ابن حمود . ولما خرج المستعين للقائه قبضوا عليه وسلموه لعلى فقتله . ثم دخل ابن حمود قرطبة ، وبويع بالخلافة[٣] ، وأخلص له خيران العامرى أول الأمر ، ثم ما لبث أن انقلب عليه ، وأخذ يدعو في شرق الأندلس لأمير أموى جديد هو عبد الرحمن بن عبد الملك الناصر الذى بويع في شرق الأندلس ولقب بالمرتضى . وقد انتهى أمر على بن حمود بأن اغتيل على أيدى بعض خدمه من أعوان الأمويين[٤] ، فخلفه أخوه القاسم بن حمود . وكان

---

(١) كان هذا التدمير المحزن سنة ٤٠١ هـ — ١٠١٠ م .

(٢) كان دخول سليمان والبربر هذه المرة سنة ٤٠٣ هـ — ١٠١٢ م .

(٣) كان ذلك سنة ٤٠٧ هـ — ١٠١٦ م .

(٤) كان ذلك سنة ٤٠٩ هـ — ١٠١٨ م .

حاكم سرقسطة قد دخل فى دعوة المرتضى ، وزحف مع خيران العامرى إلى غرناطة . ولكن هذا الزحف انتهى بالفشل ، لخلاف بين المتحالفين فهزم المرتضى وفر إلى إحدى القرى حيث قتل . وهكذا تخلص القاسم بن حمود من هذه الدعوة الأموية الجديدة . ولكن الأمر لم يستقر له ؛ فقد طمع ابن أخيه واسمه يحيى بن على بن حمود ، فى أن يكون الأمر له مكان أبيه ، فزحف إلى المغرب وانضم إليه كثير من البربر الناقمين على القاسم استخدامه للعبيد دونهم. ولما اقترب يحيى من قرطبة ، فرعمه القاسم إلى إشبيلية ، ودخل يحيى العاصمة الأندلسية ، التى وقعت من جديد فى أيدى جنود منتصرين[١] . ولم يستقر يحيى طويلا فى قرطبة ؛ فقد انفض أعوانه واضطر إلى اللجوء إلى مالقة[٢]. وعاد القاسم بن حمود من جديد إلى قرطبة. ولكنه لم يستقر أيضاً؛ فقد ثار عليه القرطبيون وطردوه ، فهرب إلى إشبيلية ، ولكنه وجدها هذه المرة مغلقة الأبواب فى وجهه ، فاضطرب أمره ، حتى قبض عليه يحيى ابن أخيه ، فكانت نهايته على يديه .

وهنا اختار أهل قرطبة أميراً أموياً جديداً للخلافة ، فبويع عبد الرحمن بن هشام ابن عبد الجبار بن الناصر ، ولقب بالمستظهر[٣]. ولكن الأمر لم يستقر لهذا الخليفة الجديد ؛ فقد شبت ثورة ضده بزعامة أموى آخر ، وهو محمد بن عبد الرحمن بن عبيد الله ابن الناصر ، ونجحت الثورة وقبض على المستظهر وقتل[٤] . وبويع الأموى الجديد ، ولقب بالمستكفى[٥] . ولكن هذا الخليفة الجديد لم يحسن الحكم وأغضب رجالات قرطبة وأهل الفكر والرأى فيها ، فلجأوا إلى يحيى بن خالد وقتلوه . وعلم المستكفى بتجهز

---

(١) كان ذلك سنة ٤١٣ هـ — ١٠٢٣ م .

(٢) كان ذلك فى السنة التالية .

(٣) كان ذلك سنة ٤١٤ هـ — ١٠٢٣ م .

(٤) كان ذلك بعد أسابيع من مبايعته بالخلافة .

(٥) هو أبو ولادة الأديبة صاحبة ابن زيدون .

يحيى بن حمود للاستيلاء على قرطبة ، ففر متخفياً فى زى امرأة وخرج من قرطبة حيث دس له السم فمات . واختار القرطبيون يحيى بن حمود فكان الخليفة بها للمرة الثانية ، واكتفى أخيراً بإنابة وزير عنه للحكم ، وترك جنود لإقرار الأمن ، واستقر هو بمالقة . وكان يحيى بعيد النظر فى عدم بقائه بقرطبة هذه المرة ، إذ كانت الفتنة لا تترك لحاكم فرصة استقرار . فى هذه المرة اتفق خيران العامرى حاكم ألمرية ، ومجاهد العامرى حاكم دانية ، على إخراج الحموديين وإعادة الحكم الأموى ، وكان القرطبيون قد ملوا حكم البربر ، فتآمروا مع زعيمى الصقالبة خيران ومجاهد على إنهاء الحكم الحمودى ، ثم طرد الحموديين من قرطبة بمعاونة الجند الصقالبة الموجودين فيها ؛ إذ فتحوا أبوابها للقوات التى أرسلها خيران ومجاهد ، وباغت الجميع البربر وطردوهم إلى غير رجعة . ثم حاول مجلس كبراء المدينة إعادة الحكم الأموى ، فاختار الوزير أبو الحزم بن جهور الأمير هشام بن عبد الملك بن الناصر ، أخا عبد الرحمن الرابع الملقب بالمرتضى . وتمت البيعة لهشام الثالث ، ولقب بالمعتد بالله[1] ، وكان بعيداً عن قرطبة حين بويع ، ثم استطاع الوصول إليها بعد صعوبات من الخارجين على الحكومة المركزية .

ولم تستقر الأمور باختيار الخليفة الجديد ؛ فقد خيب الآمال بعكوفه على الملذات وتبلده ، وتركه الأمور فى يد وزيره الحكم بن سعيد . وقد أساء هذا الوزير إلى العلماء وإلى الشعب باستهانته بالأولين وفرضه الضرائب الباهظة على الآخرين . وأضيف إلى ذلك منافسة الزعيم القرطبى الكبير ابن جهور له ؛ فعزم على إسقاطه وخلع خليفته . وكان الجند قد ثاروا لتأخير رواتبهم ، وفى الثورة قتل الوزير الحكم بن سعيد ، ونهب القصر ، واعتصم هشام الثالث بأحد الأبراج ، واجتمع مجلس الكبراء فى قرطبة بزعامة ابن جهور يبحث تلك الأحداث . وأخيراً استقر الرأى على إلغاء الخلافة نهائياً . ثم ركبوا وحولهم

---

(١) كان ذلك سنة ٤١٨ هـ — ١٠٢٧ م .

(٢) كان وصوله سنة ٤٢٠ هـ — ١٠٢٩ م .

حراسهم ومواليهم ، واتجهوا إلى القصر وناشدوا الثائرين بالكف عن أعمال العنف ، فرضخوا لهم . ثم نادوا هشاماً الثالث ووعدوه بالأمان إن تنازل عن الخلافة ، فتنازل و .ن ، وأعلن إنهاء الخلافة ، وآل الحكم إلى مجلس الكبراء الذى يرأسه ابن جهور ، وانتهت فترة الفتنة[1] سنة ٤٢٢ هـ (١٠٣١ م) . وبدأ عصر جديد من عصور الأندلس سيكون موضوع كتاب تال إن شاء الله .

٢ – المجتمع بين الضياع والمرارة :

من البديهى أن مجتمعاً يعيش فى مثل تلك الظروف القاسية ، يكون مجتمعاً مضطرباً قلقاً ، منهار القيم شاعراً بالضياع مفعماً بالمرارة . وهكذا كان المجتمع الأندلسى أيام الفتنة المبيرة ، وخاصة المجتمع القرطبى ، حيث كثر تتابع الحكام أمويين وبربر ، وحيث تعدد انسحاب جيش منهزم ليدخل آخر منتصر ، وحيث شاع التدمير والسلب وكل أعمال العنف التى شملت الزاهرة والزهراء وقرطبة جميعاً .

ومن البديهى كذلك أن تعطل أمثال تلك الأحداث القاسية كل نشاط صناعى ، وتعرقل كل رخاء تجارى ، وتوقف كل نماء زراعى وأن تسبب المجاعات وتنشر الأوبئة وتشيع الكوارث[2] .

وطبيعى أن تنعكس ظلال فترة هذه الفتنة المبيرة على نفوس الناس فتملأها بالاضطراب والقلق ، وتفعمها بالمرارة والإحساس بالضياع ، وتدفعها إلى التماس الراحة والبحث عن

---

(١) انظر فى هذه الفترة : البيان المغرب لابن عذارى جـ ٢ ص ٥٠ وما بعدها .

وانظر : Levi ProvenÇal, Historia, P, 457. ff.

(٢) انظر : الذخيرة لابن بسام ق ١ م ١ ص ٣٠ ، ٣١ ، ٧٩ ، ٨٠ ، ٨١ .

وانظر : البيان المغرب لابن عذارى جـ ٢ ص ٦٢ – ٦٤ ، ١٠١ – ١١٥ .

وانظر أيضاً : طوق الحمامة لابن حزم ص ١١٦ ، فهو يحدثنا عن أخ له مات بالطاعون الواقع فى قرطبة سنة ٤٠١ هـ .

المستقر . والناس مختلفون فى التماس راحة قلوبهم والبحث عما يقر نفسهم ؛ وذلك لاختلاف طباائعهم وظروف حياتهم . فمنهم من يجد راحته فى إغراق همومه فى الكأس ، وإفناء متاعبه فى الملذات ، ومنهم من يجد استقراره فى الهروب من قلقه إلى الانطواء ، والفرار من نفسه إلى العزلة ، ومنهم من يرى الراحة والاستقرار فى اللجوء إلى ذوى السلطان ، والعيش فى كنف أصحاب النفوذ . على أن من الناس من لا تسمح له الظروف بشىء من ذلك ، بل تقضى عليه بأن يكتوى بالنار حتى يحترق . وهكذا كان المجتمع الأندلسى فى فترة الفتنة ، وكان موقف أفراده إزاء لهيبها المحرق . فقد لجأت طائفة إلى الملذات وأقبلت على أنواع اللهو[١] ، كما انطوت طائفة أخرى على نفسها واعتكفت أو هاجرت بعيداً عن مناطق الاضطراب [٢] . هذا على حين سعت طائفة ثالثة إلى الحكام تترضاهم على اختلافهم ، وتحرق البخور لهم على تباينهم ، وتمشى فى ركاب كل المنتصرين منهم[٣] . كل هذا والغالبية العظمى من الأندلسيين ــ وخاصة القرطبيين ــ يعانون الفتنة كأشد ما تكون المعاناة ، ويكتوون بها كأقسى ما يكون الاكتواء .

هذا كله شاع فى المجتمع الأندلسى على عهد الفتنة ؛ اللهو والنفاق والانطواء والحزن والشكوى ؛ وكلها كرد فعل للاضطراب والقلق وانهيار القيم والشعور بالمرارة والإحساس بالضياع .

٣ ــ الثقافة بين الجزر والمد :

كان من نتائج أحداث فترة الفتنة ، أن تعطل النشاط الثقافى وخاصة فى قرطبة

---

(١) انظر بعض أخبار محمد بن هشام بن عبد الجبار كمثال لهذه الطائفة ، فى البيان المغرب جـ ٢ ص ٧٩ ، ٨٠ .

(٢) انظر سيرة أبى محمد بن حزم كمثال لهذه الطائفة ، فى الفقرة التالية الخاصة ببعض علماء ذلك العهد .

(٣) انظر مواقف بعض الشعراء الذين يمثلون هذه الطائفة كالقسطلى وابن الحناط ، فى الذخيرة ق ١ م ١ .

مسرح المأساة ؛ فقد أغلقت المدارس وانفضت حلقات الدرس[١] وقتل بعض العلماء[٢]، وهاجر البعض إلى حيث يلتمس شيئاً من الأمن[٣] . على أن ذلك لم يخمد أنفاس الثقافة الأندلسية فى ذلك الحين ؛ فقد كانت هناك بقية من العلماء الأندلسيين الذين أدركوا الازدهار فى فترة الخلافة ، أو انتفعوا بقوة الدفع فى فترة الحجابة ، فحفظوا للأندلس كثيراً من علمها وتراثها رغم ما كان من فتنة مبيرة[٤] . كما كان هناك بعض الأساتذة ممن وفدوا على الأندلس من أقطار إسلامية أخرى . وكان لهم فى الأندلس حينذاك جهاد علمى مشكور[٥] . كذلك كان فى بعض الأقاليم الأندلسية البعيدة عن مركز الفتنة حظ من النشاط العلمى ، بقدر ما أتيح لتلك الأقاليم من الاستقرار والهدوء . وقد كان شرق الأندلس من تلك الأقاليم التى نعمت ببعض الأمن ، فعرفت بعض المدن هناك فى تلك الآونة بحياة علمية على شىء من الخصوبة .

على أنه قد يأتى الخير من الشر ، كما يخرج الورد من الشوك ؛ فقد كان ممن خرجتهم فترة الفتنة برغم ما بها من أحداث وأهوال ، عالمان جليلان لهما مكانهما فى الصف الأول بين علماء الأندلس ، ولهما كذلك منزلتهما بين الأدباء ، ولذلك سنفرد كلا منهما بحديث فى هذا المقام ، لغلبة الجانب العلمى عليهما . هذان العالمان هما : أبو محمد ابن حزم ، وأبو مروان بن حيان .

---

(١) انظر : الذخيرة ق ١ م ١ ص ٣١ .

(٢) كابن الفرضى صاحب «تاريخ» علماء الأندلس ، الذى قتل ضمن من قتل أيام اقتحام البربر لقرطبة سنة ٤٠٣ هـ .

(٣) مثل ابن حزم الذى ارتحل إلى شاطبة حيث ألف أعظم كتبه . (انظر سيرته فى هذا الفصل) .

(٤) من هذه البقية الصالحة من علماء الأندلس : أبو عمر أحمد بن محمد بن الجسور ، وكان أحد شيوخ الحديث (انظر : بغية الملتمس للضبى ص ١٤٣) وأبو محمد عبد الله بن يوسف الرهونى ، وكان مؤدباً محدثاً مجوداً للقرآن (انظر : الصلة لابن بشكوال ترجمة رقم ٥٩٤) .

(٥) ألمع العلماء الوافدين على الأندلس فى تلك الآونة : أبو القاسم عبد الرحمن بن محمد ابن أبى يزيد المصرى ، وكان أديباً نسابة حافظاً للحديث عالماً بالأخبار . (انظر الصلة لابن بشكوال ترجمة رقم ٧٥٦).

ابن حزم :

هو أبو محمد بن على بن أحمد بن سعيد بن حزم[١] ، ويلقب بالقرطبي نسبة إلى موطن ولادته ونشأته ، كما يلقب بالظاهرى نسبة إلى المذهب الفقهى الذى اشتهر به . وأصول ابن حزم تحيط بها ظلمة كثيفة ؛ فيقال : إن إسرته تنحدر من أصل فارسى ، حيث ينتهى نسبه إلى رجل من أهل فارس اسمه يزيد ؛ كان مولى ليزيد بن أبى سفيان ، ويقال : إن أسرة ابن حزم من أصل إسبانى ، وأن جده الأدنى كان حديث عهد بالإسلام . ويبدو أن هذا القول هو الأقرب إلى الصواب ؛ لأننا لا نعرف للموالى نسباً محققاً ، ولأننا لا نجهل ما كان من انتحال كثير من الأنساب العربية ما أمكن ، فإن لم يمكن فلتكن أنساب موال للعرب ؛ كل ذلك ليرتفع قدر منتحل النسب فيكون فى طبقة الغالبين الفاتحين . ومما يرجح هذا الرأى فى أصل ابن حزم ، ميل ابن حيان المؤرخ الأندلسى إليه[٢] . وقد كان ابن حيان معاصراً لابن حزم . فلعل جد ابن حزم أو أحد تلاميذه اصطنع هذا النسب الذى ينتهى به إلى فارس ويرفعه إلى مرتبة الفاتحين ، لأننا نستكثر على ابن حزم الفقيه الدقيق أن يصطنع نسباً غير صحيح .

ومهما يكن من أمر فأسرة ابن حزم كانت تعيش أولا فى إقليم لبلة [٣] Liebla وفى بلدة كانت تسمى « منت ليشم » وأصبحت تسمى اليوم « منتيخار أو « كاسا منتيخا

(١) اقرأ سيرته وبعض أخباره فى : الذخيرة لابن بسام ق ١ م ١ ص ١٤٠ وما بعدها ، وفى جذوة المقتبس للحميدى ترجمة رقم ٧٠٨ ، وفى بغية الملتمس للضبى ترجمة رقم ١٢٠٤ ، وفى الصلة لابن بشكوال ترجمة رقم ٨٩١ ، وفى معجم الأدباء لياقوت جـ ١٢ ص ٢٣٥ وما بعدها ، وفى وفيات الأعيان لابن خلكان جـ ١ ص ٤٢٨ وما بعدها ، وفى طوق الحمامة لابن حزم ، وفى نفح الطيب للمقرى جـ ١ ص ٣٥٨ وما بعدها . واقرأ دراسات عنه فى : ابن حزم صورة أندلسية للدكتور طه الحاجرى ، وفى : ابن حزم الأندلسى للشيخ محمد أبى زهير ، وفى مقدمة الترجمة الإسبانية لطوق الحمامة الذى قام بها الأستاذ جارثيا جومث .

(٢) انظر رأى ابن حيان فى : الذخيرة لابن بسام ق ١ م ١ ص ١٤٢ ، ١٤٣ .

(٣) يقع هذا الإقليم فى غرب الأندلس قرب المحيط الأطلسى وبينهما نحو ستة أميال .

Casa Montija » وكانت تلك الأسرة أسرة متواضعة تعيش على ما تغله الأرض من الرزق . ثم تطلعت عيونها إلى أضواء عاصمة الأندلس ، وتحركت بهذا القانون الاجتماعى الذى يجذب الناس إلى العواصم ، فقررت الانتقال إلى قرطبة . وكان ذلك فى زمن سعيد بن حزم(١) ، جد عالمنا أبى محمد . والأنباء التى لدينا عن حياة سعيد هذا بقرطبة قليلة وغامضة ، وعلى العكس من ذلك أنباء ابنه أحمد ، فهى أكثر وأوضح . وأحمد هذا هو والد عالمنا أبى محمد بن حزم . فمن المعروف عن أحمد بن سعيد أنه كان أديباً بارزاً وعالماً صالحاً وإدارياً حازماً ؛ وكان إلى ذلك كله ذا مهارة عظيمة فى الاتصال بالأوساط السياسية وكسب ثقة الحكام . فسرعان ما تقدم إلى صفوف الإداريين ، واستمر فى تقدمه حتى كان وزيراً للمنصور بن أبى عامر . وهنا ارتفعت منزلته درجات ، وانتقل بيته من بلاط مغيث غربى قرطبة ، إلى مدينة الزاهرة شرق العاصمة ، حيث قصر الحاجب القابض على زمام الأمور . وكانت لباقة أحمد بن سعيد عظيمة للغاية ؛ فقد استطاع أن يكسب ثقة المنصور مع الاحتفاظ بالولاء الصادق للخليفة الأموى ؛ ومن هنا ظل محتفظاً بمكانته عند الحاجب والخليفة جميعاً ، وظل بيته حتى شبت الفتنة من البيوت الرفيعة بين بيوت الوزراء والمرموقين .

فى هذا البيت ولد على بن حزم سنة ٣٨٤ هـ (٩٩٤ م) ، ونشأ فى تلك الأسرة التى تعتبر إحدى الأسر الأرستقراطية الجديدة ، التى كانت تعيش فى ترف وحسن مظهر ، وتأخذ مكانها فى أعلى مستوى بين الأسر القرطبية .

وقد قضى صاحبنا فترة صباه فى حريم قصر أبيه ؛ حيث عهد إلى النساء بتربيته

---

(١) هذا ما ذهب إليه الأستاذ « أسين بلاثيوس » وتلميذه الأستاذ « جارثيا جومث » أما الأستاذ الحاجرى فيرجح أن الهجرة إلى قرطبة كانت فى أيام حزم ، الجد الأكبر لأبى محمد .
(انظر ص ٢٩ من كتابه ابن حزم صورة أندلسية) .

وتحفيظه القرآن(١) .

ولعل السبب فى ذلك ما كان قد أصيب به على وهو صغير من مرض قلبى(٢) ، أو لعل السبب هو فرط التدليل أو الترف ، أو لعله شىء غير هذا وذاك ، فهذا لا يعنينا كثيراً ، وإنما الذى يعنينا هو أن ابن حزم نشأ فى هذه الفترة من حياته بين حريم القصور، وكانت نشأته مترفة ناعمة . وكانت إلى ذلك على كثير من المحافظة ورعاية الخلق القويم . وقد أكسبته تلك البيئة النسوية كثيراً من الخبرة بأحوال النساء وأسرار نفوسهن ، كما أتاحت له تجارب عاطفية فتحت قلبه الغض على الحب والعشق ، كذلك أمدته تلك البيئة بكثير من قصص الغرام، وأطلعته على عديد من أحوال العشق ، ووجهته منذ حداثته إلى البحث فى فلسفة الحب .

أما ترف البيئة ونعومتها وأرستقراطيتها، فقد طبعته على رقة المزاج ونعومة المشاعر وإباء النفس . كما وجهته التربية المحافظة إلى الأخذ بالسلوك القويم والبعد عن كل ما يشين ، برغم ما كان فى صدر حياته من مخالطة لصنوف من النساء فى بيت أبيه وفى غيره من البيوت .

وبعد الخامسة عشرة تقريباً تبدأ مرحلة جديدة من مراحل حياة ابن حزم ، وهى مرحلة الخروج إلى الحياة والتحصيل والدرس والتعلم خارج البيت . وقد كان بدء هذه المرحلة حوالى سنة ٣٩٩ هـ(٣) ، حيث خرج أبو محمد إلى مجالس العلماء ، فتردد على ابن الجسور(٤) . وجلس إلى الرهونى(٥) ، وانضم إلى حلقات أبى القاسم المصرى(٦) ،

---

(١) انظر : طوق الحمامة ص ٤٦ ، ٤٧ .

(٢) انظر المصدر السابق ص ١٦ .

(٣) انظر : جذوة المقتبس للحميدى ترجمة رقم ٧٠٨ ، والصلة لابن بشكوال ترجمة رقم ٨٩١ ، وبغية الملتمس للضبى رقم ١٢٠٤ ، ونفح الطيب للمقرى جـ ١ ص ٣٥٩ .

(٤) انظر ترجمته فى : بغية الملتمس رقم ١٤٣ .

(٥) انظر ترجمته فى : الصلة رقم ٥٩٤ .

(٦) انظر ترجمته فى : الصلة رقم ٧٥٦ .

وأخذ عن هؤلاء وغيرهم ، واتجه حينئذ نحو العلوم الدينية بنوع خاص . وظل يواصل التحصيل فى قرطبة برغم ما بها من أحداث أوائل الفتنة ، حتى اضطرته أعمال العنف ومطاردة أنصار الأمويين إلى الهجرة . فترك قرطبة سنة ٤٠٤ هـ[١] واختار مدينة ألمرية[٢] ، وهناك واصل درسه وتحصيله الذى بدأه فى قرطبة . ويبدو أنه فى المرية عنى بالدراسات الفلسفية والإسرائيلية ، حيث كان فى هذه المدينة جماعة من المشتغلين بالفلسفة وخاصة من أتباع ابن مسرة[٣] ، كما كان بها أيضاً بعض الإسرائيليين الذين اضطر ابن حزم إلى دراسة دياناتهم ، لينجح فى مناظراتهم[٤] .

ولكن الظروف لم تترك ابن حزم يفرغ للعلم الذى أخذ نفسه بتحصيله كأحسن ما يكون التحصيل ، بل دفعته إلى بعض النشاط السياسى الذى ربما كان يجرف المفكرين فى تلك الآونة عن رضا حيناً ، وعن سخط حيناً آخر . فقد قُبض على ابن حزم فى ألمرية ، لما اشتهر به من الولاء للأمويين ، وسجن بها حيناً ثم نفى ، فتوجه إلى حصن القصر[٥] . ولما علم أن أموياً يدعى له فى بلنسية ، وهو عبد الرحمن الرابع الذى لقب بالمرتضى ، انتقل إلى بلنسية ليكون فى نصرة الأمير الأموى الجديد . ومعروف أن حركة هذا الأموى قد فشلت ، وأن أنصاره كانوا بين قتيل وفار ومعتقل . وقد كان الاعتقال نصيب صاحبنا ابن حزم ، حيث اعتقله صاحب غرناطة وسجنه حيناً ، ثم أطلقه . وقد توجه ابن حزم بعد ذلك إلى قرطبة سنة ٤٠٩[٦] ، بعد قيام القاسم ابن حمود على الخلافة بها ، وسلوكه أول الأمر مسلك المهادنة والترضية . واستأنف

---

(١) انظر : طوق الحمامة ١١٠ .

(٢) إحدى المدن الواقعة على البحر الأبيض فى الركن الجنوبى الشرقى من الأندلس .

(٣) انظر : الفصل ج ٤ ص ١٩٩ .

(٤) انظر : طوق الحمامة ص ١٧ . وكتاب الفصل ج ١ ص ١٠٢ .

(٥) انظر : طوق الحمامة ص ١١٧ .

(٦) انظر : طوق الحمامة ص ١١ .

ابن حزم فى قرطبة حياته العلمية والأدبية حيناً ، ثم دفعته الظروف إلى السياسة من جديد . فقد بويع فى قرطبة لأموى جديد ، هو عبد الرحمن الخامس الملقب بالمستظهر ، وكان هذا الأموى محباً للمفكرين والأدباء ؛ فاستوزر بعضهم ، وجعل ابن حزم فى مقدمتهم . ولكن المستظهر سقط بعد قليل ، وقام مقامه المستكفى ، فسجن ابن حزم حيناً ؛ ولم يطلقه إلا سقوط المستكفى وتقوض خلافته . وخرج ابن حزم من السجن ، على عجز عن عمل أى شئ لنصرة بنى أمية ، وعلى مرارة مما لاقى من السياسة ، وربما كان على عزيمة أيضاً للانصراف إلى العلم ، فهاجر بعد قليل إلى شاطبه Jativa فى شرق الأندلس . وكان قد نضج علمياً وفنياً . وهناك ألف أعظم كتبه الأدبية « طوق الحمامة »(١) ثم ألف أعظم كتبه العلمية « الفِصَل فى الأهواء والنِّحَل »(٢) .

ثم سقطت الخلافة الأموية نهائياً بالأندلس ، وساد عصر الطوائف ، فلم يعد هناك من تيارات السياسة ما يجرف ابن حزم من جديد ، بعد انتهاء دولة الأمويين الذين كان صاحبنا يكن لهم كل الولاء . وصارت حياة ابن حزم خالصة للعلم ، وتنقلا مستمراً بين أقاليم الأندلس المختلفة . وذلك لإشاعة علمه ، ونشر المذهب الظاهرى ، التى تحول إليه وآمن به وقضى بقية حياته منافحاً عنه ؛ فقد كان أول أمره مالكياً كأكثر فقهاء الأندلس ، ثم مال إلى المذهب الشافعى حيناً ، ثم تحول إلى الظاهرية فى قوة وإلى النهاية . ولعل هذا التحول كان بسبب نفرته مما تورط فيه الفقهاء من التأويل الكثير والتحوير الشديد والاستنباط المتضارب ، كما كان بسبب كراهيته

---

(١) انظر : طوق الحمامة ص ١ . وكان تأليف هذا الكتاب بين سنتى ٤١٧ و ٤١٨ كما يستفاد من إشارات فى الكتاب نفسه (انظر : ابن حزم صورة أندلسية للدكتور طه الحاجرى ص ١٥٣ — ١٥٤) .

(٢) وضع هذا الكتاب فى أيام آخر الأمويين فى الأندلس هشام الثالث الملقب بالمعتد . وقد نص على ذلك . وبذلك ينبغى أن يكون قد ألفه ما بين ٤١٨ — ٤٢٢ هـ (وانظر : ابن حزم للدكتور الحاجرى ص ١٥ — ١٦) .

لما كان عليه كثير من الفقهاء من نفاق ومجاراة للحكام وإخضاع للنصوص حسب هوى المتسلطين ؛ فدفعه ذلك دفعاً إلى التمسك بالظاهر والاحتكام إليه ؛ لأنه شيء لا يمكن التلاعب به ولا المساومة عليه . فكأن ظاهرية ابن حزم قد كانت رد فعل لظروف عصره وأحوال مجتمعه وما عاناه فى فترة الفتنة من محنة خلقية وعقلية[1] .

ومهما يكن من أمر فقد أبحر ابن حزم خلال تنقلاته إلى جزيرة ميورقة ، وكان عليها أحمد بن رشيق ، نائباً عن مجاهد العامرى الذى كان يحكم جزر البليار ، ويؤثر البقاء فى دانية ، وإنابة ابن رشيق عنه فى ميورقة . وفى تلك الجزيرة نشر ابن حزم مذهبه وأحدث ضجة علمية هائلة . فكثر تلاميذه ومؤيدوه ومعارضوه . ثم وفد على الجزيرة أبو الوليد الباجى ، وكان أحدث سناً من ابن حزم ، كما كان قريب عهد بالقدوم من المشرق ، وكان إلى ذلك ركناً من أركان المالكية فى الأندلس[2] ؛ فناظر ابن حزم ، ويبدو أنه كتل كثيراً من الفقهاء ضده . ونفر حاكم الجزيرة منه . وهنا اضطر أبو محمد إلى ترك ميورقة والتنقل فى أقاليم أخرى من الأندلس . وأخيراً توجه إلى إشبيلية حيث المعتضد بن عباد . ولكن مقامه فى إشبيلية لم يطل ، وأغلب الظن أن اعتزاز ابن حزم أو إيمانه بنفسه لم يتح له أن يصبر كثيراً على العيش فى كنف المعتضد ، وأغلب الظن أيضاً أن منافسة الفقهاء له وتكتلهم ضده ؛ كانت من أسباب التعجيل برحيله عن مملكة المعتضد . ولم يجد ابن حزم مستقراً أهدأ من موطن أسرته الأول فى إقليم لبلة ، حيث قضى بقية حياته فى التعليم والتأليف بعيداً عن المكايد التى عجزت عن ملاحقته فلاحقت كتبه ؛ إذ أحرقها فى إشبيلية علناً المعتمد بن عباد ، الذى كان قد ولى إشبيلية بعد موت أبيه ، والذى وقع تحت تأثير الفقهاء الحانقين على

---

(١) انظر فى تعليل تحول ابن حزم إلى الظاهرية : ابن حزم — صورة أندلسية للدكتور الحاجرى ص ١٢٢ وما بعدها .

(٢) انظر فى ترجمته : نفح الطيب ج ١ ص ٣٥٣ وما بعدها .

ابن حزم ، فارتكب هذه الفعلة المنافية لحرية الرأى واحترام كرامة العقل . ولكن تلك الحادثة لم تضعف من عزيمة ابن حزم ، بل قابلها بقوله :

فإن تحرقوا القرطاس لا تحرقوا الذى ... تضمنه القرطاس بل هو فى صدرى
يسير معى حيث استقلّتْ ركائبى ... وينزل إن أنزل ويدفن فى قبرى
دعونِىَ مــن إحراق رقّ وكاغد ... وقولوا بعلم كى يرى الناس من يدرى
وإلا فعودوا فى المكاتب بدأة ... فكم دون ما تبغون لله من ستر[١]

وظل ابن حزم يواصل رسالته العلمية الكبيرة حتّى وافته منيته سنة ٤٥٦هـ بعد أن عاش أكثر من سبعين عاماً ، قضى معظمها فى النشاط العلمى والأدبى .

فقد وضع ابن حزم كثيراً من المؤلفات فى فنون مختلفة ، ولو بقيت كلها لكان لها وحدها أكبر مكان فى المكتبة الأندلسية ، ولكن أيدى الزمن عدت على بعض مؤلفات ابن حزم ، واستطاع البعض الآخر أن يفلت من تلك اليد العادية ، وهذا البعض الباقى من أخصب وأدسم ما خلف الأندلسيون من تراث[٢]

ففى الفقه والأصول ، ألف ابن حزم عدة كتب أهمها كتاب « الإبطال» الذى بسط فيه أبو محمد دقائق المذهب الظاهرى . وله أيضاً كتاب « المحلّى» الذى يناقش فيه أصول المذهب الشافعى . ثم له كذلك كتاب « الخصال » الذى ضاع ، والذى يغلب على الظن أنه كان شرحاً لأصول المذهب المالكى ، ثم كتاب « الإيصال» الذى أوجز فيه ابن حزم ما بسطه فى كتاب « الخصال» .

وفى تاريخ الأديان خلف صاحبنا كتابه المشهور « الفصل فى الملل والأهواء

---

(١) وردت هذه الأبيات فى الذخيرة ق ١ م ١ ص ١٤٤ ، وفى معجم الأدباء لياقوت جـ ١٢ ص ١٥٢ ، ١٥٣ .

(٢) روى أبو رافع عن الفضل بن على بن حزم أنه اجتمع عنده بخط أبيه من تأليفه نحو أربعمائة مجلد ، تشتمل على قريب من ثمانين ألف ورقة. انظر الترجمة رقم ٨٩١ فى الصلة لابن بشكوال .

والنحل» . وهو كتاب حافل بما فيه من تاريخ نقدى للأديان والفرق والمذاهب على اختلافها [١] ، وقد قال المستشرق الإسبانى «أسين بلاثيوس» «Asin Palacios» «إننا لا نجد بين أيدينا وثيقة أغنى ولا أجدر بالثقة من كتاب «الفصل» لابن حزم ؛ فهو يمكننا من تتبع سير تيار الثقافة الذى لم يتوقف أبداً خلال العصور الوسطى ، فيما يتصل بتاريخ الأديان والمذاهب ؛ فى ثنايا صفحات هذا الكتاب يتجلى لنا ذلك النسيج الذهبى ، الذى تتألف منه الفلسفة الخالدة ، ذلك النسيج الذى صنعته أوفر عبقريات الإغريق حكمةً بأيديها الصبور فى مهارة فائقة . وعلى ضوء صفحاته نرى كيف يزداد النسيج سعة وامتداداً ، وكيف تدخل فى تكوينه على مر العصور أنسجة جديدة ؛ وربما وجدنا أن هذه الأنسجة لا تضاهى نسيج الإغريق روعة وبريقاً ، ولكنها لا تقل عنه متانة وقدرة على البقاء ونراها تجود وتزداد إحكاماً ، بفضل ما أدخله عليها التفكير النصرانى الشرقى ، وما أضافه إليها المسلمون من مادة أوفر . وقد كان المسلمون آخر من انتهت إليهم أطراف هذه العناصر كلها ، ولهذا قد تجمعت بين أيديهم ثمرات هذا التطور الفكرى الغنى ونتائجه ، ومن ثم لم يكن من العسير عليهم أن يسبقوا مفكرى النصارى من أهل الغرب فى تحليلها ووضع منهجها وأساسها اللذين سيقوم عليهما التفكير المنهجى ، «الإسكولاستى» ، فى القرن الثالث عشر» [٢] .

وفى الفلسفة ألف ابن حزم كتباً فى مراتب العلوم والمنطق ، وفى نقد أبى بكر الرازى . وقد ضاعت كلها . ولكن بقى لنا مما يستحق الذكر كتابه المسمى «الأخلاق والسير فى مداواة النفوس» وهو أشبه بسجل يوميات ، دون فيه ابن حزم ملاحظات منتزعة من تجاربه وخبراته فى الناس والحياة ، وهذه الملاحظات قد صاغها ابن حزم

(١) نشر كتاب الفصل فى القاهرة سنة ١٣٢١ هـ . وترجمة المستشرق الإسبانى أسين بلاثيوس) إلى الإسبانية ، ونشره فى سنتى ١٩٢٧ ، ١٩٢٨ م .

(٢) انظر : تاريخ الفكر الأندلسى ص ٢٢٨ .

فى تركيز ودقة ، فجاءت كأنها مبادئ عامة أو حكم بالغة .

وقد قال المستشرق الإسبانى «أسين بلاثيوس» Asin Palaios عن أسلوب ابن حزم فى هذا الكتاب : «وهذا الأسلوب الوعظى الحكمى الذى اتبعه ابن حزم ، يجعل كتابه هذا شبيهاً بحكم «ديمقراط» و «سنيكا» ، ولا يخلو الكتاب مع ذلك من الفقرات الطوال ، كهذه القطعة الجميلة التى يذم فيها الغرور ، أو تلك التى يصارحنا فيها برذائل ونقائص أخلاقية يراها فى نفسه ، ويقررها فى تواضع يذكرنا باعترافات القديس «أوغسطين» . وفى مواضع أخرى من الكتاب يصف ابن حزم أخلاق البشر فى أسلوب يفيض حيوية ويتجرد عن الميل والهوى . وإن الإنسان ليشعر وهو يقرأ كلام ابن حزم فى هذا المقام كأنه يطالع كتب الأخلاق التى كتبها «ثيوفراست» أو «لا برويير» أو يقرأ «مقالات فى الأخلاق والسياسة لبيكون»[١] .

وفى التاريخ خلف ابن حزم عدة رسائل وكتب . ومن ذلك : كتاب «جمهرة أنساب العرب»[٢] و «نقط العروس»[٣] .

ولابن حزم أيضاً رسالته المشهورة فى «بيان فضل الأندلس وذكر علمائه»[٤] وهى رسالة كتبها رداً على ما ورد فى خطاب بعث به ابن الربيب التميمى القيروانى ، إلى أبى المغيرة عبد الوهاب بن حزم[٥] . وكان هذا العالم القيروانى قد ذكر «تقصير أهل الأندلس فى تخليد أخبار علمائهم ومآثر فضلهم وسير ملوكهم» ، فانبرى أبو

---

(١) انظر : Palencia Literatura, P. 159.
وانظر : تاريخ الفكر الأندلسى ص ٢١٧ .

(٢) نشره المستشرق الفرنسى برفنسال فى القاهرة سنة ١٩٤٨ .

(٣) نشره الدكتور شوقى ضيف فى القاهرة سنة ١٩٥١ م .

(٤) وردت هذه الرسالة فى نفح الطيب للمقرى ج ٢ ص ١٢٥ .

(٥) هو ابن عم أبى محمد بن حزم (اقرأ ترجمته فى الذخيرة لابن بسام ق ١ م ١ ص ١١١ وما بعدها) .

محمد بن حزم يذكر علماء الأندلس ويعدد أفضالهم ومؤلفاتهم . فالرسالة تعتبر ثبتاً لما ألف الأندلسيون فى مختلف العلوم ، ولمن نبغ منهم فى شتى الفنون حتى أيام ابن حزم .

ولأبى محمد كذلك فى التاريخ « الإمامة والخلافة » و « فهرست » ما كان له من شيوخ . ويبدو أنهما من كتبه الضائعة .

هذا ، ولم يكن ابن حزم عالماً مبرزاً فقط ، وإنما كان أديباً شاعراً وناثراً أيضاً . وقد مضت مؤلفات ابن حزم فى الميدان العلمى . أما مؤلفاته الأدبية فأهمها جميعاً ، كتابه « طوق الحمامة » ، وسوف نفرد له كلمة حين نتحدث عن الأدب فى هذه الفترة التى نسوق عنها الحديث .

ابن حيان :

هو أبو مروان حيان بن خلف بن حسين بن حيان[1] . يتصل نسبه بجد كان مولى لعبد الرحمن بن معاوية مؤسس الدولة الأموية فى الأندلس . وكان أبوه من كتاب المنصور ابن أبى عامر ، ومن المعروفين بالعلم والأدب فى فترة الحجابة .

وقد ولد حيان بقرطبة سنة ٣٧٧ هـ ، ونشأ فى بيت علم وأدب ، ودرس على أبيه خلف بن حسين ، وعلى غيره من علماء العصر ، فأخذ النحو عن أبى عمر بن

---

(١) انظر ترجمته وبعض أخباره وآثاره فى : الصلة لابن بشكوال رقم ٣٤٥ . وفى : جذوة المقتبس الحميدى رقم ٣٩٧ . وفى : بغية الملتمس الضبى رقم ٦٨٩ . وفى : الذخيرة لابن بسام ق ١ م ٢ ص ٨٤ وما بعدها . وفى : المغرب لابن سعيد ج ١ ص ١١٧ . وفى : الوافى بالوفيات الصفدى ج ٤ م ١ ص ١٦١ .

وانظر : Palencia : Literatura, P. 151 ff.

وتاريخ الفكر الأندلسى ص ٣٠٨ وما بعدها .

أبى الحباب[١]، وتلقى الأدب عن أبى العلاء صاعد البغدادى[٢] وسمع الحديث من أبى جعفر عمر بن نابل[٣] . وما زال يتلقى العلم على هؤلاء وغيرهم ، حتى نضجت ثقافته . ويبدو أنه كان يؤثر الأدب والتاريخ على غيرهما من فروع الثقافة .

وقد تقلد ابن حيان بعض المناصب الإدارية والفنية ، فكان صاحب الشرطة ، أو صاحب المدينة فى قرطبة حيناً ، كما عمل فى ديوان الإنشاء لبعض رؤسائها حيناً آخر . ولكن نشاطه الأكبر كان منصرفاً إلى كتابة التاريخ .

وقد ألف ابن حيان عدداً من الكتب التاريخية ، ضاع أكثرها وبقى أقلها . ومن الكتب التى صحت نسبتها إليه كتاب : « المآثر العامرية» وكتاب « تاريخ فقهاء قرطبة» ، وكتاب « المقتبس» وكتاب « المتين» . ولم يبق من هذه الكتب جميعاً إلا أجزاء من « المقتبس» ، وفقرات من « المتين» .

و « المقتبس» قد كان يقع فى عشرة أجزاء ، ويتناول تاريخ الأندلس من أيام فتحها إلى زمن المؤلف . وكل الذى بقى بين أيدى الباحثين من هذا الكتاب ثلاثة أجزاء : جزء عن فترة الأمير عبد الرحمن الأوسط[٤] ، وجزء ثان عن فترة الأمير عبد الله بن محمد[٥] ، ثم جزء ثالث عن فترة الحكم المستنصر[٦].

أما « المتين» فقد كان يقع فى ستين مجلداً ، ولذا سمى « بالتاريخ الكبير» . وكل

---

(١) انظر ترجمته فى الصلة لابن بشكوال رقم ٣٥ .

(٢) انظر ترجمته وبعض أخباره فى الفقرة الخاصة « بالثقافة فى فترة الحجابة » من هذا الكتاب .

(٣) انظر ترجمته فى : الصلة رقم ٨٤٩ .

(٤) كان هذا الجزء عند المستشرق الفرنسى الأستاذ ليفى بروفنسال ، وكان يعده للنشر قبل وفاته .

(٥) نشر هذا الجزء سنة ١٩٢٨ المستشرق الإسبانى القس (ملتشور أنطونيا) الذى قتل أيام الحرب الأهلية فى إسبانيا .

(٦) هذا الجزء عند المستشرق الإسبانى الأستاذ جارثيا جوميث ، وهو يعده للنشر .

ما حفظ من هذا التاريخ الكبير فقرات رواها بعض المؤرخين الذين أتوا بعد ابن حيان وأفادوا من كتبه ، كابن بسام وابن الخطيب والمقرى .

والذى يمكن استنباطه مما بقى من تراث ابن حيان ، أنه كان مؤرخاً واسع المعرفة دقيق الرواية نافذ البصيرة ، كما كان يميل إلى التحليل والتعليل والنقد فيما يعرض من أخبار ؛ فقد كان له رأيه غالباً فى الأحداث والأشخاص ، وكان هذا الرأى على كثير من الانفعال والحدة ، بل على كثير من القسوة فى كثير من الأحايين . وإذا ذكرنا الظروف القاسية التى عاش فيها ابن حيان أيام الفتنة عرفنا سبب انفعاله وحدته وقسوته .

ومن أهم ما يلاحظ على كتابة ابن حيان التاريخية ، أسلوبه الأدبى الممتاز الذى يعرض فيه التاريخ ، وهو أسلوب لا يصطنع المحسنات ولا يفتعل القعقعة الكاذبة ، كما لا يعمد إلى السرد والقص دون رعاية للإطار ، وإنما يعرض التاريخ فى قالب أدبى أخاذ . فيه قوة نسج وإشراق عبارة وشدة تأثير . وليس من شك فى أن نشأة ابن حيان الأدبية قد سيرته فى هذا الاتجاه .

ولعل من أصدق ما قيل فى طريقة ابن حيان وأسلوبه، قول المؤرخ الهولندى « دوزى» Dozy : « إنه يسوق التاريخ مساق من يبدى رأيه وحكمه فيما يعرض من القضايا ، ويبحث عن أسباب الأشياء ويناقشها عن علم وفهم وذكاء ، كما سيفعل من بعده مؤرخون نقادون كابن سعيد وابن خلدون . ويمتاز ابن حيان إلى ذلك بأسلوب صاف ناصع . لا يهبط إلى الركاكة التى تثير السخط ، ولا يقع كذلك فى التصنع والإسراف فى قعاقع الألفاظ . وهو برغم التزامه هذه السهولة ، لا يهمل جانب الجمال فى أسلوبه ، ويبعث فى كلامه دائماً حماساً وغنى وطابعاً غالباً من الجد . . . ونخرج من هذا كله بأننا لا نجد بين مؤرخى العرب إلا القليلين الذين نستطيع أن نقارنهم به ،

ولن نجد بينهم من نقدمهم عليه »[1] .

هذا وقد أدرك ابن حيان جزءاً من عصر ملوك الطوائف ، وكانوا يعرفون قدره ويقدرون مكانته. ولاأدل على ذلك مما رواه ابن سعيد فى هذه القصة حيث قال عنه: « وحلف عبد الملك بن جهور أن يسفك دمه ، فأحضره أبوه أبو الوليد ، وقال : والله لئن طرأ على ابن حيان أمر لا آخذن أحداً فيه سواك ، أتريد أن يضرب بنا المثل فى سائر البلدان ، بأننا قتلنا شيخ الأدب والمؤرخين ببلدان تحت كنفنا ، مع أن ملوك البلاد القاصية تداريه وتهاديه ؟ ! »[2] .

ولم يكن تأليف التاريخ كل نشاط ابن حيان الفنى ؛ فقد أثرت عنه رسائل وفصول تشهد بعلو كعبه فى النثر الخالص[3] . كذلك روى أن له شعراً ، ولكن هذا الشعر لا يشبه نثره فى القوة بل لا يدانيه فى المنزلة[4] . ومن هنا لم يعد ابن حيان من الشعراء ، وإنما عد من كبار المؤرخين والناثرين . وقد ختمت حياته سنة ٤٦٩ هـ .

٤ — الأدب بين الهروب والمراجعة :

تأثر الأدب بأحداث الفتنة تأثراً واضحاً ، وكان التأثر شراً على بعض الأنواع الأدبية وخيراً على بعضها الآخر . ومن مظاهر الشر انتشار أدب التلهى والنفاق والتفاهة ، أو أدب الهروب بتعبير أشمل . ومن مظاهر الخير ظهور أدب التأمل والتذكر والنقد ، أو أدب

---

(١) انظر Palencia Literatura. P. 158 ff
وانظر تاريخ الفكر الأندلسى (ترجمة حسين مؤنس المصدر السابق) ص ٢١١ .

(٢) انظر : المغرب لابن سعيد جـ ١ ص ١١٧ .

(٣) اقرأ كثيراً من هذه الرسائل والفصول فى : الذخيرة لابن بسام ق ١ م ٢ ص ٧ وما بعدها .

(٤) انظر : المغرب جـ ١ ص ١١٧ .

المراجعة بتعبير أعم . وقد كان الشعر مجال النوع الأول ، كما كان النثر مجال النوع الثانى . ومن هنا خطا النثر خطوات واسعة حتى سبق الشعر ، إذ ظهرت أنواع جادة جديدة ، أتاح لها انطواء بعض الأدباء وعكوفهم جواً ملائماً فيه تأمل وفيه مراجعة ، مما يساعد على التخيل والقص والتحليل والنقد ، وهى السمات التى حفلت بها أهم الأعمال النثرية فى تلك الفترة .

وهذه كلمة عن كل من نوعى الأدب فى فترة الفتنة ، توضح هذا الإجمال :

أولا — الشعر :

لم يقف الشعر الأندلسى عند النقطة التى وصل إليها من قبل فحسب ، بل تخلف بعض التخلف ، فقل نتاجه ، وضاقت أغراضه ، واختلطت اتجاهاته . ولولا قلة من الشعراء الموهوبين الذين تغلبت طبيعتهم الفنية على ظروف الفتنة القاسية ، لما وجدنا لهذه الفترة شعراً ذا قيمة كبيرة ؛ لأن أحداث الفتنة حصرت الشعر فى دائرة ضيقة ، وصرفت الشعراء عن الفن الجاد . فهو حيناً حديث عن اللهو والشراب يدفع إليه الهروب وإغراق الهم ، كقول عبادة بن ماء السماء (١) :

فهل ترى أحسن من أكؤس ... يقبل الثغر عليها اليدا
يقول للساقى اغتبق لى بها ... وخذ بلجينا وأعد عسجدا
أغرق فيها الهم لكن طفا ... حبابها من فوقها مزبدا
كأنما شيبها شارب ... أمسكها فى كفه سرمدا (٢)

وهو حيناً آخر مدح كاذب وثناء متملق ، يحمل عليه طلب الأمن والاحتماء فى

---

(١) انظر ترجمته وبعض شعره فى : الذخيرة ق ١ م ٢ ص ١ وما بعدها .

(٢) وردت هذه الأبيات فى الذخيرة ق ١ م ٢ ص ٥ .

ظل الحاكم ، ومن ذلك قول ابن الحنّاط الكفيف[١] فى القاسم بن حمود :

لك الخير « خيران »[٢] قضى لسبيله وأصبح ملك الله فى ابن رسوله
وفُرق جمع الكفر واجتمع الورى على ابن حبيب الله بعد خليله
وقام لواء الجمع فوق ممنّع من النصر جبريل أمام رعيله
وأشرقت الدنيا بنور خليفة به لاح بدر الحق بعد أفوله[٣]

وقوله بعد ذلك فى يحيى بن حمود ، ابن أخى الأول والثائر عليه :

أمّتْ أمير المؤمنين مواحلا فسقى صداها غيثه الشؤبوبُ
المعتلى بالله والملك الذى تاج الفخار برأسه معصوب
إن كان عدوا حب آل محمد ذنبًا فإنى لست منه أتوب[٤]

وهو مرة بكاء تسببه المآسى الكثيرة والمحن العديدة ، كقول بعضهم فى بكاء قرطبة :

ابكِ على قرطبةَ الزينِ فقد دهتها نظرة العين
أنظرها الدهر بأسلافه[٥] ثم تقاضى جملة الدين
كانت على الغاية من حسنها وعيشها المستعذب اللين[٦]
فانعكس الأمر فما إن ترى بها سروراً بين اثنين
فاغد وودعها وسر سالمًا إن كنت أزمعت على البين[٧]

---

(١) اقرأ ما كتبه عنه ابن بسام فى الذخيرة ق ١ م ١ ص ٣٨٣ وما بعدها .

(٢) هو خيران العامرى الذى كان أميراً على إقليم المرية ، وكان قد انقلب على الحموديين وناصر أعداءهم ولكنه لم يصب نجاحاً .

(٣) وردت هذه الأبيات فى الذخيرة ق ١ م ١ ص ٣٩٦ .

(٤) وردت هذه الأبيات فى الذخيرة ق ١ م ١ ص ٣٩٣ .

(٥) الأسلاف : جمع سلف ، وهو القرض .

(٦) اللين بسكون الياء ، كاللين بكسرها مع التشديد : الناعم .

(٧) وردت هذه الأبيات فى : البيان المغرب لابن عذارى جـ ٣ ص ١١٠ .

وهو مرة أخرى وصف لأشياء تافهة ، يدفع إليه التلهى والتعابث ، كقول أبى عامر ابن شهيد فى برغوث :

ومنفسر للنسوم مسكنه إذا ... نام المملك بين أثنـاء الثيـابْ
يسرى إلى الأجساد يهتك عدوه ... عن كل جسم صيغ بالنعمى حجاب
ويعض أرداف الحسان ومـا له ... كف ولكن فوه من أعدى الحراب
متحكم فى كل جسم ناعم ... متدلل ما بين ألحاظ الكعـاب
فإذا هممت بزجسره ولى ولا ... يثنيه عما قد تعوده طـلاب
وترى مواضع عضة مخضوبة ... بدم القلوب وما تعاوره خضاب
قَرْم(١) من الليل البهيم مكور ... يمشى البراز وما تواريه ثيـاب
عظمت رزيتـه ولكن قدره ... أخزى وأهون من ذباب فى تراب(٢)

على أنه قد يكون غزلا شاذاً بدافع المجون ، أو عذرياً بعامل الانطواء ، أو فروسياً متهالكاً بسبب كثرة الفرسان والمحاربين فى تلك الأحايين . ومن هذا الأخير قول الخليفة الأموى سليمان المستعين :

عجباً يهاب الليثُ حد سنانى ... وأهاب لحظ فواتـر الأجفـان
فأقارع الأهـوال لا متهيبـا ... منها سوى الإعراض والهجران
وتملكتْ نفسى ثلاث كالدمى ... زُهـر الوجـوه نواعم الأبدان
ككواكب الظلماء لحن لناظرى ... من فوق أغصـان على كثبان
هذى الهلال . وتلك بنت المشترى ... حسناً وهذى أخت غصن البـان
حاكمتُ فيهن السلو إلى الصبـا ... فقضى بسلطان على سلطان

---

(١) القرم : البعير المكرم الذى لا يحمل عليه ولا يذلل .

(٢) وردت هذه الأبيات فى الذخيرة ق ١ م ١ ص ١٨٥ ، ١٨٦ .

فأبحن من قلبي الحمى وتركنني ... فى عــز ملكى كالأســير العانى
لا تعذلوا ملِكًا تذلل فى الهوى ... ذلُّ الهــوى عــز وملك ثان
ماضر أنى عبــدهن صــبابة ... وبنو الزمان وهن من عبــدانى
إن لم أطع فيهن سلطان الهوى ... كلفــا بهن فلست من مروان[١]

ومن أهم ما يلاحظ على الشعر فى تلك الفترة بالإضافة إلى ما تقدم ، كثرة مزجه بالنثر ؛ فكثير من شعر هذه الفترة لم يقل على شكل قصائد مستقلة ، وإنما قيل كأجزاء من رقاع أو رسائل أو فصول تحرر فى غرض ما ، ثم تشتمل على قطعة أو أكثر من الشعر ، تزين بها الرقعة ، وتجمل الرسالة ، وينوع الحديث فى الفصل . ومما ساعد على ذلك أن كثيراً من الأدباء كانوا يجمعون بين صفتى الناثر والشاعر ، فكانوا يجعلون كثيراً من نتاجهم جامعاً لصفتيهم ، ومشتملا على فنيهم[٢] .

الشعراء :

وقد كان شعراء تلك الفترة أقل بطبيعة الحال من شعراء الفترات السابقات ، كذلك كان بعضهم ممن سبق به العمر فى فترة الحجابة ، أو امتد به الأجل فأدرك عصر الطوائف . وألمع شعراء تلك الفتنة هم : أبو عامر بن شهيد ، وأبو محمد ابن حزم ، وأبو مروان الطبنى ، وأبو عبد الله بن الحناط . وسوف نكتفى بالحديث عن أشعر هؤلاء جميعاً وهو :

أبو عامر بن شُهَيْد :

اسمه أحمد ، وأبو عامر كنيته[٣] ، واسم أبيه عبد الملك بن شهيد ، وأبو مروان

---

(١) وردت هذه الأبيات فى الذخيرة ق ١ م ٤ ص ٣٣ ، ٣٤ .

(٢) انظر نماذج كثيرة فى هذا المصدر السابق .

(٣) انظر ترجمته وأخباره وأشعاره فى : جذوة المقتبس للحميدى ترجمة رقم ٢٣٢ ، وفى : =

كنيته ، وهذا الأب هو ثانى اثنين من هذه الأسرة سموا بـ « عبد الملك » ؛ والأول هو الجد الأعلى ، الذى كان وزيراً للأمير محمد بن عبد الرحمن الأوسط . وكذلك صاحبنا أبو عامر ، قد حمل نفس الاسم الذى حمله الجد الأدنى ، وهو أحمد بن عبد الملك ابن شهيد ، الذى كان وزيراً للخليفة الأموى عبد الرحمن الناصر . ومن هنا حصل لبس بين الصغير والكبير ، والحفيد والجد من بنى شهيد ، عند بعض الباحثين[1] .

وأبو عامر سليل أسرة عرفت بالوزارة والرياسة كما رأينا . وقد كان أبوه عاملا للمنصور ابن أبى عامر بشرق الأندلس فى إقليم بلنسية ، وكان ذا مكانة كبيرة عند الحاجب ، تدل عليها قصة عودته إلى قرطبة بثروة عظيمة ، وعرضه إياها على المنصور ، وإقرار المنصور له على ثروته مع منحه بعض المنح زيادة فى تكريمه[2] .

وقد ولد أحمد بن شهيد فى بيت أبيه بقرطبة سنة ٣٨٢ هـ أيام المنصور بن أبى عامر . ونشأ فى أحضان النعمة ، وتربى على مهاد الجاه ؛ فقد كان البيت الذى ينتمى إليه بيت سراء وثراء ونفوذ وسلطان . وكانت صلة هذا البيت ببيت الحاجب — ولى الأمر الفعلى — قوية الوشائج ، بحيث سمحت للصغير أحمد أن يلهو بين يدى المنصور ، وأن يُحمل على أكتاف ابنه عبد الرحمن ، وأن يجلس على سرير زوجة الحاجب ، وينال الكثير من التدليل والعطف والهدايا[3] . وهكذا لعب أبو عامر بالمال منذ صغره ، فنشأ وكفاه لا تقدران على القبض ، وإنما تألفان البسط والعطاء والتبديد .

= بغية الملتمس للضبى ترجمة رقم ٤٤٠ ، وفى : الذخيرة لابن بسام ق ١ م ١ ص ١٦١ وما بعدها ، وفى مطمح الأنفس للفتح بن خاقان ص ١٦ ، وفى : المطرب لابن دحية ص ١٥٨ وفى : المغرب لابن سعيد جـ ١ ص ٨٧ وما بعدها ، ونفح الطيب للمقرى جـ ١ ص ١٩١ — ١٩٢ ، وفى يتيمة الدهر للثعالبى جـ ٢ ص ٣٠ وما بعدها ، وفى : معجم الأدباء لياقوت جـ ٣ ص ٢٢٠ . وفى وفيات الأعيان لابن خلكان جـ ١ ص ٩٥ .

(١) نسبه كاملا هو : أبو عامر أحمد بن أبى مروان عبد الملك بن مروان بن أحمد بن عبد الملك ابن عمر بن محمد بن عيسى بن شهيد . أشجعى النسب من ولد الوضاح بن رزاح الذى كان مع الضحاك بن قيس الفهرى يوم مرج راهط (انظر المطرب ووفيات الأعيان) .

(٢) انظر هذه القصة فى الذخيرة ق ١ م ١ ص ١٦٦ ، ١٦٧ .

(٣) انظر أخبار ذلك فى : الذخيرة ق ١ م ١ ص ١٦٤ ، ١٦٥ .

وكان للتدليل الكثير والترف البالغ والنعمة الموفورة أثر كبير فى نشأة أبى عامر ، فهو لم يؤخذ بجد إلى التعليم ، ولم يحمل فى صرامة على الدرس ، ومن هنا لم يقبل كثيراً على ما كان يقبل عليه معاصروه من حديث وتفسير وفقه ونحو ، وغير ذلك من العلوم الدينية واللغوية ، وإنما أقبل على ما يلائم ترفه وانطلاقه ، ويناسب طبعه ومواهبه ؛ أقبل على الأدب ، يتزود من قديمه وحديثه ، ومن شعره ونثره ، ويطيل النظر فيما خلف الجاهليون والإسلاميون والمشارقة والمغاربة من شعر ونثر ، وحفظ من ذلك كله الكثير ، واختزن من المعانى والأفكار والصور والأساليب ما حرك ملكته ، وأنطق لسانه ، وأجرى قلمه منذ حداثته .

فبدأ يقول الشعر فى مرحلة باكرة ، ويراسل به المتقدمين عليه سناً وفناً[١] ، وذلك لمنزلة والده بمكانة أسرته . وسرعان ما اشتهر أمره كأديب ، لا يقتصر على قول الشعر وإنما يزاول كتابة النثر ويتعرض لبعض قضايا النقد أيضاً .

ولم تكن الحاجة تدفع ابن شهيد إلى عمل يكسب منه قوته ، فقل توليه للمناصب[٢] . وكثر تفرغه للهو والمجون، وقرض الشعر وتدبيج النثر . ولم تستطع الفتنة الضاربة على الأندلس وعلى قرطبة بوجه خاص ، أن تعقل لسانه أو تحطم قلمه ، وإن استطاعت أن توجهه وجهة تناسبها وتناسب استعداد ابن شهيد أيضاً ؛ فكان أدبه مقسما بين خمريات ولهو ومجون ، ومجاملة وترض للحاكمين ، وهجاء وتجريح للمعادين ، ثم بين مراجعة وتأمل ، وتخيل وقص ، وتحليل ونقد[٣] .

---

(١) انظر : مراسلته للجزيرى فى : الذخيرة ق ١ م ١ ص ١٨٤ .

(٢) ذكر فى بعض رسائله أنه عقد له على الشرطة وهو صغير فى أيام المظفر ، ولعلها كانت وظيفة شرفية ، لأنه كان ابن ... كما ذكر (انظر : الذخيرة ق ١ م ١ ص ١٦٤) .

(٣) تتمثل الأغراض الأولى فى شعره ، وتبدو الأغراض الأخرى فى نثره ، وخاصة « رسالة التوابع والزوابع » .

وكان ابن شهيد يخلص الإخلاص كله للعامريين ، وقد تمثل هذا الإخلاص فى مراسلاته الطويلة وأمداحه السخية للمؤتمن عبد العزيز بن عبد الرحمن بن المنصور ، الذى كان يقيم بشرق الأندلس[١] .

كما تمثل فى صحبته وصداقته لأبى عامر بن المظفر بن المنصور ، الذى كان يقيم بقرطبة ، حتى اضطر إلى الخروج منها أيام هشام المعتد[٢] .

كذلك كان ابن شهيد على ولاء للأمويين ، غير أنه لم يكن ذا حظ موفور مع من تولوا الأمر منهم فى فترة الفتنة . كذلك كان سيئ الحظ أيضاً مع الحموديين ، حتى لنراه يسجن مدة فى أيامهم ويعانى كثيراً من الضيق . ولم تقم صلة قوية بين ابن شهيد وحكام هذه الفترة برغم محاولاته ذلك فيما يبدو ؛ ولا يستثنى من هذا كله إلا إثنان من الحكام هما : عبد الرحمن الخامس الملقب بالمستظهر ، ويحيى بن حمود الملقب بالمعتلى[٣] . فقد استوزره الأول ضمن من استوزر من الأدباء والمفكرين ، غير أن خلافته لم تدم إلا أسابيع ثم قوضت ، وقوضت معها آمال ابن شهيد . أما يحيى بن حمود فقد قرب الشاعر وشجعه على الاطمئنان إليه ، بل جذبه إلى الهجرة من قرطبة إلى مالقة[٤] ، مقر هذا الحمودى بعد نفض يده من قرطبة ومتاعبها . ولكن إقامة ابن شهيد فى مالقة لم تطل ؛ لأن حبه لقرطبة كان فوق كل شىء ؛ فهى مكان لهوه ، ووكر ملذاته ، ومركز مساجلاته ومناظراته . وأوضح دليل على قصر إقامة ابن شهيد بعيداً عن قرطبة ، أن كل ما أثر عنه من أدب صادر عنها ومحرر فيها .

---

(١) اقرأ بعض تلك الرسائل فى : الذخيرة ق ١ م ١ ص ١٦٣ وما بعدها .

(٢) اقرأ بعض أخبار ابن شهيد معه فى : الذخيرة ق ١ م ١ ص ٢٥٧ ، ٢٥٩ ، ٢٦٠ .

(٣) ذكر ابن سعيد فى المغرب أن هشاما الملقب بالمعتد قد اصطفى ابن شهيد ، وأن ابن شهيد بكاه لما خلع ، وذكر بيتين لابن شهيد فى هشام (ص ٨٥ ج ١ مغرب) .

(٤) انظر : الذخيرة ق ١ ص ٢٧٥ .

ولم يكن ابن شهيد يعانى من كراهية أكثر الحكام فحسب ، وإنما كان يعانى من كراهية كثير من رجال العلم والأدب ، وخاصة من عرفوا منهم بالمحافظة . ولعل من أهم أسباب كراهية هؤلاء لابن شهيد ، تحرره البالغ ، وانطلاقه الزائد ، ومجونه المعربد ، ولسانه اللاذع ، وجرأته الجارحة .

على أن ابن شهيد إن فقد عطف طائفة فقد كسب حب أخرى ، فقد كان له نخبة من الخلصاء ربما يرجحون الأعداء علماً وأدباً ومنزلة » وفى مقدمة هؤلاء : أبو محمد ابن حزم وابن عمه أبو المغير بن حزم .

وقد ظل ابن شهيد فى قرطبة بعد رحلته القصيرة إلى مالقة ، متفرغاً للحياة الفنية الخالصة ، بما يخالطها من تحرر وانطلاق حتى مرض بالفالج ، وظل يعانى منه حيناً ، ثم ختمت حياته سنة ٤٢٦ هـ ففجع الناس بموته ، حتى قيل : « ولم يُشهد على قبر أحد ما شهد على قبره من البكاء والعويل . وأنشد على قبره من المراثى جملة موفورة لطوائف كثيرة[١] » .

شعره :

أما شعر ابن شهيد فلم يؤثر عنه مجموعاً فى ديوان يضم شتاته ، وإنما خلفه قصائد ومقطوعات وأبياتاً مفرقة ، فى رسالة « التوابع والزوابع » ، وفيما نقل أصحاب كتب الأدب والتراجم ممن تناولوه بالحديث ، كابن بسام وابن خاقان والثعالبى .

والذى يدل عليه ما أثر عن ابن شهيد من شعر ، أن الرجل كان أصيل الملكة غزير النتاج مرن الشاعرية ؛ فهو قد قال الشعر فى أكثر الأغراض وخاصة الطبيعة والخمر والغزل ، وهو لم يلزم اتجاهاً معيناً ، وإنما سار فى كل الاتجاهات حسب الأغراض

---

(١) انظر : الذخيرة ق ١ م ١ ص ٢٨٨ .

والملابسات والمواقف ، وإن كان أميل إلى الاتجاهين المحدث والمحافظ الجديد . وليس معنى ذلك أنه كان حائل اللون عديم السمات ؛ فقد كان شعر ابن شهيد ذا ملامح مميزة وقسمات دالة ، أهمها : القدرة الفائقة على التصوير وربط الطبيعة بالنفس الإنسانية ، وتناول القديم بطريقة جديدة ، تلاؤم العصر والبيئة ومظاهر الحضارة ؛ ثم الأخذ بأسلوب القص والحوار ، والإكثار من الدعابة والفكاهة ، وإجراء الشعر على ألسنة بعض الحيوانات . كل ذلك مع إيثار لسهولة اللفظ ووضوح المعنى وبساطة التركيب واتضاح الموسيقى .

فمن شواهد قدرته الفائقة على التصوير ، قوله فى سهولة لفظ وبساطة معنى وخفة روح :

سَهِر الحيا برياضها ... فأسالها والنَّور نائمْ
حتّى غدت زهراتها ... كالغيد باللجج العوائم
من ثيبات لم تُبتَل ... كشف الخدود ولا المعاصم
وصغار أبكار شكت ... خجلا فعاذت بالكمائم
وردٌ كما خجلت خدو ... د العين من لحظات هائم
وشقيق نعمان شكت ... صفحاته من لطم لاطم
وغصون أشجار حكت ... رقص المآتم للمآتم[1]
بكر الحسان يردنها ... من كل واضحة الملاغم[2]
وضحكن عجبًا فالتقت ... فيها المباسم بالمباسم
ضحكتْ وأومض بارق ... فظللت للبرقين شائم
وتشوفت فتطامنت ... أجياد أظبيها الحوائم

(١) المآتم : جمع مأتم ، وهو مجتمع النساء لفرح أو حزن .
(٢) الملاغم : ما حول الفم .

ورنتْ فبادر نرجس يشكو عماه إلى حمائم
طاردتهن بفتية حُرْد (١) على حرب المسالم
وكأنني فيهم لقيط قاد من أحياء دارم (٢)
وتكاوستْ (٣) فيها الأبا رق وهي فاهقة الحلاقم
وكأنها أظب رعفن فهن دامية الخياشم
وجرى بها فلك الصبا باللهو والقضب اللوائم
وكأننا فيها العفا رت ، والكؤوس من الرواجم
وعلا بنا سكر أبى إلا الإنابة للمحارم
نرمى قلانسنا له ونجر من عذب العمائم
وترنمت فيها القيا ن لنا ورجّعت البواغم
قمنا نصفق بالأكف لها ونرقص بالجماجم (٤)

ومن شواهد براعته الفنية فى الربط بين الطبيعة والنفس الإنسانية ، قوله من قطعة رائعة التصوير أيضاً ، حيث يبدأ بوصف الطبيعة فيقول :

تردد فيها البرق حتى حسبته يشير إلى نجم الربُا بالأنامل
ربمّا نسجت أيدى الغمام للبسها غلائل صفراً فوق بيض غلائل
سهرتُ بها أرعى النجوم وأنجماً طوالع للراعين غير أوافل
وقد فغرت فاها بها كل زهرة إلى كل ضرع للغمامة حافل

---

(١) حرد : سراع .
(٢) لقيط هو لقيط بن زرارة التميمى ، بطل يوم شعب جبلة . ودارم : أبو حى من تميم .
(٣) تكاوست : تكاثرت .
(٤) هذه الأبيات من قصيدة طويلة تضمنتها رسالة لابن شهيد بعث بها إلى المؤتمن العامرى وهى واردة فى : الذخيرة ق ١ ص ١٦٧ وما بعدها .

ومرت جيوش المزن رهواً كأنهــا … عساكر زنج مذهبات المناصــل
وحلقت الخضراء فى غر شهبها … كلجة بحر كللت باليعالل[1]
تخال بها زهر الكواكب نرجساً … على شــط واد للمجرة ســائل
وتلمح من جوزائها فى غروبها … تساقط عرش واهن الدعم مائل
وتحسب صقراً واقعاً دبرانهــا … بعش الثريا فوق حمر الحواصل
وبدرّ الدجى فيها غديراً وحوله … نجوم كطلعات الحمام النواهل

ثم ينتقل إلى الحديث عن نفسه وهمومها ، رابطاً بين ذلك وبين بعض مشاهد الطبيعة فيقول :

كأن الدجى همى ودمعى نجومه … تحدر إشفاقاً لدهر الأراذل
هوت أنجم العلياء إلا أقلهــا … وغبن بما يحظى به كل عاقل
وأصبحت فى خلق إذا ما محنتهم … تبينت أن الجهل إحدى الفضائل
وما طاب فى هذى البرية آخر … إذا هو لم ينجد بطيب الأوائل
أرى حُمُراً فوق الصواهل جمة … فأبكى بعينى ذل تلك الصواهل
وربّت كُتَّاب إذا قيل : زوّروا … بكت من تأنيهم صدور الرسائل
وحامل فقــه لم ير اللهَ قلبُه … يظن بأن الدين حفظ المســائل
وحامل رمح راح فوق مضائه … به كاعباً فى الحى ذات مغازل
حُبوا بالمنى دونى وغودرت دونهم … أرود الأمانى فى رياض الأباطل[2]

ومن أمثلة تناوله القديم بطريقة جديدة ، قوله من أبيات فيها قص وحوار ، وفيها صورة منتزعة من الطبيعة الأندلسية ذات الشتاء القارس البرد ، الذى يكسو الهضاب

---

(١) اليعالل : جمع يعلول بفتح الياء ، وهو الحباب ونفاخات الماء .

(٢) وردت هذه الأبيات ضمن رسالة التوابع والزوابع . وهى فى الذخيرة ق ١ م ١ ص ٢٢٦ ، ٢٢٧ .

بالثلوج ، وفيها بعد ذلك صور مؤلفة من البيئة الأندلسية المتحضرة المترفة :

ولما رأيت الليل عسكر قُـرُّهُ ... وهَبَّت له رِيحان تلتطمان
وعمم صُلْع الهضْب من قطر ثلجه ... يدان من الصِّنَّبر تبتدران
رفعت لسارى الليل نارين فارتأى ... شعاعين تحت النجم يلتقيان
فأقبل مقرور الحشا لم تكن له ... بدفع صروف النائبات يدان
فقلت : إلى ذات الدخان ؟ فقال لى : ... وهل عُرِفت نار بغير دخان ؟
فلت به أجتره نحو جمرة ... لها بارق للضيف غير يمان
إذا ما حسا ألقتْـه كل فلذة ... لفرخة طير أو لسخلة[1] ضان
فما زال فى أكل وشرب مدارك ... إلى أن تشهى الترك شهوة وان
فألحفته فامتد فوق مهاده ... وخداه بالصهباء تتقدان
وما انفك معشوق الشواء نمدة ... ببشر وترحيب وبسط لسان
تغنيه أطيار القيان إذا انتشى ... بصنج وكيثار وعود كِران[2]
ويسمو دخان المندل الرطب فوقه ... كما احتملت ريح متون عُثان[3]
إلى أن تشهى البين من ذات نفسه ... وحن إلى الأهلين حنة حان
فأتبعته ما سد خلة حاله ... وأتبعنى ذكراً بكل مكان[4]

فهذه الأبيات تحكى قصة طارق بالليل هدته نار القِرى ، وهو موضوع عرف منذ العصر الجاهلى ، لكن ابن شهيد يتناوله بطريقة جديدة ، تنقله من شبه جزيرة العرب إلى شبه جزيرة الأندلس ، ومن مسرح البادية إلى جو الحضارة .

---

(١) السخلة : ولد الشاة .

(٢) الكران : العود أو الصنج .

(٣) العثان : الدخان .

(٤) وردت هذه الأبيات فى : الذخيرة ق ١ م ١ ص ٢٦٦ — ٢٦٨ .

ومن أمثلة إجرائه الشعر على ألسنة بعض الحيوانات ، قوله من رسالة « التوابع والزوابع في شعر فكاهى على لسان بغل يتغزل :

على كل صب من هواه دليلُ سقام على حر الجوى ونحول
وما زال هذا الحب داء مبرحًا إذا ما اعترى بغلا فليس يزول
بنفسى التى أما ملاحظ طرفها فسحر وأما خدها فأسيل
تعبتُ بما حُملت من ثقل حبها وإنى لبغل للثقال حمول
وما نلت منها نائلا غير أننى إذا هى بالت بلت حيث تبول[1]

وقوله أيضاً على لسان حمار فى نفس الموضوع الذى طرقه البغل :

دُهيتُ بهذا الحب منذ هويتُ[2] وراثت إرادتى فلست أريث[3]
كلفت بإلفى منذ عشرين حجة يجول هواها فى الحشا ويعيث
ومالى من برح الصبابة مخلص ولا لى من فيض السقام مغيث
وغيّر منها قلبها لى نميمة نماها أحَمُّ الخصيتين خبيث
وما نلت منها نائلا غير أننى إذا هى راثت رثت حيث تروث[4]

هذا ولم يكن الشعر كل نشاط ابن شهيد الأدبى ، فقد كان كما ذكرنا ناثراً وناقداً أيضاً . وقد ذكر مترجموه أنه ألف كتباً منها «كشف الدرك وإيضاح الشك» و « حانوت عطار» و « التوابع والزوابع » ، وقد ضاع الأولان ، وبقيت فصول طيبة من « التوابع والزوابع » ، إلى فصول ورسائل عديدة حفظتها ذخيرة ابن بسام[5] .

وسوف نتحدث عن نثر ابن شهيد ونقده حين نتحدث عن نثر هذه الفترة .

---

(١) انظر هذه الأبيات فى الذخيرة ق ١ م ١ ص ٣٥٣ .
(٢) ذكر ابن شهيد أن هويت : هى هويت بلغة الحمير . وهذا من فكاهاته .
(٣) راثت : ابطأت . وأريث : مضارع راث بهذا المعنى . والفعل يأتى العين من باب باع .
(٤) راثت هنا : طرحت الروث . والفعل واوى و بابه قال .
(٥) القسم الأول المجلد الأول .

ثانياً — النثر :

كان حظ النثر فى تلك الفترة أعظم من حظ الشعر ؛ فقد أفاد مما فرضته ظروف الفتنة على بعض الأدباء من عزلة وانطواء ومرارة ، حملتهم على التخيل والتأمل والمراجعة ، فكان الابتكار والقص والنقد . ومن هنا حظى النثر فى تلك الفترة بنتاج جديد خصب . أغنى نوعيه الخالص والتأليفى . وتلك كلمة عن كل من النوعين :

(أ) النثر الخالص :

لم يعد هذا النوع مقصوراً على تلك الفروع البسيطة الساذجة التى تتمثل فى الرسالة والخطبة والوصية وما إلى ذلك ، وإنما اتسع فشمل القصة . وكان وصوله إلى هذا الفرع الأدبى أشبه بالطفرة ؛ فقد وثب إلى القصة الأخروية ، التى لا تتناول أحداثاً وأبطالا من عالمنا الذى نعيش فيه ، وإنما تتناول أحداثاً وأبطالا من عالم آخر غير عالمنا هذا . والعمل الأدبى الذى كان ولا يزال مفخرة الأدب الأندلسى فى هذا الفرع القصصى ، هو عمل أبى عامر ابن شهيد الذى سماه :

رسالة التوابع والزوابع [1] :

وهى قصة خيالية يحكى فيها ابن شهيد رحلة فى عالم الجن ، قد اتصل خلالها بشياطين الشعراء ، وناقشهم وأنشدهم وأنشدوه ، وعرض أثناء ذلك بعض آرائه فى الأدب واللغة ، وكثيراً من نماذج شعره ونثره ، كما نقد خصومه ، ودافع عن فنه ، وانتزع من ملهمى

(١) لم يعثر على هذه الرسالة كاملة فى كتاب ، وإنما حفظت ذخيرة ابن بسام أكثرها فى المجلد الأول من القسم الأول ، ص ٢١٠ وما بعدها . وقد نشر بطرس البستانى ما حفظته ذخيرة ابن بسام من « التوابع والزوابع » فى كتاب مستقل مع دراسة عنها وعن ابن شهيد .

الشعراء والكتاب الأقدمين ، شهادات بتفوقه وعلو كعبه فى الأدب . كل هذا مع كثير من بث الفكاهات ونثر الطرائف ، وإيراد الدعابات .

وقد اختار ابن شهيد لرسالته اسم « التوابع والزوابع » ؛ لأنه جعل مسرحها عالم الجن ، واتخذ كل أبطالها — فيما عداه — من الشياطين . فالتوابع : جمع تابع أو تابعة ، وهو الجن أو الجنية ، يكونان مع الإنسان يتبعانه حيث ذهب . والزوابع : جمع زوبعة ، وهو اسم شيطان أو رئيس للجن .

وقد وجه ابن شهيد رسالته إلى شخص كنّاه بأبى بكر ، وقدم فى أول رسالته بما يشبه المدخل إلى القصة . فذكر عن نفسه كيف تعلم ونبغ ، وكيف تعجب صاحبه أبو بكر من عبقريته ، وأقسم أن تابعة تنجده ، وزابعة تؤيده ، لأن ما يأتى به من أدب ليس فى قدرة الإنس . ثم أقر ابن شهيد أبا بكر على تفسيره ، فبين أنه كان يرثى حبيباً له قد مات ، فأرتج عليه أثناء النظم ، وعجز عن تكميل ما هو بسبيله من شعر ، وإذا بجنى اسمه زهير بن نمير يتصور له على هيئة فارس ، ويلقى إليه بتتمة الشعر ، حباً فى اصطفائه ورغبة فى مصاحبته كما صاحب التوابع الشعراء . ثم ذكر له هذا الجنى أبياتاً يستحضره بإنشادها متى أراد ، وأوثب بعد ذلك فرسه جدار الحائط وغاب . ويذكر ابن شهيد لأبى بكر أنه كان كلما أرتج عليه ، أنشد الأبيات ، فيتمثل له صاحبه الجنى زهير بن نمير ، فيعين قريحته ، وينطق لسانه ، حتى تأكدت الصحبة بينهما .

بعد ذلك التمهيد ينتقل ابن شهيد إلى صلب القصة ، فيذكر أنه تذاكر يوماً مع تابعه هذا ، فتناولا أخبار الشعراء والخطباء وأصحابهم من التوابع والزوابع ، وسأل ابن شهيد صاحبه قائلا : هل من حيلة إلى لقاء من اتفق منهم ؟ فقال له زهير : حتى أستأذن شيخنا ، فطار ثم عاد وقد أذن له . فقال لابن شهيد حُلَّ على متن الجواد ، فصار

ابن شهيد مع تابعه عليه . ثم سار بهما كالطائر ، يجتاب الجو فالجو ، ويقطع الدوّ فالدو ؛ حتى أتى أرض الجن . وهناك طاف به تابعه على صاحب امرئ القيس ، وصاحب طرفة ، وصاحب قيس بن الخطيم من الجاهليين ، ثم على صاحب أبي تمام ، وصاحب البحترى ، وصاحب أبي نواس ، وصاحب أبي الطيب من الإسلاميين . وابن شهيد فى كل لقاء يصور الجو الذى لقى فيه تابعة الشاعر ، ويرسم التابعة نفسه بكثير من الملامح التى عرف بها الشاعر فى الحياة . ثم يسمع من هذا التابعة وينشده ، وينال آخر الأمر إعجابه .

ثم يذكر ابن شهيد أنه طلب من تابعه زهير بن نمير أن يلقى به توابع الكتاب — وهو يسميهم الخطباء — ويحكى أن زهيراً سار به إلى هؤلاء التوابع ، وقد اجتمعوا للمذاكرة ببعض المروج ، وفيهم تابعة الجاحظ وتابعة عبد الحميد . وقدم زهير ابن شهيد إلى صاحب الجاحظ ، الذى شهد له ، ولكنه أخذ عليه كلفه بالسجع . وقد دافع ابن شهيد عن نفسه ، بما حمل صاحب عبد الحميد على التدخل فى النقاش ، وكان يتهم ابن شهيد أيضاً ، ولكن ابن شهيد ناظره وصمد له ، حتى رضى عنه الصاحبان ، وسألاه أن يقرأ لهما بعض رسائله ؛ فلما قرأ استحسنا كتابته وتبسطا معه . وهنا شكا لهما حساده من الأندلسيين ؛ حتى وصل إلى أبى القاسم الإفليلى[1] — وكان لغوياً يكثر من نقد ابن شهيد — فناديا تابعته ، فتصدى لابن شهيد بالنقد والتجريح ، ولكن ابن شهيد أخرسه وأبطل كل أقواله . ثم تدخل صاحب بديع الزمان ، فعارضه ابن شهيد بقطعة له فى وصف الماء ، فأفحمه وأخجله . وحينئذ أجازه صاحبا الجاحظ وعبد الحميد وأقرا بتفوقه .

(١) اقرأ ترجمته فى : الذخيرة م ١ ق ١ ص ٢٤٠ وفى : جذوة المقتبس ترجمة رقم ١٦٢ ، وفى : الصلة لابن بشكوال ترجمة رقم ٢٦٠ وفى وفيات الإعيان جـ ١ ص ١٢ . وفى المغرب لابن سعيد جـ ١ ص ٧٢ — ٧٤ .

وبعد ذلك يحكى أبو عامر حضوره مجلس أدب من مجالس الجن يدور الحديث فيه حول الموازنة ، وتعبير شعراء مختلفين عن معنى واحد كل بطريقته ، ثم ينتقل الحديث فى المجلس إلى السرقات الأدبية ، وكيف يمكن أن تحدث السرقة دون أن يفتضح صاحبها . وابن شهيد يقدم فى كل موقف رأياً معجباً وشعراً مطرباً .

وأخيراً ينتقل ابن شهيد وتابعته إلى أرض بها حيوان الجن من بغال وحمير ؛ فيذكر أنه شاهدهم وقد اختلفوا فى قطعتين شعريتين غزليتين ، إحداهما لبغل محب ، والأخرى لحمار عاشق ، وأنهم دعوا ابن شهيد لتقويم النصين والحكم بين الشاعرين الغزلين . فسمع ابن شهيد القطعتين ، ثم سأل بعض الأسئلة وقضى بما رأى من حكم .

ثم ينتقل إلى أوزة كانت فى بركة ماء ، وهى تابعة لبعض شيوخ اللغة ، وقد تعرضت له الأوزة ، وأرادت مناظرته فى النحو والغريب ؛ ولكن ابن شهيد زجرها وذكرها بسخفها وحماقتها . . وهنا انتهى ما بقى لنا من رسالة التوابع والزوابع .

وقد ذكرنا أن ابن شهيد وجه رسالته تلك إلى من كناه بأبى بكر . وقد فسر ابن بسام أبا بكر هذا بأنه أبو بكر بن حزم[1] وتبعه فى ذلك ابن سعيد[2] وكثير ممن كتبوا عن ابن شهيد[3] . والمعروف أن أبا بكر بن حزم قد مات صغيراً ، وقبل أن يؤلف ابن شهيد رسالته بزمن طويل ؛ فقد مات فى الطاعون الذى اجتاح قرطبة سنة ٤٠١ هجرية ، كما ذكر أخوه أبو محمد بن حزم فى كتابه « طوق الحمامة»[4] . على أن صلة ابن شهيد ببنى حزم ، كانت بينه وبين أبى محمد وأبى المغيرة ، ولم تعرف له صلة بأبى

---

(١) انظر : الذخيرة ق ١ م ١ ص ٢١٠ .

(٢) انظر : المغرب جـ ١ ص ٧٩ .

(٣) مثل الدكتور أحمد ضيف فى كتاب بلاغة العرب فى الأندلس (ص ٤٨) ومثل الدكتور زكى مبارك فى النثر الفنى (جـ ١ ص ٢٦١) .

(٤) طوق الحمامة ص ١١٦ .

بكر هذا . فأغلب الظن أن الأمر التبس على ابن بسام حين رأى الرسالة موجهة لأبى بكر ، وحين علم أن ابن شهيد كانت له صلة ببنى حزم ، وحين علم أيضاً أن من بنى حزم من كان اسمه أبا بكر . وغاب عن صاحب الذخيرة أن أبا بكر هذا قد مات قبل تأليف الرسالة بزمن طويل .

والذى يمكن ترجيحه أن أبا بكر الذى وجه إليه ابن شهيد رسالته ، هو أبو بكر الكاتب المعروف بأشكمياط . وذلك لأن هذا الكاتب بعينه قد نقد أبا عامر وعابه بأنه يستبيح كنوز غيره . وقد ذكره ابن شهيد فى رسالة ورد عليه[1]

بين التوابع والزوابع ورسالة الغفران :

وواضح أن رسالة « التوابع والزوابع » تشبه إلى حد كبير « رسالة الغفران» لأبى العلاء المعرى ، فكل من الرسالتين عرض لمشكلات أدبية بطريقة قصصية ، وكل من القصتين اتخذ عالماً آخر غير دنيانا ليكون مسرحاً لأحداثه ، وكل من المؤلفين عرّض بمعاصريه ونقد سابقيه . وأوضح ما بين الرسالتين من خلاف فى الخطوط العامة أمران : الأول أن أبا العلاء جعل مسرح قصته الدار الآخرة بفردوسها وجحيمها ، وأن ابن شهيد جعل مسرح قصته دار الجن بأرضها الغريبة وأجوائها العجيبة . والأمر الثانى هو أن أبا العلاء جعل اهتمامه الأكبر بالمشكلات الفلسفية والمعضلات الدينية ، على حين وجه ابن شهيد جل اهتمامه للقضايا الأدبية والبيانية . وهذا الخلاف راجع إلى طبيعة كل من الكتابين واتجاهه .

وهذا التشابه بين الرسالتين قد دعا الباحثين إلى التفكير فى مشكلة : من المؤثر ومن المتأثر فى هذين العملين الرائعين ؟

---

(١) انظر : الذخيرة لابن بسام ق ١ م ١ ص ١٩٥ – ١٩٦ .

وقد مال المرحوم الدكتور أحمد ضيف إلى القول بأن ابن شهيد هو المتأثر فقال : « ولعل ابن شهيد كان يقلد أبا العلاء فى ذلك لأنه أدرك عصره ، ولأن شهرة أبى العلاء كانت ذائعة فى المشرق والمغرب ، وكان أهل الأندلس يقلدون أهل المشرق فى كل شيء[1] » .

والحق أن المسألة عكس ما رجح المرحوم الدكتور ضيف ؛ فقد ألف ابن شهيد رسالته قبل أن يؤلف أبو العلاء رسالته ، والراجح أن أبا العلاء قد تأثر بابن شهيد ، وإن أدرك ابن شهيد عصر أبى العلاء . أما شهرة أبى العلاء فى المشرق والمغرب ، فتقابلها شهرة ابن شهيد فى المغرب والمشرق أيضاً . وأما قضية تقليد أهل الأندلس لأهل المشرق فى كل شيء ، فهى قضية لا تثبت للتحقيق العلمى الدقيق . وفى بيان المبتكر والمقلد فى مسألة الأدب الأخروى هذه ، دليل من أدلة كثيرة على فساد هذا الحكم الجائر المجانب للحق .

وتحقيق الأمر أن ابن شهيد قد ألف رسالته قبل تأليف أبى العلاء رسالته بما لا يقل عن تسع سنوات ، وأن رسالة ابن شهيد قد وصلت إلى المشرق فى حياة ابن شهيد وفى حياة أبى العلاء . وبيان ذلك هو : أنه بالبحث فى نص رسالته « التوابع والزوابع » وجدت نصوص مرتبطة بتواريخ بعينها ، وهذه التواريخ يمكن أن تشير إلى الزمن الذى كتبت فيه الرسالة . فمثلا جاء فى الرسالة ما يدل على أن بعض حساد ابن شهيد وشوا به عند سليمان المستعين[2] ، ومعروف أن هذا الخليفة قد حكم ما بين سنة ٤٠٣ ، ٤٠٧ هـ. وقد دعا ذلك بعض الباحثين كالدكتور زكى مبارك إلى القول بأن تلك الرسالة ألفت فى تلك الفترة[3] . وعلى هذا تكون قد ظهرت قبل رسالة الغفران بنحو عشرين عاماً ؛

---

(١) انظر : بلاغة العرب فى الأندلس ص ٤٨ .

(٢) انظر الذخيرة ق ١ م ١ ص ٢٣٣ .

(٣) انظر : النثر الفنى جـ ١ ص ٢٥٩ .

لأن الأخيرة قد ألفت حوالى ٤٢٤ كما سنبين .

على أن ذلك الرأى ليس دقيقاً أيضاً ؛ فقد اشتملت « التوابع والزوابع » على نصوص أخرى يرجع تاريخها إلى ما بعد هذا التاريخ . من ذلك قصيدة ابن شهيد التى قالها وهو فى سجن الحموديين ، فالمرجح أن يكون قد قال هذه القصيدة أيام القاسم بن حمود الذى يغلب أن يكون قد سجن ابن شهيد لصلته بمنافس القاسم والثائر عليه ، وهو يحيى بن حمود . وقد كانت خلافة القاسم سنة ٤١٣ هـ

وفى الرسالة كذلك ما يؤخر زمن تأليفها عن هذا التاريخ ، فقد اشتملت على بعض رثاء ابن شهيد لأبى عبيدة حسان بن مالك[١] . وكان هذا المرثى ضمن وزراء المستظهر سنة ٤١٤[٢] .

وهكذا نرى أن تاريخ الانتهاء من رسالة التوابع والزوابع يجب أن يكون بعد هذا التاريخ ، على أننا لا نستطيع أن نجعله بعد ذلك إلا بزمن يسير لأننا لا نجد فى الرسالة نصوصاً ترجع إلى تاريخ متأخر عن هذا التاريخ ؛ ولأن فى « التوابع والزوابع » أبياتاً يمدح بها ابن شهيد صديقه أبا محمد بن حزم ويذكر شافعيته[٣] ، ومعروف أن ابن حزم إنما كان شافعياً فى تلك الفترة أو بعدها بقليل ، وأنه تحول بعد ذلك إلى الظاهرية ، وعلى هذا يمكن القول بأن ابن شهيد قد أتم رسالته سنة ٤١٥ هـ .

أما رسالة الغفران ، فمعروف أنها كتبت رداً على رسالة ابن القارح ، وقد ذكر ابن القارح فى رسالته ما يفيد أنه كتبها حين كان عمره نيفاً وسبعين[٤] ، فإذا عرفنا أن مولد

---

(١) انظر : الذخيرة ق ١ ص ٢١٨ ، ٢١٩ ، ومطمح الأنفس للفتح بن خاقان ص ٣١ .

(٢) انظر : مطمح الأنفس ص ٢٩ — ٣٠ .

(٣) انظر : ق ١ م ١ ص ٢٥٠ .

(٤) انظر : انظر رسائل البلغاء لمحمد كرد على ص ٢٢ .

ابن القارح كان سنة ٣٥١ هـ[١] ، وإذا أضفنا إلى ذلك سبعين فقط ؛ كانت النتيجة أن رسالة ابن القارح قد كتبت حوالى سنة ٤٢١هـ ثم كانت نتيجة النتيجة أن رسالة الغفران التى هى رد على الرسالة السابقة قد كتبت بعد ذلك . فإذا وضعنا فى حسابنا ما يستفادمن كلام ابن القارح من أنه كان فوق السبعين ، وما اعتذر به أبو العلاء من أنه أخر الرد لأنه مستطيع بغيره[٢] ، كان من المعقول أن تكون رسالة الغفران قد كتبت حوالى سنة ٤٢٤ هـ[٣] وهذا ما يرجحه نص فى رسالة الغفران ؛ إذ يقول أبو العلاء فيمن يتحدثون عن الغيب : « ولا يجوز أن يخبر مخبر منذ مائة سنة أن أمير حلب حرسها الله فى سنة أربع وعشرين وأربعمائة ، اسمه فلان بن فلان»[٤] .

وعلى هذا يتحقق أن رسالة ابن شهيد سبقت رسالة أبى العلاء بنحو تسعة أعوام ، برغم أن ابن شهيد أدرك عصر أبى العلاء .

أما تأثر أبى العلاء فراجح من التشابه الشديد بين الرسالتين ؛ وأغلب الظن أن رسالة « التوابع والزوابع » قد نقلت إلى المشرق فى حياة ابن شهيد وأبى العلاء ؛ فقد أشاد ببعض نصوصها [illegible] مؤلفون مشارقة عاشوا فى زمن الأديبين الكبيرين ؛ فالثعالبى[٥] وهو معاصر لابن شهيد وأبى العلاء — قد نقل فى كتابه يتيمة الدهر ، بعض نصوص تلك الرسالة ، كوصف ابن شهيد للماء والحلو ، وغير ذلك[٦] .

وعلى هذا يترجح تأثر أبى العلاء بابن شهيد ، برغم شهرة أبى العلاء فى المشرق والمغرب .

---

(١) انظر : معجم الأدباء جـ ١٥ ص ٨٤

(٢) انظر : رسالة الغفران تحقيق الدكتورة بنت الشاطىء ص ٥٥١ .

(٣) انظر : النثر الفنى للدكتور زكى مبارك جـ ١ ص ٢٦ ، والغفران الدكتورة بنت الشاطىء ص ١٠ .

(٤) انظر : رسالة الغفران تحقيق الدكتورة بنت الشاطىء ص ٣٨٧ .

(٥) انظر ترجمته فى وفيات الأعيان جـ ١ ص ٢٩١ .

(٦) انظر يتيمة الدهر جـ ٢ ص ٣٨ — ٤١ .

ومهما يكن من أمر ، فقد كان التفات ابن شهيد إلى هذا اللون القصصي الأخروي ، مفخرة للأديب الأندلسي ، جعلته سابقاً لمن ولجوا هذا الباب بعد ذلك من أدباء المشرق والمغرب ، كأبي العلاء في « رسالة الغفران » و « دانتي » في « الكوميديا الإلهية » La Divina Comedia.

أصل هذا النوع من القصص هو قصة المعراج :

على أنه لا يمكن أن يغفل النبع الحقيقي لهذا النوع من القصص ، فهو مصدرها الأصلي وجذرها الخفي ؛ ذلك المصدر هو قصة المعراج الإسلامية ، التي تحكي صعود محمد عليه الصلاة والسلام ليلة الإسراء ، إلى السموات على ظهر براق ، وفي صحبته جبريل عليه السلام ، حيث رأى عالماً آخر غير عالمنا الذي نعيش فيه. فالمعقول أن تكون قصة المعراج هي أول قصة في التراث العربي ، ينتقل فيها البطل إلى عالم آخر ، على ظهر فرس يسابق الريح وفي صحبة رائد يرود الطريق ، وينتقل بالبطل من جو إلى جو ومن مشهد إلى مشهد ، من أجواء ومشاهد لا تعرف في دنيانا نحن .

والمعقول أيضاً أن تكون قصة المعراج وما اشتملت عليه من أوصاف للجنة والنار ، وطوائف المنعمين والمعذبين ، قد أمدت أبا العلاء بكثير من المشاهد التي ضمنها « رسالة الغفران » . وعلى هذا يرجح أن يكون أبو العلاء قد أفاد من « التوابع والزوابع » ، وخاصة من ناحية مناقشة الأدباء ، وعرض بعض مسائل الأدب ، وأفاد كذلك من « المعراج » خاصة من ناحية وصف الفردوس والجحيم ، وعرض بعض مشاهد الآخرة .

أثر قصة المعراج في الكوميديا الإلهية :

وقد ذهب بعض الدارسين[1] إلى تأثر « دانتي » في ملحمته الكوميديا الإلهية

(١) من أول من تنبهوا للعلاقة بين الغفران والكوميديا الإلهية : البستاني مترجم الإلياذة ، فقد ذكر في مقدمة الترجمة التي ظهرت سنة ١٩٠٤ : أن أبا العلاء سبق بملحمته النثرية دانتي الإيطالي وملتن الإنجليزي ، ثم جاء الأستاذ جورجي زيدان فذكر في كتابه تاريخ الآداب العربية أنه يمكن القول باقتباس الأديبين الغربيين من أبي العلاء (جـ ٢ ص ٢٦٢) .

La Divina Comedia برسالة الغفران لأبى العلاء ، حتى ظهرت نظرية المستشرق الإسبانى الأستاذ « ميجل أسين بلاثيوس » Miguel Asin Palacios. [1] ، فحاول إثبات أن « دانتى » قد بنى كوميدياه على أصول إسلامية ، من بينها رسالة الغفران وقصة المعراج وما كتبه المفسرون عن الدار الآخرة والجنة والنار ، وما قاله بعض الفلاسفة والمتصوفة المسلمين حول الكون ومركزه ودوائره وأفلاكه ، وفى مقدمة هؤلاء ، المتصوف الأندلسى محيى الدين بن عربى[2] . وقد قامت نظرية الأستاذ « ميجل أسين » على دراسة مقارنة لكل من ملحمة « دانتى » وتلك الأصول الإسلامية وما اشتملت عليه هذه وتلك من مشاهد وتفاصيل . ولم يكن ينقص تلك النظرية لكى تصبح حقيقة مؤكدة إلا اكتشاف نصوص مترجمة للكتابات الإسلامية التى يمكن أن تكون قد وصلت إلى إيطاليا قبل أن يؤلف « دانتى » كوميدياه ، حتى يستطاع التأكد من أن الأديب الإيطالى قد استوحى الأدب العربى . وأخيراً اكتُشف نص يؤكد نظرية المستشرق الإسبانى من جانب ، ويحدد المؤثر الإسلامى فى كوميديا « دانتى » من جانب آخر ؛ فقد عثر على مخطوطتين مترجمتين لقصة المعراج ، إحداهما ترجمة لاتينية وقد عثر عليها فى باريس ، والأخرى ترجمة فرنسية وقد عثر عليها فى أكسفورد . وقد نشر الترجمتين سنة ١٩٤٦ الباحث الإسبانى « خُوسى مُونْيُثْ سنديتو » Jose Monoz Sendino ، كما قدم لهما بدراسة أثبت فيها أن الترجمتين عملتا فى القرن الثالث عشر[3] ، بأمر الملك الإسبانى العالم الفونسو العاشر ، وأن ترجمة قصة المعراج كانت بثلاث لغات : الإسبانية والفرنسية واللاتينية . كذلك أثبت أن تلك الترجمة قد عرفت فى أوربا فى فترة ميلاد « دانتى »[4] ،

---

(١) نشر الأستاذ أسين هذه النظرية سنة ١٩١٩ م فى كتابه :
La Escatalogia Musulmana en La Divina Comedia.

(٢) كتاب ابن عربى الذى وجد فيه الأستاذ أسين مواد يمكن أن يكون قد أفاد منها دانتى هو كتاب : الفتوحات المكية .

(٣) كانت الترجمة فى إشبيلية سنة ١٢٦٤ م .

(٤) ولد سنة ١٢٦٥ م .

ثم انتشرت فى عدد من العواصم العربية قبل أن يكتب الأديب الإيطالى كوميدياه بسنين[١] وأكد الأستاذ « خوسى » بأدلة كثيرة أن ترجمة المعراج قد وصلت إلى يد « دانتى » ، وأنه بنى عليها عمله الأدبى الرائع[٢].

وهكذا صدق هذا الاكتشاف الفكرة الأساسية التى كان قد قال بها الأستاذ « ميجل أسين » كنظرية تحتاج إلى اكتشاف نص ، كما حدد هذا الاكتشاف أيضاً المؤثر الإسلامى فى كوميديا « دانتى » حيث ثبت ذلك المؤثر وهو قصة المعراج بالذات .

أسلوب الرسالة :

وبعد هذا الاستطراد الذى دفعنا إليه الحديث عن القصص الأخرى وسبق ابن شهيد به ؛ نعود إلى « التوابع والزوابع » فنقول : إن أسلوبها يمثل أسلوب النثر الخالص فى فترة الفتنة بالأندلس أصدق تمثيل ؛ فهو أسلوب فيه تأثيرات لطريقة الجاحظ ، ثم تأثيرات لطريقة ابن العميد ، وأخيراً تأثيرات لطريقة بديع الزمان ، التى تميل إلى توشية الأسلوب بالمحسنات المجتلبة وخاصة السجع ، والتى تهتم كثيراً بالوصف . وقد كانت آثار بديع الزمان وطريقته معروفة لدى الأدباء الأندلسيين فى تلك الفترة[٣] ، بل إن بعض كبار الكتاب الأندلسيين كابن شهيد كان مولعاً بمعارضة بديع الزمان فى فى بعض رسائله المشهورة ، كرسالته فى وصف البرد والنار والحطب ، ورسالته فى الحلواء . فمثل هذه الرسائل جاءت معارضة لمقامات البديع[٤].

---

(١) ظهرت أول صورة للملحمة دانتى سنة ١٣٠٧ .

(٢) انظر الدراسة التى كتبها الأستاذ « خوسى » والنصين اللذين نشرهما فى كتابه :

La Escala de Mahoma.

(٣) وقد ورد ذكر بديع الزمان ومقابلة ابن شهيد له فى رسالة التوابع والزوابع . كما ذكر ابن بسام أن أبا المغير بن حزم قد عارض بديع الزمان فى بعض رسائله (الذخيرة ق ١ م ١ ص ١١٧) .

(٤) وردت هذه الرسائل فى « التوابع والزوابع » .

وبعد ، فتلك فقرة من « التوابع والزوابع » فى وصف لقاء ابن شهيد لتابعة أبى نواس فى دنيا الجن . والفقرة تبين اتجاه ابن شهيد فى رسالته ، وتوضح أسلوبه فى كتابته ؛ كما تمثل أسلوب النثر الخالص فى عصره إلى حد كبير .

يقول ابن شهيد : « فضرب زهير الأدهم بالسوط ، فسار بنا فى قننه[١]، وسرنا حتى انتهينا إلى أصل جبل دير حنة[٢] ، فشق سمعى قرع النواقيس ، فصحت : من من منازل أبى نواس ورب الكعبة العليا ! ! . وسرنا نجتاب أدياراً وكنائس وحانات ، حتى انتهينا إلى دير عظيم تعبق روائحه ، وتصوك[٣] فوائحه ، فوقف زهير ببابه وصاح : سلام على أهل دير حنة . فقلت لزهير : أو قد صرنا بذات الأكيراح[٤]؟ فقال : نعم . وأقبلت نحونا الرهابين ، مشددة بالزنانير ، قد قبضت على العكاكيز ، بيض الحواجب واللحى ، إذا نظروا إلى المرء استحى ، مكثرين للتسبيح ، عليهم هدى المسيح . فقالوا : أهلا بك يا زهير من زائر ، وبصاحبك أبى عامر ، ما بغيتك ؟ قال : حسين بن الدنان ، قالوا : إنه لنى شرب الخمرة ، منذ أيام عشرة ، وما نراكما منتفعين به . فقال : وعلى ذلك . ونزلنا ، وجاءوا بنا إلى بيت قد اصطفت دنانه ، وعكف غزلانه ، وفى فرجته شيخ طويل الوجه والسبلة[٥] ، وقد افترش أضغاث زهر ، واتكأ على زق خمر ، وبيده طرجهارة[٦] وحواليه صبية كأظب تعطو إلى عرارة[٧] . فصاح زهير : حياك الله أبا الإحسان. فجاوب

---

(١) قنن الطريق : سننه ونهجه .

(٢) دير حنه : مكان ورد ذكره فى شعر أبى نواس .

(٣) تصوك : تعبق .

(٤) الأكيراح : تصغير أكراح . وأكراح : جمع كرح بالكسر ، وهى لفظة سريانية الأصل معناها ، الكوخ الصغير يكون قرب الدير . واللفظة وردت فى شعر أبى نواس .

(٥) السبلة : ما على الشارب من شعر .

(٦) الطرجهارة : إناء للشرب .

(٧) تعطو : ترفع رأسها . والعرار : نبات ناعم أصفر طيب الريح .

بجواب لا يعقل لغلبة الخمر عليه . فقال لى زهير : اقرع أذن نشوته بإحدى خمرياتك ، فإنه ربما تنبه لبعض ذلك ، فصحت أنشد من كلمة طويلة :

ولرب حان قد أدرت بديره ... خمر الصبا مزجت بصفو خموره
فى فتية جعلوا الزقاق تكاءهم ... متصاغرين تخشعاً لكبيره
والى علىّ بطرفه وبكفه ... فأمال من رأسى لعبّ كبيره
وترنم الناقوس عند صلاتهم ... ففتحت من عينى لرجع هديره
يهدى إلينا الراح كل معصفر ... كالخشف خفّره التماح خفيره[1]

فصاح من حبائل نشوته : أ أشجعى ؟ قلت : أنا ذاك . فاستدعى ماء قراحا ، فشرب منه وغسل وجهه ، فأفاق واعتذر إلى من حاله . فأدركتنى مهابته ،وأخذت فى إجلاله من العلم والشعر . فقال لى : أنشد ، أو حتى أنشدك ؟ فقلت : إن ذلك لأشد لتأنيسى ، على أنه ما بعدك لمحسن إحسان . فأنشد :

يا دير حنّة من ذات الأُكَيْرَاحِ ... من يصح عنك فإنى لست بالصاحى
يعتاده كل محفوف مفارقه ... من الدهان عليه سحق أمساح[2]
لا يدلفون إلى ماء بآنية ... إلا اغترافا من الغدران بالراح

فكدت والله أخرج من جلدى طرباً . ثم أنشد :

طرحتم من الترحال أمراً فغمّنا

وأنشد أيضاً :

لمن دِمَنٌ تزداد طيب نسيمِ ... على طول ما أقوت[3] وحسن رسوم

(١) معصفر : مصبوغ الثوب بالعصفر . والخشف : ولد الظبى . وخفره : جعله خفراً خجولا . والخفير : الحارس .

(٢) السحق : الثوب البالى . والأمساح : جمع مسح بالكسر ، وهو : ثوب من شعر يلبسه الرهبان .

(٣) أقوت : أقفرت .

تجافى البلى عنهن حتى كأنمـــا لبسن من الإقواء ثوب نعيم

واستمر فيه حتى أكلها . ثم قال لى : أنشد ، فقلت : وهل أبقيت للإنشاد موضعاً ؟ قال : لا بد لك ، وأوْعث بى ولا تنجد . فأنشدته :

أصباح شيمَ أم برق بدا أم سنا المحبوب أورى أزنُدا

هبَّ مـــن مرقده منكسراً مســبلا للكم مــرخ للــردا

يمسح النعســة من عينىْ رشا صائداً فى كل يوم أســدا

قلت : هب لى يا حبيبى قبلة تشفِ من عمك تبريح الصــدا

فانثنى يهتــز مــن منكبــه قائلا : لا ، ثم أعطانى اليــدا

كلمـــا كلمنى قبلته فهـــو إمـــا قال قولا رددا

فلما انتهيت قال : لله أنت ، وإن كان طبعك مخترعاً منك ![1] .

(ب) النثر التأليفى :

ظهرت فى تلك الفترة كتابات نثرية تأليفية ذات قيمة كبيرة من حيث ما عالجت من موضوعات . وأهم تلك كتابات ابن شهيد المتصلة بالنقد الأدبى ، وكتابات ابن حزم فى فلسفة الحب .

آراء نقدية لابن شهيد :

أما كتابات ابن شهيد ، فقد جاءت كفقرات من رسائل ، ولم تأت على شكل كتاب مستقل مبوب ؛ وهى مع ذلك لمحات نقدية ذكية عظيمة الشأن . فقد تكلم مثلا عن الملكة الأدبية ، التى سماها الطبع ، وبين أنها الأساس الذى يصدر عنه الأديب ،

---

(١) ورد هذا النص فى الذخيرة ق ١ م ١ ص ١٢٢ — ٢٢٤ . وقد وردت القطعة الأخيرة كذلك فى مطمح الأنفس للفتح بن خاقان ص ٢٠ ، ٢١ وبين المصدرين خلاف فى بعض الكلمات ، وقد اخترنا الأنسب والأوفق للسياق .

وأنه بدونها لا يمكن أن يقدم أدباً ذا قيمة ، مهما استوفى مسائل النحو وحفظ الغريب.. وبين كذلك أن الملكة يجب أن تقوى بالثقافة اللغوية والأدبية . . . كذلك تحدث ابن شهيد عن طبيعة هذه الملكة وحظ الناس منها ، فبين أن الإنسان مركب من جسم ونفس ، وأن قدر الملكة الفنية يكون على قدر علاقة النفس بالجسم ، فمن غلبت نفسه على جسمه كان مطبوعاً ذا ملكة فنية ، ومن غلب جسمه على نفسه كان مصنوعاً فقيراً من الملكة . . ووضح ابن شهيد كذلك أثر الملكة فى العمل الأدبى ، فبين أنها تهبه قوة التأثير والإيحاء ، وتمنحه روحاً لا يدرى سرها ولا يعرف مصدرها ، ولكنه معها يتعلق بالنفس ، بما له من قوة تأثير لا بما له من ديباجة ، ويستولى على القلب بما فيه من إيحاء لا بما فيه من غريب .

وفى ذلك كله يقول ابن شهيد: « وإصابة البيان لا يقوم بها حفظ كثير الغريب واستيفاء مسائل النحو ، بل بالطبع ، مع وزنه من هذين . ومقدار طبع الإنسان إنما يكون على مقدار تركيب نفسه مع جسمه ، فمن كانت نفسه فى أصل تركيبه مستولية على جسمه كان مطبوعاً روحانياً ، يطلع صور الكلام والمعانى فى أجل هيئاتها وأرق لبساتها ؛ ومن كان جسمه مستولياً على نفسه — من أصل تركيبه — والغالب على حسه ، كان ما يطلع من تلك الصور ناقصاً عن الدرجة الأولى فى الكمال والتمام ، وحسن الرونق والنظام . فمن كانت نفسه مستولية على جسمه ، فقد تأتى منه فى حسن النظام صور رائعة من الكلام ، تملأ القلوب وتشغف النفوس ، فإذا فتشت لحسنها أصلا لم تجده ، ولجمال تركيبها أساً لم تعرفه ، وهذا هو الغريب ، أن يتركب الحسن من غير حسين ، كقول امرئ القيس : ألا عم صباحاً أيها الطلل البالى . وقوله :

تنورتها مـــن أذرعات وأهلها　　　بيثرب أدنى دارهـــا نظر عالى

فإن هذه الديباجة إذا تطلبت لها أصلا من غريب معنى لم تجده . وكقول أبى نواس :

طرحتم من الترحال ذكراً فغمنا　　　فلو قد شخصتم صبّح الموت بعضنا

سأشكو إلى الفضل بن يحيى بن خالد هواك لعل الفضل يجمع بيننـــا

فهذا من الكلام الغث واللفظ الرث ، الذى لو رامه حمار الكساح لأدركه ، ولكن له من التعلق بالنفس والاستيلاء على القلب ما ترى »(١) .

وتكلم ابن شهيد كذلك عن أثر البيئة والظروف السياسية والاجتماعية فى الأذواق والملكات . وبالتالى فى النتـــاج الأدبى . وبين أن فساد الأزمنة ونبو الأمكنة وانتشار الفتن ، تجعل الفهم سلعة بائرة ، والفن صفقة خاسرة ، وفى ذلك يقول « . . . لا كقوم عندنا ، حظهم من الفهم الحفظ ، ومن العلم الذكر . وهذا حظ القُصَّاص وأعلى مراتب النُّواح . فترى الممخرق منهم إذا قرىء عليه الشعر يزوى أنفه ، ويكسر طرفه ، وإذا عرضت عليه الخطبة يميل شقه ، ويلوى شدقه ؛ فإن تناولهما لم يبق ملحة(٢) إلا حشدها ، ولا أبقى عصفة(٣) فجة إلا جلبها . وأصل قلة هذا الشان ، وعدم البيان ، فساد الأزمنة ونبو الأمكنة ، وإن الفتنة نسخ للأشياء ، من العلوم والأهواء ، ترى الفهم فيها بائر السلعة ، خاسر الصفقة يلمح بأعين الشنآن ، ويستثقل بكل مكان . . . »(٤) .

وتكلم ابن شهيد أيضاً عن تطور الأساليب بتطور الأزمنة واختلافها باختلاف الأمكنة ، فنبه بذلك إلى حقيقة لا يزال يكابر فيها بعض المحدثين ، الذين كان الأديب الأندلسى منذ نحو عشرة قرون ، أكثر مرونة منهم وأدق إدراكا لطبيعة الفن . يقول ابن شهيد : « وكما أن لكل مقام مقالا ، فكذلك لكل عصر بيان ، ولكل دهر كلام ، ولكل طائفة من الأمم المتعاقبة نوع من الخطابة ، وضرب من البلاغة ، لا يوافقها غيره ، ولا تهش لسواه »(٥) .

---

(١) انظر : الذخيرة لابن بسام ق ١ م ١ ص ١٩٧ - ١٩٨ .
(٢) الملحة : الملاحة .
(٣) العصفة : واحدة العصف ، وهو نبات يتخذ دواء قابضاً .
(٤) انظر : الذخيرة لابن بسام ق١ م ١ ص ١٧٩ .
(٥) انظر الذخيرة لابن بسام ق ١ م ١ ص ٢٠٢ .

كذلك تكلم ابن شهيد فى قضية المعنى واللفظ ، أو المضمون والشكل كما يحب المعاصرون أن يقولوا ، فبين أنه لا بد من شرف المعانى ، وفنية التعابير ، وذكر أن الأديب البارع هو الذى يلبس المعانى الشريفة ثوبها الملائم ، لا الثوب الزائف ولا الخداع . وذكر فى فنية الشكل وجوب اختيار مليح اللفظ ورشيق الكلام . وبين أن بين الحروف علاقات يجب أن تراعى ، وبين الكلمات صلات يجب أن تلاحظ ، ليتحقق الانسجام والانسياب الطبيعيان ، ولتأتى الموسيقى الكلامية موقعة منسقة محببة . كذلك ذكر أنه يحسن استعمال مليح النحو ، أى الحسن من قواعده ، واختيار الفصيح من الغريب ، أى السائغ الحسن الوقع منه . وفى هذا كله يقول ابن شهيد : « ومن الواجب على الناقد أن يبحث عن الكلام ، ويفتش عن شرف المعانى ، وينظر مواقع البيان ، ويحترس من حلاوة خداع اللفظ ، ويدع تزويق التركيب ، ويراطل بن أنحاء البديع ، ويمثل أشخاص الصناعة ؛ فقد ترى الشعر فضى البشرة ، وهو رصاصى المكسر ، ذا ثوب معضد[١] أو مهلهل ، وهو مشتمل على بهق أو برص »[٢] . ويقول : « إن للحروف أنساباً وقرابات تبدو فى الكلمات ، فإذا جاور النسيب النسيب ، ومازج القريب القريب ، طابت الألفة ، وحسنت الصحبة ، وإذا ركبت صور الكلام من تلك ، حسنت المناظر ، وطابت المخابر . وكما تختار مليح اللفظ ورشيق الكلام ؛ فكذلك يجب أن تختار مليح النحو وفصيح الغريب ، وتهرب من قبيحه »[٣] .

كذلك لمح ابن شهيد بحديث موجز عن الوحدة الفنية ، فذكر أنه على من يتعرض لمعالجة موضوع أن يستوفى جوانبه أولا ، وألا يخرج عما هو بسبيله ثانياً . وفى ذلك يقول ابن شهيد : « ومما يلزم المدعى لصناعة الكلام إذا اعتمد وصف حالة ، أن يستوفى جميعها

---

(١) الثوب المعضد : هو ما له علم فى مكان العضد ، والمراد المزين .

(٢) انظر : الذخيرة ق ١ م ١ ص ٢٦٥ ، ٢٦٦ .

(٣) انظر : المصدر السابق ، ص ١٩٩ .

ويكون ما يطلبه من الإبداع والاختراع فيها غير خارج عنها وما هو بسبيلها »[١].

ومن أحسن ما أثر عن ابن شهيد من كتابات نقدية ، حديثه عن وظائف بعض الأعضاء فى القدرة الأدبية . وصلات الهيئة الإنسانية بالملكة الفنية ، ووجود علامات عضوية تدل على عدم هذه الملكة أو نقصانها . وفى ذلك يقول ابن شهيد فى بعض أدعياء الفن من معلمى قرطبة : « فهذه حال العصابة من المعلمين . يدركون بالطبيعة ، ويقصرون بالآلة ؛ وتقصيرهم بالآلة هو عن طريق العلل الداخلة ؛ من فساد الآلة القابلة للروحانية ، والخادمة لآلات الفهم ، الباعثة لرقيق الدم فى الشريانات إلى القلب ؛ وزيادة غلظ أعصاب الدماغ ، ونقصانها عن القدر الطبيعى . ومما يعين على ذلك بالحدس وطريق الفراسة ، فساد الآلة الظاهرة ، كفرطحة الرأس وتسفيطه ، ونتوء القمحدُوة[٢] ، والتواء الشدق ، وخزر[٣] العين ، وغلظ الأنف ، وانزواء الأرنبة[٤] » .

ومن أحسن ما أثر عن ابن شهيد كذلك مما يتصل بالنقد — وإن كان متعلقاً بشخصية الأديب لا بعمله الأدبى — حديثه عما يجب أن تكون عليه هيئة الأديب المتصل بحكم عمله بالآخرين ، ووجوب كونه سليما حسن الهيئة نظيفاً ، لأن عدم ذلك قد ينفر منه ويسىء إلى أدبه تبعاً لذلك . وابن شهيد وإن خص بهذا الكتاب المشتغلين مع الحكام ، فهو ينفع المشبهين لهم من المتصلين بالناس ، كالصحفيين فى عصرنا مثلا . يقول ابن شهيد فى ذلك : « . . . ولذلك استحسنوا من الكاتب أن يكون طيب الرائحة ، سليم آلات الحواس ، نقى الثوب ، ولا يكون وسخ الضرس ، منقلب الشفة ، مكحل الأظفور ، وضر الطوق[٥] »

---

(١) انظر : الذخيرة لابن بسام ق ١ م ١ ص ٢٧٣ .
(٢) القمحدوة : مؤخر عظم الرأس المشرف على القفا .
(٣) الخزر : ضيق العينين أو تحريكهما فتحاً وغمضاً ، أو حول إحداهما .
(٤) انظر : الذخيرة ق ١ م ١ ص ٢٠٥ ، ٢٠٦ .
(٥) انظر المصدر السابق ص ٢٠٨ .

طوق الحمامة :

أما كتابات ابن حزم فى فلسفة الحب فقد أودعها كتابه الرائع المسمى « طوق الحمامة »[١]. وهو كتاب يتناول هذه العاطفة الإنسانية بالبحث الذى يعتمد — إلى حد كبير — على التجربة والملاحظة والتحليل النفسى واستخلاص النتائج . وهو من أقدم الأبحاث العربية التى تناولت عاطفة الحب هذا التناول المنهجى المستقل المفصل[٢]. والجميل فيه أن مؤلفه فقيه ، وكان المفروض أن يحجم عن الخوض فى مثل هذا الحديث الذى لم يتعود الفقهاء الخوض فيه . ولكن طبيعة ابن حزم ونشأته من جانب ، وظروف عصره من جانب آخر ، قد جعلته يسطر هذا الكتاب الذى يفخر به الأدب الأندلسى . أما طبيعة ابن حزم ، فهى طبيعة صريحة جريئة . تقول ما تعتقد وتعبر عما تحس ، ولا تعرف نفاقاً أو التواء أو خوفاً من الناقدين . وقد حمل وحده عبء الدعوة للمذهب الظاهرى الذى آمن به ، ولم تثنه مخالفة آلاف الفقهاء ومعارضة جمهرة الأندلسيين .

وأما نشأته ، فقد كانت نشأة تتيح لمثله أن يغرق فى الحب إلى أذنيه ، وأن يحسه فى قلبه وفى قلوب المحيطين به كأشد ما يكون الأحساس ، ذلك أنه نشأ فى وسط الحريم كما سبق أن بينا ، وخالطهن أشد المخالطة فى سنى حياته الأولى[٣]، وقد أتاح له ذلك إدراك كثير من التجارب العاطفية ، كان هو بطلها حيناً ، وكان غيره محورها

---

(١) اسم الكتاب بالكامل : طوق الحمامة فى الألفة والألاف . وقد طبع عدة طبعات منها طبعة فى لندن سنة ١٩١٤ م ،وقد قام بها « د . بتروف» وطبعة فى القاهرة سنة ١٩٥٠ م ،وطبعة فى دمشق سنة ١٣٤٩ هـ.

كذلك ترجم الكتاب إلى الإنجليزية ، وعمل تلك الترجمة المستشرق التشيكى (نيكل) ونشرت فى باريس سنة ١٩٣١ . وترجم إلى الروسية بقلم (ساليه) ،ونشر فى لننجراد سنة ١٩٣٣ . وأخيراً ترجم إلى الإسبانية بقلم المستشرق الإسبانى (جارثيا جومث) ، ونشر فى مدريد سنة ١٩٥٢ .

(٢) قد سبقه كتاب « الزهرة » لابى داود الأصبهانى ، الذى عارضه كتاب « الحدائق » لابن فرج الأندلسى .

(٣) انظر ما كتب عن ابن حزم فى ص ٣٧٥ وما بعدها من هذا الكتاب .

حيناً آخر . ومن هنا جرب تلك العاطفة فى نفسه وكانت له معها تجارب ، وتتبعها فى غيره وكانت له منها دراسات . ثم كانت تلك الظروف القاسية التى حملته على أن يهجر بلده وأن يعيش مهاجراً غريباً فى شاطبة ، ومن شأن هذه الظروف أن تجعل مثل ابن حزم ينطوى على نفسه ، ويتذكر أيام مسراته ، ويستحضر ماضى قلبه ، ويستعرض ذكرياته ، عن نفسه وعن الآخرين . وهنا يكون الحديث فى الحب أمراً طبيعياً ، فهو حديث رجل صريح لا يعرف الخوف حين يذكر ما يعتقد ، وهو حديث خبير غنى بالتجارب والمشاهدات والأقاصيص ، ثم هو حديث أديب مهاجر غريب ، يحب أن ينفس عن نفسه بذكر ماضى قلبه وما يعرف عن قلوب الآخرين .

وكتاب ابن حزم صُنف فى هيئة رسالة ، رد بها على سائل بعث إليه من مدينة ألمرية ، يسأله أن يصنف له رسالة فى صفة الحب ومعانيه وأسبابه وأعراضه ، وما يقع فيه وله على سبيل الحقيقة[1] . وقد يكون الكتاب قد كتب فعلا بناء على طلب هذا السائل ، وقد يكون ابن حزم قد قدم بذكر هذا الطالب كتسويغ لتسطيره هذا الكتاب ، وهو ما أرجحه ؛ فابن حزم كان معروفاً بين الأندلسيين كفقيه لا كباحث فى الحب ، فغريب أن يسأله سائل أن يحدثه حديثاً مفصلا عن الحب ومعانيه وأسبابه وأعراضه ، لا عن الفقه الظاهرى والأصول والتوحيد وما إلى ذلك مما من شأنه أن يسأل عنه .

هذا وقد جعل ابن حزم كتابه فى ثلاثين باباً ، تتبع فيها الحب فى نشأته وتطوره وأعراضه ودرجاته وأنواعه ومسعداته ومنغصاته . وهو فى كل باب يتحدث عن الموضوع الذى يعرض له معرفاً ومحللا ومعللا ، ثم يتبع ذلك ببعض الحكايات الواقعية التى شاهدها أو سمع بها ، وكلها تدور حول أندلسيين . وهو يضمن كلامه قطعا من شعره قد قالها فى مثل التجربة أو الظاهرة التى يسوق عنها الحديث .

---

(١) انظر : طوق الحمامة لابن حزم ص ١ ، ٢

وقد صدّر كتابه ببيان خطته فقال : « وقسمت رسالتي هذه على ثلاثين باباً ، منها في أصول الحب عشرة ، فأولها هذا الباب (ماثية الحب) ثم باب في علامات الحب ، ثم باب في ذكر من أحَبّ في النوم ، ثم باب في ذكر من أحب بالوصف ، ثم باب في ذكر من أحب من نظرة واحدة ، ثم باب في ذكر من لا تصح محبته إلا مع المطاولة ، ثم باب التعريض بالقول ، ثم باب الإشارة بالعين ، ثم باب المراسلة ، ثم باب السفير » .

« ومنها في أعراض الحب وصفاته المحمودة والمذمومة اثنا عشر باباً . . . وهي باب الصديق المساعد ، ثم باب الوصل ، ثم باب طي السر ، ثم باب الكشف والإذاعة ، ثم باب الطاعة ، ثم باب المخالفة ، ثم باب من أحب صفة لم يحب بعدها غيرها مما يخالفها ، ثم باب القنوع ، ثم باب الوفاء ، ثم باب الغدر ، ثم باب الضنى ، ثم باب الموت » .

« ومنها في الآفات الداخلة على الحب ستة أبواب ، وهي : باب العاذل ، ثم باب الرقيب ، ثم باب الواشي . ثم باب الهجر ، ثم باب البين ، ثم باب السلو » .

« ومنها بابان ختمنا بهما الرسالة ، وهما باب الكلام في قبح المعصية ، وباب في فضل التعفف ؛ ليكون خاتمة إيرادنا وآخر كلامنا الحض على طاعة الله عز وجل ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر »[١] .

وليست قيمة طوق الحمامة فيما اشتمل عليه من أفكار عن الحب فحسب ، وإنما قيمته أيضاً في تلك الحكايات الكثيرة التي يرويها ابن حزم ، والتي تكشف الكثير من جوانب الحياة الأندلسية ، وتوقفنا على أسرار حكام ورؤساء ، وترفع الستائر عن بيوت وقصور ، وتنبه إلى ما كان لصنوف من النساء من نشاط في دنيا المحبين ، كالطبيبة ، والحجامة ، والدلالة ، والماشطة ، والمغنية ، والمعلمة ، وما إلى ذلك . وهناك قيمتان أخريان للكتاب ، الأولى : اشتماله على كثير من الأخبار التي تلقي ضوءاً على حياة ابن حزم نفسه.

(١) انظر : طوق الحمامة ص٣ ، ٤ .

والثانية ، تضمنه الكثير من شعره بالإضافة إلى نثره ، فهو عمل ابن حزم الأدبى الأول الذى يدخل به مع الناثرين والشعراء المجيدين من أوسع الأبواب .

وبعد، فهذا نموذج من طوق الحمامة ، وهو من « باب من أحب بالوصف » وفيه يقول ابن حزم :

« ومن غريب أصول العشق أن تقع المحبة بالوصف دون المعاينة وهذا أمر يترقى منه إلى جميع الحب ، فتكون المراسلة والمكاتبة والهم والوجد والسهر على غير الإبصار ؛ فإن للحكايات ونعت المحاسن ووصف الأخبار تأثيراً فى النفس ظاهراً ، وأن تسمع نغمتها من وراء جدار ، فيكون سبباً للحب واشتغال البال . وهذا كله قد وقع لغير ما واحد ، ولكنه عندى بنيان هار على غير أس ، وذلك أن الذى أفرغ ذهنه فى هوى من لم ير ، لا بد له إذ يخلو بفكره أن يمثل لنفسه صورة يتوهمها ، وعينا يقيمها نصب ضميره لا يتمثل فى هاجسه غيرها ، قد مال بوهمه نحوها ؛ فإن وقعت المعاينة يوماً ما ، فحينئذ يتأكد الأمر أو يبطل بالكلية » .

« وكلا الوجهين قد عـَرض وعُرف ، وأكثر ما يقع هذا فى ربات القصور المحجوبات من أهل البيوتات ، مع أقاربهن من الرجال ، وحب النساء فى هذا أثبت من حب الرجال ، لضعفهن وسرعة إجابة طبائعهن إلى هذا الشأن وتمكنه منهن . . » [(١)]

وهذا نموذج آخر من الكتاب ، وهو من باب (طى السر) يقول فيه ابن حزم: « من بعض صفات الحب الكتمان باللسان ، وجحود المحب إن سئل ، والتصنع بإظهار الصبر ، وأن يرى أنه هزهاة[(٢)] خلى . ويأبى السر الدقيق ونار الكلف المتأججة فى الضلوع إلا ظهوراً فى الحركات والعين ، ودبيباً كدبيب النار فى الفحم ، والماء فى يبس المدر [(٣)]. وقد

---

(١) انظر : طوق الحمامة ص ٣٣ ، ٣٤ .

(٢) يقال : هو هزهاة عن النساء ، إذا لم يردهن ورغب عنهن .

(٣) المدر : قطع الطين اليابس .

يمكن التموه فى أول الأمر على غير ذى الحس اللطيف ، وأما بعد استحكامه فحال. وربما يكون السبب فى الكتمان تصاون المحب عن أن يسم نفسه بهذه السمة عند الناس ، لأنه يزعمه من صفات أهل البطالة ، فيفر منه ويتفادى عنه . وما هذا وجه التصحيح ؛ فبحسب المرء المسلم أن يعف عن محارم الله عز وجل ، التى يأتيها باختياره ، ويحاسب عليها يوم القيامة ، وأما استحسان الحسن ، وتمكن الحب ، فطبع لا يؤمر به ولا ينهى عنه ، إذ القلوب بيد مقلبها ، ولا يلزمها غير المعرفة والنظر فى فرق ما بين الخطأ والصواب ، وأن يعتقد الصحيح باليقين ؛ وأما المحبة فخلقه ، وإنما يملك الإنسان حركات جوارحه المكتسبة . وفى ذلك أقول .

يلوم رجال فيك لم يعرفوا الهوى ... وسيان عندى منك لاح وساكتُ
يقولون : جانبت التصون جملة ... وأنت عليم بالشريعـــة قانت
فقلت لهم : هذا الرياءُ بعينه ... صُراحًا وزِىٌّ للمرائين ماقت
متى جاء تحريم الهوى عن محمد ... وهل مَنْعُهُ فى محكم الذكر ثابت ؟
إذا لم أواقع مُحَرَّمًا أتقى به ... مجيئىَ يوم البعث والوجه باهت
فلست أبالى فى الهوى قول لائم ... سواء لعمرى جاهر أو مخافت
وهل يلزم الإنسان إلا اختياره ... وهل بخبايا اللفظ يؤخذ صامت ؟ ؟

« وإنى لأعرف بعض من امتحن بشىء من هذا ، فكنّ الوجد بين جوانحه ، مرام جحده ، إلى أن غلظ الأمر ، وعَرَف ذلك فى شمائله مَن تعرض للمعرفة ومن لم يتعرض ، وكان من عرض له بشىء نجهه[1] وقبحه ، إلى أن كان من أراد الحظوة لديه من إخوانه يوهمه تصديقه فى إنكاره ، وتكذيب من ظن به غير ذلك ، فسر بهذا . ولعهدى به يوماً قاعداً ومعه بعض من كان يعرض له بما فى ضميره وهو ينتفى غاية الانتفاء ، إذ اجتاز

---

(١) نجهه : رده أقبح رد .

بهما الشخص الذى كان يتهم بعلاقته . فما هو إلا أن وقعت عينه على محبوبه ، حتى اضطرب وفارق هيئته الأولى واصفر لونه ، وتفاوتت معانى كلامه بعد حسن تثقيف ، فقطع كلامه المتكلم معه ، فقد استدعىَ ما كان فيه من ذكره ، فقيل له : ما عدا عما بدا . فقال : هو ما تظنون ، عَذَر مَن عذر ، وعَذَل مَن عذل . . . » [1]

ويلاحظ على ابن حزم كناثر — من خلال الطوق — أنه كان لا يكلف بالصنعة كلف غيره من معاصريه ، فهو يؤثر البساطة على التكلف ، والدقة على الحلية . كذلك يلاحظ أن الثقافة العقلية والدينية كانت تنعكس أحياناً على أسلوبه ، فيورد بعض مصطلحات الفلسفة والمنطق ، ويهتم بالعلل والمقدمات والنتائج ، كما يورد بعض المصطلحات الفقهية أو الدينية على وجه العموم .

ويلاحظ على ابن حزم أخيراً ، أنه من الذين لم يقعوا تحت تأثير طريقة بديع الزمان .

أما شعر ابن حزم — من خلال الطوق أيضاً — فيلاحظ عليه أن أغلبه قطع وأبيات ، وهى من الناحية الفنية تتراوح بين الجودة والتوسط . ولغة ابن حزم الشعرية تنعكس عليها أحياناً ثقافته العقلية والدينية ، تماماً كما يحدث فى لغته النثرية .

---

(١) انظر : طوق الحمامة صفحة ١٨ — ١٩ .

مراجع الكتاب

أولا : المراجع العربية

(أ) المخطوطات

١ – الإحاطة فى أخبار غرناطة : للسان الدين بن الخطيب (مخطوطة بالإسكوريال رقم ١٥٧٣) .

٢ – إعتاب الكتّاب : لابن الأبار (مخطوطة بالإسكوريال رقم ١٧٣١) .

٣ – ديوان ابن سهل : لإبراهيم بن سهل الإشبيلى (مخطوطة بالإسكوريال رقم ٣٧٩) .

٤ – المقتبس : لأبى مروان بن حيان (الجزء الخاص بعبد الرحمن الأوسط . وهو عند الأستاذ ليفى بروفنسال) .

(ب) المطبوعات :

١ – ابن حزم « صورة أندلسية » : للدكتور طه الحاجرى (مطبعة الاعتماد بالقاهرة) .

٢ – ابن عبد ربه وعقده : لجبرائيل جبور (بيروت سنة ١٩٣٣) .

٣ – أبو تمام الطائى : للدكتور نجيب البهبيتى (القاهرة ١٩٤٥) .

٤ – الإحاطة : لابن الخطيب (القاهرة سنة ١٣١٩ هـ) .

٥ – أخبار مجموعة . لمؤلف مجهول ، تحقيق لافونتى ألكانترا (مدريد سنة ١٨٦٧) .

٦ – أدب الأندلس وتاريخها : لليفى بروفنسال ترجمة الدكتور محمد عبد الهادى شعيرة (المطبعة الأميرية بالقاهرة سنة ١٩٥١) .

٧ ــ الإسلام فى المغرب والأندلس : لليڤى بروفنسال ترجمة الدكتور محمد عبد العزيز سالم ومحمد صلاح الدين حلمى (نهضة مصر سنة ١٩٥٧) .
٨ ــ أعمال الأعلام : لابن الخطيب ، تحقيق ليڤى بروفنسال (بيروت ١٩٥٦) .
٩ ــ بغية الملتمس : لأحمد بن يحيى الضبى نشر المستشرق الإسبانى كوديرا (مدريد سنة ١٨٨٤) .
١٠ ــ بغية الوعاة : للسيوطى (القاهرة سنة ١٣٢٦ هـ) .
١١ ــ بلاغة العرب فى الأندلس : للدكتور أحمد ضيف (مطبعة مصر سنة ١٨٢٤) .
١٢ ــ البيان المغرب : لابن عذارى المراكشى ، جزء أول وثان (مطبعة المناهل بيروت سنة ١٩٥٠) .

وجزء ثالث نشر ليڤى بروفنسال (باريس سنة ١٩٣٠) .

١٣ ــ تاريخ افتتاح الأندلس : لابن القوطية ، تحقيق جايانجوس ، نشر ريبرا (مدريد سنة ١٩٢٦) .
١٤ ــ تاريخ آداب العرب : لمصطفى صادق الرافعى (القاهرة سنة ١٩٤٠) .
١٥ ــ تاريخ الشعر العربى : للدكتور نجيب البهبيتى (القاهرة ١٩٥٠) .
١٦ ــ تاريخ العلماء والرواة للعلم بالأندلس : للحافظ أبى الوليد بن الفرضى ، نشر السيد عزت العطار (القاهرة سنة ١٣٧٣ هـ) .
١٧ ــ تاريخ الفكر الأندلسى : لأنخل جونثالث بالنثيا ، ترجمة الدكتور حسين مؤنس (النهضة المصرية سنة ١٩٥٥) .
١٨ ــ تبيين المعانى فى شرح ديوان ابن هانى : لزاهد على (القاهرة سنة ١٩٣٤) .
١٩ ــ التكملة : لابن الأبار ، الجزء الذى نشره كوديرا ضمن المكتبة الأندلسية (مدريد سنة ١٨٨٧ ــ سنة ١٨٩٠) .

٢٠ – جذوة المقتبس فى ذكر ولاة الأندلس : لأبى عبد الله بن محمد بن فتوح بن عبد الله الحميدى ، تحقيق محمد بن تاويت الطنجى (السعادة . مصر سنة ١٩٥٣) .

٢١ – جمهرة أنساب العرب : لابن حزم، تحقيق لِيْفى بروفنسال (دار المعارف . القاهرة سنة ١٩٤٩) .

٢٢ – الحلل السندسية فى الأخبار والآثار الأندلسية : لشكيب أرسلان (المطبعة الرحمانية. القاهرة سنة ١٣٥٥ هـ) .

٢٣ – الحلة السيراء : لابن الأبار ، نشر دوزى (طبعة ليدن سنة ١٨٥١) .

٢٤ – دار الطراز : لابن سناء الملك ، تحقيق الدكتور جودت الركابى (دمشق . سنة ١٩٤٩) .

٢٥ – دولة الإسلام فى الأندلس : لمحمد عبد الله عنان. العصر الأول (لجنة التأليف : القاهرة سنة ١٣٦٢ هـ)

٢٦ – ديوان ابن دراج القسطلى ، تحقيق الدكتور محمود مكى (دمشق ١٩٦١) .

٢٧ – ديوان ابن الرومى ، تحقيق كامل كيلانى (القاهرة ١٩٤٢) .

٢٨ – ديوان ابن المعتز (القاهرة ١٨٩١) .

٢٩ – ديوان ابن هانئ (بيروت سنة ١٨٨٦) .

٣٠ – الذخيرة فى محاسن أهل الجزيرة : لأبى الحسن على بن بسام ، تحقيق لجنة من كلية آداب جامعة القاهرة . القسم الأول ، المجلد الأول سنة ١٩٣٩ ، المجلد الثانى ١٩٤٢ القسم الرابع ، المجلد الأول سنة ١٩٤٥ (لجنة التأليف القاهرة) .

٣١ – رسالة التوابع والزوابع . لأبى عامر بن شهيد ، تحقيق وتقديم بطرس البستانى (بيروت سنة ١٩٥١) .

٣٢ – رسالة الغفران : لأبى العلاء ، تحقيق الدكتورة بنت الشاطىء (القاهرة سنة ١٩٥٠)

٣٣ ــ الروض المعطار في خبر الأقطار : لعبد المنعم الحميرى . تحقيق ليڤى بروفنسال (القاهرة سنة ١٩٣٧) .

٣٤ ــ الروضيات : للصنوبرى ، جمع محمد الطباخ (حلب سنة ١٣٤١ هـ) .

٣٥ ــ الزجل فىالأندلس : للدكتور عبد العزيز الأهوانى (الرسالة . القاهرة سنة ١٩٥٧).

٣٦ ــ الشرق الإسلامى والحضارة العربية الأندلسية : ليڤى بروفنسال ، ترجمة الفريد البستانى (تطوان سنة ١٩٥١) .

٣٧ ــ الشعر الأندلسى : لجارثيا جومث ، ترجمة حسين مؤنس (لجنة التأليف. القاهرة القاهرة سنة ١٩٥٢) .

٣٨ ــ الصقالبة فى إسبانيا : للدكتور أحمد مختار العبادى (مدريد ١٩٥٣) .

٣٩ ــ الصلة : لابن بشكوال ، تحقيق السيد عزت العطار (السعادة . سنة ١٩١٥) .

٤٠ ــ طبقات الأطباء : لابن جلجل ، تحقيق فؤاد السيد (القاهرة ١٩٥٩) .

٤١ ــ طبقات الأمم : لصاعد التطيلى ، نشر لويس شيخو (بيروت ١٩١٢) .

٤٢ ــ طبقات النحويين : للزبيدى ، تحقيق أبى الفضل إبراهيم (القاهرة ١٩٥٤) .

٤٣ ــ طوق الحمامة فى الألفة والألاف : لأبى محمد على بن حزم ، مكتبة عرفة (دمشق ، سنة ١٣٤٩ هـ) .

٤٤ ــ ظهر الإسلام : للدكتور أحمد أمين . الجزء الثالث (لجنة التأليف القاهرة سنة ١٩٥٣) .

٤٥ ــ العرب فى إسبانيا : لاستانلى لين بول ، ترجمة على الجارم (دار المعارف . القاهرة سنة ١٩٤٧) .

٤٦ ــ العقد الفريد : لابن عبد ربه (الشرفية . القاهرة سنة ١٣٠٤ هـ) .

٤٧ ــ الغفران : للا ` ورة بنت الشاطىء (القاهرة سنة ١٩٥٤) .

٤٨ ــ الفن ومذ . فى الشعر العربى : للدكتور شوقى ضيف (القاهرة ١٩٤٣) .

٤٩ ــ قضاة نبة : لأبى عبد الله الخشنى ، نشر السيد عزت العطار (القاهرة سنة ٣٧٢ هـ) .

٥٠ ــ عيون الأنباء فى طبقات الأطباء : لابن أبى أصيبعة (القاهرة سنة ١٨٨٢) .

٥١ ــ ألفاظ مغربية من كتاب ابن هشام اللخمى فى لحن العامة . للدكتور عبد العزيز الأهوانى (القاهرة ١٩٥٧) .

٥١ ــ اللهجات العربية : للدكتور إبراهيم أنيس (القاهرة . الطبعة الأولى سنة ١٩٤٦) .

٥٢ ــ المطرب من أشعار أهل المغرب : لابن دحية ، تحقيق إبراهيم الإبيارى ، والدكتور حامد عبد المجيد ، والدكتور أحمد بدوى (الأميرية سنة ١٩٥٤) .

٥٤ ــ مطمح الأنفس . للفتح بن خاقان (القاهرة سنة ١٣٢٥ هـ) .

٥٥ ــ المعجب فى تلخيص أخبار المغرب : لعبد الواحد المراكشى (السعادة القاهرة سنة سنة ١٣٢٤ هـ) .

٥٦ ــ معجم الأدباء : لياقوت (القاهرة سنة ١٩٣٨) .

٥٦ ــ المغرب فى حلى المغرب : لعلى بن سعيد المغربى ، تحقيق الدكتور شوقى ضيف . الجزء الأول والثانى (دار المعارف . القاهرة سنة ١٩٥٣ ــ ١٩٥٥) .

٥٨ ــ المفضليات : للضبى (القاهرة سنة ١٩٦١هـ) .

٥٩ ــ المقتبس لابن حيان ، تحقيق ملتشور أنطونيا (باريس سنة ١٩٣٧) .

٦٠ ــ المقدمة : لابن خلدون (دار مصطفى محمد ــ القاهرة) .

٦١ ــ من حديث الشعر والنثر : للدكتور طه حسين (القاهرة ١٩٣٦) .

٦٢ – النثر الفني في القرن الرابع : للدكتور زكي مبارك (مطبعة دار الكتب المصرية سنة ١٣٥٢ هـ) .

٦٣ – النجوم الزاهرة . لابن تغري بردي (القاهرة ١٩٢٩ – ١٩٣٣) .

٦٤ – نزهة المشتاق : للإدريسي (طبعة رومة سنة ١٨٨٣) .

٦٥ – نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب : لأحمد المقري المغربي (المطبعة الأزهرية . سنة ١٣٠٢ هـ) .

٦٦ – وفيات الأعيان : لابن خلكان (القاهرة . سنة ١٣١٠ هـ) .

٦٧ – يتيمة الدهر : للثعالبي . تحقيق محيي الدين عبد الحميد (القاهرة ١٣٧٥ – ١٣٨٧هـ)

ثانياً : المراجع الأوربية

1. Américo Castro : Espana en su Historia. (Buenos Aires 1947).
2. Angel Gonzalez Palencia : Historia de la Espana Musulmana. (Barcelona 1945).
3. Angel Gonzalez Palencia : Historia de la Literatura Arabigo-Espanola. (Barcelona1945).
4. Claudio Sanchez Al Bornoz : La Espana Musulmana. (Buenos Aires 1946).
5. D. Antonio Ballesteros Beretta : Historia de Espana. (Barcelona 1945).
6. Emilio Garcia Gomez: Poemas Arabigo Andaluces. (Madrid 1943).
7. Emilio Garcia Gomez : Poesia Arabigo Andaluza. (Madrid 1943).
8. E. Levi-Provençal : Espana Musulmana Hasta la Caida del Califato de Cordōba. (Traduccion Espanola por : Emilio Garcia Gomez). (Madrid 1950).
9. Felixs M. Pareja: Islamologia. (Madrid 1952-1954).
10. Francisco Pons Biogues : Historiadores y Geografos. Arabigo-Espanoles. (Madrid 1898)
11. Jose M. Millas Vallicrosa : La Poesia Sagıada Hebraico-Espanola. (Espana 1948).
12. Jose Munoz Sendino : La Escala de Mahoma. (Madrid 1949),
13. Julian Ribera y Tarrago : Disertaciones y Opusculos. (Madrid 1928).

14. M. Casiri : Biblioteca Arabico-Hespana Escurialensis. (Madrid 1770).

15. Miguel Asin Palacios: La Escatalogia Muslumana en la Divina Comedia. (Madrid 1919).

16. Miguel Asin Palacios : Abenhazam de Cordoba y Su Historia de Las ideas Religiosas. (Madrid 1935).

17. Miguel Asin Palacios: Obras Escogidas. (Madrid 1940).

18. Pedro Aguado Bleye: Historia de Espana. (Madrid 1947).

19. Ramon Menendez Pidal; Poesia Arabe y Poesia Europea. (Buenos Aires 1946).

20. Reinhart P. Dozy. Historia de Los Musulmanes de Espana. (Traduccion Espanola. Buenos Aires).

21. Reinhart P. Dozy. Supplément aux dictionnaires arabes. (Leyde Paris 1927).